الكثيب فلسفيًا

طريقة المينتات المستغربة

DUNE

حرره
جيفري نيكولاس

المترجمة
ربى خدام الجامع

دعوة

في عام 20217 حسب التقويم الإغريقي ألقى غاوز آندود خطبته الشهيرة المنمَّقة أمام ليتو الثاني؛ احتفالًا بالذكرى الألفية العاشرة على تحوُّل ليتو الثاني إلى كائنٍ هجين مؤلَّف من دودة رمل وإنسان، أي تحوله إلى الإمبراطور الرباني. وفي الوقت الذي حظي فيه خطاب آندود *بشهرةٍ* واسعة، لا سيما فيما روَّج له ضمن تواريخ البيني جيسيرت المعروفة باسم زنادقة الكثيب ، لم يكن ذلك الخطاب هو الخطاب الوحيد الذي ألقاه هذا الرجل في ذلك الاحتفال المهيب. في الحقيقة كان خطابه مجرد خطابٍ واحد بين الكثير من الخطابات التي أُلقِيت وقتها، بالرغم من أنه الأهم م نذ رحيل الإمبراطور الرباني.

يجمع هذا الكتاب بين دفَّتَيه، وللمرة الأولى، الكثير من الخطابات المماثلة التي أُلقِيت لتمجيد الإمبراطور الرباني بوصفها خطاباتٍ مهمة أُلقِيت في الذكرى السنوية التي ألقى فيها غاوز آندود خطابه فيها. وقد عُثِر على الكثير من تلك الخطابات بعد عملية غربلةٍ طويلة لمحفوظات البيني جيسيرت ؛ ولذلك يقدم محررو هذا الكتاب جزيل الشكر لتلك الأخوية لكونها فتحت لهم محفوظاتها. كما نأمل أن تكون هذه المساعي بداية تعاونٍ مشترك مع هذه الأخوية. ثم إنني على وجه الخصوص مهتم كثيرًا بدراسة وتفحص محفوظاتهم التي توثق الفترة المعروفة باسم التشتت.

أما بقية المقالات فقد عثرنا عليها في دار إس بالات الثانية، وقد جرى ذلك باختيارنا، حيث انهمك علماء الآثار لدينا بتصنيف الأوراق وغيرها من الأشياء التي وجدناها هناك. وكما تعرفون، بقي موقع دار إس بالات سرًّا لا يعرف مصدره الحقيقي إلا طائفة البحَّارة فقط، حيث تتم حماية تلك الدار بواسطة التقنية التي تحجب أي كوكب أو أية سفينة، كما يغطيها هؤلاء الذين يحملون مورث سيونا . وهكذا أصبحت المواد تصلنا ببطء. إلا أني أود أن أشكر الطائفة لأنها نبَّهتنا إلى المادة بحيث صار بوسعنا تضمين صفوة الصفوة في هذا الكتاب.

عند قيامنا باختيار الخطابات لندرجها في هذا الكتاب، كان أمامنا كمٌّ وافر من المواد يصعُب على أي عملية تصنيف وفرز بسيطة أن تتعامل معه. ولهذا قررت أنا وزملائي أن نقدِّم عيِّنة من بعض القضايا المطروحة كمواضيع ظهرت عند دراسة ليتو الثاني ورواية «أزمان الكثيب» بما أنها أصبحت مشهورة. وهكذا اخترنا مقالات اعتقدنا أنها تعبِّر – إن الأكاديميين لا يحبون أن يعترفوا بذلك – عن حب للموضوع. لذا فإن كل المقالات التي جمعناها هنا، سواء تلك التي تنظر بعين الإعجاب إلى أزمان الكثيب أم لا، قد كتبها هؤلاء الذين سحرتهم تلك الأزمان، فتحولت إلى مصدر إلهامٍ حقيقي بالنسبة لهم، ولهذا لم يدرسوا حياة ليتو الثاني وحسب، بل أيضًا حياة والده بول موديب ، والمينتات - الغول دانكان إيداهو ، والحياة على

كوكب أراكيس - الكثيب نفسه.

إلا أن الشيء الذي أثار اهتمامنا بحق هو كَمُّ الخطابات التي تعود لعصورٍ بشريةٍ سحيقة، وتلك الفلسفات الأسطورية التي نادرًا ما نجد لها مثيلًا في عصرنا هذا ...

حسنًا، ينبغي ألَّا أتحدث عن فصول هذا الكتاب؛ لأنني لا أستطيع حقيقة، بما أن هذه الفصول تتحدث عن نفسها، ولهذا أتخيل هذا الكتاب وهو يهتز بين يديك كما يفعل بين يديَّ الآن.

لذا افتح الكتاب واستمتع به!

بيئة موديب
مواجهة امتحان غوم جبار

كتابات التليلاكس المشكوك بأمرها

التاريخ: حوالي 10250 حسب التقويم الإغريقي

نحن البيني جيسيرت نغربل الناس لنجد البشر بينهم.

الأم الموقرة غايوس هيلين موهيام.

أقف في الطابق الأوسط لمجمعٍ تجاري، خلال فترة عيد الميلاد، منتظرًا الحصول على شطيرة برغر لأواصل التسوق. يبدو على الفتاة الجديدة التي تقف خلف طاولة البيع أنها لا تعرف كيف تتعامل مع جهاز الراديو لديها لتنقل الطلبات إلى الطباخين، فهو ليس بجهاز هاتف خلوي. أخرجتُ جهاز الآيبود الخاص بي، وقلت في سري: لِمَ لا تسرع في عملها؟

سمعت صوتًا ساخرًا من خلفي يقول: «ومن تظن نفسك؟» رفعت رأسي ونظرت حولي لأرى وجهًا عتيقًا، وعينين خرزيَّتين تُحدقان بي. لا بد وأنها تتحدث إلى شخصٍ آخر سواي. رفعتُ حاجبي ونظرت يمنة ويسرة، لأكتشف أنه لم يكن هناك أحد سوى معدتي التي تقرقر، وأنا.

بعد ذلك قالت شيئًا مهمًّا أكثر وهو: «أنت لست بشرًا حتى».

«عفوًا؟»

أشار إصبع طويل كثير العروق كبير البراجم نحوي، وكاد أن يلمس صدري، ثم كررت القول: «أنت لست بشرًا حتى».

مجنونة، لا بد وأن شيئًا ما أثَّر عليها، لعلها شربت لتنسى همومها، بالرغم من أني لم أشمَّ أي رائحة سوى رائحة لاتيه قوية معطرة بالتوابل في أنفاسها. إنها مجرد شخص من الشارع، هذا واضح عليها؛ كونها ترتدي ثوبًا أسود فضفاضًا. بعد ذلك نظرت إلى ثوبها عن قرب، وقلت في نفسي: ما الذي تفعله هذه المرأة بثوبها هذا في المركز التجاري؟ ليس لديَّ وقت لذلك.

قبل أن أفكر أو أفعل أي شيء، رفعت المرأة يدها الأخرى التي كانت تحمل بها عُلبةً خضراء صغيرة لها فتحةٌ سوداء، عندها أصبح قلبي ينبض بسرعةٍ بالغة؛ إذ أصبحت أعرف إلى أين تسير الأمور، أليس كذلك؟ فقد كنت هنا من قبلُ، ليس بصورة شخصية، بَيْدَ أني صرت أعرف من تكون تلك المرأة العجوز المتغضِّنة الآن، إنها غايوس موهيام، الأم الموقَّرة

غايوس هيلين موهيام، وهي تريد أن تتأكد من بشريتي.

قلت لها: «بالتأكيد، إنني متيقن من أني بشر ... انظري إليَّ! لديَّ أساسيات جسد الإنسان، ولعلِّي أطول أو أثقل قليلًا، بشعر أحمر وعينين خضراوين. أبدو نسخة عنه، ثم إني ... مهلًا! لديك تلك العلبة من جديد. تلك العلبة الخضراء المتوهجة بقتامتها التي أعمت عينيَّ. أريد أن أهرب، أليس كذلك؟ فأنا أعرف أن في العلبة ألمًا، ولست أدري إن كان بوسعي تحمُّل ذلك الألم. آه، أعرف أن هذا الألم سوف ينتهي، إن انتظرت كفاية، ولكنه يبقى ألمًا، وأنا جائع أصلًا، بالإضافة إلى التسوق الذي يجب أن أقوم به، ثم عليَّ بعد ذلك أن أذهب إلى الحانة، لأغني بعض الأغاني بطريقة كاريوكي، ولأحتسي بعض المشروبات، وآكل شطيرةً كبيرة من تشيز برغر مع البطاطا المقلية.

إلا أني ما زلت أعرف أني بشر؛ ولهذا لا أرغب أن أضع يدي داخل تلك العلبة، ولا أن أخوض ذلك الامتحان. ما الذي يثبته ذلك؟

بول أتريديس، ابن دوق وأحد أعضاء البيني جيسيرت، تدرب على يد أفضل المقاتلين في الكون، وكذلك على يد المنتات المحارب ثوفير هاوات، الذي وقف أمام الأم الموقَّرة موهيام أيضًا. كيف تجرؤ أن تصف بول بالحيوان؟ يا لوقاحة هذه المرأة! لقد أرسلت أمه، السيدة جيسيكا خليلة الدوق ليتو، وسيدة الدار، إلى القاعة لتنتظر أمرًا منها.

قطعت تلك المرأة تخيلاتي وأحلام يقظتي بقولها: «لنقل إني أرى أنك من بني البشر».

آه، أجل، حيوان مقابل إنسان. إن البيني جيسيرت تغربل الناس لتجد البشر بينهم، أما الباقي فهم مجرد حيوانات. وهأنذا أقف هنا، وقد طلبت وجبة، وأخرجت بطاقتي الائتمانية، وسمعت أني لست بشرًا؛ ما يعني أني حيوان؛ ومن ثَمَّ هذا يعني ...

لماذا تبحث البيني جيسيرت عن البشر؟ وكيف يختبرون ذلك؟

أدخل بول يده في العلبة الخضراء.

بدأ الألم، إنه إحساس بالوخز، مزعج حقًّا؛ إذ يخلق لديك إحساسًا أن شيئًا ما يحرقك. يحاول بول أن يخرج يده، إلا أن أمرًا صارمًا من الأم الموقَّرة يمنعه من ذلك. وعند رقبته يرى إبرة يُضغَط عليها بواسطة الإبهام. تؤكد له الأم الموقرة وللقارئ أن تلك الإبرة مسمومة وأنها ستقتله بمجرد أن تخزه. عندها فقط يبدأ الامتحان الحقيقي، فالغوم جبار لا يقتل سوى الحيوانات، أما بول فقد تعرَّض للإهانة تمامًا كما يحدث لمعظمنا، فهل نحن حيوانات؟ إن امتحان الغوم جبار لا يهدف إلى إظهار أننا حيوانات، بل إنه يثبت أننا بشر.

تقول الأم الموقرة: «سمعتَ عن حيوانات تؤذي نفسها وتقضم ساقها لتهرب من مصيدة؟ ثمة نوعٌ حيواني من الحيل؛ لأن الإنسان قد يبقى في المصيدة، ويتحمل الألم ويتظاهر بالموت حتى يستطيع قتل من نصب المصيدة ويتخلص من الخطر الذي يهدد نوعه».

تحركت معدتي، فشعرت بالغثيان، أخذت أفكر بالحيوان الذي كنت على وشك تناوله؛ أي الدجاج، ومن ثم البقر. لم أكن بحاجة للتفكير في قضم ساق أو في حيوان يلاحقني بعدما أوقعتُه في الفخ. وهل ما زلنا نصطاد الحيوانات وننصب لها الفِخاخ؟ ولماذا ما تزال هذه المرأة تقف أمام وجهي؟ عليَّ أن أتسوَّق، حاولت أن أتفوَّه بشيء، إلا أن عينيَّ وقعتا على العلبة مجددًا.

أن تكون بشرًا يعني أن تتحمل الألم، هذا حقيقي فعلًا، وأن تكون بشرًا يعني أن تصيد من نَصَب المصيدة بمصيدته، وأن تُمسك به، حتى لو كلَّفك الأمر أن تتظاهر بالموت، وعندها ستقتل من نَصَب المصيدة وستتخلص من الخطر الذي يهدِّد البشرية، أي ستتخلص من نوع هذا الصياد، من صِنفِه، فهل أنا على استعداد لوضع يدي داخل العلبة؟

من يستطع تدمير شيء فهو يسيطر عليه

تروي رواية الكثيب قصة بول الذي ضحَّى بنفسه لينقذ البشرية، ويظهر استمرار قصة الكثيب عبر رواية مسيح الكثيب وأبناء الكثيب كيف يضحي هو وأبناؤه من بعده بحياتهم لإنقاذ البشرية من الانقراض؛ أي إن البشر في حالة تأهُّب؛ إذ هنالك غريزة النوع التي تدفعهم نحو الموت، والفناء.

وهنا يتعيَّن على بول أن يستخدم المصيدة على كوكب أراكيس ليعلن انتصاره على الهاركونين، وهكذا يُبلي بلاءً حسنًا لدرجة أنه يستطيع تحقيق انتصار أكبر، وذلك عند هزيمته للملك الإمبراطور تشوام، وكذلك طائفة التباعد، والبيني جيسيرت.

عندها بوسعنا أن نعيد إلى الأذهان الفكرة التي دفعت بول للتخطيط من أجل الانتقام؛ إذ بمجرد أن اكتشف كيف يمكنه أن يدمِّر التوابل، أدرك أن كل الأوراق أصبحت بيده؛ وذلك لأن أرباح تشامو وسلطة الإمبراطور وقدرة البيني جيسيرت وطائفة التباعد على كشف الغيب كلها تعتمد على هذا النوع من التوابل، بالرغم من أن بول نفسه يعتمد عليه هو أيضًا؛ إذ يحتاجه ليستطيع رؤية المستقبل بطريقته، لكنه يحتاجه من أجل الحياة أيضًا؛ ولذلك تحوَّل ذلك النوع من التوابل إلى إدمان، أي إن الموت سيعقبه في حال انقطع عن الناس. وكل تلك الجوانب الخاصة بهذا النوع من التوابل تَصُبُّ في السبب الذي يجعل هذا النوع خير رمز للماء، وفي ذلك روايةٌ أخرى. إذ ما لدينا هنا في هذه الحالة هو الطريقة التي بوسع بول، بوصفه بشرًا، أن ينتزع من خلالها الموت من ذلك النوع من التوابل ليستخدمه في تحقيق

الانتصار النهائي؛ وبذلك يصبح الموت سببًا للحياة.

مباشرة بعد امتحان الغوم جبار، يشعر بول بوجود هدفٍ مهمٍّ في كلام الأم الموقَّرة، وقد سبق له أن شعر بوجود ذلك الهدف من قبلُ. وذلك لأن الأغراض الرهيبة تقف ضد كل الصعاب ولها ضروراتها الخاصة. وبمجرد أن يختبر بول السم الموجود في الماء ثم يصحو ليجد نفسه كويستاز هاديراتش، عندها يشعر بدافع الغرض الرهيب، ولكن ليس بالطريقة التي يمكن للمرء أن يفكِّر بها بشكلٍ طبيعي؛ وذلك لأن بول يحاول أن ينقذ البشرية من الغرض الرهيب، فهو يريد أن يحمي الشعب من الجهاد الذي استحدثه كيانه هو.

وهكذا يحاول مع كل خيار أن يُهَدِّئ من تأثير ذلك الجهاد، وأن يخفف من آثار الغرض الرهيب داخله؛ وبذلك يمضي إلى المصيدة ليسيطر عليها حتى لا تطبق عليه، وينطبق الأمر ذاته على البشرية.

ثَمَّةَ أدلةٌ أخرى حول ذلك نجدها في رواية مسيح الكثيب، حيث يدرك بول أنه يسير نحو مصيدة نصبتها له البيني جيسيرت والتليلاكس، لكنه يقطع مسافات حتى يعمي نفسه بنفسه وذلك بواسطة انفجارٍ نووي، كما أنه يعرف أيضًا أن الغول هايت ما هو إلا مصيدة، وبوسعه أن يبعد المصيدة، لكنه يبقيها قريبة منه؛ لأنه يرى أنه فقط عندما يبقيها قريبة فبوسعه أن يتحرَّر منها وأن يحرِّر البشرية من خراب أكبر يصيبها بسبب الجهاد، أو بالعكس، على يد الأخوية والتليلاكس. وبدلًا من أن يترك المصيدة لتحقق غايات الآخرين، يديرها، فيتعرض لبعض الأضرار الجسيمة، لكنه يحرر نفسه ونوعه البشري منها.

وبما أن بول، ومن بعده ليتو الثاني، يستطيعان أن يريا المستقبل من خلال علمهما بالغيب؛ فإنهما على علم بما ينتظر البشرية، أي بالتدهور البطيء الذي سيوصِّلها إلى العدم. يحاول بول أن يمنع ذلك عبر طرح فكرة الجهاد، التي ستؤخِّر تلك النهاية لفترة طويلة من الزمن، ولكن ليس للأبد. ولهذا يقوم ليتو الثاني، عندما يصبح إمبراطورًا ربانيًّا وعندما يضحي ببشريته، بالتخلص من احتمال الانحدار الحتمي.

وكلاهما يخوض اختبار الغوم جبار، وينجحان فيه بجدارة؛ لدرجة أنهما يضحيان بكل شيء يخصهما لينقذا البشرية، وهذه الخصلة أساسية بالنسبة لسلالة أتريديس النبيلة، أي التضحية بالنفس من أجل الآخرين. كما أنها السبب وراء زعمهما أن أتباعهما يدينون بالولاء لهما، وهي السبب أيضًا الذي يجعلهما من بني البشر.

هل أنا بشر؟ هل أنا من سلالة أتريديس؟

لا يجوز لك أن تصنع آلة على صورة عقل الإنسان

لا بد من فهم امتحان الغوم جبار الذي تتبنَّاه البيني جيسيرت من أجل اختبار الإنسانية في ظل الجهاد البتلياري؛ إذ عند النظر إلى هذا النوع من الجهاد، نرى كيف تتماشى فكرة الحرية بالتوازي مع فكرة الإنسانية في فكر هيربرت.

وبالعودة إلى امتحان الغوم جبار الأساسي الذي يخوضه بول، نجد بول يسأل الأم الموقرة، لماذا تقوم البيني جيسيرت باختبار البشر؟ فيكون ردها: «لنحرركم».

تشتمل عصور ما قبل التاريخ للكون الذي ظهر فيه بول على الجهاد البتلياري، فقد استعبدت البشرية نفسها عبر الخضوع لآلات التفكير، فاحتاج الأمر لحربٍ دينية لتحرير البشرية من تلك العبودية. ولكن لماذا اُلتفتت البشرية للآلات قبل كل ذلك؟ تخبرنا الأم الموقرة أن البشرية سعت لتحرير نفسها عبر السماح لآلات التفكير بالاستئثار بالسلطة، وبعد ذلك ما حدث يمكن لأي طالب صاحب عقل بشري أن يتوقعه: إذ استغل الوضعَ بشرٌ آخرون لديهم آلاتٌ أخرى، فاستعبدوا البشرية جمعاء.

وهكذا تأسَّست فكرة الجهاد البتلياري وفقًا لمبدأٍ ورد في الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي جاء فيه: «لا تصنع آلة تشبه عقل الإنسان». بَيْد أن الأم الموقَّرة ترى أنه لا بد من إعادة صياغة هذا المبدأ، ليصبح: «لا تصنع آلة لتزوير العقل البشري»، ولكن، لِمَ ظهر هذا الفرق؟

التزوير يعني صناعة شيء على صورة شيءٍ آخر ليبدو وكأنه هو، فنحن نزوِّر الأموال حتى نستخدم المزوَّر منها وكأنه حقيقي، والمقصود بذلك هو الدولار الحقيقي. ولهذا تحذِّرنا الأم الموقَّرة من عدم تزوير العقل البشري، وعدم صنع آلة نخدع الآخرين بها عندما تبدو كعقلٍ حقيقي؛ إذ هنا تكمُن العبودية.

وخلال الوقت الذي تجري فيه مناقشة هذه الفكرة، تقوم الأم الموقَّرة بتغيير المواضيع، حيث تسأل بول إن كان قد درس المنتات/Mentat، وبمجرد أن لاحظ ذلك صحَّح لها بول على الفور وأخبرها أنه درس الثوفير هاوات. بيد أن بول لم يستغل الثوفير؛ إذ لم يكن يستطيع أن يتلاعب بالناس بتلك الطريقة، كما أنه لم يدرس الثوفير كأداة تخضع للفحص والدراسة، بل درسه بوصفه شيئًا بوسعه أن يتعلم منه، وذلك خير دليل على اهتمام بول بشكلٍ فعلي بتحرير البشرية إزاء رغبة الأخوية بتحرير البشرية بهدف السيطرة عليها، فالأخوات يدرُسن البشر بدلًا من أن يدرسن مع البشر. كما أن اختبار غوم جبار يكشف أن البيني جيسيريت والأم الموقَّرة على وجه الخصوص ليسا بمعصومَيْن عن استغلال الناس؛ إذ إن منظومة المورثات بأكملها التي تسيطر عليها البيني جيسيريت تُعَدُّ شكلًا من أشكال التلاعب للوصول إلى الكويستاز هاديراتش؛ وبذلك يمكن لتلك المؤسسة السيطرة على هذا الشخص عند ظهوره. وبما أنها لم تتمكن من السيطرة عليه؛ لذلك لم تحتفِ البيني جيسيرت

بوجود بول بل تآمرت ضده؛ أي إنه هرب من استعبادها له من خلال الفخ ذاته الذي نصبته له.

ولكن ما الهدف من استحضار المينتات أصلًا عند مناقشة أمر الآلات؟ لأن الثوفير هاوات وأشباهه مجرد أمثلة تعبر عن وجوب امتناع المرء عن تزوير العقل البشري. إلا أن الجهاد البتلياري انتزع المسند المتمثل بالآلة القادرة على التفكير، وهنا علينا أن نفكِّر بما يجري في زمننا الحالي.

فتلك الفتاة التي تقف خلف منضدة الدكان لا تستطيع التعامل مع المذياع لتعالج أمور الطلبات لأنه لا يشبه هاتفها. هل سبق لك أن زرت متجرًا أثناء تعطل الحواسيب فيه؟ سيغلقون المتجر؛ لذا عليك أن تعود أدراجك إلى بيتك.

لدينا أجهزة بلاكبيري وآيفون تذكِّرنا بالتواريخ والمواعيد، كما أن جهاز المساعد الرقمي الشخصي PDA يحتوي على حواراتنا وتواصلاتنا مع أقرب وأعز الأشخاص لدينا؛ لذا لا داعي لأن نحتفظ بها نحن، كما تقوم حواسيبنا بتنظيم أمورنا المالية بالنيابة عنا. لقد كان هيربرت نافذ البصيرة، فقد كتب عن الحواسيب، ولكن لديه تاريخ عليه أن يعمل انطلاقًا منه؛ أعني أن ما ذكره عن الحواسيب التي بدأت تضطلع بالوظائف والأعمال التي يقوم بها الإنسان لم يكن موجودًا في الوقت الذي كتب عنه كما هي الحال اليوم؛ إذ لم يكن يوجد وقتها مصحِّح لغوي وإملائي لدى هيربرت، كما لم تكن هنالك أجهزة بلاكبيري، ولا هواتف خلوية بكل تأكيد. غير أن شكواه من الآلات القابلة للتفكير، أتت من شكوى سابقة تتعلق بالورق، فإذا كنا نستخدم الورق لنكتب ملاحظات عليه، فلا بد لذاكرتنا أن تضمحل، ثم إن أغلبنا لم يعش في بيئة تعتمد على المشافهة؛ إذ هل بوسعك أن تتخيل كيف ستكون الأمور لو كان عقلك قد تَدرَّب على حفظ النص الكامل للإلياذة أو الأوديسة؟ إن الحاسوب ومشتقاته قلَّلوا من حاجتنا لذاكرتنا.

وبالمقابل نجد هاوات وقد تفوق على الحاسوب؛ لأنه لا يمتلك هذا المسند؛ وذلك لأن الثورة الكبرى استأثرت بهذا المسند، وعبر قيامها بذلك، أجبرت الثورة-الجهاد «العقول البشرية على التطور» حسبما قالته الأم الموقَّرة. ولتدريب تلك المواهب البشرية، بدأ ظهور المدارس، والتي لم يتبقَّ منها سوى اثنتين في زمن الكثيب، وهما: مدرسة طائفة التباعد التي تركِّز على الرياضيات، ومدرسة البيني جيسيريت التي تركز على السياسة.

يعكس جواب موهيام ما قاله الفلاسفة القدماء، وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو؛ إذ كلاهما يعتبر التأمل أمرًا ضروريًا لتحقيق السعادة البشرية. هل بوسعك أن تتخيل تلك الحالة؟ أي التأمل دون تسوُّق؟ غير أن أرسطو ركَّز على السياسة بشكلٍ كبير؛ أي سياسة

البيروقراطية، حيث يتعين عليك أن تخضع لعمليةٍ روتينية قبل أن تنجز أي شيء.

بيد أن أرسطو يرى أن سياسة المجتمع تمثّل أعلى شكل من أشكال الحياة الكريمة. وهنا، نعمل معًا لتحديد وبلوغ الصالح العام، وذلك كان الشيء الذي يمارسه النظراء، ويمثل ذلك طريقة نقوم من خلالها بممارسة موهبتنا البشرية في مجال التفكير العملي على وجه الخصوص، وهذا ما يسميه أرسطو بالتأليف.

لا يعتقد أرسطو أنه يمكن لأي أحد ممارسة السياسة؛ إذ يتعيَّن على البعض أن يعملوا، كما يجب على بعض الناس أن يشتغلوا بزراعة المواد الغذائية، ويجب على آخرين أن يشتغلوا في الأسواق، مثل تلك المرأة التي تقف خلف منضدة الدكان لتأخذ طلباتي والشاب الذي يقف خلفها ويقوم بتقليب شطائر البرغر (لعله يحمل شهادة دكتوراه في الفلسفة أو اللغة الإنكليزية). ومع ذلك أقف هنا منتظرًا شطيرة البرغر، دون أن أمارس السياسة؛ وبذلك أصبح شخصًا محظوظًا بنظر أرسطو. فنحن الذين نعيش في القرن العشرين ولدينا آلاتنا من مكانس كهربائية وآلات تنظيف الصحون، لدينا وقت لمزاولة السياسة التي تُعنى بالصالح العام، كما لدينا وقت للتأمُّل، أي للتفكير.

ثم تأتي بعد ذلك آلانيس مورسيسيت لتسأل: «لمَ تخشى الصمت كثيرًا؟ ألا يمكنك التعامل مع ذلك هنا؟».

هل ما أزال أحمل بطاقة الائتمان؟ أما زلت في الطابور؟ هل ما أزال مدمنًا على الآيبود؟

يجب على البشر عدم الخضوع للحيوانات

إن وعي الحيوان لا يتجاوز لحظةً معينة، كما لا يستوعب الفكرة القائلة إن ضحاياه قد ينقرضون ... فالحيوان يدمر دون أن ينتج ... وتبقى المتع الحيوانية قريبة من المستويات الحسية وبعيدة عن كل ما يمكن أن يُدرَك ... يحتاج الإنسان إلى خلفية متشابكة ليرى من خلالها الكون الذي يعيش فيه ... والذي اختار من خلاله الوعي بتركيز، وهذا ما يشكل الشبكة الخاصة بك ... وتأتي سلامة الجسد بعد تدفُّق الدم في الأعصاب وفقًا لأعمق إدراك باحتياجات الخلايا ... إن كل الأمور/الخلايا/البشر محكومة بالزوال ... وهي تسعى لمواصلة التدفُّق في الداخل.

تكمن مشكلة ذلك في أننا - نحن البشر الذين يعيشون في القرن الحادي والعشرين - ما زلنا حيوانات محكومة برغباتها، ويعذبها إدراكها المحدود، وعدم قدرتها على منع حصول شيء معين عندما ترغب في ذلك.

إن المشكلات البيئية هي التي ألهمت هيربرت ودفعته لكتابة رواية الكثيب؛ إذ لم يكن

كوكب أراكيس بحاجة إلى ماء يكفي قاطنيه فحسب، بل أيضًا ظهر ذلك الخليط كمصدر نادر بوسعه أن يمنح الحياة وأن يطيلها، ويرمز هذا الخليط إلى الماء، تمامًا كما يرمز نقص الماء على كوكب أراكيس إلى المصيبة التي تهدد العالم.

تعاني الكثير من المناطق من نقص في الماء النظيف العذب، ومع ذوبان الجبال الجليدية وارتفاع منسوب البحار، سيُسهم الطلب البشري على المياه المنعشة العذبة في القرن الحادي والعشرين في نضوب الموارد المائية واستنفادها قبل نهاية القرن. وقد حدَّد العلماء المناطق التي ستصبح بلا مياه عذبة بحلول عام 2050. إلا أن الأرض قد لا تتحول إلى كوكب أراكيس، لكنها قد تغدو شبيهة به في حال عدم توافر تقنية رخيصة تعمل على تحويل الماء المالح إلى ماء صالح للشرب.

تخيلوا المستقبل الذي ينتظرنا: عالم لا يوجد فيه مراحيض تُسكَب المياه فيها نظرًا لعدم وجود ما يكفي من الماء، عالم لا نستطيع أن نستحم فيه مرة بالأسبوع، أو حتى بالشهر، عالم يقتل فيه الناس بعضهم بعضًا من أجل الماء، كما سبق للبشر أن قتل بعضهم بعضًا من أجل الغذاء ... أو من أجل النفط ... كما يحدث اليوم. عالم لا تُزرع فيه المحاصيل، بل تظهر فيه المجاعات، ونتحسَّر فيه على الأيام التي كان فيها شخصٌ واحد من بين كل ستة أشخاص يعاني من سوء التغذية على مستوى العالم.

إلا أننا نحن، أي الشعوب التي تعيش في العالم الغربي، أي أميركا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا، نواصل حياتنا مثل البارون فلاديمير هاركونين، حيث نندفع بحماسة عندما يحمسنا أحد، وننسى أمر النبي الذي ظهر في كوكب أراكيس والذي قال: «دعوهم ليلتزموا بدينهم». يعيش في الولايات المتحدة نحو خمسة بالمائة من سكان العالم، ومع ذلك فإننا نستهلك ستين بالمائة من موارد العالم، وكميات اللحوم التي نستهلكها خير دليل على ذلك.

تشير التقديرات المتحفظة التي قدَّمها مربو المواشي إلى أن إنتاج رطلٍ واحد من لحم البقر يحتاج إلى ألف غالون من الماء تقريبًا (http://www.earthsave.org/environment/water.htm)؛ ولهذا عندما تذهب إلى ماكدونالدز وتتناول شطيرة تشتمل على ربع رطل من اللحم مع الجبن، تكون بذلك قد استهلكت 250 غالونًا من الماء. غير أن المطاعم الجيدة تقدم شطائر تحتوي على نصف رطل عادة؛ ما يعني استهلاك 500 غالون من الماء بحسب التقديرات المتحفظة. أما التقديرات الأكثر واقعية التي قدَّمها العلماء فتشير إلى أن إنتاج رطلٍ واحد من لحم البقر يحتاج إلى 2500 غالون من الماء؛ أي إنه بوسعنا أن نعطي مائة شخص ما يكفيهم من الماء لمدة 25 يومًا في حال عدم إنتاج رطل واحد من لحم البقر. ألا يحمِّلنا ذلك مسؤولية نحن أيضًا في إنقاذ جنسنا البشري من الفخ؛ ذلك الفخ

الذي صنعناه بأيدينا؟

بَيْد أننا نفعل كما يفعل البارون هاركونين؛ أي إننا نأكل دون أن نشغل بالنا بما لدى غيرنا وما حُرموا منه.

وبذلك لا نكون بشرًا، بل نتحول إلى حيوانات؛ إذ لا نستطيع أن نهرب من فخ الانهيار البيئي الوشيك والكبير، لأننا نحن الفخ، فنحن نرفض أن نضحي اليوم لنعيش غدًا، كما نرفض البحث عن طريقة لنوقع في الفخ من نصبه؛ وذلك لأننا نحن من نصب الفخ عندما تركنا الباب مفتوحًا على مصراعيه لرغباتنا الجامحة.

والآن علينا أن ننتظر؛ ننتظر ليظهر موديب الذي سينقذنا من شر أنفسنا، ويعلِّمنا كيف نصبح بشرًا.

هل أنا موديب؟

تصل حياة البشر إلى أفضل حالاتها عندما يكون لكل شخص فيها مكانته

وعندما يعرف كل شخص فيها موقعه ضمن مخطط الأشياء

إذا أردنا أن نصبح أحرارًا في تطوير إمكانياتنا، وفي تنمية مواهبنا، ينبغي علينا أن نبدأ بالاعتراف بموقعنا ضمن مخطط الأشياء. هنالك مقولة للاكوتا سيوكس وهي: أننا جميعًا منتمون. وتظهر هذه الفكرة أيضًا في اختبار غوم جبار وفي حياتنا اليومية وذلك عندما نختار أن نعيش كبشر وليس كحيوانات. وإذا وقعنا في الفخ، فلن ننجو منه إلا عندما نوقع بمن نصب الفخ، وذلك لنحمي الجنس البشري. وإننا نقوم بذلك عندما نعترف بمستوى أساسي ننتمي إليه جميعًا، ولو كنا حيوانات، عندها ستمثل حالة السخط عملًا فرديًّا، أي حالة اهتمام المرء بنفسه فقط.

لعلنا ما زلنا نتجاهل الغوم جبار لأننا لا نعرف المكان الذي يناسبنا في هذا الكون؛ أي إن فكرة المكان تجمع بين المحاذير الواردة في اختبار الغوم جبار في رواية الكثيب، وبين سفينة البشرية المحمية للغاية في رواية الجدار-إي؛ وذلك لأن هؤلاء الناس هم أحفادنا، وهم يهربون من كوكب تحول إلى مجرد سلة نفايات. فهم يجولون في عربات تشبه الأشياء المعلقة، كما هي حال البارون هاركونين، حيث يشربون ويشربون، ويتناولون طعامهم ويلعبون الغولف في العالم الافتراضي؛ أي إنهم لم يعد لديهم مكان في هذا الكون، والمضحك في الموضوع أنهم لا يدركون ذلك؛ لأنهم لم يطوروا مواهبهم البشرية.

إلا أن التهديد الذي استبعده الجهاد البتلياري بات يلوح أمام أعيننا؛ فهل سنطور

مواهبنا البشرية؟

إن فلسفة هيربرت للبشر تحذِّر من أمرين وهما: التحول إلى حيوان والتحول إلى عبد. إذ عندما نصبح حيوانات، قد نصبح عبيدًا لرغباتنا الحيوانية، ولكن هنالك نوع مختلف من العبودية، وهو أن تصبح عبدًا للآلة. بيد أن الجهاد البتلياري حرر البشرية؛ أي إنه حرر البشر من استعباد الآلات لهم، كما حرَّرنا حتى نقوم بتطوير مواهبنا البشرية.

ثم إن هيربرت لم يطلب منا التخلي عن الأشياء التي نحبها، مثل الآيبود أو الحاسوب أو نظام الألعاب، بل تحدانا لنكتشف طريقة نستخدم من خلالها تلك الألعاب لنعيش حياة البشر؛ أي إن التحذير لا يعني الركون إلى الجمود.

نهاية القصة

ما زلت أحدق بالسيدة العجوز، وتنتابني أفكار عشوائية حول الكثيب، والجهاد البتلياري، والأطعمة التي أتناولها. أدرك أن هنالك فخًّا، إنه الفخ الذي نصبتُه وتوجهت نحوه. أما الجزرة التي تقودني إلى الفخ فتتمثل بسهولة الحياة العصرية التي أعيشها. انظروا إليَّ! ولينظر كل منا إلى نفسه! إننا نقف في الطابور أيام العطل ونتحرق شوقًا لنحصل على طعام يمثل فخًّا لم ننصبه، ثم نجري من متجر إلى آخر، فما هي المواهب التي طوَّرناها هنا؟ إن لم تكن موهبة الصيد ومطاردة الفريسة، فما هي إذن؟ هل ثمة مواهب أخرى أطوِّرها في مكانها بفضل كل الوقت الذي خصصته لذلك؟

ترى الأم الموقَّرة غايوس هيلين موهيام أن هنالك نوعين من المواهب ينبغي على البشر تطويرهما، وهما الرياضيات والسياسة، ولكني لست متأكدًا من أهمية هذين المجالين بالنسبة لي؛ لأنني أفضل أن أمسك بشطيرة البرغر وأن أفتح جهاز الآيبود الخاص بي لأعود إلى التسوق.

بيد أنه هنالك صندوق الخواء والألم الأخضر اللعين! وهنا تحدق السيدة العجوز بي، لماذا أنا بالذات؟ أبتعد عن متجر الأطعمة السريعة، وأمد يدي إلى الصندوق.

آه ... إنه الألم الذي تحمله البشرية! الألم الذي يعاني منه جنسنا البشري!

بيئة موديب مواجهة امتحان غوم جبار - صفحة 13/ 224

الطريق الذهبي لتحسين النسل

محفوظات البيني جيسيرت

تأليف: الأم الموقَّرة بيليوندا

التاريخ: حوالي سنة 14050 حسب التقويم الإغريقي

تمر البشرية بصورة دورية في حالة تسريع لشؤونها، ومن خلالها تعيش تجربة السباق بين الحيوية المتجددة للأحياء والتلويح بفساد حالة التدهور والانحطاط. وفي هذا السباق الدوري، يصبح أي توقف رفاهية، وعندها فقط يمكن للمرء أن يفكر أن كل شيء مسموح وممكن.

كتابات مشكوك بأمرها حول موديب،

من رواية أبناء الكثيب.

تحتل فكرة تحسين النسل موقعًا مركزيًّا في القصص الواردة في رواية الكثيب، بيد أن مصطلح «تحسين النسل» من المصطلحات التي تخيفنا؛ كونه يعني التحكم بنسل البشر من أجل أن تظهر صفات مرغوبة في الأجيال المستقبلية.

تعود فكرة تحسين النسل إلى مفهوم كاليبوليس الذي تحدث عنه سقراط، وكذلك ورد في المدينة الفاضلة ضمن جمهورية أفلاطون. إذ تشتمل المدينة الفاضلة كما شرحها سقراط على طبقات ثلاث، اثنان منها تحرسان المدينة ودستورها (أي الحرس الحاكم والحرس العسكري)، وطبقة تقوم بإنتاج السلع المادية التي يحتاج إليها المواطنون. وقد عرف عن سقراط قوله إن الحرس في الطبقة الحاكمة يجب أن يحرموا من كل الممتلكات الشخصية وأن يشاركوا العامة بكل شيء. ورأى سقراط أن المفهوم التقليدي للبيوت الخاصة وللحياة الأسرية يجب أن يُتَخلَّى عنه لصالح المنظومة التي يعيش فيها الحراس سوية ضمن وحدة أشبه بعائلة كبيرة واحدة.

ويؤكد سقراط على أن هذه المدينة يجب أن تسعى لتربية وتهذيب أجود نوع من النسل من أجل هذه الطبقة؛ وذلك لأن أفرادها سيكبرون لصبحوا قادة المدينة. ويقترح أن ينجب رجال ونساء الطبقة الحاكمة أولادهم ويربونهم بين العامة بطريقة تشبه تربية الحيوانات الأهلية. كما لا يسمح للبالغين من الحرس أن يتناسلوا بِناء على عواطفهم ومشاعرهم تِجاه الطرف الآخر، بل إن اتحادهم الجنسي يجب أن يتم تحت رقابة صارمة من قبل الحُكَّام. كما يجب أن يربوا أولادهم بين الناس ولا يُسمح لهم أن يتعرفوا على آبائهم الذين أنجبوهم

وأمهاتهم اللائي ولدنهم، وذلك حتى يُتَخلَّص من فكرة الولاء للأسرة أو العائلة بين أفراد طبقة الحكام. وهنا سيلاحظ عشاق رواية الكثيب وجود تشابه كبير بين طبقة الحراس في الجمهورية وبين البيني جيسيرت.

إن فكرة تحسين النسل الواردة في هذه الرواية تذكرنا بأفكار الكاتب البريطاني هيوكسلي حول الجدارة الجينية الوراثية بالإضافة إلى أنها تستحضر لدينا الأوهام الطوباوية للكمال البشري. فقد أخذت فكرة تحسين النسل بقوة على محمل الجد في النصف الأول من القرن العشرين، ثم نبذت بنهاية الحرب العالمية الثانية؛ وذلك لصلاتها بجرائم الحرب النازية. فقد شملت أكثر برامج تحسين النسل تطورًا مخططات ادَّعت أنها قائمة على العلم وذلك حول التفوق والصفاء العرقي. ومنذ فترة ما بعد الحرب، أصبح الناس والمجتمع العلمي يربطون بين فكرة تحسين النسل والانتهاكات النازية، مثل فرض فكرة النظافة العنصرية، وإجراء الاختبارات والتجارِب على البشر، وإجراء تجارِب على مجموعات بشرية غير مرغوبة. إلا أن الإنجازات التي تم التوصل إليها مؤخرًا في مجال التقنيات والأساليب الوراثية والجينومية والتناسلية أثارت الكثير من التساؤلات الجديدة والمهمة حول ماهية مجال تحسين النسل، وما الذي ينبغي على هذا الفرع العلمي أن يسعى لتحقيقه أو أن يتحاشاه.

ولهذا انتشر التحذير من علم تحسين النسل ابتداء من الفلسفة الأكاديمية وصولًا إلى النبوءات الجامحة حول يوم القيامة. إلا أن الأمثلة التي استُشهِد بها في تلك التحذيرات تنتمي لعالم الخيال العلمي فقط، وتشمل أحياء مستنسخة عن البشر، وغير ذلك من المشتقَّات الوراثية، والكثير من البشر الآليين، وبشر مفرطين في بشريتهم، يتفوقون على أبناء جنسهم الحاليين، أي بشر عاقلين (أكثر ذكاء وتكيُّفًا وأطول عمرًا)، وبشر تطوروا خارج نطاق البشر العاقلين فتحولوا إلى جنس أو أجناس جديدة، وعالم مقسم إلى نخبة محسنة وراثيًّا، وبروليتاريا ينقصها الكثير من التطور على الصعيد الوراثي، والكثير الكثير من الأمور الأخرى.

عندما تلتقي الإثنية مع العلم حول تلك التساؤلات، تظهر مخاوف تنتشر بين أوساط واسعة من الناس حول الحفاظ على البشرية، ومعنى حياة البشر، وحول لعب الأطباء والعلماء لدور الله وذلك عبر التدخُّل في الطبيعة، وعدم اكتراثهم أو جهلهم بالعواقب الاجتماعية التي ستترتب على أبحاثهم. ولهذا لن يستغرب أحد تحول الخيال العلمي إلى ساحة للتكهنات ذات الشطحات ضمن المجال الواسع الذي نشير إليه بمصطلح «تحسين النسل». ومن خلال تلك العلاقة الطويلة والمعقَّدة مع مصطلح تحسين النسل، نقَّب مؤلفون من أمثال هـ. ج. ويلز، وهـ. ب. لوفكرافت، وإسحق آسيموف، وآرثر س. كلارك وبالطبع فرانك هيربرت في الاحتمالات المتأصِّلة في أي برنامج يعتمد على استغلال مورثات بني البشر

والتلاعب بها.

يتضح اهتمام فرانك هيربرت باحتمالات التلاعب بمورثات البشر والعواقب الأخلاقية المترتبة على ذلك في سائر أعماله (وعلى رأسها خلية عاصفة الجحيم، وحاجز سانتاروغا، والتجربة الدوسادية، بالإضافة إلى القصة القصيرة التي تحمل عنوان: مخزن البذور) إلى جانب رواية الكثيب التي فيها يقدم لنا هيربرت ثلاثة برامج لتحسين النسل على المدى الطويل، ولكل منها موقف أخلاقي مختلف عن البقية، ويتجلَّى ذلك في كل من البيني جيسيرت، والإمبراطور الرباني ليتو الثاني، والبيني تليلاكس. كما يمر الكاتب مرور الكرام على ذكر أنواع أخرى من النواتج الوراثية، مثل خلق الغيلان والمينتات الذي شوهته البيني تليلاكس، والخلق الإكسياني لهوي نوري الذي يصبح سفيرًا لليتو الثاني، والتلاعب بمورثات حيوانات غير بشرية، مثل الأحياء التي خضعت للهندسة الوراثية من أمثال الثيورس والتشيردوغ. وثمة فكرة واحدة تؤكِّد على اهتمامه بعلم تحسين النسل، وهي القدرة على التخطيط التي تتجاوز حدود بعض الأعمار البشرية؛ إذ تُعَدُّ تلك الفكرة نتيجة مباشرة لاهتمام هيربرت بعلم البيئة على نطاق واسع.

ما يحاول هذا الكتاب أن ينقله لنا أنه حتى بوجود أطول مدة ممكنة (والتي تشمل فكرة الإنسان الآلي إيراسموس الذي يعيش لمدة ثلاثين ألف سنة تقريبًا) ما يزال علم تحسين النسل ينطوي على مزالق سواء على الصعيد الأخلاقي أو العملي. وبالرغم من تلك المشكلات، تشير بعض الأدوات الدرامية التي يستخدمها هيربرت إلى احتمال وجود أسباب خيِّرة للسعي وراء تناسل البشر، فإن كل النظم الأخلاقية يمكن أن تفشل في وضع خطط طويلة الأمد لتحسين ظروف البشر.

العناية بالطبيعة: البيني جيسيرت

يعمل نظام البيني جيسيرت كنظام للشخصيات الرئيسية في ملحمة الكثيب؛ إذ يقدم هيربرت البيني جيسيرت على أنها نظام مؤلف من قوى ترسم شكل العالم المكون من كثبان، بالرغم من أنه يفضل أن يبقى وراء الكواليس. أما الدسائس الاجتماعية والدينية والسياسية للبيني جيسيرت فعادة ما تختفي خلف ستار أقصى درجات السرية والخداع الذي لا يقتصر على تلك المنظمة بحد ذاتها، بما أن بروتوكول «الحاجة للمعرفة» يُطبَّق في أغلب الأحيان على الأمهات الموقَّرات اللواتي ينتمين إلى أرفع الطبقات.

ويشتمل نظام البيني جيسيرت على نادٍ نسائي سري تخضع العضوات فيه إلى برنامج تعليمي قاس للغاية، على المستوى الجسدي والفكري. وبعد سنوات من التكيف على هذين المستويين، يتم اختيار من تفوقن في هذين المجالين حتى تخضعن لـ «اختبار تحمُّل

التوابل»، حيث يبتلعن من خلاله الخلاصة السامة لخلطة التوابل. إلا أن تعزيز الوعي بوجود السمِّ بشكل قوي يجعل الأخت الناجحة تحيِّد السمَّ بواسطة كيمياء جسدها، بالإضافة إلى تمكُّنِها من الوصول إلى ذاكرة أسلافها من العضوات في البيني جيسيرت.

إن صلة الوصل بين الأخوات الحاليات وأسلافهن من خلال الذاكرة الوراثية تسمح للبيني جيسيرت بوضع خطط تتجاوز عمر بضعة أجيال. كما ينجم عن قوة تعليمهن وتدريبهن ووصولهن إلى الذاكرة الوراثية تمتعهن بقوى وقدرات جديدة تتمتع بها كل أخت بصورة شخصية، إلى جانب قدرتهن على نقل النظام برُمَّته - الذي يبدو سحريًّا ومخصصًا لعوالم أخرى - إلى الغرباء. إلا أن تواصلهن مع الغرباء مفعم بالخداع في أغلب الأحيان. وتجري الاستعانة بالأمهات الموقَّرات في البيني جيسيرت ليقلن الحقيقة، أما الشابات الحاصلات على تعليم البيني جيسيرت فقد كان يجري التعامل معهن بوصفهن رفيقات. إن تلك العَلاقات والتفاعلات هي التي تحدِّد المواقع الإستراتيجية للعضوات الفاعلات في البيني جيسيرت بحيث يصبحن قادرات على التأثير على الأحداث، والأهم من ذلك، قدرتهن على التناكح مع رجال قادرين على الإنجاب يتم اختيارهم بعناية (وغالبًا ما يكون هؤلاء لا يعرفون أي شيء عن هذا الأمر). إن تسمية تلك النساء بالساحرات من قبل الغرباء في بيوت الرائد وتشوام والطائفة، تشير إلى الردود المتضاربة التي تشتمل على الخوف والخشية التي تثيرها تلك النساء، فسريتهن وقدرتهن على رؤية الزمن لمدة تتجاوز أعمار البشر أتت بفضل إنتاج برنامج وراثي امتد لقرون من الزمان.

ومع اقتراب رواية الكثيب من نهايتها، تسعى أخوات البيني جيسيرت لخلق الكواستاز هاديراتش في نهاية المطاف، وهو المكافئ الذكر للأم الموقَّرة في البيني جيسيرت. وأحد الأسباب التي تجعل من البيني جيسيرت تحاول إنتاج كويستاز هاديراتش هو الرغبة بالوصول إلى الجانب الذكري للنفس البشرية، وهذا ما ذكرته الأم الموقَّرة غايوس هيلين موهيام لبول أتريديس الشاب عندما قالت: «ومع ذلك، ثمة موضع لا يمكن لمن تقول الحقيقة أن تراه؛ وذلك لأننا ننفر منه ونرتعب. قالوا إن رجلًا سيأتي يومًا ما ليكتشف في هبة الدواء عينه الداخلية. أي إنه سيرى الموضع الذي لم نستطع رؤيته، من خلال الماضي الأنثوي والذكري».

أي إن الأخوات كُنَّ بحاجة لذكر قادر على رؤية الذاكرة الأخرى لأسلافهن من الذكور، إلى جانب قدرته على الصمود في وجه تدفُّق كل تلك الذكريات. بالمختصر، يجب على هذا الرجل مواجهة تلك الذكريات التي أرعبت الأمهات الموقَّرات. والرجل الذي بوسعه أن «يوجد في كل الأماكن في الوقت ذاته» ويقصد به الكواستاز هاديراتش، لا يمكن أن يولد إلا من خلال خطة تناسل يتم التحكم بها بعناية، تشارك فيها سلالات من بيوت الرائد.

منذ بداية ظهورهن على كوكب روساك، اعتقدت عضوات البيني جيسيرت أنهن يستقبلن أهم المورثات، فحافظن على تلك الجينات عبر الزواج من عائلات ملكية أو عبر اللقاءات الجنسية المختارة بعناية. فيما يشتمل برنامج الكويستاز هاديراتش على برنامج تناسل بشري هائل، يجري على مدار أعمار أجيال لا تحصى. وعبر التلاعب بالعلاقات وحاملي الجينات في بيوت الرائد (والذي لا يتم عبر انتقاء الأب البيولوجي بعناية فحسب، بل أيضًا عبر اختيار جنس الأولاد، بما أنه بوسع العضوات في البيني جيسيرت اختيار جنس الطفل الذي يحملن به)، تسيطر البيني جيسيرت وتضبط السلالات السائدة عبر العصور.

أما الكويستاز هاديراتش الذي بوسعه الوصول إلى السلالات الذكرية والأنثوية في ذاكرة الآخرين، فمطلوب لأن بإمكانه أن يصبح شخصية صاحبة نفوذ في عمليات التلاعب التي تمارسها البيني جيسيرت، بحيث يُفرَض على الكون بوصفه المسيح الذي حمته عملية الحماية التبشيرية، أي مشروع الهندسة الدينية الذي تتبنَّاه البيني جيسيرت.

ومع بدء تكشف وتطور أحداث رواية الكثيب، تضع البيني جيسيرت خُطة لإنتاج الكويستاز هاديراتش، تلك الخطة التي تصل إلى ذروتها مع زواج إحدى بنات أتريديس، التي أنجبتها السيدة جيسيكا والدوق ليتو أتريديس، من أحد أبناء البارون واسمه فيد - روثا هاركونين، وهو ابن أخ السريدار - بارون فلاديمير هاركونين. وهكذا تتعزَّز الصفات المرغوبة في مورثات هاركونين بفضل سلالة جيسيكا. إلا أن فلاديمير هاركونين هو والد السيدة جيسيكا التي لا تعرف بالأمر إلا بعد خضوعها لاختبار تحمُّل التوابل. لذلك يتم تعطيل برنامج كويستاز هاديراتش عندما تختار جيسيكا بدافع حبها للدوق ليتو أن تحبل بابن أتريديس بدلاً من الابنة التي أمرتها الأخوات أن تحمل بها. ومع الأيام يتحول هذا الابن إلى الكويستاز هاديراتش، الذي يظهر في وقت أبكر من الجيل المحدد لظهوره. إلا أن ولادة بول أتريديس تحدد مصير الأخوات، ومصير الكون في نهاية المطاف.

وفيما يتصل بخطط تحسين النسل التي وضعتها الأخوات، يمكن القول إن بول يمثل حالة نجاح وفشل في آنٍ معًا، فهو يمثل حالة نجاح لأنه ذكرٌ ولد للبيني جيسيرت يتمتع بسائر سلطات الأم الموقَّرة، بخلاف الكونت هاسيمير فينرينغ، ذلك الرجل الذي كاد أن يصبح الكويستاز هاديراتش. إلا أن بول يعبِّر عن حالة فشل أيضًا بالنسبة للبيني جيسيرت؛ وذلك لأنهن لم يستطعن التحكم به والسيطرة عليه؛ إذ لبس عباءة المسيح واستخدمها لتحقيق غاياته الشخصية، تاركًا الأخوات في كون أصبحن فيه تابعات لبول وذريته لألف سنة من الزمان.

ومن رواية الكثيب، يقوم المسيح بتأديب البيني جيسيرت كما يجب وذلك بسبب

غطرستهن وقصر نظرهن، وهكذا يدركن أنهن ظلمن أنفسهن عندما سعين وراء الكويستاز هاديراتش، ويزداد خوفهن عندما يكشف سيد التليلاكسو سيتيل، بوصفه مشاركًا في المؤامرة التي تهدف إلى تدمير بول أتريديس، أن البيني تليلاكس قد نجحت في خلق الكويستاز هاديراتش الخاص بها من خلال التعديل الوراثي الذي أجرته وخزانات قنفذ البحر الموجودة لديها.

إن فكرة تليلاكسو كويستاز مزعجة للغاية؛ لأن البيني جيسيرت تصر دومًا على عمليات الإلقاح والولادة الطبيعية، ولا تسمح بالتلقيح الصناعي، أو بربط الجينات، أو اللجوء إلى البدائل. وبالمقابل استعانت التليلاكسو بمواد وراثية بكل الطرق والأساليب، فقد تعاملت مع أجزاء وقطع من البشرية بوصفها مواد خام، يمكنها من خلالها تصميم المخلوقات التي تختارها. إلا أن كل من خلقتهم من كويستاز هاديراتش قد دمروا أنفسهم (وقد تطور هذا الجانب المحدد من القصة بصورة أكبر في النسخة الأحدث من الرواية التي ألفها برايان هيربرت وكيفين ج. آندرسون والتي تحمل العنوان: بول ابن الكثيب)؛ وذلك نظرًا لأن لديهم بُعدًا أخلاقيًا واحدًا، فهم إما أن يكونوا صالحين تمامًا، أو خلاصة للشر، ولهذا دُمِّروا عبر إرغامهم على التحول إلى نقيضهم، وبالطبع يشير سيتيل إلى أن الشيء ذاته يمكن أن يحدث لبول، أي الإمبراطور موديب. كما تسهم المؤامرة في فضح الحماقة المتمثلة ببرنامج التربية الذي تتبناه البيني جيسيرت، بما أن الكويستاز هاديراتش يسعون للوصول إلى السلطة عبر معرفتهم بالغيب، بيد أن السلطة والسيطرة الناشئة عن تلك المعرفة تُوقع من يتمتع بعلم الغيب في حبائل المستقبل المبني على التوقعات بلا هوادة، والذي لا يمكن تغييره، وبذلك يكتشف المتآمرون أنهم وقعوا في الفخ الذي نصبوه.

تستمر توبة البيني جيسيرت في إمبراطور الكثيب الرباني، وذلك عندما يتولى برنامج التربية الذي تنتهجه البيني جيسيرت إمبراطور يشبه الآلهة، وهو ليتو الثاني، والذي يوجه هذا البرنامج لتحقيق أغراضه الشخصية، فتخضع تلك المنظمة لآلاف السنين من الحرمان، ثم إن الأخوات فيها قَلَّما يختلطن بغيرهن، فضلًا عن ضعف سيطرتهن على البرامج الخاصة بهن، كما لا سلطة لهن على ليتو الثاني على الإطلاق، الذي يدَّعي كما يدَّعي بول أنه كويستاز هاديراتش. وبعد مرور ألف عام، أي في كتاب: زنادقة الكثيب، تتحطم أحلام البيني جيسيرت بظهور مخلوق بشري خارق بوسعه أخذ تلك المنظمة إلى الصدارة. لذا، وبدلًا من التربية لصالح سِمَة معينة أو فرد بعينه، تركز البيني جيسيرت عوضًا عن ذلك على التربية لتقوية وضمان السمات البشرية المؤكدة وللحفاظ عليها.

وتكشف هذه المقاربة التي تتسم أنها محافظة بصورة أكبر عن الدرس الذي تعلمته البيني جيسيرت، حيث يُحجم أفرادها عن التربية من أجل غرض معين مرة أخرى. وفي كل من

روايتي: زنادقة الكثيب والبيت المقسَّم: الكثيب، تفضل البيني جيسيرت أن تنظر إلى نفسها على أنها مضيفة للبشرية، مع إدخال تحسينات طفيفة عليها بكل لطف.

هذا ولعلَّ التداعيات الأخلاقية لبرامج تحسين النسل التي تتبناها البيني جيسيرت تظهر بشكل أوضح هنا من خلال المظاهر الثلاثة التي نوردها وهي: ممارسة تربية البشر لأغراض معينة، تمامًا كما يفعل المرء عندما يربي كلابًا أو خيولًا، وهذا بدوره يؤدي إلى نتائج كارثية. إذ بالإضافة إلى المشكلات التي ترافق ظاهرة المسيح، نكتشف أن القوى التي تولدت لدى بول أتريديس لم تهدد البيني جيسيرت فقط، بل هددت البشرية قاطبة. ولذلك تواصل البيني جيسيرت مراقبتها واحتفاظها بسجلات التربية على مدار آلاف السنين بين الفترة التي صعد فيها نجم بول ونهاية رواية البيت المقسَّم: الكثيب. تبدو خاتمة هيربرت وكأنها تخبرنا أن وجود مقاربة عامة لبرنامج تربية معين قد لا تكون سيئة طالما أنها لا تسعى إلى تحقيق هدف معين. وفي تكرار لمسلَّمة الجهاد البتلياري، يبدو أن الدرس الذي تعلمته البيني جيسيرت هو الآتي: «إياك أن تعمل على خلق إنسان بصورة واحدة». وهكذا نرى تحوُّل البيني جيسيرت من فكرة قائمة على العواقب والنتائج، تُحدد فيها نتيجة برنامج التربية قيمته الأخلاقية، إلى مقاربة أخلاقية، تُحدد فيها ممارسات برنامج التربية قيمته الأخلاقية. ولعل الحتمية القاطعة التي جاء بها إيمانويل كانط تعبر عن أشهر مثال للنظرة الأخلاقية. إذ يرى كانط أن الأفعال المحمودة على المستوى الأخلاقي تحددها القيمة الأخلاقية لتلك الأفعال، لا النتائج المترتبة عليها. ولهذا تُحتِّم نظرية الحتمية القاطعة أنه لا يجوز من الناحية الأخلاقية على الإطلاق استخدام الآخرين كوسيلة لتحقيق غاياتنا، أي إن الواجب الأخلاقي ينبع من عقلانيتنا.

وفي حالة البدَهية التي تتبناها البيني جيسيرت، يتمثل الواجب الذي يندرج تحت النهي عن السعي وراء الغاية، أي الهدف من عملية التربية، في الابتعاد عن توقع النتيجة المترتبة على تربية البشر أو محاولة التحكم بها (وكذلك الأمر بالنسبة للأحداث التي يعيشها البشر؛ إذ يُعَدُّ ذلك مسألة تخص أخلاقيات علم الغيب). ومع تطور البيني جيسيرت خلال ملحمة الكثيب، نجدها وقد اعتنقت هذه البدَهية بشكلها العام، بالرغم من أنها توشك على خرقها إن بدت الغايات في نظرها بمثابة تبرير للوسيلة، تمامًا كما هي الحال مع تحريم خلق الذكاء الصناعي. قد نعُدُّ أن هيربرت يقدم من خلال البيني جيسيرت مثالًا يوضح من خلاله أنه لا يمكن توجيه عملية تحسين النسل عبر الأخلاق المبنية على نتائج، لأن نتائج هذه البرامج بكل بساطة لا يمكن أن تُعرف بما فيه الكفاية حتى تُقيَّم أخلاقيًا.

إفراغ الطبيعة من طبيعيَّتها: ليتو الثاني

بعدما هزَّ صعوده أركان الكون، أسس بول موديب إمبراطورية من خلال الحرب والاحتكار الاقتصادي الذي فرضه على التنوع والاختلاط. وبعدما فقد بول بصره (حرفيًّا ومجازيًّا، وذلك عندما انقطعت عنه الرؤى التي تُعلمه بالغيب) مضى إلى الصحراء في رواية مسيح الكثيب، ثم فرضت شقيقته علياء وصايتها على أبنائه: ليتو وغنيمة خلال فترة طفولتهم. وفي شطط علياء بوصايتها التي تصبح أكثر فظاعة عندما يتلبَّسها شبح بارون فلاديمير هاركونين، وهو جدها لأمها، يلجأ ليتو وغنيمة لقدرتهما على الوصول إلى ذكرياتٍ أخرى وذلك لرسم خطة للاستيلاء على السلطة ولتغيير السابقة الخطيرة التي ظهرت بفعل الحماسة الدينية التي خلقتها إمبراطورية بول. أما ليتو، فعندما يجرب التوابل في الصحراء، يصل إلى صياغة ما يصفه بالطريق الذهبي. بيد أن خطته تجعله يندمج مع خنفساء، وتحوله في نهاية المطاف إلى كائنٍ هجين يجمع بين الإنسان ودودة الرمل، ويعزِّز تحولَه إلى دودة رمل عملاقة قوَّتُه الجسدية ويطيل عمره بحيث يصل إلى 3500 سنة.

أما الطريق الذهبي فهو مصطلح يشير إلى الخطة التي صاغها ليتو الثاني ليقف في وجه دمار البشرية ودمار دود الرمل العملاق في الكثيب. ثم تظهر أهمية الطريق الذهبي في الروايات التي أتت بعد هذه الرواية وهي أبناء الكثيب، حيث يمكن عَدُّ ذلك الطريق بمثابة شخصيةٍ رئيسية بحد ذاتها (يبحث برايان هيربرت وكيفين ج. آندرسون في الطريق الذهبي بشكلٍ أكبر في الروايتين اللاحقتَين وهما: صيادو الكثيب وديدان الكثيب الرملية). حيث تنبأ كل من بول أتريديس وليتو الثاني بأشكالٍ مختلفة للمستقبل الذي ستنقرض البشرية فيه.

إلا أن ليتو الثاني قد تنبأ بخطر يهدد وجود البشر، يتم الكشف عنه في الروايات اللاحقة، حيث نتبين أن هذا الخطر يتمثل بإمبراطورية الحواسيب أمنيوس التي استعبدت البشرية لآلاف السنين في الماضي. إذ يمكن تعقب البشرية من خلال علم الغيب في حال بقيت محصورة ضمن الكون المعروف الذي يعرف باسم إمبيريوم. غير أن ليتو الثاني يكشف أن الزيادة السكانية لم تكن كافية لحماية العرق البشري من الاندثار بشكلٍ كامل؛ إذ من خلال نظامه يظهر أنه يمكن التحكم في البشرية من خلال مصلحةٍ واحدة، وذلك عندما تعيش ضمن إمبراطوريةٍ معينة. وطوال رواية: إمبراطور الكثيب الرباني، يبحث ليتو الثاني في أمر تطبيقه الصارم لفكرة المجتمع المستقر الذي يسوده السلام. إلا أن الصراع بين الرغبة المعلنة للبشر بالنسبة للسلام وحاجتهم الفعلية للتقلُّب، تقدم الفكرة المحورية التي تدور حولها كامل سلسلة الكثيب بعد السلسلة الأولى. حيث يعلن الإمبراطور الرباني ليتو الثاني أنه يعتزم «تعليم البشرية درسًا لن تنساه بحياتها» وهو أن الأمان المحمي والمحصن يعادل الموت المطلق مهما تأخر وطال أجله.

يقوم ليتو الثاني بتصميم الطريق الذهبي حتى يجعل العرق البشري يتبع مساراتٍ

متعددة، بدلًا من البقاء ضمن مجال تأثير وحيد. وتتمثل إحدى مجالات هذا التصميم في الاحتفاظ بكامل إمبراطورية إمبيريوم ضمن قبضةٍ خانقة تقوم على سيطرةٍ اقتصادية وسياسية تُجبر الناس على الخروج بطرق وأساليب لإسقاط حكمه. وعبر قيامه بذلك، يتصرف ليتو الثاني وكأنه كائنٌ مفترس، يدفع البشرية نحو التكيُّف عبر ابتكار طرقٍ وأساليب لتخفي نفسها بعيدًا عن معرفته بالغيب. وهكذا ظهرت الكثير من حالات التكيُّف بسبب حالة الافتراس تلك، بما فيها برنامج تحسين النسل نفسه الذي خرج به ليتو الثاني، بعدما انتزعه من البيني جيسيرت. إذ يهدف هذا البرنامج لحجب بعض البشر على الأقل عن عيون العقول التي تعرف بالغيب، مثل عقل بول أو عقل ليتو الثاني. وبذلك، لم يعد بوسع رؤى ليتو التي تطَّلع على الغيب رؤية سيونا، سليلة عائلة أستريديس وآخر ما نتج عن برنامج التربية هذا. بيد أن الهيمنة السياسية لليتو أتت بابتكارات ضمن عائلة الإكسيانز التي ابتكرت تقنية حجب الغرف، وفي الختام توصلت إلى تقنية حجب السفن، وهذه التقنية بوسعها أن تحجب الناس والأماكن عن عقول الأشخاص الذين يعلمون بالغيب.

بيد أن الكوارث التي ظهرت بعد وفاته أثبتت أنها أبرز جانب من جوانب المخطَّط الذي وضعه ليتو الثاني. فمركزية الحكومة البشرية خلال حكمه أدت إلى انهيار كامل عقب موته، وهذا الانهيار أدى لظهور زمان المجاعة (بما أن الاقتصاد الذي أقامه ليتو انهار)، ثم عصر التشتت، الذي يهرب فيه البشر من امبراطورية إمبيريوم السائدة، بعيدًا عن مجال هيمنة القوى الرئيسية؛ ولهذا يصبح من الصعب تعقب أيٍّ منهم. يصور هيربرت التزام ليتو الثاني بالطريق الذهبي على أنه تضحيةٌ شخصية؛ وذلك لأن ليتو الثاني يتخلى عن طبيعته البشرية حتى يتحول نصفه إلى دودة رمل؛ مما يتيح له أن يعيش لفترة طويلة تكفي لتحقيق هدفه، وهو حماية الجنس البشري والمحافظة عليه.

يتضمن الطريق الذهبي الذي أنشأه ليتو الثاني جديلتَين على الأقل من المورثات التي تم التلاعب بها، وقد أشرف هو بنفسه على أول جديلة، وذلك عبر برنامج التربية الذي بدأه عبر مجامعة شقيقته غنيمة لفارادن كورينو. ثم إن إضافة غيلان دانكان إيداهو لتصميمه الوراثي أضاف مستوى من التعقيد، حيث قدمت الغيلان له السيطرة، فأظهرت له النقطة التي بدأ منها في عملية تطور البشر، كما سمحت لليتو بدمج وتعزيز الخصال الأقدم، وذلك عبر مجامعة مرؤوسيه الجدد للغولات. وبالإضافة إلى تعزيز الخصال البشرية بشكلٍ عام، سواء الجسدية منها أو العقلية، سعى ليتو أيضًا لفصل خصالٍ محدَّدة موجودة لدى شعب الأتريديس وتعزيزها، لا سيما عنصر معرفة الغيب. فقد كان يرغب في فرض ليس فقط معرفة الغيب بل أيضًا حالة الحجب عن العيون التي تصاحبها؛ إذ كان يعرف أن الوحي القوي بوسعه أن يجعل المستقبل غامضًا، ولقد لاحظ القائمون على أمور الطائفة تلك الخصلة التي يتميز بها بول، كما

سيفعل هو أيضًا مع البحار إيدريك لاحقًا. وعبر البحث الدائم عن الأطفال ضمن برنامج التربية الخاص به، أصبح بوسعه اختيار سلالات الدعم الأصعب بالنسبة له ليعاينها وليدمجها فيجعلها تتكاثر بعضها مع البعض. وفي نهاية المطاف، أخذ يسعى لخلق سمة دفاعية تنكُّرية جديدة لدى البشر، تمامًا كما تفعل الحيوانات عندما تموِّه نفسها لتراوغ مَن يفترسها، حيث اختار حالة التكيُّف التي تسمح للبشر بالاختفاء في الوقت المناسب بعيدًا عن عقول من يعرف الغيب.

وهنالك أيضًا جانبٌ آخر لتصرف ليتو كقوةٍ مفترسة تجاه البشر جميعًا، حيث سعى لنشر استياء البشر حيال قيادته المطلقة؛ ما جعلهم يكرهون للأبد أي زعيم يتمتع بجاذبية وسلطةٍ مطلقة يمكن أن يأتي بعده. وتمثل كلتا الجديلتين الخطة المباشرة التي وضعها لتعزيز بشرة موروثة لدى المرؤوسين الذين يتحكم فيهم ويربي سلالاتهم، أما الأخرى فتقوم (بشكل مصطنع) باختيار سمات من كل السكان وذلك عبر افتراسهم، بحيث تصبح سمات من يتحدَّوْنه ويعارضون حكمه بمثابة النتائج التي يبحث عنها.

إن كلا الجانبين للطريق الذهبي الذي أنشأه ليتو الثاني ينتهجان نهجًا قائمًا على النتائج بشكلٍ قاطع، وذلك بالنسبة للعلاقة الأخلاقية بين ليتو الثاني ومخططه، من حيث إن نتيجة الفعل هي التي تقرر قيمته الأخلاقية. فمن جهة نراه يتخلى عن مصالحه ليحقق مصالح العرق البشري بأكمله، وهذه التضحية يمكن أن نراها عندما يقدم مصالح تريليونات من أفراد العرق البشري على مصالحه. كما يمكن أن نلمحها أيضًا عبر التمييز بين الأفراد وكامل النوع البشري، حيث تتفوق حاجات البشرية على حاجات أي إنسان أو أي مجموعة من البشر.

إن هذه النظرة تشبه المذهب النفعي إلى حدٍّ كبير؛ إذ يمثل هذا المذهب أحد الأشكال الشهيرة للمذهب الأخلاقي القائم على النتائج. يؤكد المذهب النفعي الذي كان جون ستيوارت ميل أحد أشهر مناصريه، على مقدار المتعة (وهنا يجب أن نفهم هذا المصطلح بمعناه الأوسع)، الناتجة عن فعلٍ معيَّن والتي تقرر قيمته الأخلاقية. وبناء على ذلك، فإن الأفعال التي تولِّد سعادة للكثير من الناس أهم وأكبر قيمة من تلك التي تولد سعادة لدى عددٍ أقلَّ من الناس. كما لا يمكن للمتعة أن تُقاس بعدد الأشخاص الذين تأثروا بفعلٍ معين فحسب، بل يمكن للمتعة أن تقاس أيضًا بناء على طبيعتها، بحيث يُنظر للمتعة الحسية على أنها أدنى رتبة من المتعة الفكرية.

وهنا يقدم هيربرت لنا ليتو الثاني وهو يضحي بالكثير من المتع العميقة مقابل نجاة البشرية كنوع.

أما الجانب الثاني لمقاربة ليتو الثاني الأخلاقية فيصرُّ على الميكيافيلية؛ إذ مهما كانت

الأفعال اللازمة لتحقيق هدف، مهينةً منفِّرة من الناحية الأخلاقية، فستبقى الغاية تبرر الوسيلة. وهنا يرى ليتو الثاني أن الهدف النهائي لبرنامجه الكبير الخاص بتحسين النسل في غاية الأهمية؛ ولذلك تصبح أي وسيلة لتحقيق هذا الهدف مُبرَّرة من الناحية الأخلاقية. وفي الوقت الذي نادرًا ما يبدي فيه ليتو شكوكه، يشكك ورثة الكون من بعده في قراراته ودوافعه على الدوام. حيث تؤكد سيونا ذلك عند موت ليتو الثاني؛ إذ بالرغم من الوصول إلى النتيجة النهائية للطريق الذهبي التي كشفها ليتو أمامها في الصحراء، فإنه لم يعد يحق له أن يتصرف بوحشية وطغيان كما كان يفعل في السابق. ولاحقًا، تقوم البيني جيسيرت، التي تعد العضوات فيها وريثات للطريق الذهبي، بالتشكيك في اللياقة الأخلاقية لتصرفات ليتو، بالرغم من أن ديدنهن يقوم على التصرف من منطلق المنفعة العملية الخالصة.

وبنهاية الروايات الأصلية، نحسُّ أن الطريق الذهبي بات في خطر، ففي رواية زنادقة الكثيب، يصبح بوسع مايلز تيغ، وهو بحار البيني جيسيرت، أن يرى السفن الخفية، فيترك بذلك الباب مفتوحًا أمام التكهنات التي تدور حول من الذي بوسعه أن يفعل ذلك أيضًا، وما هو الشيء الذي يستطيع القيام بذلك. أما الهاربون من البيت المقسَّم، في رواية: البيت المقسم: الكثيب، فيتبعهم مهاجمان مجهولَا الهُوِية لا نعرف عنهما إلا أنهما زوجان مُسِنَّان؛ أي دانييل ومارتي، اللذين بوسعهما أن يحددا مكان السفينة الخفية بصورة متقطعة، وذلك من المكان الذي يختبئان فيه. وفي تصويره لليتو الثاني الذي أوجد الطريق الذهبي، ولما خلَّفه من إرث، يقدم لنا فرانك هيربرت جعبةً مملوءة بخليط من الأشياء، أهمها بالتأكيد ضمان بقاء العرق البشري، إلا أن الحالة هنا قد لا تسمح بتبرير أي وسيلة سعيًا لتحقيق تلك الغاية. إذ قد يلاحظ القارئ في الروايات الأخيرة انتقادًا لمخطط ليتو الساعي لتحسين النسل يشبه ذلك النقد الذي رأيناه موجهًا ضد البيني جيسيرت، وذلك بالنسبة للمعرفة الناقصة، حتى تلك التي يتمتع بها ليتو الثاني؛ ما يعني أنه حتى النوايا الحسنة يمكن أن تؤدي إلى كوارث. ولكن قد يرى البعض أنه حتى لو لم يقم ليتو الثاني بضمان استمرار العرق البشري للأبد، فإنه عبر محاولته القيام بذلك، أطال مسار ذلك النوع، ويمثل ذلك الهدف الذي قدمه هيربرت على أنه جدير بالثناء ظاهريًّا.

إن ليتو الثاني ما هو إلا مثال على العواقبية الخالصة في التفكير الأخلاقي، والتي لا تتصل بحياة شخص واحد، أو مليار شخص، بل تتعلق بوجود البشر قاطبة. وهنا يقدم هيربرت التحدي النهائي: هل يكفي وجود البشر لتبرير أي وسيلة؟ لقد ارتكب ليتو الثاني فظائع وجرائم على نطاقٍ واسع باسم خلق شعب بشري من شأنه احتقار الحكم الاستبدادي إلى أبد الآبدين، وهذا ما سيكفل بقاء هذا النوع واستمراره. قد يكون هيربرت هنا يقدم لنا مثالًا حول التفوق الخالص للفكر المبني على العواقب والنتائج، أو إنه يكشف لنا القيود التي

تحدُّه. إلا أنه عندما يصور لنا شخصيات مثل سيونا، التي ترى أنه لا يمكن حتى لهدف مثل الحفاظ على بقاء الجنس البشري أن يبرر بعض الأفعال، فإنه بذلك يوحي لنا أن لديه شكوكًا حول مجمل المذهب الأخلاقي القائم على النتائج والعواقب.

تخريب الطبيعة: البيني تليلاكس

تضم البيني تليلاكس التي تُعرَف أيضًا باسم التليلاكسو مجتمعًا هامشيًّا داخل عالم الكثبان؛ إذ تصور الروايات الأولى ذلك التجمع على أنه يضم كائناتٍ غامضة ذات مسحةٍ دينية، وتشير إلى طبيعتهم الانعزالية. ثم يدرك القراء أنهم يتاجرون بالمنتجات البشرية، حيث يظهرون في رواية الكثيب بوصفهم من يخلقون المينتات المعدلة. أما في رواية مسيح الكثيب فيعهد إليهم بتجارة تعويضات العيون المعدنية وأول غول لدانكان إيداهو، واسمه هايت. وفي رواية إمبراطور الكثيب الرباني، يشارك التليلاكس ليتو الثاني في حكمه عبر تزويده بما لا يُحصى من غيلان دانكان إيداهو، في الوقت الذي يتآمرون فيه ضده. إلا أننا لن نعرف من هم تمامًا إلى أن نصل إلى الأحداث التي تسردها رواية زنادقة الكثيب، حيث يتحوَّلون إلى عباقرة بسبب المورثات، فيؤمنون بلاهوتٍ قائم على الجدارة والأهلية والاستحقاق، وهذا اللاهوت بدوره يقوم على دينٍ صوفي آخر شبيه بطائفة زن البوذية.

يرى قادة البيني تليلاكس أن لديهم استعدادًا للصعود، وأنهم الوحيدون الذين سيبقون وسيرثون الكون عند خلق كون ستفنى فيه بقية البشرية. بيد أنهم حتى تلك المرحلة يبقون مهمَّشين ومنعزلين، إلا أن قوتهم تعادل قوة مؤسسة رئيسية في إمبراطورية إمبيريوم. ثم إنهم يسيطرون بصورةٍ حصرية على العديد من النظم، لكنهم يزعمون أن كوكب تليلاكس هو عالمهم الأصلي؛ ولذلك يمنعون أغلب من لا ينتمون إليهم (وهؤلاء يعرفون لديهم باسم بوينداه) من أن تطأ قدم أيٍّ منهم ذلك الكوكب. يتعامل شعب التليلاكس بمنتجات حيوية يرغب الجميع في اقتنائها، إلا أن تساؤلات وشكوكًا تدور حولها من الناحية الأخلاقية، وهذه المنتجات تمثلها الغيلان وكذلك المينتات المعدلة. وفي نهاية الأمر، يخرج هؤلاء بتقنية تعمل على إنتاج خليط من خزانات قنفذ البحر، فيكسرون بذلك الاحتكار المفروض على هذا النوع من التوابل. وفي جميع أنحاء ما تبقى من إمبراطورية إمبيريوم، لا يحظى هؤلاء بأي ثقة، كما نجد أن الجميع يكرهونهم بشدة، ومع ذلك يبقى هؤلاء مؤثرين.

أما في رواية زنادقة الكثيب، فيكشف لنا هيربرت أن شعب التليلاكس تعمد زرع الكراهية والبغض تجاهه ونشر ذلك بين الناس، حيث قسموا مجتمعهم إلى طبقات؛ طبقة للسادة، وطبقة للخدم تعرف باسم راقصي الوجوه، والسادة هم القادة والصلب الحقيقي للبيني تليلاكس، ولا يتكتمون إلا على اللغة السرية لدينهم، وهو الإسلاميات، ويعتقدون أن رسالتهم

دينية، وأن نبيهم قد تنبأ بصعودهم. أما الشفرة الوراثية فهي شيء روحاني يطلقون عليه تسمية: «لغة الله»، وبذلك لا يمتلك إلا السادة حق الوصول إلى الخبرات الوراثية التي هُذِّبت وطُوِّرت على مدار قرون. ويدرك هؤلاء، بعد إيقاظ الغول هايت في رواية مسيح الكثيب، أنهم يتمتعون بالقدرة على استرجاع الذاكرة الوراثية بسهولة؛ الأمر الذي يسمح لهم بالعيش إلى الأبد، عبر الاستعانة بخزانات قنفذ البحر وذلك ليخلقوا من أنفسهم غيلانًا.

توضح رواية زنادقة الكثيب أن المخططات الوراثية التي يعُدُّونها لا تمثل برامج تربية طبيعية، بل إن خُطَّتهم تمثل تصميمًا وراثيًّا للخلود والتفوق، والشيء الذي يكفل خلود السادة هو خلق غيلان منهم في خزانات قنفذ البحر، أما سعيهم للتفوق فيظهر عبر خلق راقصي الوجوه، أي التابعين الذين يغيرون شكلهم وبوسعهم أن يقلدوا شكل ومظهر أي شخص، كما بوسعهم أن يمتصوا ذكرياته. وعمومًا يتحكم سادة تليلاكس فيمن يخلقونهم وذلك عبر زرع قيود وضوابط على المستوى الوراثي، وهكذا نجد أن راقصي الوجود قد خُلقوا ليخدموا السادة.

إن أفضل صفة للموقف الأخلاقي الذي يتجلى في التصميمات الوراثية للتليلاكس هي أنه قصير النظر، فالسادة لا يرون إلا هدفًا ممكنًا واحدًا لمساعيهم الوراثية، ألا وهو بقاؤهم وتعزيز وجودهم عبر خلق غيلان منهم وخلق الخدم من راقصي الوجوه. أما العادات والتقاليد السائدة في إمبيريوم فيُنظر إليها بازدراء لأنها بعيدة عن الدين. وتُخضَع النساء ليتحولن إلى خزانات لقنافذ البحر، لدرجة أنه لا أحد يراهُنَّ أو يسمع بهن خارج شعب التليلاكس. ثم إن يقينهم المطلق بصحة دينهم يعمي بصيرتهم تجاه الكون؛ ولذلك لا يشكك أيٌّ منهم في التداعيات الأخلاقية التي تترتب على حالات التلاعب الوراثية التي يمارسونها.

إلا أن النتيجة التي تترتب على قصر نظرهم كانت كارثية، ففي رواية زنادقة الكثيب، يحاول السيد واف السيطرة على نسخة مقلَّدة بدقة لراقص الوجوه الذي يمثل الكاهن الأكبر تويك بلغته التي يستخدم فيها أحرف الهمس كثيرًا، إلا أنه يفشل في ذلك بسبب التغير الكامل الذي يطرأ على راقص الوجوه بحيث يظهر بشكل جديد. ولهذا يبدع راقصو الوجوه الجدد في التقليد؛ إذ عبر استيعاب كل الذكريات التي يمتلكها الشخص الذي يحلون محله، يصبحون على صورة وشكل ذلك الشخص تمامًا. إلا أن خلق شعب التليلاكس لعدد كبير من راقصي الوجوه إلى جانب الاستعباد الذي يمارسونه بحق النساء قد أدى إلى زوالهم. إذ تُظهر روايتا صيادي الكثيب وديدان الكثيب الرملية راقصي الوجوه، من خلال الترابط الدائم في عقلهم الذي يشبه الخلية الواحدة، وهم يخططون لإسقاط التليلاكس، كما يخططون لإسقاط سادة الحواسيب الذين خرجوا بتقنيةٍ جديدة لراقص الوجوه.

وفي رواية: البيت المقسم: الكثيب، يقترب السادة الأشراف من إبادة البيني تليلاكس. وتكشف السلسلة أن السادة الأشراف أحفاد لنساء من شعب تليلاكس تمردن على مجتمعهن الذي اضطهدهن. وفي كلتا الحالتين، تقوم البيني تليلاكس بخلق وحوش تخرج عن سيطرتها، بصرف النظر عن نواياها. وفي نهاية المطاف، يتسبب هؤلاء في تدمير أنفسهم وذلك من خلال التصميمات الوراثية التي ينتجونها، فلا ينجو منهم سوى سيتيل وهو عبارة عن غول يمثل غول سيتيل الأصلي الذي ورد ذكره في رواية مسيح الكثيب. يبدأ سيتيل حياته كراقص وجوه هو أيضًا، ثم يصبح من السادة، وفي نهاية الأمر، يصبح السيد الوحيد. وهنا نكتشف أن الخراب وسخرية الأقدار التي تعرض لها شعب تليلاكس أتى نتيجة لأجندتهم القائمة على هوس وحيد وعلى عقول منغلقة.

وفي الوقت الذي يقوم فيه هيربرت بتطوير عدة أفكار والبحث فيها وذلك عبر البيني تليلاكس، مثل فكرة تقاطع الدين مع السياسة، وطبيعة الثقافة الخارجية، والتداعيات الأخلاقية للأشكال البديلة للتناسل، يتمثل الجانب الأساسي لبرنامج تحسين النسل الذي تتبناه البيني تليلاكس في صعود ذلك الشعب؛ إذ لا يتدخلون في عملية التناسل وحسب، كما رأينا مع البيني جيسيرت، بل يخلقون طريقةً صناعية بالكامل يتم من خلالها خلق البشر. إذ يمثل خزان قنفذ البحر النهاية المنطقية لعملية التخصيب في المختبر، كما تصبح ممارسة عملية إعادة إنتاج المرء لنفسه عبر خلق غيلان، طريقةً عملية أكثر من القيام بذلك عبر إنجاب الأولاد البيولوجيين.

وعبر خلق هذا العنصر في كون الكثيب، يتحدَّانا هيربرت ويدفعنا لمساءلة عاداتنا؛ إذ لمَ من الأفضل من الناحية الأخلاقية أن تنجب طفلًا على أن تخلق نسخة مطابقة لنفسك تتمتع بالامتداد الفكري ذاته؟ هنا نكتشف أن المنظومة الأخلاقية للتليلاكس مبنية على التعصب، وذلك عبر خلق مزيج من علم الأخلاق، حيث تستند البدَهيات الأخلاقية على الواجب (أي على تعاليم دين التليلاكس في هذه الحالة)، ومذهب العواقبية، حيث تكون الأهداف التي يحددها الدين مهمة، ويبرر السعي لتحقيق الهدف النهائي الذي يمثل في هذه الحالة صعود سادة البيني تليلاكس وحكمهم لسائر المجرات أي عمل أو ممارسة. وهنا يصور هيربرت فظائع بغيضة بصورة مذهلة.

طريق الحديقة (الوحيد)

تظهر الأمثلة التي قدمها فرانك هيربرت حول برامج تحسين النسل في رواية الكثيب موقفًا أخلاقيًا معقدًا، فهو يكشف أن التخطيط والهندسة الوراثية للبشر يمكن أن تحمل معها مخاطر جمة، إلا أنها يمكن أن تكون مفيدة أيضًا، بل وضرورية لبقاء النوع البشري. ولعل أهم

ما قدمه هيربرت حول الطرح الأخلاقي لفكرة تحسين النسل يتمثل في المخاطر المتأصِّلة في تبني الأمور المطلقة، فقد فشلت البيني جيسيرت لأنها بحثت عن شخصٍ واحد ضمن مخطط التربية الذي خرجت به، كما سعى ليتو الثاني لتحقيق نتيجة واحدة، ألا وهي بقاء النوع البشري، واتبعت البيني تليلاكس أجندةً دينية وأخلاقية واحدة؛ إذ كما ورد في رواية أبناء الكثيب، فإن «أخطر المخلوقات قاطبة تتمثل في قانون صارم للأخلاق».

إذا كان هذا ما يريد هيربرت أن يقوله لنا، عندها علينا أن ننتبه لأخلاقنا التطبيقية، أي كلما كان القانون أشد صرامة زاد خطره عند التطبيق.

وحتى مع ما يبدو هدفًا محمودًا والذي هو حفظ الوجود البشري، يقدم لنا هيربرت شخصًا، ألا وهو ليتو الثاني، ليتَّخذ قرارًا مخيفًا يتمثل في تطبيق تحسين النسل لصالح بقاء البشر. إن استخدام هيربرت لفكرة تحسين النسل من الناحية الدرامية في رواية الكثيب يجب أن يشعرنا بالراحة على الأقل، لأن أيًّا منا لم يتعرض حتى الآن لمثل هذا الموقف الذي ينطوي على اتخاذ قرارٍ مماثل؛ إذ حتى الطريق الذهبي يمكن أن يتحول إلى طريق نحو الحديقة، ولهذا يجب أن نتعامل معه بحذر قدر الإمكان.

ساعد في كتابة هذا الفصل: ستيفاني سيملار

تغيير الرمال وتغيير التوازن

أهي هبة لليتو الثاني؟

الكاتب المحتمل: المنتات لويس ميلانسون

التاريخ: 13700 حسب التقويم الإغريقي

ثمة موضوع رئيسي يتخلَّل رواية الكثيب وأجزاءها، ويدور حول حاجة العرق البشري للخلاف والنزاع؛ إذ عبر خوض الخلاف والنزاع، يصبح هذا العرق قادرًا على التقدُّم والتطوُّر. يرى موديب كيف أصبح العرق البشري راكدًا وجامدًا، وكيف سيؤدي الجهاد عبر المجرات والذي نتج عن قيادة الفريمين لاستعادة أراكيس إلى خلط مجمعات المورثات ودفع العرق البشري نحو الأمام ولو قليلًا.

ولقد رأى ليتو الثاني ذلك أيضًا؛ إذ يشمل الهدف الحقيقي للطريق الذهبي ليس فقط بناء الإمبراطورية المسالمة التي أشرف عليها لآلاف السنين، بل أيضًا تشمل انفجار البشرية الذي سيحدث بعد وفاته، فضلًا عن التشتُّت، وذلك عندما تبدأ البشرية بالبحث عن أماكنَ جديدةٍ في هذا الكوكب إلى جانب بحثها عن أشكالٍ جديدة لتسكنها وتتخذها بيوتًا جديدة تقيم فيها.

ويمكن لهذا النزاع والخلاف أن يتخذ أشكالًا كثيرة، مثل المجاعة والمرض وغياب النظام الحكومي بشكلٍ مفاجئ، والحرب، وكل تلك الأشكال تلعب دورًا ما ضمن ملحمة الكثيب بوصفها طريقة وأسلوبًا للخلاف والنزاع الذي يطوِّر العرق البشري، ولعل الدور الذي تلعبه الحرب هو الأكبر. فمن خلال نظرة سريعة خاطفة على كَمِّ الصفحات التي خُصِّصت لوصف القتال والمعارك نجد أنها تمثل قدرًا ضئيلًا ضمن المستوى الكلي للنص. إلا أن كتابة صفحة وراء صفحة حول مشاهد المعارك، لا تعكس أهمية الحدث، بل إن غياب هذا الوصف والتفاصيل الكثيرة التي تخصصها هذه الروايات للحديث عن الآثار التي تترتب على الحرب تؤكِّد على أهمية الحرب في هذه السلسلة. فالحرب تنطوي على شيء أكبر من مجرد إطلاق النار على الناس، كونها تقيم عَلاقة بين المجتمع الذي يدير الحرب، والقوات العسكرية التي يستعين بها ذلك المجتمع داخل الحرب، والحكومة التي تقود ذلك المجتمع، ولكل عنصر من تلك العناصر دور عليه أن يمارسه، ومع تطور الحرب لا بد أن يتغير التوازُن القائم بين تلك العناصر وأن يتعدل لضمان سعي كل العناصر، سواء بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، لتحقيق الأهداف السياسية للحرب التي يقاتلون من أجلها. وهنالك أنواع مختلفة للحرب، إلا أن الطبيعة الأساسية للعلاقات تبقى ثابتة. ولهذا قدمت رواية الكثيب شيئًا رائعًا عندما عرضت

الطريقة التي يمكن من خلالها حفظ التوازن بين عناصر الحرب، حتى مع اختلاف أنواع النزاعات. والأهم من ذلك ربما، هو أن هذه الرواية تَعرض الخطر المتمثل بالعواقب الشديدة غير المقصودة في حال عدم حفظ ما يكفي من الفكر أو التوازن. وهذا الدرس ينطبق على العالم المعاصر عندما يُنظر إلى القوة العسكرية على اعتبار أنها أداة لتحقيق هدفٍ سياسي.

صناعة غول كلاوزفيتز

لست مقتنعًا بصحة موضوع الحرب بوصفه حاجةً بشرية برأي فرانك هيربرت؛ وذلك لأن تسلسُل الأفكار هذا يمكن أن يقودنا إلى مسار يتَّسِم بسحرٍ مميز للنزعة العسكرية، والعسكرة قد تكون خطرة للغاية على المجتمع. إلا أن للحرب تأثيرًا مهمًّا على صياغة التاريخ ورسم شكل المجتمعات التي صنعناها نحن البشر.

هنالك العديد من الشخصيات البارزة التي كتبت عن الحرب بشكلٍ نظري مثل صن تزو، وجوميني، وماهان، وت. ي. لورانس، وليديل-هارت، إلا أنه بالنسبة لجد المخططين الاستراتيجيين، أي منتات نظرية الحرب، أو شعب المنتات إن أردتم، فهنا عليكم أن تعودوا لفون كلاوزفيتز ودراسته للحرب بوصفها جزءًا من التجربة البشرية.

وهذه ليست الفكرة الأولى التي يكتشفها كثيرون في كتابات فون كلاوزفيتز، إلا أنها فكرة تأسيسية يقوم عليها غيرها من الأفكار، وهي ترى أن الحرب تتألف من نشاطٍ اجتماعي، وهذا النشاط لا يشبه حفلات الكوكتيل بشيء، ما لم تظهر في حفلات الكوكتيل تلك ألغامٌ أرضية، إلا أن هذا النشاط تنخرط فيه المجتمعات وتشارك. ولا شيء يشبه النشاط الاجتماعي كما تفعل السياسة، والتي هي عبارة عن صياغة وتشكيل لنظام حكم، بصرف النظر عن نوع ذلك الشكل، مثل الديمقراطية التمثيلية السائدة في معظم دول العالم الغربي الحديث أو الأوليغارشية (حكم القلة) القائمة على الطبقات في كون الكثيب. والآن إذا جمعنا هذه الفكرة مع أشهر موضوع في فكر كلاوزفيتز والذي يعُدُّ الحرب مجرد شكل آخر من أشكال الخطاب السياسي وطريقة لتحقيق هدفٍ سياسي، عندها بوسعنا أن نقول إن الحرب نشاط اجتماعي تنخرط فيه المجتمعات في محاولة منها لتحقيق هدفٍ محدد. وعندها سيصبح أمر وجود (أو عدم وجود) حفلات الكوكتيل ضمن حربٍ ما قابلًا للتغيير.

ثالوث كلاوزفيتز

بالتوسع في مفهوم النشاط الاجتماعي، يحدد كلاوزفيتز ثلاثة عوامل متمايزة لكنها مترابطة تمثل الحرب التي يصفها بال «الثالوث المميز»، حيث يصف ذلك الثالوث بلغة وردية على أنه مؤلف من «العنف الأصلي لعناصر الحرب، والكراهية والعداء، والتي يمكن أن يُنظر إليها على أنها غريزة عمياء، تعمل على التلاعب بالاحتمالات والحظ؛ مما يجعل الحرب نشاطًا

حرًّا نابعًا من الروح، كما يجعل الحرب تعود لطبيعة الأداة السياسية الثانوية، التي تنتمي الحرب من خلالها إلى المنطق بصورته المطلقة».

تقليديًّا، تشير فكرة «الكراهية والعداء» إلى الدعم والاستعداد الذي يبديه شعب الدولة للمشاركة في حربٍ ما. أما «التلاعب بالاحتمالات والحظ» فيشير إلى قدرة القوات العسكرية على تحديد الخطر وتخفيفه وتقبله في ساحة المعركة. وأخيرًا، تربط «الطبيعة الثانوية للأداة السياسية» بين الجهود العسكرية والقيادة السياسية للدولة والأهداف السياسية التي وُضِعت للحرب.

وبالنسبة للحرب الناجحة، لا بد من تحقيق حالة توازن بين تلك العناصر الثلاثة، ولا يعني التوازن هنا الاتِّساق، بل يجب معالجة كل عنصر من تلك العناصر والتشديد بشكلٍ مناسب على طبيعة النزاع وعلى حالة النزاع مع تطور الحرب. وهنا يبدو الدوق ليتو سيد هذا العمل القائم على التوازن؛ إذ حتى قبل أن يصل الدوق إلى كوكب أراكيس، يعترف أنه سيواجه حالة حرب غير تقليدية، بما أن الهاركونين سيحاولون أن يشنوا نزاعًا يهدف إلى تدميره واغتياله، بدعمٍ ماكر من الإمبراطور.

إن الحرب غير التقليدية – بحسب ما ورد في قاموس المصطلحات العسكرية وما يتصل بها، الذي تعتمده وزارة الدفاع الأميركية – تكون طويلة الأمد عادة، وتتم في الغالب الأعمّ على يد قواتٍ محلية أو بديلة أو بواسطتها أو من خلالها، والتي يتم تنظيمها وتدريبها وتزويدها بالعتاد ودعمها وتوجيهها بدرجاتٍ متفاوتة من قبل مصدرٍ خارجي. وعليه فإن عنصر الحكومة لدى ليتو الثاني آمنٌ، بما أنه محاط بمستشارين ناصحين من أصحاب الخبرة، كما أن عنصر القوات العسكرية لديه آمنٌ إلى حد معقول، بوجود الجنود الذين أتى بهم من كالادان.

بيد أن شعب أراكيس من المرجَّح أنه يعاني في أحسن أحواله من تناقض وتردُّد تجاه تغيير المؤسسات الحاكمة، وهذا يعني أن عليه أن يركز على عنصر الشعب، فإذا كان بالإمكان كسب دعم الفريمين، عندها سيصل ثالوثه إلى حالة توازن بما يسمح له بالقضاء على تهديد مَن بقي من مخربي الهاركونين، مع قيامه في الوقت ذاته بزيادة قدرته على الحكم؛ ما يمنحه قوةً عسكرية مهمة جدًّا يمكنه من خلالها أن يضرب ابن عمه البدين وأن يصد الأنشطة التي يمارسها الإمبراطور المخادع. وهكذا نجد أن الدوق يسعى لذلك منذ البداية، حيث يرسل الثوفير هاوات ليبدأ بالتفاوض في مرحلة مبكرة مع الفريمين، وليلتقي بستليغار بهدف إطلاق الجهود لتحقيق التوازن المطلوب من هذا العنصر. ولكن لسوء الطالع، لم تحظَ استراتيجيته بفرصة كافية لتتحقق قبل ضرب الإمبراطور وبارون هاركونين؛ إذ بعد تلك

الفترة، تغيرت طبيعة النزاع كثيرًا، فهل ستبقى نظرية الثالوث صالحة؟

إرنستو «أوسول» غيفارا

إذا كانت نظرية الثالوث وطبيعة النزاع تعاني من مشكلةٍ ما، ولعل ذلك يعود لخبرات كلاوزفيتز وتجارِبه، عندئذٍ يجب علينا أن ندخله هو وعمله في السياق.

ترتكز خبرات كلاوزفيتز على الحروب النابوليونية بالرغم من أن تعرضه بشكل شخصي للمعارك في ساحة المعركة لم يكُن كبيرًا للغاية. وهذه الحرب تنطوي على تشكيلاتٍ كبيرة من الجنود والخيول والمدافع التي تتسبب في الدمار والخراب بعضها لبعض. كما أن الاستعانة بالقوات غير النظامية لم تكن أمرًا شائعًا، وحتى لو استخدمت، كما حدث في حرب العصابات الإسبانية في شبه جزيرة أيبريا، أو من قبل متسلقي الجبال التيروليين، فقد كان يُنظر إليها على أنها رديف استراتيجي للتشكيلات الأكثر رسمية التي تقوم بالحرب التقليدية، أي التي تدعم القوات الأنغلو-برتغالية، أو تخلق فرصًا أمام الجيش النمساوي. لم يكن ذلك تطورًا جديدًا، بما أن هذا الوضع قد ظهر من قبلُ في العالم الجديد، خلال حرب السنوات السبع، وفي الثورة الأميركية.

ستلاحظون مع كل تلك الأمثلة، أن تلك النزاعات كانت تجري ضمن بيئة الدولة السياسية ضد دولة أو قوات غير نظامية مرتبطة بتلك الدولة بشكل متين، كما هي حال متسلقي الجبال التروليين. وعليه فإن رأي كلاوزفيتز يمثل وجهة نظر تركِّز على الدولة فحسب، ولكن هذا مُبرر، لأن التغيُّرات السياسية التي عصفت بأوروبا مع قيام الثورة الفرنسية ومع السقوط المدوِّي للإمبراطور بونابرت كانت أهم تغيرات بالنسبة لتطور الدولة الحديثة منذ أيام صلح ويستفاليا الذي أتى بعد نهاية حرب الثلاثين عامًا، أي قبل 167 سنة؛ إذ خلال تلك الحقبة من التاريخ، كانت الدولة تُعَدُّ كل شيء. ولقد أظهر العمل الذي قدمه كلاوزفيتز هذين العاملين بكل وضوح، حيث يُحوَّل الدور الذي تلعبه القوات غير النظامية إلى حرب غير تقليدية تدعم القوات التقليدية، التي تعبِّر عن الإمكانيات الأساسية التي تستعين بها الدولة لتحقيق الهدف الذي حددته.

ولكن ماذا يحدث عندما لا توجد هناك دولة، أو عندما يدخل في اللعبة عنصرٌ فاعل لا يمثل دولة؟ عندها لن يكون النزاع حربًا تقليدية، بل سيكون حربًا غير نظامية. وذلك لأن: «النضال العنيف ضد فاعلين يمثلون دولة أو لا دولة للحصول على الشرعية والنفوذ على شعبٍ ما» ليس بحرب تحتاج إلى المزيد من العناصر الداعمة ضمن النهج الذي تتبعه؛ لأن طبيعة النزاع تختلف عندما نغيِّر الوضع، من قوتين (سواء تقليديتين أو غير تقليديتين) تواجهان بعضهما إلى وضع تأثير الشعب ونفوذه وسط تلك الجهود.

لم يناقش كلاوزفيتز الحرب غير النظامية، وهذا ليس بمستغرب بالنسبة للسياق التاريخي الذي كتب فيه عمله. بَيد أن هذا النقص لا يعني أن الثالوث المميز أصبح شيئًا عفى عليه الزمن، بل يعني أن التسميات التقليدية للشعب وللقوات العسكرية وللقيادة الحكومية؛ أصبحت بحاجة إلى بعض التغيير والتعديل. وحتى فيما يتصل بالعنصر الفاعل الذي لا يمثل دولة، يجب لهذا العنصر أن يعالج مسألة التوازن بين الجماعات السكانية المتعدِّدة التي يجب عليه أن يتفاعل معها، وقدرته على ممارسة العنف ضد خصمها، مع ضمان سعيها لتحقيق الهدف السياسي النهائي عند نجاحها في نضالها. وفي الختام يمكن القول إن مفهوم الدولة يمثل تصنيفًا آخر للقيادة السياسية؛ فهو مجرد نموذج بقينا نتعايش معه طوال السنوات الأربعمائة الماضية، إلا أن أسس ودعائم النشاط الاجتماعي بقِيَت على حالها.

وهذا النوع من النزاع هو الذي وجد موديب نفسه منخرطًا فيه، إلا أنه تلاعب بالنشاط الاجتماعي بالطريقة ذاتها التي اتبعها والده، فهو لم يكن يتمتع بدعم خارجي، حيث مُنِيت قوات الأتريديس بالهزيمة؛ فتشتت الجنود التابعون للتشكيلات التي أسسها والده أو قُتِلوا. وبعضهم تمكن في نهاية المطاف من العودة إليه، كما حدث مع غورني هاليك، إلا أن ذلك كان مجرد صدفةٍ بحتة. ثم إنه يتمتع بقوةٍ قتالية هائلة كتلك التي يتمتع بها شعبه، أي ملايين الفريمين الذين لم يشملهم العد في الإحصاء السكاني للإمبراطورية. إلا أن ذلك لا يعني دمج عنصرين من عناصر هذا الثالوث؛ لأن تلك العناصر ما تزال متفرقة، بالرغم من الطبيعة المركزية للقتال والحرب في ثقافة الفريمين. كما أن موديب يُظهر على الأقل في غفلة من الزمان قدرته الهائلة على تحقيق حالة توازن ضمن الثالوث المميَّز وذلك في الكتاب الثالث من الكثيب، عندما يتعين عليه التعامل مع تقاليد ثقافة الفريمين التي تفرض تغيير عباءات القيادة بشراسة.

وعند بلوغ تلك المرحلة، يصبح تمرُّد الفريمين مسألة تسير على قدم وساقٍ، وتصبح القبائل متحمسة لمواصلة هجماتها على قوات هاركونين، كما يتعاظم نفوذ موديب على مختلف فئات فريمين، ويدين له ستيلغار أنه الدوق الجدير بحكم أراكيس. وبذلك، تملي تقاليد فريمين على موديب وستيلغار أن يتبارزا حتى يسيطر أحدهما على جناح تابر وبالتالي قيادة كل القبائل. وللقيام بذلك لا بد من معالجة مسألة دعم الشعب، فإن ذلك سيقف في وجه قواته العسكرية وقيادته السياسية بشكلٍ خطير. وبالرغم من تعاظم قدرته على معرفة الغيب، يبقى موديب بحاجة للخبرة والمهارة التي يتمتع بها ستيلغار في ساحة المعركة، وذلك للحد من درجة «التلاعب بالاحتمالات والحظ»، بالإضافة إلى الحد من ذلك ضمن الأجنحة، وذلك لحكم الناس فيما يتصل باحتياجاتهم اليومية التي يجب على الحكومة أن تؤمِّنها. وفي تلك اللحظة من الزمان، يحمل موديب الثالوث في توازنٍ رائع، حيث يخلق حالة تغيير

داخل تقاليد الشعب، فيحد بشكلٍ كبير من نفوذ هذا العنصر ضمن الثالوث، بحيث يصبح بوسعه المحافظة على قوة العنصرَين الآخرين على الرغم من أن العنصرَين العسكري والشعبي مستمَدَّان من المصدر ذاته، أي شعب الفريمين الحقيقي.

بوسعنا أن نشير لذلك على أنه حالة حرب غير نظامية قام الثالوث بالتغير فيها نحو العنصر الشعبي. وبالطبع، هنالك مجال واسع للفويرقات هنا؛ إذ يمكنك أن تضمن حصولك على دعم من فئةٍ سكانية معينة، أو قد تضمن بقاء فجوة بكل بساطة بين خصمك وبين فئة سكانية معينة تحاول من خلالها أن تحصل على الدعم؛ لذا ينبغي عليك إن كنت قائدًا، سواء أكنت عسكريًا أم مدنيًا، أن تخصص جزءًا كبيرًا من الجهد لهذا الجانب من الثالوث المميز، إلا أن ذلك لا يعني أن العنصرين الآخرين أصبحا قديمَيْن وباليَيْن؛ وذلك لأن النشاط الاجتماعي للحرب بقي على حاله، أما الأساليب وبعض المعايير فيمكن أن يطرأ عليها تغيير طفيف.

مشاركة للوصول إلى كرسي الدوق ومشاركة للوصول إلى عرش الإمبراطور

تحدثنا عن عنصر الثالوث الذي يتعامل مع السيطرة السياسية على الحرب، أي القيادة السياسية-الإستراتيجية التي تكفل توجيه الجهود في زمن الحرب نحو وجهة تؤدي إلى تحقيق الهدف السياسي. وتشمل عملية تحقيق الهدف السياسي السبب الكامن وراء شن الحرب في المقام الأول؛ لذا يمكن تركيز جُلِّ الاهتمام على الشكل الذي سيكون عليه الهدف قبل أن تبدأ الحرب حتى.

إن صعوبة الحرب غير النظامية والأهداف السياسية تأتي من صعوبة تحديد الوقت الذي أُنجِزَت فيه تلك الأهداف. أما بالنسبة للحرب التقليدية، فالأمور في غاية السهولة؛ وذلك لأن هذا يتمثل بإخضاع تلك المساحة من الأرض، أو تدمير قوةٍ قتاليةٍ معينة، أو إرغام خَصمك على خفض الضرائب والإتاوات. أي إن الأمور بالنسبة للحرب غير التقليدية تغدو أكثر غموضًا وضبابية، ولكن يمكن تحديد هدف لها. إذ في النهاية، وبِناء على التعريفات التي قدمناها، ثمة مصدر خارجي تقليدي بنسبة أكبر من غيره، وهذا المصدر سيحدِّد أهدافًا سياسية تقليدية بشكلٍ أكبر، وهنا يمكن القيام ببعض عمليات الربط، وبالطبع، يمكن للنزاع نفسه أن يتحول إلى نموذج أكثر تقليدية بمرور الوقت، كما حدث مع نموذج حرب العصابات التي قادها غيفارا.

ولكن في الحرب غير النظامية، متى يمكنك أن تعلن أن الهدف قد تَحقَّق؟ وإذا كنت عنصرًا لا يمثل دولة وهذا العنصر يسعى لتحقيق تغييرٍ ما، فهل تكون قد حقَّقت ذلك التغيير عندما تُدمَّر الدولة بشكلٍ كامل، أم عندما تأخذ مكان خَصمك وتتحول إلى دولة؟ إن الصعوبة هنا تكمن في أنك بدَّلت المواقف مع خصمك، لكنك ما تزال تخوض حربًا غير نظامية، أي

إنكما على طرفَي نقيض في تلك المعادلة. ولكن هل الهدف يتلخَّص في عدم تدميرك وأنت تخوض النضال ببساطة؟ وعلى أية حال، كم يتعيَّن عليك أن تصمد قبل أن يصبح بمقدورك أن تعلن أنك حققت هدفك؟ تلك هي المشكلة الحقيقية بالنسبة للحرب غير النظامية، والتي لا يكون الثالوث فيها غير مناسب، بل إنه من الصعوبة بمكان إدارة الثالوث عندما تستند العناصر الثلاثة إلى هدفٍ فضفاض غير واقعي أو غير موجود أصلًا.

وضع الدوق ليتو هدفين سياسيين اثنين نُصب عينيه؛ وهما توزيع حصص التوابل بنزاهة وعدل، وإظهار ازدواجية الإمبراطور الذي يتآمر مع شعب هاركونين على عملية توريد التوابل، وذلك أمام المؤسسات العظيمة الأخرى. ولتحقيق هذا الهدف، طفق يسعى لكسب تأييد شعب الفريمين وذلك لضمان تأييد الشعب له ولدعم إمكانياته العسكرية. ولتحقيق هذا الهدف الثاني، في حال أُخرِج من أراكين بالقوة أو عبر خيانة ما، عندها بوسعه أن يستعين بالمهارات والقوة التي منحتها الصحراء لشعب الفريمين وذلك لكسب الأدلة اللازمة لتوحيد شعب اللاندسراد مقابل عرش الأسد وضمان حكمه الإقطاعي. تلك الأهداف تبدو متواضعة قليلًا، ولكن لولا خيانة الطبيب يويه لكانت جميعها قابلة للتحقيق.

لا يمكننا أن نقول الشيء ذاته عن أهداف موديب، أو بدقة أكبر حول الطريقة التي يربط بها بين ذلك الهدف وموازنته لعناصر الثالوث؛ إذ يبدو هدفه الأوَّلي متواضعًا بعض الشيء، ويتمثل في إعادة عائلة أتريديس إلى مكانتها بوصفها حاكمة لأراكيس، ليصبح هو الدوق الجديد. إلا أن الطريقة التي اتبعها في محاولته تحقيق هذا الهدف كانت مختلفة. سبق لنا أن تحدَّثنا عن ذلك عندما تطرَّقنا للحديث عن ستيلغار الذي خلق حالة توازن رائعة للثالوث بحيث لا يمكن لذلك أن يدمر جهوده، كما فرض تغيرًا طفيفًا على ثقافة الفريمين. إلا أنه في حالاتٍ أخرى كثيرة، تلاعَبَ، بشكلٍ مقصود أو غير مقصود، بثقافة الفريمين وبالدين لتحقيق هدفه باستعادة حكمه الإقطاعي (ويمثل ذلك أحد عيوب المرء عندما يكون كويستاز هاديراتش). إلا أن تلك الأمور التي تلاعب بها تشي بأهداف أعظم بكثير، وتتمثل بالانتقام من الظلم الذي عاشه الآلاف على مدار سنين خلت، وكذلك تتمثل بهدف الخلاص على طريقة المسيح. وهذا ما يُبعِد العنصر السكاني في الثالوث عن سيطرة عنصر الحكومة؛ ومن ثَمَّ يخرجه من حالة التزامن مع الهدف السياسي.

تتمثل نتائج اعتماد ثالوث غير متوازن على هدف لم يصل إلى حالة الرسوخ بعواقب كبيرة غير مقصودة. إذ بعد معركة أراكين، تشهد المجرة حالة جهاد فريماني مع تفرق جحافل الجنود الفريمانيين في أنحاء الكوكب لينشروا قصة موديب وطريقة حكمه الشبيهة بطريقة المسيح. وهكذا يتعرض مليارات من البشر للقتل، وبفضل علم الغيب، يعرف موديب أن ذلك سيحدث، فيبحث عن طرق لمنع ذلك أو للسيطرة عليه. غير أنه لا يفلح في ذلك بالرغم من

قدرته على رؤية المستقبل. وبالنسبة لنا بما أننا بعيدون كل البُعد عن التحول إلى كويستاز هاديراتش، فإن قدرتنا على توقع آثار تلك الحوادث أو الحد منها تكون أقل بكثير، ولهذا لا بد وأن تمثل تلك القدرة الضعيفة حالة تحذير بالغة الأهمية.

من صحاري أراكيس إلى صحاري كوكب الأرض

حتى اليوم، تتضح العواقب غير المقصودة لتحديد هدف بطريقة سيئة أو لعدم وجود هدف على الإطلاق، وذلك عند خوض حالة حرب غير نظامية بسهولة. إذ عندما كنت أكتب هذا الفصل، كان حِلف شمال الأطلسي قد دخل في نزاع غير نظامي في أفغانستان وامتد ذلك لتِسع سنوات دون تحديد هدف تتَّفق كل الدول الأعضاء في حلف شمال الأطلسي على وضوحه أو قابليته للتحقيق؛ والنتيجة هي استمرار وتصعيد العنف في تلك البلاد. ويمثل العراق بعد صدَّام حسين مثالًا على ذلك؛ إذ في الوقت الذي بدا فيه الهدف الأوَّلي واضحًا إلى حدٍّ ما، أدى إسقاط نظام صدَّام، وعدم قدرة الحكومة الأميركية على استيعاب ذلك بشكلٍ كامل وعلى الخروج بخطة سياسية لمرحلة ما بعد النزاع؛ إلى قيام حرب غير نظامية أخرى امتدت لست سنوات، بالرغم من أن القرار الذي يقضي بشَنِّها أصبح اليوم بيد الحكومة العراقية وحدها. وفي كلتا الحالتين، نجم عن وضع هدف ضعيف أو عدم تحديد أي هدف، وكذلك عدم قدرة عنصر الحكومة في الثالوث على تركيز جهود الحرب المرتبطة بعنصر الشعب بشكل مناسب؛ عواقب غير مقصودة تمثلت بخسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات بين صفوف المقاتلين وغير المقاتلين من كل الأطراف في تلك النزاعات. لذا إن كنت لا تستطيع قراءة المستقبل كما يفعل أي شخص ينتمي لكويستاز هاديراتش، عندها ستكون النتائج الطويلة الأمد المترتبة على تلك المغامرات جمَّة، كما أن حجم ومدى تلك العواقب غير المقصودة سيبقى مجهولًا.

البشر كائنات اجتماعية، ولهذا فنحن نتشارك في الأنشطة الاجتماعية، ومن أهم تلك الأنشطة الأساسية النشاط السياسي. ولقد كانت الحرب على مَرِّ العصور ذلك النشاط السياسي الذي شاركنا فيه مرات كثيرة وصرفنا عليه الكثير من الموارد. ومن المرجَّح أن نواصل فعل ذلك في المستقبل، وفي كون الكثيب؛ لأن ذلك النشاط وُجِدَ ليستمر ويستهلك الكثير من طاقة البشر. ولهذا، يجدر بنا أن نتأكد من فَهمنا لهذا النشاط، ولتلك القوة، حتى يصبح بوسعنا التقليل من حجم العواقب غير المقصودة. وبصرف النظر عن نوع النظام السياسي الذي يعيش الناس فيه، يشدد الثالوث المتميز الذي قدمه كلاوزفيتز على العلاقة بين الشعب والحكومة والقدرة العسكرية التي ستستخدم في الحرب لتقدم إطارًا لفهم قوة هذا النشاط. وبدون خلق حالة توازن ملائمة داخل تلك العلاقة، ودون تحديد هدفٍ واقعي قابل للتحقيق يمكن لهذه العلاقة أن تقوم عليه، يصبح اللجوء إلى الحرب لتحقيق أغراض

سياسية محل شك، ومن المحتمل ألا تكون نتائج ذلك محمودة. وهنا ما علينا سوى أن نسأل موديب عن محاولته استرجاع كرسي الدوق وما نجم عن ذلك من تحوُّله إلى إمبراطور على حساب آلاف الكواكب وملايين الأرواح. إذ ثمة درس تحذيري موجَّه لنا، نحن من نعيش في العالم الحديث، وهذا الدرس يدور حول ضمان فَهمنا الكامل لما نرغب في تحقيقه قبل الاستعانة بالقوة العسكرية لتحقيق غاية سياسية.

لعنة الطريق الذهبي

من دار إس بالات

الكاتب المحتمل: ليتو الثاني

التاريخ: 12333 حسب التقويم الإغريقي

إذا أراد الله لمخلوق أن يموت في مكانٍ معين، فسيجعل المخلوق يرغب في التوجُّه إلى ذلك المكان.

الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي

(من رواية الكثيب).

فخ علم الغيب

ظل التنبؤ والوحي – أي تلك القوة المبنية على الرؤى حول معرفة المستقبل قبل وقوعه – يُنظر إليه على أنه يحمل أخطارًا، وأنه سلاح ذو حدَّين، فهو نعمة ولعنة في آنٍ معًا. فإذا كان بوسعك أن ترى المستقبل، وأن تدرك أن ما تراه حقيقي، عندها سيتحقق المستقبل كما رأيته. بيد أن الرؤيا المبنية على وحي وتنبُّؤ تصطدم بقوة بإحساسنا بامتلاك إرادةٍ حرة على تغيير مستقبلنا عبر اتِّخاذ قراراتٍ مختلفة، ويمكن لتلك الرؤيا أن تدمِّر ذلك الإحساس أيضًا، وهذا ما يعرف باسم مفارقة المعرفة السابقة.

يشرح فرانك هيربرت بكل وضوح كيف يعمل علم الغيب في كون الكثيب، حيث يستطيع وسطاء الوحي الأقوياء مثل بول-موديب وليتو الثاني رؤية الكثير مما يمكن أن يحدث في المستقبل، هذا إن كانت حالات المستقبل ممكنة ومتعدِّدة، وعندها يصبح المستقبل ممكنًا، بعد ذلك يمكن للمرء أن يتبين أن المستقبل ليس شيئًا ثابتًا فعلًا؛ وذلك لأن تاريخ المستقبل مفتوح، ولهذا السبب يكشف ليتو ذلك، أمام نفسه على الأقل، لأن وسيط الوحي يظهر قوته القائمة على التنبؤ في مرحلةٍ حالية معيَّنة من الزمن، فيؤثر علم الغيب على ما هو موجود من احتمالات المستقبل التي يراها وسطاء الوحي. وهكذا يبدو من خلال كون الكثيب الذي خلقه هيربرت أن المستقبل مفتوح أمام من يصنعه، وذلك بطريقتين.

وماذا عن فرانك هيربرت؟ إنه ذكي، شخصٌ ذكي ذكاء المينتات. يبدو أن هربرت أثبت أن علم الغيب لدى بول وليتو يعمل بطريقة يمكنه من خلالها تجنُّب مفارقة المعرفة السابقة. وبذلك تبقى الإرادة الحرة لدى شخصياته بعيدة عن أي تهديد، أو هكذا تبدو، فالانطباعات الأولى مضلِّلة؛ وذلك لأن علم الغيب لدى هيربرت يهدد الإرادة الحرة. وهنا يريد هيربرت أن

يشرح لنا أنه إذا كان لدى وسطاء الوحي من شعب أتريديس أي إرادةٍ حرة، فإنها إرادةٌ حرة من نوع فريد؛ إذ على الرغم من القوة التي يمكن أن تتمتع بها، لا بد للمفارقة أن تتخلَّلها وأن تحُدَّها، أي إنها لا تختلف كثيرًا عن إرادتنا الحرة.

بول أتريديس: هل هو كويستاز هاديراتش؟

أدركت البيني جيسيرت أن كويستاز هاديراتش سوف يرى كل خيوط الزمن الممكنة مستقبلًا، كما بوسعه أن يختار من بينها، تمامًا كما هي الحال في قصة الأقدار الثلاثة في الأساطير اليونانية. إلا أن هيربرت لا يوضح لنا ما إذا كان بول قد حقَّق أو تجاوز توقعات كويستاز هاديراتش الذي انتظرته تلك المؤسسة الأخوية طويلًا.

ولكن أولًا، ليس بوسعه أن يرى كل خيوط الزمن؛ وذلك لأن رؤيا بول المبنية على التنبُّؤ والوحي لها حدودها، فقد ذكرت الأميرة إيرولان في يقظة أراكيس أن «موديب كان بوسعه أن يرى المستقبل فعلًا، ولكن يتعين عليك أن تفهم حدود هذه القوة. فكر بالرؤية، لديك عينان، ومع ذلك لا تستطيع أن ترى بدون نور. وإذا كنت في سفح وادٍ، لا تستطيع أن ترى ما وراء ذلك الوادي. وكذلك الأمر بالنسبة له؛ إذ لا يستطيع موديب أن يختار دومًا أن ينظر عبر التضاريس الغامضة» (من رواية الكثيب).

أما «الهاويات» فتمثل تلك الفترات التي تختفي فيها قدرة بول على رؤية ومعرفة الغيب، ويحدث ذلك عندما يفقد القدرة على رؤية كيف أو أي من الحالات الممكنة مستقبلًا التي رآها تنتج عن هذه اللحظة الحالية. وقد تَعرَّض لحالة العمى هذه مرتين في رواية الكثيب، وذلك عندما دخل في قتال بالسكاكين مع جاميس أحد أبناء الفريمين وبعده فيد من شعب هاركونين.

إن بول لا يستطيع أن يرى أشخاصًا معينين؛ إذ مثلًا لم يظهر فينرينغ في أيٍّ من رؤاه، ولهذا يتساءل بول إن كان السبب في ذلك هو أن فينرينغ هو الرجل الذي سيقتله (وأشك في أن ذلك أول مفتاح يستخدمه هيربرت لحل اللغز في ملحمة الكثيب حيث إن بعض الأشخاص قد يكون لديهم استعدادٌ وراثي لئلَّا يكونوا مرئيين في علم الغيب). والأهم من ذلك هو أن بول لا يستطيع أيضًا رؤية ما رآه أو ما فعله غيره من وسطاء الوَحي، مثل بحارة طائفة التباعُد الذين يتمتعون بشكل مقيد خاص بهم من علم الغيب. إلا أن بول وسيط وحي أقوى بكثير منهم، كونه يرى أكثر بكثير وأبعد بأشواط من غيره.

وفي رواية أبناء الكثيب، يقول ليتو: «ترتبط سعادة الحياة وجمالها بالحقيقة التي ترى أنه بوسع الحياة أن تفاجئك»، وفي هذه المقولة قدرٌ كبير من الندب والنوح بقدر ما تعبر عن حكمة؛ وذلك لأن المفاجأة بالنسبة لوسطاء الوحي قد تعبِّر عن فرحة نادرة، فالمفاجأة تزورنا

كأمر غير متوقع، أما بالنسبة لوسيط الوحي الذي يتمتع بقوة تنبؤ حقيقية، فمن المرجَّح أن كل ما يحدث له متوقع تمامًا؛ وذلك لأنه تنبأ به، بكل ما فيه، في نهاية المطاف.

هل نصب وسطاء الوحي من الأتريديس فخ مفارقة المعرفة السابقة؟ أم أنهم وقعوا في الفخ بما أن فرانك هيربرت يشترط لتلك القوة التي يتمتع بها وسيط الوحي أن تعمل بطريقةٍ خاصة في كون الكثيب؟ إنه لأمر تعيس أن تجيب عن سؤال بسؤال، ولكنني أرى تلك الأسئلة ترقى للسؤال الآتي: ما الذي يعرفه وسطاء وحي الأتريديس عن المستقبل؟ وما مدى ما يعرفونه عنه؟ للإجابة عن هذا السؤال، يجب علينا أن نتحدث عن القدر وعن الله، وعن المستقبل وعن الاحتمال، كما ينبغي لنا أن نتحدث عن المعرفة.

الإيمان، المبرر، الحقيقي

إذن أولًا وباختصار، تأتي المعرفة، وعليه نسأل: كيف يمكن لمعرفة المستقبل أن تهدِّد الإرادة الحرة؟

تُفرد نظرية المعرفة دراسةً فلسفية للمعرفة والإيمان والتبرير والعقل، حيث يقدم لنا الفيلسوف اليوناني الشهير أفلاطون أول وعي فلسفي للمعرفة، وهو إيمانٌ حقيقي مبرَّر. فأنت تدرك «س» إذ كنت تؤمن بـ «س»، وإذا كانت «س» حقيقية، وإذا كان لديك إيمان بـ «س» مبني على شيء من التبرير. إلا أن نظرية الإيمان الحقيقي المبرر مبسَّطة بعض الشيء؛ كونها تميز المعرفة عن الرأي أو مجرد الإيمان بطريقةٍ مفيدة، وذلك بوصفها نظرية حول المعرفة. إذ يمكن الوصول إلى الرأي (وهذا ما يحدث عادة) دون الوصول إلى تبرير مناسب، في حين يشمل التبرير شرطًا ضروريًّا للمعرفة. وماذا عن المعتقدات؟ حسنًا، يمكن أن تكون خاطئة في بعض الأحيان، كما أن نظرية أفلاطون تحترم شرط المعرفة الأساسي الذي لا يُعلَن عنه غالبًا، ألا وهو وجود الحقيقة؛ إذ إن الشرط الضروري للمعرفة هو أن تقوم تلك المعرفة على الحقيقة فقط ودائمًا؛ إذ لا يمكنك أن تعرف شيئًا خاطئًا؛ ولذلك يأتي فعل يعرف كفعل ليدل على النجاح.

إن وجود الحقيقة بالنسبة للمعرفة يسهم في مفارقة المعرفة السابقة؛ إذ بوصفها شكلًا من أشكال المعرفة، تستلزم المعرفة السابقة وجود موضوع أو شيء حقيقي للمعرفة، وبناء على ذلك يتمتع المستقبل بالنسبة للمعرفة السابقة بوجود الحقيقة؛ إذ ثمة حقيقة في الأمر الذي سيحدث في المستقبل، حتى وإن لم يحدث بعدُ. وتشير المعرفة السابقة إلى وجود حقيقةٍ واحدة حول الأمر كما سيحدث في المستقبل. وبما أن هذا حقيقي؛ لذا لا يمكن تحوير المستقبل أو تغييره أو مراجعته. فالأفراد يتغيَّرون والمواقف تتغير والأزمان تتغير، إلا أن الحقيقة التي تتصل بما كانت عليه كل تلك الأمور في تلك الأزمان لا تتغير.

إن معرفة الشيء تعني تمتُّع المرء بموقفٍ معرفي قوي ومميَّز تجاه هذا الشيء، وهذا لا يعني أن هذا الشيء حقيقي وحسب، بل أيضًا قابِل للمعرفة، وكمثال على ذلك لننظر إلى الحلم التنبؤي الذي رآه بول عندما كان ما يزال في كالادان وذلك حول لقائه الأول بحبيبته المستقبلية تشاني من شعب الفريمين. إذ رأى بول أتريديس في رؤيا تنبؤية أتت على شكل حُلمٍ لقاءه الأول الذي سيحدث. إن الشرط اللازم ليكون الشيء قابلًا للمعرفة السابقة، والمقصود بها هنا معرفة المستقبل، هو وجود حقيقة حول المستقبل يتمتع الشخص بقدرةٍ مباشرة على الوصول إليها (عبر علم الغيب كما سنرى). وبما أن الشيء معروف، فهذا يعني أنه قابل للمعرفة. وفي حالة المستقبل، لا بد من وجود حقائق حول ذلك قبل وقوعه حتى يكون الشيء معروفًا بشكلٍ سابق. وهنا يبدو بول محظوظًا في لقائه بستيلغار وقبيلته، التي تضم تشاني، في الصحراء، فقد كان ذلك اللقاء حقيقيًا وحدث في المكان ذاته وفي التوقيت نفسه، أي إنه حقيقي وحتمي بالنسبة للحظة التي ظهرت في منام بول حول كالادان قبل أشهُر من ذلك اللقاء؛ ما يعني أنه كان حتميًا منذ الأزل.

إن القدرة على معرفة المستقبل تهدد الإرادة الحرة؛ لأنها تستدعي الفكرة القائلة إن كل الأحداث يحكمها القدر في حدوثها بطريقة أو بأخرى، وبشكلٍ حتمي لا مناص منه؛ إذ لا تستطيع أن تختار مسارًا آخر للأحداث غير المسار المقرَّر لها. بل حتى عملية الاختيار ليست حرة؛ وذلك لأن ممارسة ما يبدو على أنه اختيارٌ حر هي عبارة عن حدثٍ حتمي آخر.

يمثل وسطاء الوحي تهديدًا مزدوجًا بالنسبة للإرادة الحرة؛ لأن وجود وسيط الوحي بحَدِّ ذاته يعني أن المستقبل معروف بالنسبة لهذه الفئة؛ ما يجعل عملية الاختيار المبنية على إرادةٍ حرة بالنسبة لوسطاء الوحي شيئًا قريبًا من مفارقة يائسة. أما وجود قوة يتمتع بها وسيط الوحي فيعني أن المستقبل قابل للمعرفة، وهذا ما يهدِّد الإرادة الحرة لدى أي شخص، سواء أكان وسيط وحيٍ أم شخصًا عاديًّا؛ وذلك لأن هذه الفكرة تستدعي احتمال القَدَرية، كما أن وجود وسيط وحي يهدد الإرادة الحرة التي يتمتع بها الجميع في الكون المعروف؛ وذلك لأن وسيط الوحي يعرف تاريخ مستقبل الكون، وهذا يشمل تصرفات المواطنين في إمبراطورية إمبيريوم، أي إنه يعرفها كلها.

تناقض المعرفة السابقة

نفكر في المعرفة على أنها تحرر الإنسان عادة؛ إذ كلما زادت معرفتك، صار حكمك أفضل على مسارات عملك كما بوسعك أن تقرر ما هو أفضل. تأتي مفارقة المعرفة السابقة بسبب معرفة وسيط الوحي ما الذي سيحدث مستقبلًا، وعندها لا يتمتع هؤلاء بالحرية لتغيير ما يحدث. كما تهدِّد المعرفة الغيبية السابقة الإرادة الحرة لأنها تحبس وسيط الوحي في تشريع

وسَنِّ المستقبل الذي تم التنبؤ به. وإذا كان فهم هذه المعرفة السابقة صحيحًا، عندها لن يكون بول حرًّا، ولا أنا ولا أنتم، غير أن بول يتميز علينا بميزةٍ بسيطة، وهي أنه يدرك الطبيعة الوهمية للإرادة الحرة.

يا لها من ميزة! حتى وسيط الوحي نفسه لا يستطيع أن يفكر بخياراته بناء على إرادة حرة مطلقًا؛ لأنه يعرف كيف ستصبح خياراته. لنفكر فيه عندما تلقَّى أول رؤيا تخص المستقبل، حيث تنبأ بول بحالة الجهاد عبر علم الغيب؛ أي إنه تنبأ بنشوب حرب مقدسة تجتاح فيها جحافل متعصبة من الفريمين مختلف أنحاء الكون تحت راية الأتريديس. رأى بول الكثير من حالات المستقبل الممكنة التي تبدأ من هذا الزمن، ولكن باستثناء بعض الفجوات الباهتة والنهائية، جميعها يؤدي لقيام تلك الحرب المقدسة، بصرف النظر عما يختاره هو، حيث ورد في الرواية: «سيظل بوسعه أن يستشعر راية الأتريديس الخضراء والسوداء وهي ترفرف ... في مكان ما قبل ذلك ... ما يزال يرى سيوف الجهاد الملطخة بالدماء وكذلك الجحافل المتعصبة» (من رواية الكثيب). وهنا يقول بول لنفسه: لن أدعها تقوم، فيحاول أن يوجِّه مسار التاريخ نحو وجهة أخرى، ليختبر قواه بوصفه وسيطًا للوحي. ولعل ذلك هو السبب الذي دفعه ليطلب فيد-روثا في القاعة العظيمة. إذ إنه لم يقم بذلك بروح لا تكترث أو تبالي كما فعل جده، بولوس، وهو ينازل الثور الذي صرعه، أو ليقدس تحدي والده لكانلي ضد شعب الهاركونين، بل إنه استشعر رياح الوقت وهي تغلي في تلك اللحظات كما العاصفة. ولعل بول كان يتمنى في سره إن مات بحد سيف فيد، ألَّا يتحول إلى شهيد، لئلا يصبح مصدر إلهام للجهاد بتلك الطريقة.

ومع ذلك أدرك بول أنه سواء أقُتل أم قَتل، فإنه يرى: «كم ستكون جهوده عبثية لتغيير أي شيء ضئيل من هذا. فقد فكر في الوقوف في وجه الجهاد بينه وبين نفسه، إلا أن الجهاد مقدر له أن يحدث» (من رواية الكثيب).

يبدو بول حبيس تناقض هنا، فلو صدق ذلك فعندها سيكون بوسعه القيام بأي تغيير للشيء الذي يعرف أنه سيحدث. أي إن الحرية متوقَّعة بناء على الفكرة التي ترى أن الشيء يحدث لأنه يمكن أن يحدث بطريقة أو بأخرى. أما الخيارات التي نختارها نحن البشر وكذلك وسطاء الوحي، فهي متوقَّعة من محدوديتها. لذا فإن محاولات بول للوقوف في وجه الجهاد غير مهمة أبدًا، ولم تحقق أي نجاح على الإطلاق، أي إنها عبثية. وعليه فإن اختياره لتغيير طريقته في معرفة ما سيحدث في المستقبل أمرٌ عبثي مثله مثل محاولته لجعل اندفاع فيد نحوه وبيده سكين مجرد خيار؛ إذ لا خيار في ذلك، لأن سكين فيد ونظرة القتل في عينيه حقيقة تحُدُّ اختياراته المتمثلة في المراوغة والصد والطعن والتدحرج. كما يمكن أن ننسى الحقيقة التي كانت معروفة في يوم من الأيام، أو يمكن أن تتعرض للنكران أو قد يظهر ما

يناقضها أو يكذبها، إلا أنها لا يمكن أن تتحول إلى شيء غير حقيقي.

إن معرفة بول السابقة تعني أن إرادته ملكه، لكنه لم يَعُد حرًّا ليختار ما يعرفه لأن ما يعرفه له حَدٌّ أقصى، وعليه لن تحدث تلك الأمور على الإطلاق. إن المفارقة التي يعيشها وسيط الوحي تكمن في أنه *حبيس* لرؤاه؛ لأنها تمد له طريقًا يصل إلى المستقبل، لكن هذا الطريق محاط بأسوارٍ عالية؛ لأن عدم قابلية حياة بول للتلاشي بشكل مرعب وبطيء تتجلَّى في رواية مسيح الكثيب، حيث لا يوجد سبيل للعودة أو للالتفاف، بل هنالك طريق أو قطار الملاهي الدوار، أو طريق مسدود، وليس لدى بول حتى رفاهية التظاهر أنه حر، بل إنه حتى فكرة عدم الحرية لديه هي فكرة غير حرة؛ وذلك لأنها بحد ذاتها عنصر من عناصر المستقبل المتوقع.

أنا كتاب القدر

ثَمَّة مقولة يرددها شعب الفريمين ويعزونها لشاي-هولود، تلك الشخصية التي تمثل أبدية الآباء العجائز، وقد ورد في تلك المقولة: «استعد لتقدير ما تصادفه». إذ عند سماعك للجدل والنقاش حول القدرية، قد تسرك فكرة تَقبُّل القدرية، التي تقوم على اعتبار أن كل عمل نقوم به مُحتَّم، فلا يوجد شيء يمكن أن يحدث إلا بالطريقة المُقدَّر لها. إذ قد تكون برفقة صحبةٍ صالحة تضم قدماء الرواقيين الرومان، أو الزن البوذيين المؤمنين بالكارما، أو الفريمين الذين يوصون بالقدرية لأنها تحمل معها تقبُّلًا هادئًا لما يحمله المستقبل. وهنا تحلُّ القدرية محلَّ المفاجأة وتحمل معها نوعًا من تَوقُّع ما هو ملائم. وعليه كن مستعدًّا لتقدير ما تقابله في وقته؛ لأنه يقترب منك آتيًا من المستقبل، ولأنه في نهاية المطاف، سيكون هنا في الحاضر ولا مناصَ من ذلك.

في تلك الأثناء يمكن لهلعٍ شديد أن يصيبك؛ لذا عليك أن تحتجَّ، وأن تبحث عن الخطأ في النقاش، وعن الصدع في الجدار الواقي. ولعل معرفة الاحتمالية المنطقية لأحداث المستقبل لا تهدِّد إحساسنا بالإرادة الحرة، فالإرادة الحرة فكرةٌ نفيسة، تحس بها لأنها تضمن مسؤوليتنا العبقرية عمَّا نمارسه من أفعال صحيحة وخاطئة بحيث يمكن أن نتلقى المديح على الصحيح منها أو الذم عندما نقوم بها بحرية. كما تكفل الإرادة الحرة لنا الأمل أننا نقدم مساهمةً إبداعيةً فردية على مسرح الحياة، وأننا لسنا مجرد دُمًى تتراقص على أنغام أوتار القدر!

يمكن لقوة بول وليتو في معرفة الغيب ألَّا تمثل ذلك النوع من المعرفة التي تهدد الحرية، أو لعلهما لم يعرفا ما يكفي من المعلومات بشكلٍ سابق بشكل يحوِّل معرفتهما السابقة إلى فخ. والآن دعونا نستبعد «جانب الغموض» من وعي بول القائم على معرفة الغيب، ولننظر إليه كما نظر إليه هو في بداية الأمر، أي بوصفه حسابًا لأرجح الحالات المستقبَلِية وقوعًا.

سنكتشف في تلك الحالة أن ما يفعله وسطاء الوحي من شعب أتريديس هو التوقع، إلا أن التوقع يبدو وكأنه يحتلُّ منزلة أقل قوة بكثير من المعرفة على الصعيد المعرفي، أي إنه يبدو غير معصوم عن الخطأ وغير مباشر، كما قيل: «غير معصوم عن الخطأ وغير مباشر» أي إنه يبدو أقل بكثير من أن يكون ربانيًا.

معرفة الله والإرادة الحرة

هل تقارن المعرفة السابقة التي يتمتع بها وسطاء الوحي من شعب أتريديس بمعرفة الله للمستقبل؟ لقد انشغل علماء الدين المسيحيون كثيرًا بحل هذا الإشكال بين معرفة الله السابقة وإرادة الإنسان الحرة. إذ بدون الإرادة الحرة، لا يمكن أن نُثاب على إيماننا أو نُعاقَب على ذنوبنا، سواء من قِبَل الإنسان أو من قِبَل الله، اللهم إلا إن كان ذلك الإنسان أو الله غير منصفين. ولكن عندما ننكر معرفة الله السابقة فإننا عند ذلك نضع حدًّا لقوة الله ولمعرفته، مع أنه من المفترض أن إحدى الصفات والجوانب التي يتصف بها الله هي أنه كلي المعرفة، أي إنه يَعرف كل شيء يمكن أن يُعرف. ومن الصفات الأخرى التي يتَّصف بها الله الكمال، وذلك يعني إما أن نجاحه كامل وأنه لا يرتكب أي خطأ؛ ومن هنا تصبح معرفته معصومة، وإما أنه غير قابل للتغيير بشكل كامل؛ أي إنه، بمعنى أصح، لا يتغير أو غير قادر على التغيُّر للأفضل. هل تزداد معرفة الله في كل مرة تتمسك فيها نقطة من الزمن ضمن ذلك التدفُّق بإحدى احتمالاتها؟ إن كان الأمر كذلك، إذن يمكن لله أن يتغير؛ ما يعني أن كماله يتطور من الأنقص إلى الأزيد، لكنه يبقى أقل من الكمال المطلق بكل تأكيد.

أما الإرادة الحرة المطلَقة فتعني أننا في كل مرة نختار فيها، نختار بين أفعال ممكنة بطريقة يمكننا من خلالها أن نختار أيًّا منها بحرية، والمعنى الضمني هنا هو أن أي خيار ممكن وأي خيار اخترناه بِناء على إرادتنا الحرة كان قبل اختيارنا له غير قابل للتمييز بوصفه خيارًا ممكنًا من بين عددٍ كبير من الخيارات. فلو كان يويه يتمتع بإرادةٍ حرة فلن يطلق السهم، كما أن الله الذي يراقبه من علٍ، لن يتمكن من معرفة ما الذي سيفعله يويه بيقين مطلق. أي إننا قبل أن نختار، يبقى ما نريد أن نختاره شيئًا من المستقبل، أي حقيقة مشروطة غير مبتوتٍ بأمرها، في حين أن عملية الاختيار والتصرف هي التي تقرر وتثبت الاحتمال المستقبلي ضمن اللحظة الزمنية الحالية التي تلي هذا التسلسل.

إن البشر لا يتمتعون بمنظور ورؤية ربانية، لنفرض هنا أن قرار الخيانة كان بيد يويه، عندها قد يجد كلٌّ من بارون هاركونين والمنتات المعدل الخاص به واسمه بيتير دي فرييز طريقة يمكنهما من خلالها تخريب تدريب سوك الذي يقوم به الطبيب يويه. إلا أنهما لم يتلاعبا به عبر التنويم المغناطيسي، كما أن نفس يويه ليست معتادة على الخيانة. ومن

منظور البارون وبيتير، يمكن ليويه أن يتصرف وفقًا لخطة الهجوم التي وضعاها. إلا أنهما لا يستطيعان أن يكونا على يقين من ذلك في نهاية المطاف (وهذا ما أدركه كلٌّ من البارون وبيتير بعد فترةٍ قصيرة. فقد خان يويه الدوق الذي يخدمه، ولم يخلُ الأمر من خيانات أخرى ضمن خيانته، حيث ساعد بول وجيسيكا على الهرب من شعب هاركونين، كما زود الدوق ليتو بسنٍّ مسموم ليأخذ بثأره من شعب الهاركونين).

فلو كان الله يعرف سابقًا ما الذي سيقرِّره يويه وكيف سيتصرف بموجبه، إذن كيف يمكن لخيار يويه أن يبقى مبنيًا على إرادةٍ حرة؟ لقد اتُّهم رجل الدولة والفيلسوف الروماني بوثيوس في القرن السادس الميلادي بالتآمر مع البيزنطيين ولهذا سُجِن. وحوالي عام 524 للميلاد، وأثناء انتظاره لحكم الإعدام، ألَّف كتابًا بعنوان: عزاء الفلسفة، جاء فيه: «إن كان الله يتنبأ بكل الأمور ومن المستحيل أن يكون مخطئًا في أي شيء، فهذا يعني أن أي شيء تراه عنايته الإلهية سيحدث، لا بد وأن يحدث» (ص131). ووفقًا لبوثيوس فإن: «الله يتمتع بصفة الأبدية الدائمة، ومعرفته التي تتجاوز كل تغيُّر في الزمان، تصل إلى فترات لا نهائية من الماضي والمستقبل، وتراها بطريقة فهمها المباشرة لكل شيء وكأنها تحدث في الزمن الحاضر» (ص144).

أما القديس توما الإكويني الذي يُقال عنه إنه أعظم فيلسوف للكاثوليكية الرومانية، فقد قدم فكرةً مختلفة عن الفكرة التي طرحها بوثيوس؛ إذ في كتابه Summa Theologica أو خلاصة علم اللاهوت، يرى توما أن الله يعرف تعاقب الزمن «تحت جانب من جوانب الخلود». فالله موجود فوق أو خارج الزمن «تمامًا كما يحدث لمن يسير في الطريق فلا يرى من يأتون بعده، في حين أن من يرى كامل الطريق من علٍ يرى مباشرة كل العابرين فيه» (ص156).

بمعنى أصح، احذف كلمة «سابقة» من عبارة معرفة سابقة، عندها ستدرك أن الله لم يعرف سابقًا الاختيار الذي سيقوم به يويه بناء على إرادته الحرة ليخون من خلاله الدوق. إن أفكارًا مثل «قبل»، و«أثناء»، و«بعد» ليس لها معنًى عندما تتصل بكائن يعيش خارج الزمن، فالله يرى كل أحداث الخيانة التي قام بها يويه؛ لأن كل حدث يؤدي إلى تلك الخيانة، ويبتعد عنها في الوقت ذاته. فاختيار الطبيب تدمير طبيب من شعب سوك، واختيار يويه أن يصبح خائنًا، واختياره إنقاذ ابن الدوق وعشيقته، ومحاولته قتل البارون، كل تلك الاختيارات قائمة على الإرادة الحرة، وكان من الممكن لها أن تحدث بطريقةٍ مختلفة عن الطريقة التي حدثت فيها، لكنها لم تحدث إلا بتلك الطريقة بالتأكيد، أي إن الله يرى تسلسلًا زمنيًا واحدًا يمتد أمامه، من بداية خيانة يويه إلى النهاية؛ ولذلك يُطلَق على الله في بعض الأحيان تسمية الكاتب الإلهي، أما في هذه الصورة فهو القارئ الإلهي.

إن معرفة الله السابقة ليست بتوقع، بل إنها شيء أشبه بالإدراك؛ إذ تصبح معرفة الله السابقة شيئًا شبيهًا بالوصول لكل حدث فعلي يقع في أي زمن من الأزمان دون أن يعترضه شيء؛ ولهذا لا بد لنا أن نتمنى ألا تكون معرفة الله الإدراكية السابقة لهذا المشهد نفسه أرقى من معرفة البارون وبيتير فحسب، بل أيضًا أرقى من معرفة وسطاء الوحي من شعب أتريديس. ثم إن معرفة الله السابقة مباشرة ومعصومة، في حين أن معرفة شعب الأتريديس السابقة غير مباشرة ولا يمكن الاعتماد عليها كثيرًا؛ وذلك لأنها قائمة على التوقُّع.

شياطين التوقع

يبدو كل ذلك رائعًا ومميزًا كحلٍّ لتناقض المعرفة السابقة، هذا إن كنت الله.

ولكن للأسف، هنالك حالات عدم توافق واضحة بين بول موديب وابنه ليتو الثاني والله. وذلك لأن بول وليتو ليسا بكائنَين موجودَين خارج الزمن بفعل السحر، بل إنهما كائنان موجودان داخل الزمن، كما أنهما يفتقران إلى صفتَي العلم الكلي والكمال اللتين يتمتع بهما الله. ثم إن فرانك هيربرت لم يقدِّم ما يوحي أن وسطاء الوحي في شعب الأتريديس هم أنبياء بالفعل، يأتيهم الوحي الإلهي ويتمتعون ببركة النظر الإلهي للزمن وما يترتب على ذلك من معرفة سابقة.

لنفترض عوضًا عن ذلك (وهذا ما أعتقد أن هيربرت يريدنا أن نفكر به) أن الرؤيا التنبؤية التي يتمتع بها بول وليتو ليست آتية عبر وحي إلهي؛ وذلك لأن علم الغيب الذي يتمتع به بول وليتو يمثل قوة تترتب على تفاعل مركب بين هضم خليط التوابل الذي يرفع الإمكانيات الرُّوحانية، والقدرات الهاجعة التي تنتظر داخل جيناتهما والتي ورثاها من شعب أتريديس. وبصرف النظر عن علم الغيب، يمكن القول إنه يستوي مع القوى المميزة مثل قول الحقيقة وطَيّ المسافات التي تتمتع بها طائفة البحارة، وكذلك الأمر بالنسبة لمشاركة البيني جيسيرت. وبقدر ما تُنسج هذه القوى ضمن نسق الواقع في كون الكثيب، تفقد خاصيتها السحرية أي إنها لا تعود قوًى خارقة، بل إنها قوى غريبة وغامضة فقط لأن هيربرت أبقاها غامضة، دون أن يطرح أي تفسير ميتافيزيقي أو علمي لها بكل بساطة.

لعل علم الغيب الذي يتمتع به بول وليتو لا يختلف كثيرًا عن غيره من الوظائف والعمليات المتفوِّقة في مجال الحساب التي يقوم بها عقل أي مينتات مثل الحسابات الأولية والقيم التقريبية الأولى، كونها موجهة نحو المستقبل وقوية بشكلٍ كبير في نطاقها ومَداها. وفي أي حالة من تلك الحالات، تُصنَّف معرفتهما السابقة على أنها أدنى مما ستكون عليه معرفة البارون أو بيتير السابقة أو أي معرفة سابقة يتمتع بها أي شخص آخر. وبالرغم من أنها قوية فإنها تظل شكلًا من أشكال المعرفة غير المباشرة وغير المعصومة عن الخطأ، وبما أنها كذلك؛

لذا لا تُعَدُّ تهديدًا للإرادة الحرة بشكلٍ كامل.

إن طريق الهروب المحتمَل هذا يسيء فَهم طبيعة التنبؤ؛ إذ بما أن المعرفة تكمُن في الإيمان، كذلك التنبؤ يكمن في التخمين دون الحصول على معلومات. ولكن يبقى التنبؤ يمثِّل شكلًا من أشكال المعرفة السابقة التي تهدِّد الحرية، ولهذا قدم بيير-سيمون دو لابلاس، وهو عالم فيزياء ورياضيات وفلك فرنسي ظهر في القرن السابع عشر الميلادي، سببين لتهديد التنبؤ المطلق للحرية المطلقة؛ إذ رأى أنه عندما تتمتع بذكاء يفوق الآخرين، وعندما تُطلَع على قوانين الفيزياء بشكلٍ مناسب، وكذلك على حالة الكون ووضعه في زمنٍ معين، عندها بوسعك أن تتنبأ بمستقبل الكون برُمَّته، حيث يقول: «بالنسبة لهذه العملية، لن يكون أي شيء غير مؤكَّد، وسيصبح المستقبل كما الماضي حاضرًا في عينيها» (مقالة فلسفية حول الاحتمالات، ص4). أما نظرية لابلاس الفكرية المعروفة باسم شيطان لابلاس، فتفترض الحتمية السببية، أي إن كل الأحداث مقرَّرة سابقًا، وذلك لوجود عَلاقة ضرورية بين الأسباب والنتائج، وكل حدث معين يجب أن يسبقه وضع تسبب في حدوثه، أي إن العلاقة القائمة هنا هي أنه إذا اختلف وضع حدث في الماضي فكذلك سيختلف الحدث الذي سيقع في المستقبل، والعكس صحيح.

وهنا قد يتدخَّل عالم الميتافيزيقيا الأميركي الشهير ريتشارد تايلور الذي رحل في القرن العشرين؛ إذ يؤيد هذا العالم فلسفة القَدَرية، حيث تقوم القدرية على الفرضية التي ترى أن كل ما يحدث حتمي، وأنه سيحدث أو كان سيحدث على الدوام. إلا أن القَدَرية يُساء فهمها بطريقةٍ قاتلة في أغلب الأحيان، وهنا يشير تايلور إلى أن القَدَرية لا تدعي أن ما يحدث حتمي مهما كان، أي إنها لا تقول إن ما يحدث لا بد أن يحدث بالضرورة بهذه الطريقة من خلال حكم أو شيء غامض يشبه القدر، بل يجب أن يتوافر سبب لحدوث الشيء بشكلٍ حتمي، حتى يحدث بصورته الحتمية.

بالنسبة لمعظمنا، عندما نتحدث عن المستقبل، فإننا لا نتحدث عن احتمال مضمون منطقيًا، لأن الحديث عن «المستقبل» ضرب من الهراء غالبًا، وذلك لعدم وجود مستقبل يحدث الآن حتى يشار إليه، ولا توجد مجموعة من الأحداث تقع حتى نتحدث عنها. لنفكر مثلًا بصفحتين أو ثلاث من رواية الكثيب، وذلك عندما تبدأ كل الأمور تسير بشكلٍ سيئ بالنسبة لشعب أتريديس، أي فعل الخيانة الذي يقوم به يويه.

تخيل أن يويه يقوم الآن، أي في اللحظة الحالية، بإطلاق السهم الذي يشل حركة الدوق ليتو ويهدِّئه بذات الوقت، فعندما يطلقه الآن، يخرب يويه مولدات البيت ويقتل الشادوت مابيس في الزمن الماضي. إننا لا نفكر في المستقبل كما نفعل عندما نقرأ رواية الكثيب، حيث

يقع الحدث التالي المتمثل بزرع السن في الصفحة التالية، ويكون هناك بانتظارنا لنقلب الصفحة. ثم إننا نؤمن أن المستقبل يشتمل فقط على امتداد زمني خالٍ من الأحداث الحقيقية بطريقة أو بأخرى. في حين أن المستقبل هو زمن يجلس بانتظارنا لنملأه بحدث آخر نقوم به في الحاضر (أي في وقت يأتي بعد الماضي). كما أن اختياراتنا تحدِّد بصورة جزئية كيف سيظهر المستقبل، فقد كان بوسع يويه أن يفكر مجددًا، وأن يعيد النظر في النية التي ستظل معه حتى يكمل خيانته، كما كان بوسعه طلب المساعدة، وتسليم نفسه. إن زرع السن الذي يحتوي على غاز سام في فَمِ الدوق ليتو، كما اعتزم أن يفعل بعد ذلك، ليس بحدث يقع في الخارج ضمن المستقبل، بل هو حدث ملموس ومحقق ينتظر الزمن الحاضر ليتقدم قليلًا في التاريخ، كما تفعل عيوننا وهي تقرأ الصفحة. وهكذا فإن عملية زراعة السن تتغير من كونها واقعة في الزمن المستقبلي، إلى واقعة في الزمن الحاضر. ولقد كان بوسع يويه أن يختار شيئًا آخر، وأن يكتب صفحة جديدة في ذلك الفصل.

يشترك تايلور ولابلاس بالعقلية ذاتها، فقد تخيل لابلاس شيطانًا بوسعه أن يتوقع تمامًا أن لابلاس سيموت في عام 1827 للميلاد، وذلك بناء على الحالة السائدة عند ولادة لابلاس في عام 1749 للميلاد، وأن رواية اسمها الكثيب ستفوز بجائزة هوغو ونيبولا في عام 1966 للميلاد، وأنه (إذا افترضنا أن الخط الزمني الخيالي المعتمد في كون الكثيب هو الخط الزمني الحقيقي نفسه الذي نعتمده) في حوالي عام 10191 حسب التقويم الإغريقي، سيقوم يويه ويلينغتون بإطلاق سهم الخيانة على حبيبه الدوق. عندئذٍ سيصل هذا النقاش إلى نتيجة مفادها أن المستقبل حتمي؛ لأن سلسلة لازمة منطقيًا وغير قابلة للانقطاع مؤلَّفة من أسباب ونتائج هي التي رسمت مصيره بشكلٍ سابق.

وإليكم سببًا مباشرًا لوقوع الحدث الحتمي بصورةٍ حتمية، فنحن ندرك أن النتائج تأتي بالضرورة من الأسباب، فلو كان الحدث-السبب، مثل قيام يويه بإطلاق سهم، مختلفًا، عندها سيختلف كامل الحدث-النتيجة المتمثل بخيانته. إلا أنه لم يكن يستطيع أن يغير ما جرى؛ لأن إطلاقه للسهم كان نتيجة لسبب سبقه، والأحداث التي أوصلته لتلك اللحظة تستلزم فعلاً واحدًا فقط. ولهذا ينبغي على كل من يؤمن بالحتمية السببية أن يكون قدَرِيًا أيضًا، لئلاَ يناقض ذاته؛ إذ قد يكون المستقبل ما يزال خاويًا، لكنه لا بد وأن يمتلئ بكل ما يحمله تسلسل وحيد لأحداثٍ معينة تقع بالضرورة بشكلٍ حتمي، بحيث يتبع كل حدث منها الآخر ضمن تسلسلٍ واحد للأسباب والنتائج.

في موازنة الاحتمالات

قد يهمنا أن نعتقد أن انفتاح المستقبل يؤكد إيماننا بإرادتنا الحرة، إلا أن العكس هو

الصحيح برأي تايلور؛ وذلك لأن إيماننا بإرادتنا الحرة ينسجم مع الإيمان بانفتاح المستقبل، بيد أن الانسجام هنا لا يثبت أي شيء؛ لأنه يشبه وقع موسيقى السيموتا على آذاننا، ولهذا كتب تايلور: «إن الميتافيزيقا والمنطق ضعيفان حقًّا أمام رأي يغذيه غرور لا يقهر، ومعظم الرجال على استعداد للتضحية بأرواحهم على أن يجري تجريدهم من الكرامة التي يتخيلون أن حرية إرادتهم *تستند* إليها» (الميتافيزيقيا، ص71). وهنا أود أن أضيف أنهم يخسرون أرواحهم أو عقلانيتهم.

ينسجم توصيف لابلاس للمعرفة التنبؤية المطلقة مع وصف علم الغيب على لسان بول وليتو الثاني؛ إذ يبدو أن علم الغيب يمثل أعلى تناغم مع اللحظة الحالية من الزمن التي تحمل معها أعلى وأرقى وعي باحتمالات المستقبل الممكن في اللحظة الحالية.

تنطبق حالات الاختلاف ذاتها بين وسطاء الوحي من شعب الأتريديس والله على هؤلاء الوسطاء وشيطان لابلاس؛ إذ على عكس شيطان لابلاس، يتنبأ بول وليتو بالكثير من الحالات التي يمكن أن تحدث مستقبلًا، وليس فقط بحدث مستقبلي واحد. وكذلك، وضمن ما يبدو على عكس الله وشيطان لابلاس، لا يستطيع بول وليتو أن يميِّزَا بشكل مؤكد بين كل الحالات المستقبلية التي يتصورانها والتي تمثل مستقبلًا ممكنًا واحدًا لا بد وأن يحدث فعلًا. ثم إن بول وليتو قد لا يكونان مقيَّدَين كثيرًا بفعل ميزة التنبؤ القوية لديهما؛ نظرًا لأنهما قد لا يعرفان معلوماتٍ كافية بشكلٍ سابق بحيث تتحول معرفتهما السابقة إلى فخ وقيد بالنسبة لهما، فهنالك فتراتٌ زمنية في المستقبل يبدو أنهما لا يريانِها أو لا يستطيعان رؤيتها بواسطة القدرة التي يتمتعان بها على رؤية المستقبل، ولعلهما قد حرَّرا إرادتهما من خلال تلك الهاوية القصيرة.

كلا، آسف، لا أعتقد أنهما قاما بذلك. فقد جابه فيد-روثا بول على أرض القاعة العظيمة، واشتبكا بالسكاكين. وقد أعمت بصيرةَ بول حالةٌ ترتبط بعاصفة في رياح الزمن خلال تلك المرحلة الكارثية من التاريخ. ثم إن فيد أكثر من ندٍّ بالنسبة له، ولهذا إما سيَقتله بول أو سيُقتل على يديه، وبالرغم من أن بول قد رأى ذلك قبل أن يدخل الحَلَبة حيث اكتشف ما يحمله له المستقبل، فإن كل احتمال يفضي إلى الجهاد، فإذا مات بول هنا عندها «سيقولون إني ضحيت بنفسي وإن روحي ستهديهم»، أما إن نجا بول «فسيقولون إنه ليس باستطاعة أي شيء أن يعارض موديب» (من رواية الكثيب).

أي إنَّ فِكْرَ بول يمثل: «الذروة، فمن هنا ينفتح المستقبل، وتنقشع الغيوم ليظهر شيء من المجد»، وفي استعارة الهاوية، وبالرغم من أن بول كان في وادٍ، فإنه رأى السهل قبل أن يغيب عن ناظريه بصورةٍ مؤقتة. كما رأى الفيضان الذي كان يدنو. وحتى لو رمى بول بنفسه

طواعية على سكين فيد، لكان ذلك سيمثل اختيارًا حُرًّا بالاسم فقط؛ وذلك لأن الإرادة الحرة أمر متوقع عند التصرف، أي إنه بوسعك أن تفعل شيئًا آخر غير الذي قمت به، والقيام بشيء آخر غير الذي تم بالفعل في حالة التوقع، يعني أنك ستنجز شيئًا بطريقةٍ أخرى غير الطريقة التي كان ذلك الشيء سينجز بها؛ ولذلك سيكون انتحار بول عبثيًّا بشكل مؤسف؛ كونه لن يغير أي شيء، لكنه يعبِّر عن شكلٍ مخفف من الحرية.

نية البحث عن مخرج

أعتقد أن ما يحاول فرانك هيربرت أن يقوم به في ملحمة الكثيب هو انتزاع نوع من الحرية لوسطاء الوحي من شعب أتريديس دون أن يهددها أي شيء حتى ولو كانت قوة الوحي لديهم هم أنفسهم، وبذلك ينزلقون إلى فخ تناقض المعرفة السابقة.

بيد أن بول وليتو يعرفان معلومات بشكلٍ سابق أكثر بكثير من أي شخصٍ آخر، فبعض الأمور التي تنبآ بها يعرفان معرفة مطلقة أنها حتمية، وأهمها الجهاد وإعصار الكرازيليك، أي النضال ضد الإعصار في نهاية الكون، حيث تقدم الكرازيليك مفتاح الحل بالنسبة لمدى الحرية التي يتيحها علم الغيب في كون الكثيب. إذ إن بول وليتو تنبآ بالمعركة التي ستقوم عند نهاية الكون. وفي كل خطٍّ زمني مستقبلي ضمن مجموعة الحالات المستقبلية الممكنة التي رأياها في رؤاهما، كانت هنالك كرازيليك بنهاية ذلك الخط الزمني.

يتفق بول وليتو حول ثقل الاحتمال الذي يحمله كل خطٍّ زمني مستقبلي ممكن؛ إذ يمكن للخطوط الزمنية المستقبلية الممكنة أن تضعف نسبة احتماليتها، كما يمكن أن تختفي أيضًا من الرؤيا التي يراها مَن يتمتع بعلم الغيب، وذلك عندما تصل نسبة احتمال وقوعها إلى الصفر، وكمثال على ذلك من رواية الكثيب، نذكر عندما فقد بول بصيرته حول احتمال تحالفه مع البارون هاركونين.

هذا ويمكن للأحداث المستقبلية الممكنة ولأجزاء من التسلسلات الزمنية أن تُرى عبر بعض التسلسلات الزمنية دونًا عن غيرها؛ إذ إن بعض الأحداث المستقبلية الممكنة مثل كرازيليك يمكن أن تُرى مع كل تسلسلٍ زمني. في حين يظهر في كل رؤيا كلٌّ من الجهاد وما يلحق به من نضال ضد الإعصار، حيث تصبح نسبة احتمالهما تعادل 1؛ وذلك لأن بعض الأمور، لا كلها، حتمية، والكثير من الاحتمالات المستقبلية التي يرونها من خلال بصيرتهم التنبؤية تبقى مجرد احتمالات. وفي الوقت الذي يتصرف فيه كلٌّ من بول وليتو ويتخذان قرارات كما يفعل أي شخص آخر، بوسعهما أن يريا المستقبل عبر علم الغيب بحيث تغير أفعالهما توازن الاحتمالات ضمن مجموعة من التسلسلات الزمنية المحتملة للمستقبل الذي يتصورانه.

أما السبب هنا فيتصل بالنية، فقد كتبت الفيلسوفة التحليلية البريطانية إليزابيث أنيسكوم كتابًا حول هذا الموضوع بعنوان «نية»؛ إذ عندما تتبع نية التصرف يتكون لديك شكلٌ خاص من المعرفة أطلقت عليه تلك الفيلسوفة اسم «المعرفة العملية»، وقد استعارت أنيسكوم تلك العبارة من عبارة توما الإكويني حول معرفة الله بخلقه، فالعالم من خلق الله أيضًا؛ لذا فهو يعرف شكل العالم وماهيته لأن العالم أتى بالصورة التي تطابق نية الله تجاهه.

وهكذا يصبح الفعل المتعمد في الوقت ذاته فريدًا وحاسمًا بالطريقة نفسها، فلكي تصبح مؤلفًا لحدثٍ ما، كما هي حال الله، يجب على معرفتك بالحدث أن تتشكل لأنك سببها، وليس لأنك تدرك نتائجها. فلقد تنبأ بول وليتو في رؤاهما باحتمالات المستقبل، أو حالات مستقبلية، والعواقب المتضخمة بشكل كبير لكل فعل معين يحدث في الزمن الحاضر، أي إنهما شاهدا مسؤوليةً كبيرة. وبما أنهما يريان كل ذلك ولأنهما من الطبقة النبيلة للأتريديس؛ لذا لا يمكنهما أن يهربا من الإدراك الأبعد الذي يدور حول فرص المستقبل التي تحدث بطريقة أو بأخرى، والتي هي عبارة عن فرص قُررت وكأنهما قصَداها؛ وذلك لأنهما في موقع القرار، وذلك موقع لا يمكن لأحد أن يحسدهم عليه.

تم الاكتشاف على يد: سام غيتس-سكوفيل

سياسة موديب

خطبة أُلقِيَت بالذكرى السنوية لوفاة بول موديب

التاريخ: 10717 حسب التقويم الإغريقي

الفريمين الأميركي

بعد مدةٍ قصيرة من الغزو الأميركي للعراق في عام 2003، قبض الجنود الأميركيون على مواطنٍ أميركي في أفغانستان يحمل سلاحًا ويرتدي ثوب مقاتل من طالبان، وعندما نشر الإعلام الإخباري قصة هذا «الطالباني الأميركي»، ظهر بمظهرٍ مثير للاهتمام حيث كان مقيدًا ومكمَّمًا وعاريًا ومعصوب العينين تحمله نقالة، وذلك في صورة التُقِطَت له بُعَيْد إلقاء القبض عليه.

إلا أن قصة الشاب البالغ من العمر عشرين عامًا والذي درس في بيت أهله حيث تنتمي أسرته للطبقة المتوسطة في كارولينا الشمالية وكيف تحول إلى مقاتل في جيش العدو بصحراء أفغانستان ألهبت خيال العامة؛ إذ بعد أن بدَّل دينه إلى الإسلام، سافر إلى اليمن وتعلم اللغة العربية، ثم عاد إلى موطنه، ليغادره مجددًا وذلك ليرتاد المدرسة (وهي مدرسة لتعليم الدين الإسلامي)، قبل أن يتلقى تدريبًا في معسكر للتدريب تابع لتنظيم القاعدة في أفغانستان. ولهذا فقد تمثلت ردة فعل بعض الأميركيين تجاه قصة هذا الشاب بحالة من الإعجاب، فيما عبَّر آخرون عن اشمئزازهم منه.

ولكن، كيف ضل هذا الشاب عن القيم التي يعتز بها غالبية الأميركيين؟ إنه لم يضل في الحقيقة، بل فعل مثلما فعل بول موديب الذي صار يجوب الصحراء بنهاية رواية مسيح الكثيب بعد تحوله إلى رجل مبارك أعمى، أي إن الطالباني الأميركي قد تَصرَّف وفقًا للقيم التي يحترمها معظم الأميركيين، وهي الاعتماد على الذات، والإبداع والرُّوحانية والمعرفة العملية. ولهذا يعتقد كثيرون أن ثقافة الفريمين مستمَدَّة من دينهم، ألا وهو زينسني، وهو مزيج متخيَّل من دين طائفة الزن البوذية ومعتقدات الإسلام السُنّية. إلا أن نظرة أقرب لهذا الدين تكشف أن الفريمين (الذين يشبهون الطالباني الأميركي) أميركيون في قيمهم الأساسية بشكل صادم.

غرابة الفريمين في الكثيب

يقول سيتيل: «الفريمين شعب مدني متعلم وجاهل، وهم ليسوا بمجانين، بل تدربوا على الإيمان لا المعرفة؛ إذ يمكن التلاعب بالإيمان، وحدها المعرفة هي الخطيرة».

تشرح غرابة الكثيب، بدود الرمل فيها الذي يأكل البشر، وبيئاتها المتعطشة للماء، ومستعمريها العدوانيين (الذين يزرعون التوابل المقدسة أو خليط التوابل المقدس)، غرابة ووحشية سكان الصحراء الأصليين، أي شعب الفريمين. ولقد عُنوِنت مقدمة رواية مسيح الكثيب بالعنوان: «الغريب من الكثيب» وتبدأ تلك المقدمة بوصفٍ قصير للكوكب ولقاطنيه الأصليين، حيث ورد فيها الآتي:

يمثل الكثيب كوكب أراكيس، وهو عالمٌ قاحل من الصحاري الواسعة حيث تستمر الحياة بالرغم من النزاعات المرعبة. هذا وتعتمد جميع عادات الفريمين الذين يشبهون البدو الرُّحَّل على ندرة المياه ويجابهون ظروف الصحراء بملابس واقية تساعدهم على استعادة كل الرطوبة. وتشكل ديدان الرمل العملاقة والعواصف العاتية مصدر تهديد بالنسبة لهم. والمورد الوحيد في الكثيب هو الخليط، وهو عبارة عن عقار يسبب الإدمان تنتجه الديدان.

أي بما أن شعب الفريمين يعيش في ظل ظروفٍ جوية قاسية في الكثيب، لذا كان عليهم أن يتكيفوا مع البيئة في حال رغبتهم بمواصلة الحياة فيها، ولهذا يرتدون ملابس خاصة تعيد تدوير الماء (ملابس واقية)، كما أنهم يحاربون مناوئيهم بضراوةٍ شديدة، ويمتطون الديدان الرملية الكبيرة ليقطعوا مساحاتٍ شاسعة في الصحراء المفتوحة. ولهذا لا عجب أن يتحوَّل هؤلاء إلى جنود قساة ومتوحشين يتسبَّبون في صدمة لبول موديب، ذلك الرسول الذي سيوحي لهم بفكرة القتال الذي يعرف باسم الجهاد بهدف إخضاع الكون المعروف مع تمهيد الطريق لوصول الإمبراطور الرباني.

ولكن ما هو دين الفريمين؟ يقدس شعب أراكيس الأصلي دودة الرمل، التي يَعُدُّونها الصانع أو الخالق، ويسمونها شاي-هولود ويعبدونها كإله. وتتحول مُساعِدات الكهنة لدى شعب الفريمين إلى أمهات موقرات وذلك عندما يشربن «ماء الحياة» السام، وهو عبارة عن خلاصة توابل أو خليط مركَّز تنتجه دورة حياة دودة الرمل، وعبر تلك العملية تصبح تلك الخلاصة غير ضارَّة فتصل إلى ذكريات الأمهات الموقَّرات السابقات.

وبحسب أحد المصادر، فإن «الكثيب يذكر الدين الزنسُنِّي، الذي من المفترض أن يجمع بين طائفة الزن (البوذية) والطائفة السُّنِّية (المسلمة)» (أداة القمر). وبعد هذا الدين الذي يحظى بقبولٍ كبير، هنالك دين توفيقي لدى الفريمين (وهو نتاج لتوليفة تضم دينين)، حيث كان الفريمين يعتنقون عناصر من هذين الدينين خلال جولاتهم من كوكب لكوكب (بالأصل كانوا يعرفون باسم «الجوالة الزنسُنِّية»)، وذلك في البداية عندما كانوا عبيدًا وجرى نقلهم إلى كوكب بوريترين (حيث ثاروا هناك ثم هربوا)، ثم انتقلوا مرةً أخرى إلى سالوسا سيكوندوس

(حيث استُعبِدوا هناك أيضًا)، وبعدها إلى بيلا تيجيوز، الذي يُعَدُّ «ثالث مكان لتوقفهم»، ثم انتقلوا مرةً رابعة وخامسة إلى كوكبين آخرين لم يذكرا، وسادسًا: في هارموثيب، أي «الوقوف السادس»، وسابعًا وأخيرًا إلى أراكيس، الكثيب، كوكب الصحاري (مصطلحات الإمبيريوم في رواية الكثيب). وفي الوقت الذي نجد فيه أن الدين الزنسُنِّي يشترك بالعديد من الأفكار والمعتقدات مع صوفية طائفة الزن البوذية والإسلام السُنِّي، إلا أن ذلك ليس كل شيء، فلا الإسلام السُنِّي ولا طائفة الزن البوذية يجسدان عقيدة التحرير، ولم يحمل أيٌّ منهما معتقدات استلهمها أي شعب عانى من العبودية طويلًا، كما أن الإسلام المحافظ يتغاضى عن العبودية ويغفرها، (بالرغم من أن القرآن يبيح لمن يتخذ عبيدًا أن يحرر عبيده للتكفير عن ذنب من ذنوبه). أما البوذية فلم تحظر العبودية بشكلٍ صريح (بالرغم من أنها قد تنتهك حظر الطريق الثُماني الذي يمنع الاتجار بالبشر).

بمجرد أن يصبح بول موديب إمبراطورًا على الكثيب، يختلط دين الفريمين بالكاثوليكية، ليصبح دينًا توفيقيًا آخر، وهو الكاثوليكية الزنسُنِّية. والكاثوليكية عقيدة تحرُّرية اعتنقها عبيدٌ سابقون وشعوب تعرَّضت للاستعمار. وبالاستشهاد بشعائر الفريمين القائمة على تذكر وضعهم عندما كانوا عبيدًا (لن نغفر ولن ننسى)، ترى جوليا ليست أن قيم الفريمين تشبه القيم التي اعتنقها البروتستانت في ستينيات القرن الماضي ضمن المجتمع الأميركي (ص40). ولهذا من المرجَّح أن الدين الزنسُنِّي منذ نشأته كان أقرب للكاثوليكية أو البروتستانتية منه إلى الإسلام السُنِّي أو بوذية الزن. كما أن الإنجيل الكاثوليكي البرتقالي الذي أُلِّف بعد فترةٍ قصيرة من قيام الحرب بين البشر والآلات المفكرة، يُعَدُّ النص الديني الجازم الذي يتمتع بالسلطة لدى الكاثوليك الزنسُنِّيين.

إن المشكلات التي تتضح في الرأي السائد تعبر عن درس غاية في الأهمية وهو أنه من الأفضل تجنُّب التصور الذي يرى أن طريقة شعب الفريمين في الحياة، وثقافته ومعتقداته مستمَدَّة من دين الفريمين بمفرده؛ وذلك لأن قيم الفريمين تأتي من مصادر أخرى عديدة، منها تاريخهم بوصفهم شعبًا عانى من الاستعباد ومن الظروف البيئية القاسية التي تعرضوا لها على كوكب أراكيس. إذ من خلال رد فعلهم وتكيُّفهم تجاه الظروف الصعبة، تحاكي نظرة الفريمين العقلية والقيم التي أظهرتها النفسية الأميركية خلال القرن التاسع عشر، والتي كانت تعتمد على سعة الحيلة والاعتماد على النفس والرُّوحانية والبراغماتية.

تخيل أنك نشأت بين كومة من الصخور البارزة في عالم الكثيب المؤلف من صحاري، وأصبحت قاسيًا بفعل الظروف القاسية التي عرفتها طوال حياتك، وأنك ترتدي ثيابًا واقية تعمل على تكرير رطوبة جسمك في كل يوم تمشيه في الصحراء (وثمة علامة دائمة بجانب فمك ولحية تشكَّلت بسبب أنبوب الشرب الموجود في الملابس الواقية)، وأنك تمتطي ديدانًا

كبيرة لتقطع مسافاتٍ شاسعة في الصحراء، وأنك تصلي لشاي-هولود، وتنتظر قدوم الرسول. وبما أن معظم المياه الراكدة التي رأيتها في حياتك موجودة داخل صهريج؛ لذا فإن فكرة البحر، وامتداد المياه على مَدِّ النظر، تصبح أمرًا بعيدًا عن مخيلتك. ولكن، عندما يصل النبي بول موديب ويدعوك للقتال في الجهاد في مختلف بقاع العالم، ستحمل سكينك وبندقيتك، وستصعد على متن سفينةٍ فضائية سريعة، لتمضي سنوات في القتال خدمة لإمبراطورك الرباني وذلك في كواكب رائعة تُغَطِّيها البحار والمحيطات. إن تلك الفترة الطويلة من الزمن التي تمضيها بعيدًا عن عالمك الأم تجعلك تفكر: من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ وما هي المبادئ التي شكلت شخصيتي؟ وما هي المعتقدات التي تُعَدُّ جوهر كياني ورُوحي؟ وهنا، بوسع فيلسوفين أميركيين أن يوجهاك وينصحاك وأنت تبحث عن تعريف لشخصية الفريمين وقيمها.

الاعتماد على النفس من وجهة نظر إيميرسون

في مقالته المُعَنونة بـ (الاعتماد على الذات) والصادرة في عام 1841، جعل الفيلسوف الأميركي رالف والدو إيميرسون (1803-1882) الفضيلة أو تفوق الشخصية يتميز بالاعتماد على الذات. إذ بالنسبة لإيميرسون يعني الاعتماد على الذات الاكتفاء الذاتي الرُّوحاني وليس المادي فحسب، ويمثل ذلك القدرة على اتِّباع المرء لغرائزه مع تجنب الالتزام الممل، أي تحوله إلى قائد وليس تابعًا، حيث يقوم الشخص المعتمد على ذاته بقيادة مسار حياته، فيرى أن أفكاره تمثل حقائق شاملة، ويرفض المنطق اللارُوحي، كما يعتنق الروحانية التحررية التي تسمو على الخبرة الأرضية الدنيوية، وذلك بحسب رأي إيميرسون الذي يقول:

إن كل شخص حقيقي يمثل سببًا، وبلدًا، وعصرًا، ويحتاج إلى فضاءاتٍ لامتناهية وأعداد وزمن لينجز مخططه بصورةٍ كاملة، ويبدو أن الأجيال القادمة ستسير على خُطاه كما تفعل مجموعة من التابعين. إن كل التاريخ يحيل نفسه بكل سهولة إلى سيرة ذاتية لبعض الشخصيات الشجاعة والجادة (ص61).

إن الاعتماد على الذات يحتاج أيضًا لشخص يثق بنفسه بوصفه يمتلك الحكمة التي تساعده على الاختيار بشكلٍ صائب، وبطريقة تعكس رُوحانيته الداخلية إلى العالم الخارجي. ويبدو أن الأميركيين بين «الشخصيات القليلة الشجاعة والجادة» التي تُعَدُّ مثالًا لفضيلة الاعتماد على النفس، ثم إن من يمتلك هذه الخَصلة بأعلى درجاتها هم الشعراء والأنبياء، أما السياسيون والبيروقراطيون فيمثِّلون تلك الفضيلة في أدنى مستوياتها.

إن الاعتماد على الذات فضيلة معروفة لدى شعب الفريمين؛ إذ بالرغم من أن هذا الشعب بدوي، وأغلبه يعمل في جمع القمامة أو حصد التوابل مقابل أجر، أو يعمل جنديًّا، فإن

الرُّوحانية راسخة لديهم (ويقصد بذلك الإيمان بشاي-هولود بوصفه الصانع)، كما لديهم قضية (وهي اتِّباع نبيهم وتحويل الكثيب إلى جنة خضراء، ونشر الجهاد في عوالم أخرى)، إلى جانب قضية بلدهم (أراكيس)، ومعتقد لا يتنازلون عنه ألا وهو أنهم الشعب المختار في زمانهم. وبما أن شخصية الفريمين شكَّلتها الظروف القاسية في الكثيب، لهذا فهي تجسد الاكتفاء الذاتي الرُّوحي الذي امتدحه إيميرسون بفصاحته عندما أثنى على الشعب الأميركي.

ففي مقالته: «الاعتماد على الذات» كتب إيميرسون ما يلي: «ينبغي على المرء أن يتعلم كيف يتفحَّص ويراقب ومضة النور التي تلمع في فكره من الداخل» (ص62). وعليه فإن ما يميز الفريمين هو هذه القدرة على الاعتماد على النفس والتي تساعدهم في العثور على القوة الداخلية للفرد وإبرازها، أي «ومضة النور» لدى المرء (بحسب وصف إيميرسون). كما أن الاعتماد على الذات ينطوي على ممارسة ضبط النفس بدرجة كبيرة، كما قالت الأميرة إيرولان: «إن الفريمين كانوا متفوِّقين في تلك الصفة التي يصفها القدماء بكلمة: Spannungsbogen، والتي تعني التأخير المفروض ذاتيًّا بين التوق لشيء والسعي للحصول على ذلك الشيء» (من رواية الكثيب). وحده الشعب المعتمد على نفسه يستطيع أن ينجو من فترات الاستعباد الطويلة، عبر التجوال في الكون لقرون، وفي نهاية المطاف تأتي عملية التكيُّف مع ظروف الصحراء القاسية في الكثيب. ثم إن قدرة الفريمين على المثابرة في وجه أعتى الشدائد هي التي حوَّلتهم لشعب يعتمد على ذاته، أي أميركي.

الديمقراطية كطريقة حياة برأي ديوي

بالنسبة لفيلسوف أميركي آخر، وهو جون ديوي، فإن الديمقراطية تشبه طريقة لتحقيق ما هو مثالي، أي المساواة الاجتماعية والسياسية، حيث كتب ديوي ليقول: «الديمقراطية هي طريقة لحياة يحكمها الإيمان الفاعل في احتمالات الطبيعة البشرية» (أعمال لاحقة، الجزء 14، ص226). وفي أحد التأويلات التي وردت حول هذه العبارة قيل إنه من خلال الديمقراطية وحدها يمكن للمواطنين أن يتمنَّوا لظروف حياتهم الفردية والجماعية أن تتحسن (ويقصد بذلك الحريات السياسية والفرص الاقتصادية ونوعية الحياة). وفي الوقت الذي نجد فيه أن ذلك يمثل شيئًا مما يقصده ديوي، نكتشف أن ذلك لا يشير إلا إلى غيض من فيض يضرب به المثل. إذ ما تزال هنالك فكرة أعمق؛ وهي أنه يتعين على المواطنين الديمقراطيين أن يؤمنوا فعلًا بتساويهم مع أبناء جلدتهم من المواطنين. بالرغم من أنهم قد لا يكونون متساوين جميعًا من حيث ما يتمتعون به من صفات (كأن يتمتع جميعهم بذات القدر من القوة أو الذكاء)، فإنهم متساوون أخلاقيًّا بعضهم بعيون البعض، ومتساوون رسميًّا أمام القانون، وهذا ما عبَّر عنه ديوي عندما كتب:

«يمثل الإيمان بالرجل العادي مادةً معروفة في العقيدة الديمقراطية، وهذا الإيمان يصبح بلا أساس أو أهمية إلا إذا كان يعني الإيمان بإمكانيات الطبيعة البشرية كما تظهر تلك الطبيعة في كل إنسان بصرف النظر عن عرقه أو لونه أو جنسه أو مكان مولده أو أهله أو ثروته المادية أو الثقافية. ويمكن لهذا الإيمان أن يسن في القوانين الأساسية، لكنه سيبقى حبرًا على ورق ما لم يتم تفعيله في المواقف التي يُبديها البشر تجاه بعضهم في كل حوادث الحياة اليومية وعلاقاتها» (ص226).

أي بمعنى أصح، للمساواة صفة شبيهة بالدين، في ظل الديمقراطية، وتلك الصفة تخترق كل مجالات الحياة الاجتماعية، وليس فقط السياسية. وحتى تتحقَّق الديمقراطية كطريقة للحياة، ينبغي على المواطنين أن يمهدوا ويسووا البنى الهرمية (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية)، وأن يعملوا أندادًا متساوين على حل المشكلات العامة، ومن خلال ذلك يخلقون «تجرِبة أكثر حرية وإنسانية يشارك ويساهم فيها الجميع» (ص229).

وبالرغم من أن الفريمين لا يعتنقون الديمقراطية السياسية، فإنهم ينظرون إلى بعضهم كأندادٍ متساوين في ظل شاي-هولود. ومن الأهداف الأساسية للجهاد تحرير الإنسانية من حكم العائلات المالكة والمؤسسات العظيمة؛ إذ عبر شنِّ حربٍ دينية دموية تمتد لاثنتي عشرة سنة، كان رسولهم بول موديب يعتقد أن علاقات البشر ستتطهر وستتحول إلى علاقات بين أفراد متساوين نسبيًّا، لا بين أسياد وعبيد.

غير أن مبدع رواية الكثيب، فرانك هيربرت، يرى أن الجهود المبذولة لدمقرطة التجربة البشرية كانت محكومة بنهاية سيئة: «في الحقيقة، أعتقد أن محاولات خلق شيء من المساواة المطلقة أوجدت مستقنعًا من المظالم التي ارتدت على من حاولوا خلق مساواة بين الناس. فالمساواة في العدالة والفرص تمثِّل المُثُل التي علينا أن نسعى من أجلها، ولكن علينا أن نعترف أن البشر هم من يقيمون المثل وأن البشر لا يتمتعون بقدرات متساوية» (من رواية: سِفر تكوين الكثيب). وبالفعل، لم يكن الحكم النهائي للإمبراطور الرباني ليتو الثاني يمثل يوتوبيا ديمقراطية.

الفريمين بوصفهم أمريكيين براغماتيين

قال بول: «علياء على حق يا أماه!»، دون أن يلتفت لشقيقته أو لجيسيكا، ثم تابع: «في الوقت الذي ندير فيه أمور الحرب، نقوم أيضًا بخلق أسطورة، فتلك هي الطريقة الوحيدة التي بوسعنا أن ننجز من خلالها ما هو ضروري».

بدت تشاني منزعجة وهي تقول: «أنت تسخر مني يا أوسول».

فردت علياء: «إن أخي براغماتي».

بول الكثيب.

إن الشهرة المرتبطة بقوة صناعة الأسطورة سيئة؛ إذ هنالك أسطورة تقول إننا نحن الأميركيين شعبٌ مختار واستثنائي وأمثولة في الأخلاق وقادة العالم. وهنالك أيضًا أسطورة معاكسة تقول إن أميركا هي عبارة عن إمبراطوريةٍ شريرة وشوفينية وإمبريالية وتستغل الشعوب والدول الأخرى. إلا أن عملية صناعة الأساطير مهمة من الناحية البراغماتية؛ وذلك لأنها عمليةٌ ناجحة؛ كونها تجمع الناس على مجموعة من القيم والمعتقدات المشتركة.

لقد اعترف فرانك هيربرت بالفعل بتلك الملاحظة التي ترى أن شغف الإنسان بالأساطير كان الأساس المعرفي لخلقه كون الكثيب، حيث يقول: «يميل الناس للمبالغة في منح كل قدرة على اتخاذ القرار لأي قائد بوسعه أن يحيط نفسه بالنسيج الأسطوري للمجتمع» (من مقالة سفر تكوين الكثيب). ولقد كانت علياء، شقيقة بول موديب مُحقَّة في إصرارها على أن شقيقها «براغماتي» في اعتماده على أسطورة لتحفيز الفريمين؛ وذلك لأن شعب الفريمين، كما الشعب الأميركي، يَعُدُّ نفسه شعبًا استثنائيًّا ومختارًا ومكلفًا بتلبية نداء خاص في وقت ملائم من تاريخ البشرية، كما يرى هذا الشعب نفسه أنه وقع عليه الاختيار ليقوم بتحرير الإنسانية وذلك عبر خوض قتال تحت اسم الجهاد.

وكما تشير الأميرة إيرولان في تاريخها حول بول موديب فتقول: «لقد خلق الله أراكيس لتدريب المخلصين» (من رواية الكثيب). وهنا يمكن للمرء أن يضيف أن الله خلق شعب الفريمين المتعصب حتى يشن حربًا ويكسبها ضد الكون المعروف، كما يمكن للمرء أن يذهب أبعد من ذلك عندما يقول إن الله خلق شعب الفريمين على صورة شعب يعتمد على ذاته وبراغماتي بحق، أي على صورة الشعب الأميركي.

تركز كل من الفلسفة المتعالية التي يؤمن بها إيميرسون وبراغماتية ديوي على المعنى الغني للمُثل الأميركية الفريدة؛ لذا لا عجب أن يبدو شعب الفريمين مثل الشعب الأميركي في جوهره، أوَهم كذلك؟ إذ إن شعب الفريمين في نهاية المطاف مؤلَّف من جنود راجلين يشنون حربًا مقدسة عنيفة في أرجاء الإمبيريوم، لا كما يفعل المجندون الأميركيون الذين يعشقون الحرية والذين اندفعوا نحو شواطئ نورماندي وإيو جيما حتى يحرموا الطغيان من أي إحساس بالأمان في هذا العالم. وقد ورد في إحدى الروايات التاريخية ما يلي: «لقد حمل مبشرو كويزارات الذين أرسلهم موديب حربهم الدينية إلى كل مكان في الفضاء تحت اسم الجهاد الذي استمر زخمه الكبير لمدة اثنتي عشرة سنة معيارية فقط، ولكن خلال تلك الفترة، جمعت الحالة الاستعمارية الدينية كل الكون البشري، باستثناء جزء ضئيل منه، تحت حكم

واحد». (من رواية مسيح الكثيب). إذن من هم الفريمين؟ وهل كانوا وكلاء الطغيان الديني؟ أم أنهم جسَّدوا الروح الأميركية؟

طريقة الحياة الجهادية

تذكر بول أولى رؤاه حول الجهاد الذي سيظهر، والرعب والنفور الذي عاشه وقتئذٍ، ولكنه أصبح يعرف اليوم رؤى تثير رعبًا أكبر بكل تأكيد، فقد عايش العنف الحقيقي، عندما رأى شعبه، الفريمين، بعدما شُحن بقوة صوفية، وهو يكتسح كل ما يمر أمامه في الحرب الدينية. ومن هنا أصبح للجهاد منظورٌ جديد، فهو عبارة عن نوبةٍ منتهية وقصيرة بكل تأكيد، عندما تُقاس بالخلود، ولكن خلفها تكمُن أهوال تلقي بظلالها على أي شيء في الماضي.

من رواية مسيح الكثيب.

بفضل قوة علم الغيب، أصبح بوسع الرسول بول موديب أن يتنبأ بحمَّام الدم المريع المترتب على الجهاد، ومع ذلك قاد شعب الفريمين البطل ليوسع نطاق الحرب الدينية في أرجاء الكون المعروف، وليُخضعوا من خلالها تلك الشعوب وليستعمروا تلك العوالم التي تقف في طريقهم، وبذلك أصبح الجهاد طريقة حياة، وأسلوبًا لتدمير البِنية المتسلسلة الهرمية للمؤسسات العظيمة ولإعادة بناء علاقات البشر على أساس يعتمد على مساواة أكبر. وفي الوقت الذي لم يتمكَّن فيه العرق البشري من التحول إلى عرق الفريمين (وهنا علينا أن نتذكر الملاحظة التي قدمها إيميرسون حول الشخصية التي تعتمد على ذاتها والتي تشمل فقط «بعض الأشخاص الشجعان والجديين»؛ لذا ظهرت الحاجة لهذا الشعب الاستثنائي ليحرِّر البقية، وليمنحهم هِبة قائمة على مساواة أكبر، وذلك من خلال القوة أولًا، وبعد ذلك عبر سلام يمتد لألف عام تحت حكم ابن الرسول، الإمبراطور الرباني.

يشبه الطالباني الأميركي شعب الفريمين في الكثيب إلى حدٍّ كبير، فقد سافر من إحدى الضواحي في شمالي كاليفورنيا إلى اليمن ومن ثَمَّ إلى ساحة القتال في قلب الصحراء بأفغانستان؛ فقد دفعه ما درسه وكذلك اعتناقه للإسلام إلى أن يسلك طريق الجهاد المحفوفة بالمخاطر، ما أوصله في نهاية الأمر إلى الاعتقال والحبس على يد القوات الأميركية، إلا أن التسمية التي أُطلِقت عليه بقيت تناسبه، لأنه أميركي أولًا وقبل كل شيء، أما انضمامه لطالبان فيأتي في المرتبة الثانية.

وهذا ليس لنمُرَّ مرور الكرام على حقيقة مهمة وهي أن جنسيته أميركية؛ إذ بالرغم من أن أغلب الأميركيين لا يَعُدُّونه وطنيًّا (حيث يصرُّ البعض على أن يتم تجريده من الجنسية الأميركية)، فإنه قدَّم نفسه كشخص يقوم بمغامرة وهو يعتمد على نفسه ولديه قدر كبير من الروحانية والبراغماتية؛ ولهذا فإن جوهره أميركي، ويتجلى ذلك في القيم التي يتبناها وفي

شخصيته. أي إنه لا يختلف كثيرًا عن بول موديب الذي يتحول في نهاية رواية مسيح الكثيب إلى رجلٍ أعمى فقد بصره بسبب سلاح ذري وكذلك خسر بصيرته، أي علم الغيب الذي كان يتمتع به. ووفقًا لعادات وتقاليد شعب الفريمين، يرحل بول ويسافر في أرجاء صحراء أراكيس، حيث يسير على غير هدى في طريقه المقدس الذي لا يعرفه أحدٌ سواه، فقد ورد في الرواية: «نقول عن موديب إنه مضى في رحلة إلى تلك البلاد حيث نسير دون أن تُخلِّف أقدامنا أي أثر» (من رواية مسيح الكثيب).

تم التسجيل من جديد على يد: شين رالستون

ما العيب في سياسة كون الكثيب؟

محفوظات البيني جيسيرت

الأم الموقَّرة تارازا

التاريخ: 14292 حسب التقويم الإغريقي

في ملحمة الكثيب، يروي فرانك هيربرت قصة حول حالة عدم استقرار الإمبراطورية؛ إذ عبر آلاف السنين التي صُوِّرَت أحداثها بالتسلسل، تستخدم الشخصيات إستراتيجيات وأساليب مختلفة لكسب السلطة والتمسك بها، إلا أن كل ذلك يُمنى بالفشل في نهاية المطاف، فحكم الكورينو ينتهي بصعود بول أتريديس إلى العرش، إلا أن الفترة الأولى من حكم الأتريديس مزَّقتها الحروب، وكانت وحشية للغاية. أما بالنسبة للإمبراطور الرباني، ليتو الثاني، فقد حكم بقبضةٍ حديدية لثلاثة آلاف وخمسمائة سنة؛ مما خلق حالة توقٍ للحرية أدت في نهاية المطاف إلى اغتياله. وأخيرًا، فإن الفترة التي تلَت حكم الإمبراطور الرباني أدت إلى زعزعة الاستقرار، فانتهت تلك السلسلة الأصلية بالتشكيك فيما يحمله المستقبل.

في مقالته المعنونة: «سِفر تكوين الكثيب» يرى فرانك هيربرت أنه كتب رواية الكثيب ليظهر أن اعتمادنا على الأبطال يجعلنا ضعفاء، ويحوِّل مجتمعاتنا إلى مجتمعات غير مستقرة سياسيًّا؛ ولهذا يجب علينا ألا نثق بالأبطال، بل بقدرتنا على الحكم والتمييز، غير أننا لا نصدق أن هذا هو التفسير الساسي لحالة انعدام الاستقرار والفشل السياسي الذي تشهده المجتمعات في رواية الكثيب، بل إننا بدلًا من ذلك، وعبر النظر إلى الصلة الكامنة بين الاستقرار والشرعية، وخاصة الشرعية الديمقراطية، نرى أن السبب يتلخَّص في أن المشرِّعين في كون الكثيب لم يخلقوا طرقًا ملائمة للشعب من حيث المشاركة السياسية في التشريع ووضع القواعد.

السياسة في رواية الكثيب

تتألف السياسة من علاقات اجتماعية تتصل بالسلطة والقوة، وتشير جميعها إلى العملية التي تتَّخذ من خلالها مجموعة من الأفراد قرارات ويُشرِّعون ويسُنُّون قواعد لمنظمةٍ سياسية أو لمجتمعٍ ما. أي إن تلك المجموعة من الناس الموجودة في مجتمع ما والتي تتحكم بالقوة السياسية تسيطر وتدير كل الموارد العامة، كالثروة والعمل والقانون. وعندما ندرس السياسة، فإننا ندرس أيضًا طريقة اكتساب هذه السلطة والقوة وكيفية استخدامها واستغلالها. والحق يقال إن ملحمة الكثيب تروي قصة تدور حول صراع على السلطة السياسية؛ الأمر الذي جعل الكلمة اللاتينية التي تعبِّر عن القوة السياسية وهي: «إمبريوم» مناسبة في هذا السياق تمامًا.

وبما أن هذا العمل خيالي؛ لذا فإن تعقيده وخياله القائم على الإبداع يفوق مجرد فكرة «الإمتاع» بأشواط، فقد سبق وأن رأينا في رواية الكثيب مجتمعًا واسعًا في المستقبل، متطورًا للغاية لكنه ما يزال يعمل وفقًا لنظامٍ إقطاعي جديد، يترأس الحكومة فيه إمبراطور ومجلس يضم مؤسسات الأعيان (اللاندسراد). أي إن المجتمع، من الناحية التقنية، يفوق ما وصل إليه مجتمعنا بمراحل من حيث التطوُّر، والمستقبل الذي صُوِّر في تلك الرواية يختلف بشكلٍ كبير عمَّا يمكننا أن نتخيل مستقبلنا أن يصل إليه عادة. فعلى سبيل المثال حُدِّد شكل كون الكثيب عبر تقاليد اجتماعية جوهرية، يقوم بعضها مثلًا على حظر الحواسيب وأي شكل من أشكال الذكاء الصناعي. بيد أن هذه التقاليد قد قَيَّدت النظم التقنية بشكلٍ كبير في كون الكثيب؛ ومن ثَمَّ جعلت الأمور تستدعي الحاجة لوسائل أخرى للتقدم البشري، وقد ظهر جزء كبير من تلك الوسائل عبر مجموعاتٍ متخصصة.

فعلى سبيل المثال، تطوَّر طائفة التباعد وسائل الملاحة عن بعد دون مساعدة الحواسيب، وبذلك تحتكر عملية السفر بين النجوم. أما الطائفة النسائية التي تعرف باسم البيني جيسيرت فتُدرِّب أتباعها على اكتساب المهارات الذهنية والجسدية التي تتفوَّق على تلك التي لدى أي إنسان طبيعي عادي، وبذلك تلعب تلك الطائفة دورًا مهمًّا بوصفها تقدم مستشارات لمؤسسات الأعيان (بالإضافة إلى أجندتها السياسية الخاصة، وبرنامج التربية الخاص بها أيضًا). في حين تمثل مجموعة المينتات شعبًا تَدرَّب منذ الصغر على أن يصبح «حواسيب بشرية»، ويلعب هؤلاء دورًا استشاريًّا مهمًّا. كما أن الجمعيات السرية لدى شعبي تيلاكسو وإكسيان تقدم منتجات مهمة، وبالنتيجة تلعب أدوارًا سياسية محورية، حيث يلعب شعب تيلاكسو دور الخبير في منتجات الهندسة الحيوية والوراثية، فيما يلعب شعب إكسيان دور المبتكر في مجال التقانة، فيلغي بذلك حدود الحظر المفروضة على الآلات المفكرة، وبذلك تكسب كل تلك الجماعات المتخصصة وبأساليب مختلفة سلطة سياسية.

في رواية الكثيب الأصلية، نتتبَّع الحكام الآتين من دار أتريديس وذلك عند دخولهم لإقطاعيتهم الجديدة، أي كوكب أراكيس، بعدما كُلِّفوا بمهمةٍ جسيمة وأساسية، ألا وهي حصد وجمع أهم وأثمن السلع في هذا الكوكب، وهو خليط التوابل الذي يُنشِّط الوعي والحيوية، ويُطيل عمر من يستخدمه في نهاية الأمر. أي إن مؤسسة أتريديس تمثل البطل الخيِّر في هذه القصة؛ وذلك لأن حكمَها صُوِّر على أنه عادل وخيِّر، كما أن حاكمها، الدوق ليتو أتريديس، حافظ على شعبيته بين بقية مؤسسات لاندسراد، حتى عندما صُوِّر بوصفه متحدثًا رسميًّا باسم تلك المؤسسات. وأيضًا تقف هنا مؤسسة أتريديس الطيبة نقيضًا مباشرًا لمؤسسة هاركونين المتوحشة والفاسدة.

يترأس البارون القاسي فلاديمير هاركونين مؤسسة هاركونين التي تضم حُكَّامًا ظَلَمة في كوكب جيدي برايم القاتم والصناعي إلى حدٍّ كبير. وكغيره من زملائه الأعيان من شعب هاركونين، يتعامل هذا الرجل مع حياة الناس بوصفها مجرد سلعة بين سلعٍ أخرى كثيرة، حيث يصوره هيربرت كشخصية ساديَّة تستمتع بالقتل، وتظهر أمثلة كثيرة حول هذا الموضوع/الثيمة في مواضع مختلفة من رواية الكثيب؛ إذ نادرًا ما يُضيع هذا الرجل فرصة لتعذيب مناوئيه والمتعاونين معه على حدٍّ سواء، لدرجة أنه يُمعن في ذلك عندما يلقي القبض على الدوق ليتو حيًّا فقط ليُشمت بانتصاره. كما عاقب أيضًا فيد ابن شقيقه المدمن على ممارسة الجنس، وذلك عبر إرغامه على قتل كل عشيقاته.

تمثِّل مؤسستا الهاركونين والأتريديس مؤسستين تضمان ألدَّ الأعداء منذ أمدٍ بعيد، إلا أن نزاعهم يضيف موضوعًا أساسيًّا للرواية، ففي الوقت الذي يصور فيه هيربرت الأعمال العدائية التي يقوم بها الإمبراطور ضد الأتريديس، لا بوصفها أعمالًا مقصودة ضد هذا الشعب بحد ذاته، بل بوصفها نتائج منطقية لحكمه الحالي، يعكس القتال بين الأتريديس والهاركونين حالة الاحتقار المتبادلة بين الطرفين؛ ولذلك يمكن أن يوصف الصراع بينهما بحق على أنه صراعٌ بين الخير والشر. ولكن في الوقت الذي تظهر فيه عدالة شعب الأتريديس ووحشية وظلم شعب الهاركونين بوصفها فروقاتٍ فاصلة بينهما، تصبح تلك الفروقات غير مهمة عندما يُنظر إليها من ناحية الاستقرار وعدمه فيما يتصل بالشرعية والسلطة القانونية. وبالتركيز على تلك المسألة، تظهر مؤسسة الأتريديس ومؤسسة الهاركونين بالإضافة إلى العناصر الفاعلة الرئيسية الأخرى في ملحمة الكثيب (مثل البيني جيسيرت والتليلاكسو والإكسيان، وفي مرحلة لاحقة الأمهات الموقَّرات)، أنها تعمل وتُنظم التجمعات السياسية التابعة لها بطرق مشابهة.

وهذا التشابُه بين فرقاء متعارضين يُفسر حالات الفشل السياسي لمجتمعات الكثيب، ويلفت الانتباه لموضوع التطور الإنساني الذي يسيطر على أعمال فرانك هيربرت.

العمل الإستراتيجي في كون الكثيب

في سلسلة الكثيب، ثمة درس من بين أولى الدروس التي يُعلِّمها الدوق ليتو لبول عند الانتقال إلى كوكب أراكيس، وهو: «في العالم الذي نعيش فيه، تحكم المصلحة الذاتية كل شيء»، وهذه العبارة تشي بالكثير؛ وذلك لأن العمل الاستراتيجي يهيمن على عملية صناعة القرار وعلى سن القوانين في كون الكثيب، بما أن العمل الاستراتيجي هو عمل يقوده الهدف الذي يسعى لتحقيق غاية مرغوبة ما. وهكذا، وبدلًا من أن يمثل الإمبراطور شادام كورينو الرابع الخير أو الشر في ذاته، يجسد صفة جهة فاعلة استراتيجية بشكلٍ كبير. وبذلك تعتمد

أفعاله لا على الاعتبارات الأخلاقية أو حتى الاعتبارات الإقطاعية الأشد وضوحًا وصراحة، مثل الولاء، بل على الاعتبارات الإستراتيجية المثيرة للاهتمام وحسب. ولذلك يتصرف في عدة مواضع رغمًا عنه، ولكن يبدي إحساسًا بالالتزام تجاه ما تتطلبه الاستراتيجية. وفي رواية الكثيب، نعرف من الأحداث أن الإمبراطور معجب بالدوق بيد أنه «لا يحب الضرورات السياسية التي تخلق الأعداء»؛ ولهذا لا يتصل ذلك بأي من تصرفاته، في الوقت الذي يعترف فيه بكرهه لتلك الظروف.

وتمثل شخصية البارون هاركونين أيضًا نموذج المُخطط الاستراتيجي الذي يضع الخطط للوصول إلى السلطة عبر قسوة القلب، فهوسه بالسلالة وبالوسائل الاستراتيجية المتبعة لضمان ذلك يتجلى في كل تصرف يقوم به: «فالبارون يستطيع أن يرى الطريق أمامه. إذ قد يصبح أحد أبناء شعب الهاركونين إمبراطورًا في يوم من الأيام، أي ليس هو ولا أي أحد من ذريته ... بل شخص من شعب الهاركونين ... هنالك لمعة ذكاء حادة ظهرت لدى البارون تجاه الشاب فيد-روثا، وتجلت بالشراسة ... يومها فكر البارون وقال: يا له من فتًى جميل! لنرَ بعد مرور عام أو عامين، أي عندما يبلغ السابعة عشرة من عمره، وعندها سأعلم علم اليقين ما إذا كان سيصبح الأداة التي تحتاج إليها مؤسسة هاركونين للوصول إلى العرش».

بيد أن العمل الاستراتيجي لا يمثِّل فقط الخصوم في رواية الكثيب، بل أيضًا أبطال تلك الرواية؛ إذ تُظهر فكرة الدوق ليتو حول المصلحة الذاتية التي تحكم كل شيء تحليلًا للقيود الخارجية التي يجب أن تتكيَّف معها مؤسسة أتريديس، ولكن عندما تصل مؤسسة الأتريديس إلى السلطة، نكتشف أن المصلحة الذاتية ما تزال هي التي تحكم. وفي مثالٍ بليغ على ذلك، نجد أنه بعد استيلاء بول على السلطة، يناقش مجلس الأتريديس مطالبة شعب لاندسراد بدستور، إلا أن ذلك المجلس لا يتطرق للمسألة الجوهرية التي تتصل بما إذا كان هذا الدستور يمثل مطلبًا مشروعًا أم لا. لذا، وبدلًا من ذلك، يناقش ذلك المجلس الأعمال الاستراتيجية فحسب، مثل اقتراح الرفيقة إيرولان حول ضرورة اتِّخاذ إجراءات تتخذ شكل دستور صوريًّا، حيث أعلنت الأميرة إيرولان في رواية أبناء الكثيب ما يلي: «الخداع في النهاية أداة مشروعة لمن يعمل في سلك الدولة». ولاحقًا، عندما يموت بول، وتتولى علياء أمور العرش من بعده، يتوالى ذلك النهج الاستراتيجي ويستمر. إذ توحي مؤسسة كورينو أن هنالك تزاوجًا ما بين غنيمة ابنة بول وفارادن من مؤسسة كورينو. وهكذا تستسلم علياء وتقول: «قل ما تريده بوضوح؛ إذ إن مصلحة أتريديس ستكون هي الغالبة».

يميز غالبية الفلاسفة السياسيين بين العمل الاستراتيجي والعمل التواصلي، وقد كان الفيلسوف الألماني المؤثر يورغن هابرماس أول من أوضح الفرق في كتابه نظرية الفعل التواصلي؛ إذ بدلًا من التوصل إلى نتائج متشائمة حول خسارة المعنى والحرية والتضامن

في العالم التكنوقراطي-الرأسمالي الحديث، الذي أصبحت فيه المصلحة الذاتية هي المبدأ الموجِّه للبشر، يوضح هابرماس أن الحداثة أثبتت أنها عمليةٌ متناقضة، كونها تفتح أيضًا الباب أمام احتمال التعلم الاجتماعي والأخلاقي بالإضافة إلى زيادة الحرية بين البشر. إذ بخلاف النظر إلى العقلانية بمفردها على أنها أمر استراتيجي، يُفسِح هابرماس المجال لفكرة تُكمل العقلانية، ألا وهي الفعل التواصلي، فالتصرف عبر التواصل يعني التوجُّه نحو فهم مشترك مع الآخرين، في حين أن الفاعل في الفعل الاستراتيجي يحدد غايته النهائية قبل عملية التفاعل، أما في الفعل التواصلي، فيحدد الفاعل غاياته بطريقة تعاونية عبر التفاعل مع الآخرين.

ولقد طور هابرماس الفكرة التي ترى أن الفعل الاستراتيجي يقود التقانة والرأسمالية أيضًا، ومع ذلك لا يمكن لمجتمعٍ معين أن يتماسك إلا عبر هذا الفعل لوحده. ففي نهاية المطاف، نقوم نحن – بوصفنا كائناتٍ اجتماعية – باختراع تلك العمليات الاستراتيجية عبر شبكة من حالات الفهم المشترَكة. وفي اللحظة التي يتَّفق فيها الجميع على أن المال ليس أكثر من ورق حمام، نفقِد القدرة على شراء أي شيء بهذا المال. أما من خلال الفعل التواصلي فإننا اتَّفقنا على أن المال هو عبارة عن قطع من الورق يمكننا أن نستخدمها كعملة لشراء الأشياء وبيعها. بيد أن هذا الفهم ليس استراتيجيًّا، بل تم التوصل إليه عبر فَهم مشترك. وبالطبع، فإننا غالبًا ما نستخدم المال بطريقة استراتيجية، إلا أن هذه مسألة أخرى مختلفة؛ وذلك لأننا في الحقيقة لا ندرك العمل الاستراتيجي ما لم نمتلك قبل كل ذلك القدرة على الوصول إلى فهم من خلال اللغة، لنتصرف بطريقة تواصلية.

لنأخذ البارون الخائن هاركونين أو الإمبراطور الاستراتيجي كورينو كمثال؛ إذ من خلالهما يتكوَّن لدينا انطباع أنهما يكذبان في أغلب الأحيان، وهذا الانطباع يقوم على النظر إلى استعدادهما لخداع الآخرين بمجرد أن تسنح لهما الفرصة، أي إن ذلك لا ينطبق على كل حالات التواصل التي يقومان بها؛ إذ كيف يمكنهما أن يجعلا من يتعاون معهما أو يخدُمُهما يفهم أوامرهما، أو حتى يخدع غيره من الناس، إن كان كل ما يفعلانه كذبًا؟ إن إمبراطور كورينو لا يمكنه أن يتمسك بسلطته على المؤسسات الأخرى إلا إذا كان معظم ما يفعله يهدف إلى الصدق. ولهذا السبب يرى هابرماس أن الفعل الأساسي في حياتنا اليومية يقتصر على التواصل؛ وذلك لأن هذا الفعل هو الذي يجعل المجتمع يتماسك، وبدونه لا يمكن أن تقوم للنظام الاجتماعي قائمة.

في رواية الكثيب، تُصاغ القوانين والتشريعات والأعراف الأخلاقية والمبادئ وتُقرَّر من خلال عمل استراتيجي، وذلك عبر السماح مثلًا لقائدٍ ما بتمييز الصح من الخطأ، والعدل من الظلم، وجعل الناس الذين يعيشون تحت حكمه أو حكمها يتقبلون تلك القواعد بوصفها

شرعية وقانونية، ويجري ذلك عادة عبر التهديد بالعقوبة. إلا أن تحديد الجوانب الأخلاقية من خلال الفعل الاستراتيجي قد يعني أنه يمكن للناس أن يكون لديهم أسباب خيِّرة تدفعهم لتجاوز القواعد الأخلاقية ما دام أنهم يحصلون على شيء عبر قيامهم بذلك. وذلك لأن الفعل الاستراتيجي يعني أنني كلما ظهر أمامي هدف وفعل بوسعه أن يساعدني على تحقيق ذلك الهدف، فسأعمل بمقتضى ذلك. وفي سلسلة الكثيب، يلقي بول ورجاله من الفريمين القبض على أحد ممثلي طائفة التباعد الذي يدَّعِي أن المعاهدات الإمبراطورية تحميه، فيرفض بول الاعتراف بشرعية تلك المعاهدات حيث يقول: «إن القانون الإمبراطوري باطل في الموضع الذي يقف عنده موديب».

الاستقرار والسلطة الشرعية في كون الكثيب

في السياق السياسي، يُناقَش النظام الاجتماعي عادة من ناحية الاستقرار، ذلك المفهوم الذي يُعَدُّ مركزيًّا بالنسبة لكل مجتمع في كون الكثيب. وفي أعقاب الجهاد البتلياري، أصبح الإحساس بالخطر على البشرية وشيكًا، وقد اتَّضح ذلك من خلال المحظورات المنصوص عليها في الاتفاقية الكبرى، وفي التطورات اللاحقة ضمن سلسلة الكثيب.

يميز السعي من أجل الاستقرار الهيكلية الاقطاعية الجديدة التي بنيت عليها إمبراطورية كورينو بالإضافة إلى حكم الأتريديس على أراكيس. ومع صعود الإمبراطور الرباني تنتقل تلك المخاطر إلى مستوى أعلى؛ وذلك لأن الخوف من انقراض العِرْق البشري يدفع ليتو الثاني للمُضِيِّ في طريقٍ قاسٍ واستبدادي يخاف بول نفسه من اختياره، ألا وهو الطريق الذهبي.

وبصرف النظر عما إذا صوَّر هيربرت الحاكم على أنه طيب أم شرير أم لم يفعل، تتألَّف السلطة في رواية الكثيب من القدرة على فرض القانون عبر الإجبار، والتهديد والعقوبات، أي بمعنى أصح عبر الفعل الاستراتيجي. يصف المفكرون السياسيون عملية اتخاذ القرار الاستراتيجي غالبًا بأنها عملية توجيه وقيادة سياسية هرمية؛ ما يعني أن المشرِّعين يوجِّهون من يلتزمون بالتشريعات والقواعد، أي الشعب، ليتصرفوا بالطريقة التي تريدها تلك القواعد بغية تحقيق غايات مرغوبة. وعبر ممارسة السلطة بهذه الطريقة، يقوم الحُكَّام في العديد من مجتمعات كون الكثيب بخلق حالة استقرار. إلا أن هذا الاستقرار يعتمد على الأمن والنظام الذي يُحفَظ عبر وسيلة مادية كالتهديد والعقوبات. أي إن المشكلة كما نعيها اليوم بوضوح، تتمثل في أنه ليس بوسع أي دولة حديثة أو منظمة سياسية تمثل كيانًا يشبه الدولة أن تعتمد بشكل كامل على عملية التوجيه السياسية الهرمية لفرض القانون.

يتألف أي نظام سياسي من شقَّين: السلطة السياسية (المشرعون) ومجموعة من الناس تخضع لتلك السلطة (الملتزمون بالقوانين). فعندما نقول إن هذا النظام يتمتع بالسلطة فهذا

يعني أن هنالك علاقة من نوع ما بين المشرِّعين ومن يتبعون القوانين فيه. ويُستخدم مصطلح الشرعية في الفلسفة السياسية ليصف الجوانب الأخلاقية في هذه العلاقة، أي إن الشرعية تشير إلى السلطة القانونية، واليوم يَعُدُّ الفلاسفة الشرعية الديمقراطية النوع الجذاب للسلطة القانونية من الناحية الأخلاقية. أي إن النظام الديمقراطي يحتاج إلى أن يتحول هؤلاء الذين يخضعون للقانون إلى من يكتبونه في الوقت ذاته. لذا حتى تتمسك السلطة السياسية بشرعيتها أو أحقيتها الديمقراطية، يتعين على الشعب أن يوافق على ذلك سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. فمن المنظور الديمقراطي، يمكن حتى لأكثر نظام سياسي هرمي منظَّم أن يفقد استقراره في نهاية المطاف.

من الشائع توصيف الاستقرار بمصطلحات مادية، ليس فقط في كون الكثيب، بل أيضًا في السياسة الدولية اليوم. بَيْد أننا في سيرنا على خطى هابرماس نرى أن هنالك علاقة وثيقة بين الاستقرار والشرعية، وبدقة أكثر يمكن القول إن الاستقرار يجب أن يُفهم من خلال مصطلحات الشرعية؛ إذ بدون هذه الشرعية، سنكتشف أن الأنظمة السياسية لا بد وأن تفقد استقرارها عاجلًا أم آجلًا؛ إذ إن فشل الأباطرة في رواية يُعَدُّ خير دليل على أن الاستقرار المادي يمثِّل أساسًا هشًّا لقيام أي نظامٍ اجتماعي. ثم إن الاستقرار المادي يختلف بشكلٍ كبير عن الاستقرار المعياري، والذي يشير إلى تماسك النظام الاجتماعي بفضل قواعد ونظم مشتركة تُعَدُّ عادلة ومشروعة. أما الديمقراطية فتضمن الاستقرار المعياري؛ وذلك لأن الديمقراطية تهدف بالأساس إلى خلق نظم وقواعد مشتركة تُعَدُّ مشروعة في نظر من يجب عليهم الالتزام بها.

كيف كان تجنب حالات الفشل السياسية المتكرِّرة في مجتمعات كون الكثيب أمرًا ممكنًا؟ إننا لا نتفق على أنهم فشلوا ليحافظوا على الاستقرار؛ وذلك لأن الحكام أصبحوا في نهاية الأمر مهووسين بالسلطة كلما ارتكبوا أخطاء، وهذا ما ذكره فرانك هيربرت في مقالته: «سِفر تكوين الكثيب» أو حتى لأنهم أصبحوا فاسدين ومفرِّطين، تمامًا كما ورد في تأكيد التفسير الكلاسيكي لانحدار الإمبراطوريات وتدهورها.

إلا أن إمبراطوريات الكثيب فشلت لأنها سمحت للقوة الاستراتيجية بالهيمنة في الوقت الذي كانت تُعَدُّ فيه شكلًا مقبولًا من أشكال السلطة. وللتأكُّد من ذلك، وبمعزل عمَّا إذا كان مجتمعٌ ما يحكمه حاكمٌ منفذ كلي القدرة لا يحتاج للاعتماد على غيره، أو حتى كان ذلك الحاكم كلي القدرة هو الإمبراطور الرباني ليتو الثاني، فإن أي سلطة سياسية تعتمد على ضوابط أي قواعد وتقاليد يُلتَزَم بها عبر التعامل معها على أساس أنها شرعية بطريقة ما، وإلا فلن يخضع أحدٌ لهؤلاء الحكام أو يطيعهم، كما أن تلك التقاليد المتَّبعة في كون الكثيب ليست غريبة عنا.

كما سبق وذكرنا، فإن التقاليد الاجتماعية حظرت الحواسيب وغيرها من أدوات التفكير التي صنعها الإنسان (بعد الجهاد البتلياري)، كما تم حظر الأسلحة الذرية بشكلٍ كامل (الاتفاقية الكبرى). وهذه الاتفاقيات لم تكُن مجرد تشدُّق بالكلام، بل حَظِيَت بتطبيق وفرض فعلي أيضًا، ما يعكس إمكانية وجود قوانين مُلزِمة في كون الكثيب.

وفي الوقت الذي بقيت فيه تلك الاتفاقيات محصورة في الجانب التقني، ظل إطار العمل السياسي-المعياري متخلِّفًا إلى حدٍّ بعيد.

تبقى الديمقراطية فكرة غير مرئية غالبًا في كون الكثيب، وعندما يُشار إليها، تظهر غالبًا وكأنها تُمثِّل نظام حكم غير مستقر وغير مرغوب، فمثلًا في وزارات أبناء الكثيب، وعندما اقترح أحدهم على علياء المشاركة على مستوى محلي صغير، كان ردها: «يجب ألا تُهمَّش قوة الأتريديس عبر فوضى الديمقراطية».

وبالرغم من ذلك نعتقد أن الديمقراطية تقدم علاجًا للقلق الذي يساور هيربرت تجاه الحكام المهووسين، فضلًا عن كونها حلًّا لإمبراطوريات الكثيب؛ لأن الديمقراطية تعني بصورةٍ أساسية الصورة المناقضة لحصر السلطة في أيدي قلة من الناس. وهذا يعني أن كل مواطن يتمتع بقدرٍ مساوٍ من السلطة، وبوسعه من خلال عملية صنع القرار الديمقراطية القائمة على المساواة أن يعزل الحكام الفاسدين وأن يعفيهم من مناصبهم. وبما أن السلطة تنشأ عن آليات التوجيه والقيادة الهرمية، وتخلق حالة استقرار مادي؛ إذن فإن هذه القصة التي تدور حول الديمقراطية وتتخذ مسارين، حيث يقوم المواطنون العاديون فيها بمنح الشرعية للحكام والقادة؛ تتحول إلى قصة حول الديكتاتورية مؤلَّفة من مسارٍ واحد. إذ حتى الديكتاتور العطوف الذي يحكم لمصلحة مَن يحكمهم، يسرد قصة مؤلفة من مسارٍ واحد. فالديمقراطية ليست مجرد حكومة من أجل الشعب تُشكَّل من أجل الشعب وتحكم لمصلحة المرؤوسين، بل أيضًا تُمثِّل الحكم على يد الشعب وهذا هو الأهم هنا.

وفي بعض الأحيان يمكن للديمقراطية أن تُوصف بنظامٍ سياسي «فوضوي» كما وصفتها علياء؛ إذ يبدو أنها ترى أن الشعب في ظل الديمقراطية لا يتفق، وأنه لا بد لحالة تضارب المصالح أن تظهر تحت الحكم الديمقراطي بصورةٍ حتمية، وللقضاء على كل هذا، ليس على المرء إلا أن يترك الحاكم ليقرر ما هو الخطأ من الصواب، وما هو الحق من الباطل وهلَمَّ جرًّا. ولكن إذا عرَّفنا كلمة «فوضوي» بهذه الطريقة، عندها ستتحول الفوضى إلى شيء جيد من وجهة نظر ديمقراطية. وحتى لو كان بوسع عملية اتخاذ القرار بصورة جماعية في مجتمع ديمقراطي تعددي أن تتحول في أغلب الحالات إلى ممارسة متعرجة، فإن مجتمعًا كهذا سيبقى صحيًّا لأنه وبكل دقة قادر ليس فقط على مواءمة حالة عدم الاتفاق وتضارب

المصالح ضمن الإطار المؤسساتي للقانون، بل أيضًا قادر على تحويل ذلك إلى قوة إبداعية على المستوى السياسي.

وعندما ننظر إلى حالات الفشل الكثيرة التي مُنِي بها المشرعون السياسيون وأصحاب السلطة في كون الكثيب، نكتشف أن ميزة الديمقراطية بوصفها نظامًا سياسيًّا تعتمد على الفكرة القائلة إن السلطة القانونية تُعَدُّ جوابًا وردًّا على حالة عدم الاستقرار في الوقت ذاته. ومن هنا، ومن منظور ديمقراطي، يُوصَل إلى الاستقرار المادي عبر الاستقرار المعياري وليس العكس.

لعل حكم مؤسسة أتريديس يُعَدُّ أقرب مثال لدينا حول الاستقرار المعياري في كون الكثيب. إذ في الوقت الذي لم يكن فيه هذا الحكم ديمقراطيًّا، كان الشعب يَعُده حكيمًا وعادلًا، الأمر الذي جعله ينعم بالاستقرار على الصعيد الداخلي، ومع ذلك، وعلى المدى الطويل، وبعد أن أصبحت تلك المؤسسة هي الحاكمة في الإمبراطورية، فشلت في التمسك بحالة الاستقرار هذه، وهذا الأمر برأينا ليس بمستبعد عنها؛ نظرًا للموقف الذي اتخذته حيال العملية الديمقراطية التي تعُدها فوضوية، إلى جانب معارضة تلك المؤسسة «للتنازل» عن السلطة السياسية أو مشاركتها.

وبالطريقة ذاتها، أصبح ذلك الوسيلة التي اعتمدها بول في مجتمع الفريمين لاسترجاع السلطة؛ وذلك لأن الاعتماد على القوة وعلى المهارات الجسدية للقادة يهدِّد بزعزعة الاستقرار. ثم إن العادة القائمة على منازلة القائد الحالي جسديًّا ضمن مقارعة رجل لرجل تزعزع استقرار شعب الفريمين، إلا أن هذا الاستعراض الكبير للقوة الجسدية بوصفها وسيلة للوصول إلى السلطة، لم يعد يُمارس في الثقافة القبلية ليس لدى شعب الفريمين فحسب، بل وفي كل أنحاء الإمبراطورية، وذلك مع ظهور تحدي كانلي من أجل السلطة الذي يمثل المعركة النهائية في الكثيب، وكذلك ضمن الشعائر والطقوس التي تتبعها الأمهات الموقَّرات في الروايات التي ظهرت فيما بعدُ. إذ بوجود هذا الاعتماد على الاستقرار المادي وعلى العمل الاستراتيجي بوصفهما اللَّبنتَين الأساسيتين في البناء السياسي، يبقى الاستقرار المعياري أمرًا صعب المنال بالنسبة لحكام الكثيب؛ ولهذا تغدو حالة عدم الاستقرار قريبة منهم.

إن التوزيع العادل للسلطة وآلية «الأمان» المتأصلة ضد الطغيان لا تمثل العنصر الوحيد الذي يرسخ الاستقرار في الشرعية الديمقراطية؛ وذلك لأن ممارسة الحقوق المدنية والسياسية تلعب هي الأخرى دورًا أساسيًّا في حياة البشر وصحتهم؛ إذ إن المشاركة في الحياة السياسية للمجتمع الذي يعيش المرء فيه تمثل بهذا المعنى القيمة النهائية، أي الطريقة التي يحس الشعب من خلالها بالتمكين. وتتصل بهذه القيمة قيمةٌ أخرى هي القيمة الذرائعية

التي تعبِّر عن المرء عندما يصبح صوته مسموعًا ويغدو قادرًا على التعبير عن قيمه وما يُفضِّله؛ إذ بدون التمتع بهاتين القيمتين يمكن أن نُحرَم من إمكانية الاعتراف بنا على أننا مواطنون متساوون.

وإذا نظرنا إلى تحليل البِنَى السياسية في الكثيب من منظورٍ تاريخي، واقتربنا أكثر لنعاين تطور الدولة الحديثة، سنرى أن العلاقة بين الدولة والسلطة قد تغيَّرت بشكلٍ كبير منذ العصور الوسطى. وعندما نصل لعصر النهضة، سنكتشف أن الفصل بين الدولة والسلطة لم يكن موجودًا؛ وذلك لأن الدول كانت تعادل حكامها وقتئذٍ. ولكن بعد ظهور الدولة-الأمة عقب الثورة الفرنسية، أصبح بإمكاننا أن نلمح نقطة البداية بالنسبة للدولة الحديثة. فالفصل القائم على وجود المؤسسات بين الدولة والسلطة يشتمل على ميزةٍ واحدة لهذه الدولة، وهي أنها لم تعُد تعرف بمجموع أفرادها (أي المواطنين) أو بشخصية حاكمها، بل منذ ذلك الحين فصاعدًا، أصبحت الدولة تُعَد موضعًا لممارسة السلطة تأسس على يد المواطنين من جهة، وقد حُدِّد موقعها فوقهم بوصفها ضامنًا لأمنهم الفردي والجمعي من جهة أخرى. وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على ظهور «فجوة» بين المشرعين (الموجودين في السلطة) والأتباع (أعضاء المجتمع السياسي)، وهذان يشكلان عنصرين أساسيين ضمن موضع الدولة.

قبل ذلك وصفنا المجتمعات في الكثيب بأنها إقطاعية جديدة بمعنى أن مجموعة السلطة والقوة الرئيسية تتألف من طبقة النبلاء، أو مؤسسات النبلاء التي تتحكم في الأرض ووسائل الإنتاج عبر الإقطاعيات وتدين بالولاء للإمبراطور الحاكم. ومن خلال مخطَّطنا التاريخي نقترح طريقةً أخرى أيضًا يمكن من خلالها تصوير المجتمعات في كون الكثيب بطريقة معقولة على أنها تعود للقرون الوسطى؛ إذ على الرغم من أنها دولة تتمتَّع بتقدم تقني كبير، فإنها تكشف عن الافتقار ذاته للفصل القائم على المؤسسات بين الدولة والسلطة. كما أن الشعب في مجتمعات كون الكثيب لم يتحول إلى مجرد ظل في الخلفية، سواء قبل صعود بول أتريديس على العرش وبعده. ولعل تجمُّع شعب الفريمين الجماهيري ودعوتهم لتشكيل حل لقيادة الفريمين بين بول وستيلغار يمثل أوضح استثناء في هذا السياق، فإن هذا المثال يقف استثناءً بدلًا من أن يمثل مشاركةً دائمة للشعب في عملية صناعة القرار. ففي مؤسسات النبلاء على وجه الخصوص، تقوم سلالة الدم لا المواطنون بتأسيس السلطة. وبذلك تمثل الدول بيوت النبلاء، كما يمثل النبيل الحاكم تجسيدًا لتلك المؤسسة. ويصح ذلك بالنسبة لمؤسسة هاركونين الشريرة ولمؤسسة كورينو الإمبراطورية وكذلك بالنسبة لمؤسسة أتريديس الطيبة.

وفي وزارات أبناء الكثيب، يطلب ليتو الثاني من غيرناي هاليك أن يتخلى عن علياء وحكمها الظالم، فيرد هاليك رافضًا بقوله: «إن ولائي لمؤسسة أتريديس»، فعلياء تنتمي

لمؤسسة أتريديس، ومؤسسة أتريديس تمثِّل السلطة، بصرف النظر عن مدى ظلمها. وهنا يردُّ ليتو بسرعة فيقول: «أنا مؤسسة أتريديس» ليحل الموضوع. فبما أنه نجل بول، لهذا يَعُد ليتو نفسه الوريث الشرعي للعرش؛ ولذلك يُعَد تجسيدًا للمؤسسة، لا أقل ولا أكثر.

طريق ليتو الذي لم يكن ذهبيًّا كثيرًا

لقد بنينا تحليلنا بشكلٍ أساسي حتى الآن على ما سمَّيناه الحقبة الأولى من تاريخ الكثيب، أي الفترة التي تدور حول حياة بول أتريديس، ولكن ما الذي حدث بعد ذلك؟ لسوء الحظ، يبدو أن الاستراتيجيات التالية التي تسعى لتحقيق الاستقرار، ولضمان استمرار العرق البشري بكل تأكيد، قد فشِلت في معالجة المشكلات الأساسية في كون الكثيب؛ إذ ما تزال المشكلة تتمثَّل بالمبالغة في التركيز على الفعل الاستراتيجي بدلًا من التواصلي، وما يتبع ذلك من قصور في الشرعية الديمقراطية.

في نهاية أبناء الكثيب، يموت كلٌّ من بول وعلياء، أما ليتو الثاني فيتحول إلى كائن هجين يجمع بين إنسان ودودة رمل وذلك بعدما يستولي على العرش. وفي دولته الهجينة الجديدة، يصبح ليتو خالدًا إلى حدٍّ ما، حيث يستمر في الحكم لمدة 3500 سنة، فيعيد صياغة ورسم شكل الإمبراطورية بشكلٍ كبير وذلك من خلال طريقه الذهبي، لكونه على قناعة أن الطرق القديمة، ويقصد بذلك الإمبراطورية الإقطاعية الجديدة القديمة، بالإضافة إلى ما تبعها من حكم بول المبني على التعصب الديني والبيروقراطية، لا بد وأن تؤدِّي إلى انقراض العرق البشري. فالإمبراطورية القديمة قد أصابها الركود، وذلك عندما أخذت تركِّز على الداخل بدلًا من أن تتطور. كما أنها اعتمدت على إنتاج التوابل وعلى المهارات الخارقة التي تقدمها مجموعات محددة مثل طائفة التباعد والبيني جيسيرت. ولذلك قرر ليتو أن الحل يكمُن في حث البشرية على التوسع ضمن مساحات مجهولة مع مواصلة التطور.

وبنظر ليتو، يمثل الطريق الذهبي الوسيلة الوحيدة القابلة لتحقيق تلك الغاية المتمثِّلة في بقاء البشر وتطوُّرهم. وبما أنه حاكم ظالم ومستبد وقد تعمد أن يكون كذلك؛ لذا فقد فرض ليتو الطريق الذهبي، الذي يخلق سلامًا في كون معروف عبر السيطرة على كل مواطنيه بصورة كاملة. وهنا يظهر حكمه الذي يحيط ببِنَى السلطة القديمة، حيث لم يعد للاندسراد أي أثر ولم يبقَ من المؤسسات القديمة سوى القليل. وفي الوقت الذي بقيت فيه طائفة التباعد والبيني جيسيرت موجودتين، يحتفظ ليتو بهما تحت سيطرته المحكمة. ثم يؤسس قوته الضاربة الخاصة به التي تضُم مقاتلين متعصبين، أطلق عليهم تسمية محاوري الأسماك؛ ومن ثَمَّ يطلق برنامج التربية الخاص به، حيث يجمع بين فكر أتريديس والبيني جيسيرت بهدف خلق إنسان يحمل أفضل ما لدى الطرفين، أي العاطفة النبيلة التي يتمتع بها الأتريديس،

والمقدرات الجسدية والعقلية الموجودة لدى البيني جيسيرت.

إن حكم ليتو الظالم وسيطرته المحكمة على البشرية وعلى عملية الإبحار لمسافات وعلى الخليط، أجبرت ما تبقى من مجموعات على الابتكار والإبداع بطرق لم يتخيل أحد منهم أنها ممكنة في يوم من الأيام، فخلقوا في نهاية المطاف أجهزة للملاحة (إكسيان) ونوعًا مصنعًا من التوابل (تليلاكس). والأهم من ذلك أن هذا الحكم أظهر للبشرية أن السلام الظالم غير المستقل ذاتيًا ليس خيارًا قابلًا للتطبيق، وأن البشر يجب أن يتطوروا حتى يبقوا كأجناس مستقلة. وهو بذلك يخلق أسبابًا تدفع لاغتياله عن عمد في نهاية المطاف، كما يتسبب ذلك في وقوع حالة التشتُّت بعد اغتياله، ثم التخلي عن البقاء الآمن في مكان معروف.

إن تحليل ليتو للمشكلات وللحلول الضرورية من أجل الظروف التي تمُر بها البشرية لا يمكن أن يبتعد عن تحليلنا للجانب الخطأ في مجتمعات كون الكثيب، فقد اتَّخذ ليتو من التاريخ ومن حكمه دليلًا على الخطأ المطلق للإنسانية المتمثِّل بحبسها ضمن قيودٍ مادية معروفة يفرضها مكانٍ معين. وفي الوقت ذاته، وضمن هذه الحدود، كان من الممكن لمصلحة واحدة أن تحكم؛ ولهذا فهو يعتقد أن توسعًا ماديًّا كافيًا بوسعه أن يجعل ذلك أمرًا مستحيلًا. وبالإضافة إلى ذلك، وكما فعلت البيني جيسيرت قبله، يعتقد ليتو أن برامج التربية، وخلط عينات المورثات مع الميزات المرغوبة، تقدم جزءًا من الحل بالنسبة للتطور البشري. وبالطريقة ذاتها نجد أن تربيته لمحاوري الأسماك وتحويلهم إلى مقاتلين متعصبين يشبه الاستراتيجيات التي اعتمدها حكم الأتريديس خلال الحقبة الأولى (أي الاستعانة بالفريمين)، بالإضافة إلى حكم كورينو الذي سبقه (عبر الاستعانة بساردوكار). وهكذا، فإنه من أجل كل ما لديه من بصيرة ورغبة لإيجاد مخرج للبشرية، وضع ليتو ثقته في الردع ضمن المجال الاجتماعي وبرامج التربية ضمن المجال البيولوجي، وهنا نقتبس ما قاله لوزارات أبناء الكثيب: «لخلق عالم يمكن للبشرية فيه أن تصنع مستقبلها لحظة بلحظة، يجب أن يتحرَّر الإنسان من رؤيته، وأن يتحرَّر من تحريف كلام الأنبياء، وأن يتحرَّر من المستقبل المرسوم سلفًا».

وكما يجب أن يتَّضح الآن، فإن تخويف البشرية ودفعها للتوسع المادي مع محاولة تربية مواهب معينة لدى البشرية تبدو لنا أقل بكثير من الإمكانات المتداولة الموجودة في البشرية بالأصل. إذ في الواقع، وكما أدرك ليتو الثاني، فإنه من المستحيل على المدى البعيد لأي إمبراطورية إقطاعية قديمة، وللتعصُّب الديني تحت حكم بول، أو لاستبداده أن يحكما الكون المعروف، ولكن يمكن أن يتحكما فيه لفترة من الزمن (وهي فترة طويلة بمعاييرنا باعتراف الكل)، إلا أن هذه السيطرة ينجم عنها فعلٌ استراتيجي يستعين بوسيلة مادية بدلًا من وسيلة الشرعية للحفاظ على حالة الاستقرار. ولذلك عاد ليتو إلى برامج التربية التي تعتمدها البيني

جيسيرت بدلًا من الالتفات نحو العمل التواصُلي الذي يهدف إلى الوصول للفهم، ولا يمكن وصف ذلك إلا بشكلٍ ساخر وتهكمي.

وبالفعل، خلال السنوات التي تلَت حكم ليتو، والتي وصفت في زنادقة الكثيب وفي البيت المقسم: الكثيب، تواصل البيني جيسيرت برامج التربية الخاصة بها وكذلك تخطيطها الاستراتيجي للسيطرة على فاعلين أقوياء محتملين (وعلى رأسهم «راكب الرمال» الذي ظهرت نبوآت حوله)، بالإضافة إلى استعادة سيطرتها على القوى الدينية. وتشتمل استراتيجيتها على سجن كل من ترى فيه فاعلًا مهمًّا وذلك ليجري استغلاله كأداة لاستعباد البشرية، إلا أن هذه المنظمة تفشل مرة أخرى في استيعاب أن هذا التفكير الاستراتيجي ما يزال معيبًا بصورةٍ أساسية. ففي القصة، يبدي السجناء ردة فعل ويصبحون غير متعاونين، ولكن حتى لو تعاونوا، بما أن غالبية الناس تعاونت مع حكم ليتو الظالم بلا شك، نجد أن هذا النمط من التفكير والتصرف لم يستفِد من الإمكانيات البشرية الحقيقية للفعل التواصلي، وهذا ما يفسر بقاء إمبراطوريات كون الكثيب بلا استقرار.

وعندما ننظر إلى كون الكثيب بعين التمحيص السياسية الفلسفية، يصبح لا مفر من الإجابة عن السؤال: من نحن، وما الذي يعنيه تطوُّر البشر؟ وهذا السؤال يناسب العصر الذي نعيش فيه والذي تتزايد فيه تعقيدات الحرب، وتقانة المعلومات والهندسة الوراثية. وبالعموم، في الوقت الذي ينطوي فيه التطور على هدف وحالة تغيُّر بالنسبة لذلك الهدف، نجد أنه لا يشتمل على تقييم لهذا التغير. فمثلًا، غالبًا ما ينظر علماء الأحياء إلى التطور على أنه تقدُّم، أو تحوُّل في الصفات الوراثية على مدار الزمن. وبالمقابل، يَعُد المفكرون في العلوم الإنسانية والاجتماعية أن هذا التطور يتدفق من حالة اللاتمايز إلى حالة أعلى وأكثر تمايزًا (أي أفضل). ومن خلال هذا النوع من التفكير، تدرج التقييمات بشكلٍ ضمني داخل التحليل على الأقل.

وهكذا، نجد أن التطور البشري عبارة عن مفهوم يحمل معاني إيجابية، وذلك من منطلق منظورنا الذي يهتم أولًا وقبل كل شيء بالتعلم على المستوى الاجتماعي والأخلاقي. ومن هذا المنطلق، يشير تحليلنا لرواية الكثيب أنه يتعين على المرء أن يكون حذرًا من مساواة التطور التقني (بل حتى التطور البيولوجي) بالتطور البشري دون القيام بالمزيد من الفحص والتمحيص. وإذا عُدنا إلى تحليل هابرماس للحداثة بوصفها عملية تفتح الباب أمام إمكانية التعلم على المستوى الاجتماعي والأخلاقي من خلال الفعل التواصلي، لن نستطيع أن نخفي دهشتنا حيال كيف يمكن لمجتمعات كون الكثيب المتقدمة تقنيًّا أن تمتلك الخصال والسمات المميزة للقوة المتسلسلة هرميًّا والمركزية الموجودة في مجتمعات القرون الوسطى. لعل جزءًا من الجواب يكمن في الحقيقة التي تقول إن التطور البشري يظل أولًا وأخيرًا عبارة عن

تطورٍ اجتماعي وأخلاقي، وهنا يمكن للتقانة أن تساعد على قيام هذا التطور، ولكن مرة أخرى، قد لا يتحقق كل ذلك.

تمت كتابة هذا الفصل بمساعدة: إيفا إيرمان ونيكلاس مولر

كون للأوغاد

من دار - إس - بالات 2

من: مؤتمر حول معنى التوابل

التاريخ: 18150 حسب التقويم الإغريقي

يتحيز القانون دومًا بناءً على فرض القوة، أما الجانب الأخلاقي والتفاصيل القانونية فلا تتدخل في ذلك إلا بقدرٍ ضئيل وذلك عندما يكون السؤال الحقيقي هو: من صاحب النفوذ؟

محضر مجلس البيني جيسيرت

(من رواية زنادقة الكثيب).

لعل الطغيان ليس بهذا السوء؛ إذ في الوقت الذي قد تبدو فيه هذه الفكرة دخيلة أو غريبة، ثَمَّة شيء ما صحيح فيها، فقد قام أكثر من مفكر بربط الحكومة بالطبيعة البشرية، أي كلما كنا ألطف في تعامل بعضنا مع البعض، قلَّ احتياجنا للحكومة، وهذا ما يخلق طيفًا من النظريات التي تبدأ من الفوضى المخصصة للناس الطيبين، وصولًا إلى الاستبداد المخصص للأوغاد.

ولنخفِّف من حدة اللهجة هنا، يمكن القول إن كون الكثيب الذي تحدث عنه فرانك هيربرت هو كون للأوغاد، كونه يعمل ضمن سلسلة من الرذائل الشخصية تبدأ من التلاعب بشكلٍ صريح وصولًا إلى اللذة القاتلة. وفي الوقت الذي يظهر فيه بين الفينة والأخرى أشخاص يلهموننا بولائهم أو بثقتهم، لنكتشف أنهم يمثلون أفضل الخصال البشرية، تظهر معظم الشخصيات بلونٍ رمادي من الناحية الأخلاقية، كونها تشتمل على عيوب على المستوى الواعي واللاواعي. وتلك الشخصيات تعرف نقاط ضعفها في بعض الأحيان، في حين أن نقاط ضعف الآخرين تظل خفية بالنسبة لهم.

وبسبب هذا الغموض وعدم التيقن، نبقى مع بضع شخصيات واضحة تمثل أبطالًا، فالرواية ليست مملَّةً بالضرورة، إلا أن تلك الشخصيات ترسم صورة لبشرية صاحبة قرار وتصميم وساخرة. ويشكل مسار التصادم الذي تحتاج إليه طبيعتنا أحد أكبر وأهم مصادر القلق؛ ولهذا يصور هيربرت البشرية أنها في صراع ونضال دائم وذلك من خلال رسم صورة لجماعات تتنافس بعضها مع البعض في سعي دائم نحو التفوق والنفوذ. وينشأ هذا الصراع، الذي يُدمِّر النفوس، من الدافع البشري لحفظ الذات، ويعكس هذا الكون القائم على الصراعات النظرية السياسية لتوماس هوبز التي يتنافس فيها فاعلون عاقلون بعضهم مع البعض على

السلطة، وعلى أي وسيلة تحافظ على بقائهم.

إننا نعترف بالطبيعة الخطِرة المتأصلة لدى من تُرِكوا ليدافعوا عن أنفسهم في عالم محدود الموارد، حيث تزداد الأمور ضراوة وقساوة بسبب الانقسام على المطالبة بالقوة والسلطة. وهكذا تنتهي بهم الأمور ليتحولوا إلى فصائل، تتحارب فيما بينها إلى أن تُستنزف نهائيًا، أو تنقرض بالمعنى الأدقّ. يدفعنا ذلك العنف لخوض حرب مشتركة إلى أن يخرج أحدهم بالقوة والسلطة ليفرض السلام علينا، ويسمي هوبز تلك الشخصية بلوياثان. وهنا يصور هيربرت نفسه كليتو الثاني ولكن بطريقة أكثر أناقة، فحرفيًا، يدل اسم لوياثان على وحشٍ بحري ورد ذكره في الإنجيل، أي إن ليتو الثاني يتحول إلى وحشٍ ضخم، نصفه بشر ونصفه الآخر دودة رمل، وكله رباني. وهذا الإله الفاني، سواء أكان لوياثان أم ليتو الثاني، يدهشنا جميعًا عندما يلعب دور حلقة الوصل بين القوة والسلطة السياسية. وفي كون الكثيب، يمنعنا ليتو الثاني الملقَّب بالطاغية والإمبراطور الرباني من تدمير أنفسنا بشكل متبادل ويفرض علينا السلام، فيحافظ بذلك على البشرية.

اللاعبون في كون الكثيب

«... لقد توازن البيت الإمبراطوري أمام المؤسسات الكبرى المتحدة التابعة لشعب لاندسراد، ومن بينها الطائفة واحتكارها اللعين للتنقل بين النجوم. وفي السياسة، يُعَد الحامل الثلاثي أقل البِنَى استقرارًا بين الجميع».

الأم الموقَّرة هيلين غايوس موهيام للسيدة جيسيكا

(من رواية الكثيب).

إذن هل نحن نمثل الشخصيات الرمادية من الناحية الأخلاقية في كون الكثيب؟ يمتدُّ كون هيربرت على مساحةٍ شاسعة. تمثل الشخصيات الفردية التي تظهر (وتتكرَّر) الكثير من النماذج الأصلية والتوجهات الأوسع، فيما تتكرر بعض الشخصيات في أكثر من رواية أو اثنتين من روايات هيربرت الأساسية الست، بَيْد أن تأثيرها كبير. كما يتغير الطيف السياسي بمرور الزمن، وتسهم هذه الانسيابية في زعزعة الاستقرار إلى حدٍّ كبير؛ إذ نظرًا لتغير مراكز القوى مراتٍ كثيرة، يغدو أمر تأسيس سلطة واضحة صعبًا. أما بالنسبة للحالة الطبيعية لدى هوبز، فإن القوة زائلة، ولا بقاء إلا عندما يستخدم المرء قوته وحُنكته ببراعة. وبالطريقة ذاتها في كون الكثيب، يمكننا أن نقسِّم الفصائل السياسية تبعًا لمواقفها الأساسية وجماعاتها، وذلك بوجود بعض التقلبات في القوة الداخلية.

الإمبراطور

تتغيَّر مؤسسة الإمبراطور بشكلٍ كبير على مدار تلك الروايات، ففي رواية الكثيب، يقدم لنا هيربرت أولًا صدَّام الرابع من مؤسسة كورينو، الذي يستخدم ببراعة على ما يبدو أعلى سلطة من خلال الساردوكار، وهي عبارة عن فيالق تضم مقاتلين أشداء تلقَّوْا تدريبًا على مستوى عالٍ. ثم تنتقل قوته إلى بول أتريديس (أي بول موديب)، فيصبح بول إمبراطورًا، ويحمل هذا اللقب حتى نهاية رواية مسيح الكثيب. ثم تحكم علياء بوصفها وصية على العرش في أبناء الكثيب، فتمهد الطريق لليتو الثاني الذي يدمج جسده مع جسد خنفساء (وذلك خلال المرحلة الأولى لتحوُّله إلى دودة رمل)، فيحول بذلك نفسه إلى كيانٍ يُعمَّر طويلاً ويحكم كإمبراطور على مدار ثلاثة آلاف عام وذلك في رواية إمبراطور الكثيب الرباني. وعقب وفاة ليتو وتحلُّله، يختفي منصب الإمبراطور، ويدور المشهد السياسي حول فصائل مختلفة تتنافس على السلطة وذلك في رواية زنادقة الكثيب والبيت المقسَّم: الكثيب (أي التليلاكسو والبيني جيسيرت والأمهات الموقَّرات).

شعب اللاندسراد

إن الذراع الثانية لأوائل كون الكثيب تتمثل في اللاندسراد، وهو كيانٌ سياسي مُؤلف من المؤسسات الكبرى (أتريديس، هاركونين، وغيرهما)، حيث يظهر هذا الكيان بوصفه عامل إحباط محتمل لقوة العرش، إلا أن التفاعل والجدال بين تلك المؤسسات يجعل هذا الكيان يتعاظم، حيث يصبح بوسع شعب اللاندسراد أن يضغط على الإمبراطور، غير أنهم يتورطون أكثر من مرة في نزاعات تدور فيما بينهم من أجل القيام بذلك.

تُعرفنا رواية الكثيب على المؤسسات التي تُحفزها مصالحها الشخصية المَحضة ورغبتها في البقاء وذلك مع بعض العائلات البارزة. أما شخصية صدَّام الرابع من مؤسسة كورينو، فتظهر شهوته للسلطة بأوضح صورها في روايتي الكثيب وأبناء الكثيب. وتمثل مؤسسة الأتريديس منارة الولاء البراقة لدينا (وتصبح هذه الفكرة ساخرة ومريرة بصورة أكبر مع تطور الأحداث في تلك السلسلة)، في حين يجسد شعب الهاركونين حالة الانغماس في الملذَّات والوجه الشرير للابتعاد عن الأخلاق، حيث يمثل الجنس والموت متعًا يجري الاستمتاع بها مرات كثيرة، يتخلَّل ذلك فترات استراحة من أجل تناول طعام الغداء بين الفينة والأخرى.

تتقبل تلك المؤسسات الكبرى الحرب الرسمية أي كانلي بوصفها وسيلة لحل النزاعات. كما أن امتلاكها لأسلحة نووية بقدر متساوٍ يمنع حرب كانلي من التدهور نحو عدمية مطلقة. ومن هذه الناحية يعكس شعب اللاندسراد نظام التدمير المؤكد المتبادَل الذي اتسمت به الحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي السابق والولايات المتحدة. بيد أن الفرق الأساسي هنا

هو عدم وجود حلف شمال الأطلسي أو حلف وارسو، أي إنه في حال استخدام إحدى المؤسسات لسلاحها النووي، عندها يمكن لكل المؤسسات الأخرى أن تتحد معًا لتدمير المعتدي. وفي رواية الكثيب، تُعَد عملية إحالة مهام إنتاج التوابل من مؤسسة هاركونين إلى مؤسسة أتريديس بمثابة عاملٍ محفِّزٍ للحرب، وفي ذلك فرصة للعرش الإمبراطوري ولمؤسسة هاركونين للقضاء على سلالة أتريديس بأكملها. أي إنَّ تلك المؤسسات الثلاث تتَّسِم بأهميةٍ كبيرة في الروايات الثلاث الأولى، ولكن عندما نصل إلى رواية إمبراطور الكثيب الرباني، تبقى تلك السلالات العائلية موجودة، إلا أنها تُجرَّد من قوتها السياسية.

طائفة التوابل

علاقة طائفة التوابل بالقوة السياسية عَلاقةٌ طفيلية، فهذه الطائفة لا تحكم بنفسها؛ كونها غير مستعِدة للمخاطرة بأي حالة انقطاع لتدفق التوابل التي تمنح ملَّاحيها القدرة على توجيه سفنهم في الكون. بيد أن هذه الطائفة تتمتع بالحسم السياسي، ويظهر ذلك جليًّا في الحرب الأخيرة في رواية الكثيب، وذلك عند الإشارة إلى أن صدَّام الرابع يؤدي خدماته في أوقات فراغهم لا أوقات فراغه، وإلى أن ولاءهم الحقيقي الوحيد هو ولاؤهم للتوابل، وإذا قام صدَّام بتعطيل ذلك، فلا بد أن يُنحَّى، بما أن الموت حادثٌ عرضي في عالم هيربرت، وسنتحدث عن ذلك لاحقًا.

البيني جيسيرت

تُمثل أخوية البيني جيسيرت كيانًا مثيرًا للاهتمام، حيث تتلاعب الساحرات بمن حولهن ببراعة، إلا أنهن لا يحكمن بشكل مباشر، مثلهن مثل طائفة التوابل. ففي بداية الأمر، يطمحن للسيطرة على الإمبراطورية من خلال الكويستاز هاديراتش (أي النسخة المذكرة للأمهات الموقَّرات)، إلا أن تلك الخطة تنقلب على أصحابها؛ مما يدفعهن لتغيير مخططاتهن بشكل دائم. وبما أنهن يعملن على تحسين النسل؛ لذا يقمن بالتلاعب بالسلالات الملكية حتى يحفظن سماتٍ وخصالًا معينة، ثم إنهن يصنعن الملوك ويخدمن بوصفهنَّ عناصر لاعبة في الكواليس، شأنهن في ذلك شأن طائفة التوابل.

التليلاكسو

يقدَّم هيربرت التليلاكسو في رواية مسيح الكثيب، إلا أنهم لا يتحولون إلى عناصر مهمة إلا في الروايات الأخيرة، حيث يمتلكون خزانات قنفذ الماء التي تنتج كلًّا من الغيلان (وهي أجساد تُخلق من أنسجة أمواتٍ وتُعَد وسيلة للاستمرار بالنسبة للعديد من الشخصيات في تلك الروايات)، والمصدر الجديد المؤقت للتوابل في رواية زنادقة الكثيب. وبما أن حماستهم الدينية هي التي تدفعهم؛ لذا يطمح شعب التليلاكسو للسيطرة على المجرات، كما أنهم

متلاعبون تمامًا كما هي حال البيني جيسيرت؛ ولهذا فإنهم يتصرفون بطريقة أكثر وضوحًا، أي إنهم يقتلون شخصيات دينية وسياسية مهمة ويستبدلون بها عملاء لهم.

الأمهات الموقَّرات

تنحدر الأمهات الموقَّرات من البيني جيسيرت، ومن محاوري الأسماك ومن التليلاكسو الذين انقسموا من تلقاء أنفسهم عقب نهاية حكم ليتو الثاني (عندما تنحلُّ الإمبراطورية القديمة من الناحية الوظيفية، فينتشر الناس ويتوزَّعون في مختلف أنحاء المجرة بحثًا عن التوابل). تهيمن الأمهات الموقَّرات على الرجال عبر الجنس والعنف، لا من خلال أي طريقة لطيفة، بحيث تشبَّه تلك التجربة بحالة الإدمان على المخدرات التي يمكن أن تنتج عنها علاقة الحب-الكره ذاتها التي نراها لدى الكثير من المُدمنين على الهيرويين. تسعى الأمهات الموقَّرات لإخضاع المجرة وقهرها كما هي حال التليلاكسو، إلا أن الأمهات الموقَّرات لا يتم تقديمهن على أنهن يمثِّلن قوة إلا في رواية زنادقة الكثيب وفي البيت المقسم: الكثيب.

لاعبون هامشيون

تظهر الكثير من الجماعات الأخرى بوصفها عناصر لاعبة هامشية في سياسة المجرَّات (أي الفريمين، ومراقصي السمك، والإكسيان، والعديد من الطوائف وغير ذلك)، إلا أن تلك الجماعات ينتهي بها المطاف لتتحول إلى أدوات يستخدمها آخرون في السلطة. فبول وعلياء يستخدمان الفريمين (وحماستهم الدينية) لقهر المجرَّة وإخضاعها، أما ليتو الثاني فيستعين بمراقصي الأسماك لنشر دين حكومته، ويقدم الإكسيان تقنية تساعد الطائفة خلال مجاعة التوابل.

من الواضح أن البنية السياسية في الكثيب آيلة للسقوط؛ ولهذا يراقب أغلب اللاعبين أراضيهم الخاصة ويسعون للبقاء ضمن كونٍ سريع الزوال. إذن كيف يراهن هؤلاء على مطالبهم؟ من خلال العنف، والإكراه، والابتزاز، والقوة، وعبر خلق حياة منعزلة وتعيسة ومقرفة ومتوحشة، وقصيرة في معظم حالاتها. في الحقيقة، أثبت هذا النظام أنه لا يُطاق أبدًا، كونه محكومًا بالتمزق والتفتت؛ إذ طالما أن الأفراد لا يعترفون بأي سلطة غير سلطتهم، إذن لا شيء بوسعه كبح هذا العدوان. وهذا بدوره يكفل حالة من النزاع المستمر، بما أن كل فصيل يسعى لفرض إرادته على الآخرين، وذلك عبر التلويح بتدمير كل من يتورط. وهنا لا بد من وجود سلطةٍ قويةٍ قادرةٍ على تَوَلِّي زمام السلطة الفردية وممارسة الهيمنة على الفُرَقاء المختلفين، أي بالمختصر، لا بد من وجود طاغية أو منقذ أو لوياثان.

الأمر أشبه بالقتال على آخر بيرة

يبدو كون الأوغاد أشبه بنموذج اقترحه توماس هوبز في شخصية لوياثان في عام 1651، فقد أسس هوبز حالة وجود نظرية تختفي فيها السلطة المركزية، وتظهر مجموعة من الأفراد تسعى لتحقيق مصالحها بدلًا منها، ويقتتل هؤلاء الأفراد فيما بينهم (وكذلك يتحاربون مع جماعات أخرى)، فينتج عن ذلك نزاعات على المستويين الشخصي والمجتمعي، وتلك النزاعات تهدِّد وجود كل من تورط فيها.

لدى الفلاسفة قدرة عجيبة على تصوير الثقافة السائدة في زمانهم عبر كتاباتهم، فقد كتب هوبز خلال فترة الحرب الأهلية بإنكلترا (1642-1651)، والتي كانت حرفيًّا حربًا «للجميع ضد الجميع» (هوبز، ص88). إذ يقدِّر بيتر غانت أن 10% من أبناء الشعب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 16-60 قد تورطوا بشكلٍ مباشر في القتال بين عامي 1643-1645، وأن 25% من كل الذكور حملوا سلاحًا في وقت من الأوقات خلال هذه الحرب (ص8). وبالمجمل، تُوُفِّي في تلك الحرب نحو ثلاثمائة ألف شخص، وفي الوقت الذي طرح فيه المؤرخون عوامل عديدة محتملة لظهور الانقسام (الفروقات الدينية والاقتصادية والثقافية)، هنالك أدلة قوية توحي بأن التطرف الديني كان القوة الأساسية التي حرَّكت هذا الانقسام.

أنتج الإصلاح البروتستانتي فصائل بيوريتانية خرجت في مظاهرات ضد «البابويين» أو الكاثوليكيين (غانت، ص26-27). ولهذا هرب هوبز من هذه الثقافة (كونه غادر إنكلترا في عام 1640؛ خوفًا من التورط في هجوم حزبي مبكر)، وهذا ما أثَّر فيه بالعمق. ثم أخذ يُعيد النظر في الأفكار الكلاسيكية حول الطبيعة البشرية ويقارنها مع الطريقة التي أفضى إليها التاريخ، وهذا ما منحه بصيرة وأفكارًا ثاقبة بالنسبة لسلوكيات البشر، سواء تِجاه أنفسهم أو تِجاه الآخرين.

إذن ما الذي كان ينبغي على هوبز أن يقوله عنا؟ يعرض هوبز نقاشه في الفصل الثالث عشر من كتابه لوياثان، ومن خلاله أتينا بالتحليل الآتي: إن المصلحة الذاتية تُحفِّزنا جميعًا، وهو يُعرِّفها على أنها مصلحة تتصل ببقائنا وباحترامنا (سواء احترامنا لذاتنا أو كما يرانا الآخرون)، فنحن نريد من الآخر أن يرانا بصورة إيجابية كما نرى أنفسنا، وفي الوقت ذاته نعترف أننا لا نمتلك كل ما نريده أو نحتاجه لنعيش؛ ولهذا لدينا حافز يدفعنا للبحث عن الأشياء التي نعُدُّها ضرورية لوجودنا. ولهذا يبحث فلاديمير هاركونين عن الجنس والطعام، في حين يبحث بول أتريديس عن الثأر لأبيه ويطالب بإقطاعيته الشرعية، وعليه يصبح إرضاؤهما لما يريدانه ويرغبانه بمثابة أولوية أساسية، إلا أن موقف هوبز لا يعني أننا نتصرف كالحيوانات، بل إن الحضارة في حال وجودها تقوم على المصالح الشخصية للأفراد.

يقترح هوبز أن أساس تصرفنا كما نفعل ناتج عن عملية التفكير لدينا، أي إننا نعترف بذلك

بعد وجود ما يكفي من المواد من حولنا، ولهذا نحارب من أجل ما نريده، أي إن النُّدرة تولد العنف، كما أنه لا يمكن لفردين أن يمتلكا الشيء ذاته، وليس لدى أيٍّ منا أي حق موروث أو مكتسب بامتلاك هذا الشيء؛ ولهذا ينحصر الأمر فيمن يريد الشيء أكثر من غيره، أي فيمن يستخدم العصا ببراعة أكبر عند تهشيمه لرأس الآخر. وفي بعض الأحيان يتَّخذ هذا العنف شكلًا ماديًّا، وفي أحيان أخرى يصبح شكله نفسيًّا؛ إذ بوسعي أن أخدعك وأسلبك ما تملك بالسهولة التي أقتلك فيها من أجل تلك الأمور. فعلى سبيل المثال، يستعين بول بالقوة التي تأتيه على شكل الفريمين ضد الإمبراطور صدَّام الرابع، لكنه يستعين بعامل نفسي ضد طائفة التباعد، حيث يلوِّح بتخريب التوابل.

لماذا نلجأ للعنف؟ الأمر غاية في البساطة، لأن هذا العنف منطقي؛ إذ إن طبيعتي المنطقية تدفعني لأحافظ على صحتي وعافيتي عبر البحث عن وسائل للبقاء. وهنا يرى هوبز أن لكل فردٍ الحقَّ في الحفاظ على نفسه، ولكل فردٍ الحقَّ بامتلاك وسيلة ليحافظ على بقائه، وذلك دون أن يتمتع بأي سلطة (سواء أكان ملكًا أو أي شكل آخر من أشكال الكيان الحاكم). عندئذٍ يُصبح من غير المنطقي أن نقول إنني لم أمتلك الحق بالحفاظ على نفسي أو أن أحرِم نفسي من شيء ضروري للحياة.

ولكن بما أن لكل أحدٍ الحقَّ في هذه الوسيلة التي تحافظ على النفس؛ لذا فإنني لا أمتلك حقًّا في شيء معين أكثر من غيري، حتى لو كان هذا الشيء بين يدي. ومن ثَمَّ، ليس من الظلم أن يأخذ أحدهم تلك الأشياء مني، ولن أظلم أحدًا إن انتزعت من أحدٍ الأشياءَ التي يمتلكها. فالعدالة التي تتمثل في حماية حقوق الملكية أو حقوق المرء الأخرى من الآخرين لا معنى لها إلا في ظل الدولة المدنية. أما في الدولة الطبيعية، فإن التعريف الوحيد لما هو «عادل» يتمثل في كونه يساير المنطق ويتفق معه. وبالنتيجة، أقتُل أحدهم بوجه حق عندما يحرمني ذلك الشخص من الحصول على ما أحتاج إليه لأبقى على قيد الحياة. وهنا يشير هوبز إلى أننا بوسعنا جميعًا أن نَقتل، والفروقات بين الأفراد من حيث القوة وغيرها من الصفات اللازمة يمكن أن تُعدَّل عبر الانضمام إلى القوات أو التفوق على الخصوم فكريًّا. وبالرغم من أن نقاط قوتنا كأفراد يمكن أن تختلف وتتفاوت، إلا أن المجال مفتوحٌ أمام الجميع عمومًا.

وطالما بقِينا يحارب بعضُنا بعضًا، فلن نستطيع أن نتمتع بمُتع الحياة ومباهجها، فقد نستبقي قطعة أرض صغيرة لأنفسنا، لكنها ستظل لنا ما دام بوسعنا الاحتفاظ بها، أي إنه في حال استيلاء قوةٍ أشدَّ بأسًا عليها؛ عندها سنعدم كل وسيلة في الحفاظ عليها. إلا أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمرَّ للأبد؛ وذلك لأن هذا النوع من «حرب الجميع ضد الجميع» يقتل النوع البشري، أي إننا نصبح الوسيلة التي تؤدي إلى فنائنا وانقراضنا. ويعترف عقلنا بأننا

نسير في طريق الخراب، والذي يدفعنا هو بدوره إلى البحث عن السلام بعضنا مع بعض.

لنفكر هنا مثلًا عندما طلب الفريمين من بول أن يحارب ستيلغار، حتى يصبح قائدًا لهم جميعًا، ويقودهم في حربهم ضد الهاركونين. وهنا يعترف كل من بول وستيلغار والسيدة جيسيكا بالمشكلة؛ إذ لو كان الفريمين يسعون دومًا لقتل الأقوى، عندها سينتهي بهم الأمر إلى إضعاف أنفسهم لدرجة فقدانهم القدرة على هزيمة أعدائهم. ولذلك سعى بول للسلام أولًا، حتى يستطيع أن يضمن الانتصار على الهاركونين؛ ولذلك رفض قتل ستيلغار، وبذلك جعل من ستيلغار تابعًا له بطريقة فعالة.

إن إدراك الفكرة التي ترى أن البشرية تسير في طريق التدمير المتبادل هذا قد حفَّز الطريق الذهبي لدى ليتو الثاني، فهو يخشى من أن يؤدي الطريق الذي أقيم على أساس توازن القوى بين الإمبريوم واللاندسراد والطائفة إلى انقراض البشرية. كما أن حالة توازن القوى غير مستقرَّة بالأصل، أي إنها يمكن أن تنهار لتُخلِّف الفوضى والنزاع. ولو أتيح للبشرية أن تواصل المسير في هذا الطريق الذي يقوم على انتزاع السلطة، فإنها ستواصل محاربتها لنفسها، وبذلك سيتناقص عدد السكان إلى ألَّا يبقى أي أحد.

إذن في ظل النزاع الطبيعي، نبحث عن السلام، وعبر قيامنا بذلك، نقيم مجتمعات ونختار قيادة أو سيادة. وخلال هذه العملية التكوينية والانتقائية تصبح الأمور ممتعة ويبدأ هوبز بخلق جدل (في الفصل الثامن عشر من لوياثان). وبصرف النظر عن نوع الحكومة التي يجري اختيارها، فإنها ستمثِّل الشعب، والشعب يفوِّض الحكومة بالقيام بكل ما تحتاجه لتُحافظ على السلام.

وكما يصف هوبز الأمور، فإننا في نهاية المطاف نختار قيادة تقوم على ما نشعر أنه الأقدر على المحافظة على السلام، وهذا ما يؤثر على حجم الحكومة، أي عدد الأشخاص الذين يمتلكون السلطة والقوة؛ إذ عندما يمتلك الجميع القوة، تصبح لدينا ديمقراطية، وعندما تمتلك قلةٌ القوة، يصبح لدينا نظامٌ أرستقراطي، وعندما يمتلك شخصٌ واحد القوة، عندها يصبح لدينا نظامٌ ملكي. والنظام الملكي يمثل النظام الوحيد الذي يتوحَّد مع منصب القوة السياسية، حيث يصبح الملك والمسؤول الشخص نفسه. ومن الواضح أن هذا لا ينطبق على نظام يوزع القوة بين جماعات مختلفة. ولهذا يكمُن التحدي بالنسبة لأفراد الديمقراطية أو الأرستقراطية في طريقة الحفاظ على السلام ضمن نظام يقوم على توزيع القوة.

عندما نوزع القوة، فإننا بذلك نُقسِّم السلطة، وهذا يزيد من احتمال عودتنا لحالة الاقتتال فيما بيننا (لوياثان، ص225). وكما هي حال الحكومة الإنكليزية، أي فصل التاج عن البرلمان، ينتهي بنا الأمر إلى القتال على من يمتلك السلطة والملكية والأشياء والخدمات ونوعية

وجودة كل تلك الأمور ... إلخ، وذلك إلى أن يُطلَق الرصاص على أحدهم في نهاية الأمر، أو كما يحدث في رواية تاريخ الكثيب، حيث يُطلَق النار على أحد الأشخاص أو يُسمَّم أو يُطعَن أو يُحرَق أو تُقطَّع أوصاله، أو يأكله أحدهم أو يسحقه أو يُغرقه أو يضربه حتى يموت أو يقطع رأسه، أو يتركه ليموت لوحده. وهكذا يموت عدد كبير من الناس في الكثيب، أكثر مما نتخيل. ففي إحدى المراحل يُقدِّر بول أتريديس أنه قتل «ستين مليارًا» وعقَّم تسعين كوكبًا، وأحبط معنويات خمسمائة آخرين بشكل كامل (في رواية: مسيح الكثيب)، ولكن يجب ألاَ ننسى هنا أنه يمثل الشخص الطيب.

ثمة أمرٌ آخر يقلق الأفراد في المجتمعات التي تشتمل على مؤسساتٍ سياسية ودينية، وهو الانقسام بين القوة السياسية والقوة الرُّوحانية، فالأديان المنظمة تفرض أيضًا مطالب على أتباعها، كما قد يكون لها تأثيرٌ سياسي عليهم. وهنا يقدم هوبز نصيحتين؛ الأولى: يجب أن يتحكم الملك في المعلومات؛ إذ يرى هوبز أن الملك يجب أن يكون القاضي المطلق الذي يبتُّ في أمر المواد التي تثبت أنها تفضي إلى سلام في المجتمع؛ ومن ثَمَّ يجب أن يتحكم في نوعية الأفكار والآراء التي تنتشر؛ إذ بمجرد التسامح مع فكرةٍ جدلية والسماح لها بالانتشار، عندها سيقسم أفراد المجتمع أنفسهم إلى فصائلَ متناحرةٍ مختلفة بناءً على اتفاقهم أو اختلافهم مع ذلك الموقف الجدلي. ويبلغ هذا النزاع ذروته عندما تؤخذ الأفكار الدينية بعين الاعتبار، وهنا علينا أن نتابع الجدل القائم حاليًّا حول دور الدين في السياسة المعاصرة. ثم إن التحدي الصريح للسلام ما هو إلا تأسيس لمَلك ثانٍ، أي حاكم للعالم الرُّوحاني، وهذا يخلق انقسامًا بين المَلِكين المدني والرُّوحي، وبدوره يقوِّض أساس القوة (والاستقرار النهائي) في الحكومات الدنيوية (لوياثان، ص226-227). وتمامًا كما تنتج الأيديولوجية السياسية فصائل وحالات قنص على أساس حزبي، فإن الأصولية العقائدية تنتج حربًا مقدَّسة.

لقد تجاهل النظام الإمبراطوري الذي اعتمده بول وصدَّام الرابع وأسلافهما التهديدات التي وجهت للكومونولث التي أسست إطارًا آيلًا للسقوط، حيث قسمت السلطة الحقيقية بين مؤسستين سياسيتين وهما المؤسسة المالية والساحرات اللواتي يصنعن الملوك. وحتى عندما يقوم بول موديب بنشر طريقته في الجهاد، ويوحد المجرة تحت سيطرته السياسية-الدينية، فإن حكمه لا يُعمَّر طويلًا؛ إذ ينتج عن موته حالة فراغ واضحة في السلطة ومن ثَمَّ نزاع بين شقيقته علياء وأبنائه وأمه. أي إن حالة التوحد المؤقتة تُفسح المجال للعنف والمكائد، أما بنية الإمبراطورية القديمة في جوهرها عندما تُفهم وفقًا لوجهة نظر هوبز، فقد كانت مع صدَّام الرابع وبول موديب محكومةً بالفشل بطبيعتها.

فعندما رسَّخ ليتو الثاني قوَّته، استقر المشهد السياسي الذي كان متقلقلًا، وخلال فترة

حكمه الطويلة (التي امتدت تقريبًا لثلاثة آلاف وخمسمائة سنة بسبب تحوُّله إلى مخلوق آخر)، عاش المجتمع حالة ركود، لكنه بقي ينعم بالسلام. ثم إن اللغة المستخدمة هنا تقدم فكرة مثيرة للاهتمام حول فكر هيربرت، فعنوان الكتاب يقدم تفاصيل عن حكم ليتو حيث يصفه بإمبراطور الكثيب الرباني، وفي ذلك إشارة للحكم الديني الذي يأتي على غرار حكم الفراعنة القدماء لمصر الذين حكموها كآلهة على قيد الحياة. بيد أن هوبز يشير إلى لوياثان الذي قدمه بوصفه «إلهًا فانيًا» ندين له بحالة السلام والدفاع التي نعيشها (ص120)، أي إنه يُمثل الكيان الذي يبقينا بسلام من خلال الرهبة والخوف من العقاب. وهنا يظهر ليتو كإلهٍ فانٍ؛ وذلك لأن عمره طويل، ويتمتع بعلم الغيب وتلك سمة خارقة بالنسبة للبشر، كما ينتج عن طغيانه المطلق سلام ودفاع في كل أنحاء المجرة، أي إن ليتو هو لوياثان.

ولكن أي نوع من الحُكَّام هو؟ إنه طاغية بكل المقاييس، ولكن كما يقول هوبز فإن صفة «الطغيان» تُسبَغ على الحكم الملكي الذي لا يعجبنا بكل بساطة (ص130). إلا أن عملية إنتاج التوابل قد توقفت خلال حكم ليتو؛ إذ لم يعد هنالك ديدان رمل تعمل على إنتاجها؛ ولهذا أصبح يجلس على كنزٍ ضخم، ويصرف منه مكافآت ويمسكه عن الناس عقابًا لهم، وبما أن الإمبراطورية تقوم على التوابل بشكلٍ كامل؛ لهذا أُخضِع الناس بسرعة. ثم إنه يكتب التاريخ ليضمن فَهمًا دقيقًا لحوادث الماضي ولدوافعه. كما أنه خرج بدينٍ جديد أصبح من خلاله إمبراطورًا ربانيًا، وعبر بسط شبكة نفوذ هذا الدين، ضمن قوة وهيمنةٍ مطلقة على المجرة المعروفة.

نكرر هنا أنه يمكن لحالة فصل القوى أن تحدث بين الحكومات المدنية والدينية. وهكذا وعبر الجمع بين حكمه المادي والروحي، أصبح يتعامل مع مخالفة القانون بوصفها ذنبًا، فوحَّد بذلك بين القوة السياسية والروحية، ومنع انفصال السلطة المدنية عن الروحية، وهذا ما حذَّر منه هوبز. فهذا النوع من دمج للسلطة المدنية والروحية يمنع ظهور أي خرق للقانون أو أي فساد عندما يصل الناس إلى مناصب ذات قوة سياسية. فيحل السلام نتيجة لذلك. لا شك أن حكم ليتو ظلم الناس وأدى لظهور ثوار، لكنه بقي يحمل السلام، أي إنه هنا يحقق أول قانون للطبيعة برأي هوبز (لوياثان، ص92).

يشير ليتو الثاني إلى تلك العملية بوصفها جزءًا ضروريًا من «الطريق الذهبي» الذي أتى به والذي يعبر عن مقاربة ممنهجة لتوجيه مستقبل البشرية وقيادته، إلا أن الطريق الذهبي أثبت أنه صارم وقاسٍ؛ كونه يفرض شروط الندرة على البشرية، لكنه يربيها في الوقت ذاته؛ لأنه يفرض نشوء شتات لا بد وأن يتكفَّل باستمرار النوع. فلقد أدرك ليتو الثاني الخطر الذي ينتظر مستقبل البشرية والمتمثل في اعتمادها على التوابل وعلى عدد محدود من الاحتلال للمجرات، وهنا تتركز المصالح المتضاربة ضمن مساحةٍ مقيدة على حاجة مشتركة تعمل عمل

برميل بارود ينتظر الوقت المناسب حتى ينفجر. ثم إن غالبية الأشخاص الذين منحهم ليتو الثاني مناصب ذات سلطة وقوة كانوا ثوارًا في السابق، وقد تم ذلك عبر شرح طبيعة وغاية الطريق الذهبي لهم، وبذلك كسب قلوبهم وعقولهم، وعندها يصبح الظلم مُبررًا، بل حتى ضروريًا للحفاظ علينا جميعًا.

أثبتت وفاة ليتو الثاني حكمتها بالنسبة لفهم هوبز ولفهم معنى القوة، فقد أدى اغتياله لتبعثر جسده؛ ما تسبب في خلق خنافس جديدة ودود رمل جديد، وكلٌّ منها يمتلك جزءًا صغيرًا من وعيه. ولكن إلى جانب الديدان الجديدة والمصدر الجديد للتوابل، نشهد أيضًا تحللًا للإمبراطورية ولفصائل القوة الجديدة التي تشكَّلت من أشخاص تفرقوا في أعقاب نظام ليتو، وهذا التشتُّت أدى لظهور الأمهات الموقَّرات، وهن عبارة عن نساء مفرطات في العنف لا يمكن لأحد أن يتوقعهن، وتلك النسوة يمثلن التحدي الأساسي للبيني جيسيرت في رواية البيت المقسم: الكثيب. ونتيجة لذلك اختفت حالة السلام التي أتى بها ليتو؛ إذ بوجود حالة انقسام السلطة تلك، غرقت المجرة من جديد في محاولات عنيفة لانتزاع القوة والنفوذ؛ وذلك لأن الطبيعة البشرية تعيد تأكيد نفسها، والعنف يتحول إلى وسيلة للحصول على أندر المواد.

التوابل كوسيلة للقوة

إذن ما تلك المواد النادرة في كون الكثيب؟ ومن ذا الذي لديه القوة على إنتاج نزاعات وصراعات دائمة؟ وما الشيء الذي لديه القوة على صياغة وتدمير حياة الناس والحكومات؟ إنها التوابل، أندر مادة في المجرة:

بدون خليط لإشعال علم الغيب الخطي لدى طائفة البحارة، يعبر الناس مساحات الفضاء كما يزحف الحلزون، وبدون الخليط، لا يمكن للبيني جيسيرت أن تقدم من يقولون الحقيقة أو الأمهات الموقَّرات. وبدون خصائص الشيخوخة الموجودة في الخليط، سيعيش الناس ويموتون وفقًا للمقياس القديم **(من رواية إمبراطور الكثيب الرباني)**.

أنتجت التوابل حالة اعتماد جذرية، وبالنتيجة رغبة قوية لامتلاك تلك التوابل، وهذا ما دفع الوكلاء لخوض نزاع، أي بسبب عدم توافقهم من حيث الاحتياجات مع نسبة التوريد المحددة من هذا المورد (وهنا لا بد من الاعتراف بوجود وفرة في التوابل في رواية زنادقة الكثيب؛ حيث إن خزانات قنفذ الماء التي لدى شعب تليلاكسو بوسعها أن تنتج التوابل، إلا أن ذلك يستمر فقط لحين أن تقوم الأمهات الموقَّرات بالقضاء على التليلاكسو، والعودة إلى حالات الندرة). إن هذه الهيئات السياسية ما هي إلا منظمات ذكية، لأن كلًّا منها قادر على أن يُنزل الدمار بالآخر، وهذا ينسجم مع العملاء في الحالة الطبيعية.

وفي كون الكثيب، تنشأ النزاعات على القوة بين جماعات من الأفراد، بدلًا من أن تقوم بين الأفراد كلٍّ على حدة (ينشغل هوبز بالنزاعات الفردية، إلا أن هذا النمط ما يزال قائمًا). وفي الوقت الذي تظهر فيه فجأة مخططات الأفراد ومؤامراتهم في تلك الروايات، تدور النزاعات المهيمنة حول مجموعات من الأفراد. فالبيني جيسيرت تفتقر إلى قوةٍ جسدية (إذ ليس لديها جيش مثل الفريمين أو الساردواكار)، ولكن أفرادها يتمتعون بكفاءةٍ عالية بالنسبة لعملية التلاعب وكذلك في فن السموم (في الحقيقة نتعرف عليهن من خلال أمٍّ موقرة تلوح بتسميم بول أتريديس في الفصل الافتتاحي من رواية الكثيب). كما أن طائفة التوابل ليس لديها جيش هي الأخرى، إلا أنها تقدم الوسيلة الوحيدة للسفر بسرعة بين الكواكب، بحيث تغدو الكواكب منعزلة ومشلولة دون تنقلات تلك الطائفة وتجارتها. وبالنظر إلى طبيعة الإدمان القاتل التي تتصف بها التوابل، يصبح أي رفض لنقلها بمثابة حكم بالإعدام على الشعب المتضرِّر من ذلك. أما الإمبراطور فلديه قوات الصدمة من شعب الساردواكار، إلا أن قوتهم الجسدية ليست الأعلى، وهكذا نرى أنه حتى العرش الإمبراطوري يستحيل إلى شيء جيد في النزاع. وتُظهر عمليات الاستيلاء على السلطة التي تحدث بشكلٍ خفي أو علني أن صدَّام هو الوحيد الذي يسيطر على العرش ما بقي الساردواكار يمثلون أشد قوة، وما بقي تدفُّق التوابل دون أي تهديد. وفي نهاية رواية الكثيب، يختفي مصدرا القوة هذان، فيكشف ذلك مدى ضعف جوهر صدَّام. أما التليلاكسو فيجدون وسيلةً بديلة لإنتاج التوابل؛ إذ لديهم مراقصو الوجوه القادرون على استبدال المتنفذين بعملاء متعاطفين مع قضيتهم الدينية. وهكذا تدخل الكثير من القوى في هذه اللعبة، فتتساوى الفرص فيما بينهم على أرض الملعب، ويُقصد بذلك الموقف الطبيعي للعملاء لدى هوبز في الحالة الطبيعية.

والمرة الوحيدة التي نقيم فيها السلام والعهود (التي نقيم بواسطتها نظمًا للعدالة)، تأتي عندما تربطنا قوةٌ ما، وهذه القوة يجب أن تكون الأسمى، فلا يمكن أن تكون مجرد قوة جيدة أخرى متاحة لنا جميعًا؛ لأنها عندئذٍ ستصبح مجرد مصدر آخر للنزاع، بل يجب أن يكون هنالك مصدرٌ واحد لقوة غير محدودة، أي شيء يحمل في النهاية القوة الرابحة. وفي حالة الطبيعة، بوسعنا أنا وأنتم أن نُعدَّ اتفاقيات، ولكن لا شيء يربطنا بها؛ إذ لا شيء يمنعني من غرس سكين في ضلوعك بمجرد أن يكتمل الجزء الخاص بمساومتك، وعندها تدير ظهرك. حسنًا، هذا بصرف النظر عن أني أدرس الأخلاق التطبيقية، وبعيدًا عن كون الفلاسفة عادة معتدلين في خُلقهم وطبائعهم. يذكرنا هوبز أن الكلام والوعود لوحدها لا تحمل قوة، أي إننا بحاجة لشيء قادر على إرغامنا على الطاعة والالتزام بواجباتنا (لوياثان، ص96)، ومعاقبة أو مكافأة كلٍّ منا على ما يفعله.

لقد صعد بول أتريديس إلى السلطة عبر سيطرته على التوابل، فقد كان على استعدادٍ

كامل لتدميرها، وهذا بدوره سيؤثر بشكلٍ مباشر على كل جانب من جوانب كون الكثيب تقريبًا. وكما ذكر بول، فإن القوة القادرة على تدمير شيء ما تمثل سيطرةً مطلقة عليه، والقوة المسيطرة على التوابل تمثل القوة المسيطرة على من يحتاجونها؛ ولهذا كان لدى ليتو الثاني مقاربةٌ مشابهة للحفاظ على القوة، فقد اعترف هذا الرجل أن تمتعه بعلم الغيب وعمره الطويل لا يكفيان للاحتفاظ بالقوة (ولهذا يمثل هذا الرجل في جوهره شخصية أطول عمرًا من بول أتريديس). ثم إن طبيعة قوة ليتو الثاني تعتمد على ندرة أشد من تلك التي رأيناها في زمن بول؛ إذ عندما اختفت الديدان، لم يعد هنالك ما ينتج التوابل، فأصبح لدى ليتو أكبر كمية من تلك المادة. كما أنه لم يخشَ من تدمير ما تبقى من مخابئ للتوابل لديه، تمامًا كما كان بول؛ وذلك لأن قدرته على تدمير آخر ما تبقى من مصدر للتوابل يظل مفتاحًا للسيطرة لديه، وهذا ضروري ليغدو قادرًا على فرض السلام والطمأنينة (في رواية إمبراطور الكثيب الرباني). وينتج عن ذلك تحول في الفصائل المتنازعة في رواية الكثيب (وكذلك في العملاء المشاركين في النزاع ضمن النموذج السياسي الذي قدمه هوبز)، أي إن مصلحتهم المنطقية المتمثلة في محافظتهم على أنفسهم تدفع الفصائل المختلفة في كون الكثيب للامتثال لما يمليه عليهم ليتو. وهنا تنطبق المصلحة المنطقية التي تَحدَّث عنها هوبز بالنسبة لحفظ النفس تمامًا على حفظ المرء لنفسه من العنف وكذلك حفظه لنفسه من الحرمان والانسحاب. ثم إن ظروف الندرة الجذرية منحت ليتو قوةً استثنائية، فاستخدمها لحفظ السلام ولتجنُّب أي تنافس يؤدي إلى القتل والموت من ذلك النوع الذي اتَّسم به الكون قبل صعوده إلى السلطة.

يمثل سلام ليتو حالة الاستقرار المفروضة بالإكراه، وهذه الحالة تدفعنا للتعايش السلمي (عبر الخوف من العقاب وكذلك كراهية عدوٍّ مشترك)، كما تدفعنا لإنتاج الابتكارات (أي بذل الجهود لتقليل الاعتماد على المورد النادر)، وكذلك تجنب الضعف (حيث يتوسع الشعب خارج البلاد حاملًا عقلية رسم الحدود، وهذا التوسع للبشرية يمنعنا من أن نظل محدودين ضمن مجموعة عوالم صغيرة نسبيًا؛ ومن ثَمَّ يزيد فرصنا في البقاء بوصفنا نمثل نوعًا من المخلوقات). أي إن حالة الاستقرار التي فرضت علينا حرفيًا هي أفضل شيء يمكن أن يحدث للبشرية.

تحتوي روايات هيربرت الست على عدد من الدلالات التي تشير إلى أحداث وقعت في تاريخنا، على يد شخصيات مثل جنكيز خان، وهتلر، والبرامج المناهضة لليهودية والشَّتات، والذاكرة الجمعية للنوع التي تعود إلى ما قبل التاريخ المُدوَّن. إن تاريخنا ما هو إلا تاريخ قائم على العنف والتنافس على الموارد النادرة مثل الأرض والنفط، وخلال السنوات القادمة سيصبح التنافس حول الحصول على مياه صالحة للشرب. ولكن معرفتنا أنه بوسعنا أن نتوق

لطاغية يخلصنا من شرور أنفسنا تعدُّ أمرًا مُطمئِنًا إلى حدٍّ ما؛ إذ يحل السلام عبر السيطرة، والسيطرة تأتي عبر القوة، والقوة تأتي من التوابل، ثم إن طغيان ليتو واستبداده يحافظان على المجرة وذلك يمنعنا من تدمير أنفسنا(1).

الكاتب المحتمل: ماثيو أ. باتكوس

أخلاق موديب
تجار القوة وراكبو الديدان

خطبة رنانة في الذكرى الألفية الثانية لحدس ليتو الثاني

الخطيب: كريستوفر سيوتشيتي

الجو حار، والشمس تشرق، وأنت ترحب بالنور لأنك تستطيع أن ترى عبر الرمال، إلا أن درجة الحرارة تبدأ في الارتفاع، ولن يمضي وقتٌ طويل قبل أن تحتاج إلى إيجاد ملاذ لك لتحتمي من الضوء. تحرك جسمك وأنت تحاول أن تستعد للانطلاق نحو العمل. ومع كل حركة، تشعر بشيء من الرمل تحت قدميك؛ فلا تستطيع أن تتخذ الوضعية التي تريدها تمامًا، لأنك تحس دومًا بشيء من فقدان التوازن، حيث تشعر أنك إما تتقدم للأمام قليلًا أو تتراجع للوراء أكثر من المطلوب. ستشعر أنك ستقف بصورة أفضل على الحجارة التي تبعد عن يسارك بضعة أقدام، ولكن لا خيار لديك؛ لأنك يجب أن تبقى على الرمل إن أردت أن تمتطي دودة.

تزود الديدان رواية الكثيب بالصورة الأطول ديمومة، حيث يقدم لنا فرانك هيربرت فريق شخصيات ممتعًا، بدءًا من الهاركونين وصولًا إلى الأتريديس، ومن البيني جيسيرت إلى الفريمين، إلا أن الصورة التي تبقى دومًا في مخيلتي هي صورة الديدان؛ إذ ثَمَّة شيء مهيب ومخيف يتصل بتلك المخلوقات التي تعيش وتتحرك في الأرض، ثم تقتحم المشهد دون سابق إنذار، فتُفرِّق الناس، وتُعطِّل ما كانوا يفعلونه. وهكذا يصبح على الجميع أن يبني عالمه وفقًا لنشاطات تلك الديدان، لكنها ليست شخصيات في هذا الكتاب؛ إذ لا توجد شخصية هنا، ولا نوايا، ولا أحلام أو رغبات، إنهم يفعلون ما يفعلونه وحسب، وعلى الجميع أن يعدِّل وضعه تبعًا لذلك.

يبدو أنه من الغرابة إلى حدٍّ ما النظر إلى رواية الكثيب من زاوية فلسفية؛ إذ منذ بدايتها وحتى نهايتها، تتخلَّل حالة العجلة رواية الكثيب، فهنالك تهديدات وأخطار في كل مكان، والجميع يقفز من مهمة لأخرى، وبالكاد يتوافر لديهم الوقت ليؤمِّنوا ما يحتاجونه. إذ لا وقت للتنفس لدى الجميع، فكيف بالتفكير؟ وكيف بالتفكير الفلسفي؟ إن كنت سأتمعَّن في محتوى رواية الكثيب من ناحيةٍ فلسفية، وإذا كان هنالك أي أحد يريد أن يقوم بذلك، عندها سيتم ذلك لأن وضعنا يختلف عن وضعهم. إذ لدينا شيء لا يتوافر لديهم، وهو فسحة من الوقت للتفكير؛ إذ بوسعنا أن نخصِّص وقتًا لنبتعد عن ضغوطات حياتنا اليومية التي لا تنتهي حتى نسأل أنفسنا عمَّا نفعله ولماذا نفعله.

قد يحتاج التفكير الفلسفي لفُسحة من الوقت، لكن تلك الفسحة لا تمثل ذلك الوقت الذي تمضيه وأنت تتمشَّى في متنزه؛ إذ لا يمكن للمرء أن يَهيم على وجهه ليفكِّر بشيء ما، وليعالج الأمور كما تصله، ثم يسمي نفسه فيلسوفًا؛ وذلك لأن الفلسفة أشبه بعملية استخراج المعادن (بل بوسعها أن تثير الغبار بالمعنى المجازي). إذ عندما تمارس الفلسفة، فإنك ستحفر في الأفكار، لتكتشف ما يكمن تحتها. ثم إننا نقوم باستخراج كل أنواع المواد؛ ومن ثَمَّ ننقِّيها ونختبرها لمعرفة الأجزاء الثمينة فيها. إلا أن التفكير بمعنى الحياة أثبت أنه صعب للغاية؛ إذ من الصعب أن نعرف من أين نبدأ، وهنا يقترح أرسطو البدء عبر تفحص ودراسة آراء الحكماء، حيث نبذل أقصى ما بوسعنا لنفهم أفكارهم، ونبحث في أفكار وآراء مختلفة أيضًا، فنعدل أفكارنا من خلال ما تعلَّمناه. وفي هذه الحالة، أقترح أن نأخذ قسطًا من الراحة لنفكر بطريقةٍ فلسفية في أشكال الحياة التي تعرَّفنا عليها من خلال رواية الكثيب.

سواء أكان أرسطو سيعُدُّ هيربرت أحد الحكماء أم لا، فإن هيربرت يقدم لنا بعض القصص الحياتية القوية، وكل حياة من تلك الحيوات تبدو لنا جيدة أو سيئة أو لعله من الصعب قليلاً الحكم عليها. وإذا أخذنا تلك القصص بشكلٍ جدي، وحفرنا فيها بحثًا عما تريد أن تقوله حول فكرة أن يعيش المرء حياةً ذات معنى، أعتقد أننا سنجد موقفًا فلسفيًا مثيرًا للاهتمام. وبالطبع لا تشتمل رواية الكثيب على دفاعٍ عن هذه الفكرة، فهي ليست عملًا فلسفيًا، لكنها تقدِّم لنا شيئًا لنفكر فيه بطريقة فلسفية. إذن، في الوقت الذي قد يبدو فيه من الأنسب التفكير في الرهبان والراهبات في الصلاة، وفي سيزيف وهو يدفع صخرته إلى أعلى التل، أو ربما في العدد 42 التي يمثِّل بالنسبة لقلة مختارة تلك الرؤى التي تترك شيئًا تلتقطه رواية الكثيب من أجلنا، نجد أن تلك الرؤى تخلف ذلك الصراع الديناميكي الذي يجسِّده راكبو الديدان.

دعوني أُعِدُّ الطاولة، لأعيدكم من الصحراء والرمال، دعونا نعُد للعشاء الذي أقامه الدوق ليتو أتريديس عندما وصلت عائلته للمرة الأولى إلى أراكيس. فقد دعا ليتو وقتئذٍ مصرفِيين وتجارًا وسياسيين، أي إنه دعا أي شخص يعد أي شخص في أراكيس والكثير ممن لهم علاقات وصلات خارج هذا الكوكب، فكانت تلك صرخة أبعد من الوجبات التي تناولها معظمنا؛ إذ بدلًا من أن تكون تلك مناسبة لخلق لحظة للتأمل، وفرصة للحوار، أو لتناول وجبة أمام التلفاز كما يفعل أغلبنا، كان لدى الأتريديس شيء أبعد من ذلك بكثير. إذ كانت هناك مراسم وفخامة وأجهزة للكشف عن السموم، وفضة، مع بقاء فكرة تناول وجبة ضمن مراسم اجتماعية فكرة تبعث على الاسترخاء.

أصرَّت السيدة جيسيكا على حفلة العشاء؛ طمعًا في بناء علاقات اجتماعية أقرب بين الأتريديس والمصرِفِيين والمهربين والتجار والسياسيين من أبناء البلد. أما ثوفير هاوات فلم

يرَ إلا الخطر المحدق في هذا اللقاء الذي تمَّ عن قرب. وبالكاد أمتع الدوق ليتو نفسه في تلك الحفلة؛ وذلك لأنه غيَّر مراسمها، وخطَّط للتلاعب بضيوفه. ففي لحظة من اللحظات اختبرهم، وذلك عبر سكب بعض مائه على الأرض بعد شرب النخب. وبالطبع لا بد أن يقلِّده الآخرون، إلا أن الأمر أتعبهم؛ لأنهم ظلوا يمثلون الطبقة العليا في أراكيس لبعض الوقت، أي إن لديهم دومًا ما يكفي من الماء النظيف، إلا أن سكب ماء صالح للشرب على الأرضية أثبت أن عددًا كبيرًا من الناس يستطيع أن يفعل ذلك. وخلال تلك العملية، أخذ ليتو وجيسيكا يراقبان ويتعلمان، حيث خمَّنا ما يمكن أن تفعله شخصية كل ضيف من ضيوفهما، وأشارا إلى العلاقات القائمة بينهم، سواء أكانت علاقة حب أم كُره أم اهتمام أم قلق.

بالنسبة لجيسيكا وليتو، كانت تلك الليلة مخصَّصة للتخطيط على المدى البعيد، ولهذا أعَدَّا العُدَّة ثم استقرا، وبقيا يخمِّنان موقفهما ويحاولان معرفة مَن سيكون في هذا العالم الجديد، فخرجا ببعض الخُطط، أي إنهما لم يأتيا خاليَي الوفاض، بالرغم من أنهما تركا الكثير خلفهما؛ لذا فهُما بحاجة إلى تناول تلك الوجبة حتى يتمكَّنا من الوقوف على قدميهما من جديد.

ومن هذه الناحية لا يشبه موقفهما موقفنا، كما لا يشبه موقف معظم الأشخاص الذين يحضرون حفلات العشاء بوجود آلات تكشف السموم في القاعات الكبيرة. بيد أننا نكتشف في أغلب الأحيان عدم انتمائنا للمكان بطرقٍ مشابهة. فسواء أكنا في وظيفة جديدة أو مدينة جديدة أو أسرة جديدة أو حتى الثلاثة معًا، فإننا لا بد أن ننجذب بكل سهولة لتلك المواقف الاجتماعية التي يجب أن تجعلنا نُحِسُّ أننا نتقدم نحو الأمام. إذ لدينا إحساس تجاه الأمور التي يجب أن تحدث وكيف يجب أن تتم، ولكن خلف ذلك الإحساس، ندرك أن ذلك قد لا يشاركنا فيه الآخرون، فالمراسم والحفلات غير واضحة، والمعاني مطاطة؛ ولذلك نجد أنفسنا عادة بحاجة إلى التصرف في هذا العالم قبل أن ندرك فعلًا ما الذي يحدث، تمامًا مثلما حدث مع ليتو وجيسيكا. بَيْدَ أن لدى جيسيكا وليتو بعض الوقت أيضًا؛ إذ بوسعهما أن يقيما حفلة عشاء، حتى لو تم ذلك على عجَل قليلًا. لكنهما لا يستطيعان أن يستمتعا بها، بالرغم من غرابة تسرُّب شيء من المتعة في وصف هيربرت للعشاء، أو في كتابته لرواية الكثيب بأكملها. إذ لا يبدو أن أحدًا في تلك الرواية يمتِّع نفسه أو حتى يقلق حيال عدم إمتاع نفسه؛ وذلك لأن أحدًا لا يملك تلك الرفاهية، وبالرغم من ذلك يبقى ليتو وجيسيكا في عجلة من أمرهما، ومع ذلك تتوافر لديهما تلك اللحظة؛ لذا يمكنهما البدء في التعرف على طريقة الاندماج، إلا أن الهاركونين سيدمرون كل ذلك.

الهاركونين والقوة

قبل أن تشرق شمس اليوم التالي للحفلة، قوَّض الهاركونين مخطَّطات الأتريديس، حيث

نفذ يويه مهمته، غير أنه تمزق خلال تلك العملية. فقد نفذ الهاركونين خطة عبقرية، تفوق تدريب يويه الصارم والقوي الذي من المفترض أن يجعل منه شخصًا غير قادر على إيذاء أحد، إلا أن الهاركونين حددوا نقطة الضعف التي تعرض يويه للخطر، ألا وهي زوجته وَانَا.

يكشف لنا مخطط الهاركونين الكثير عنهم، وهنا لا يتصل الأمر بقسوتهم؛ إذ ليس هنالك أي شيء غير ضروري أو مجاني حيال ما فعلوه بيويه ووَانَا، وليس ثمة عنف إضافي قد تورط أو استمتع بالألم الذي سببوه، كما لا يوجد أي ندم لتنفيذهم خطة دفعتهم لاستخدام تلك الوسيلة العنيفة. فقد أدركوا الخطر الذي يواجهه يويه، وكانوا يعرفون أنه لا يريد أن يستمتع بكونه بَيْدقًا في لُعبتهم، ولكنهم لم يتعاطفوا معه البتة. أما بالنسبة ليويه، فإن إلقاء القبض على ليتو ووضعه تحت رحمة الهاركونين قد دمَّر إحساسه بذاته، فمن هو، وما الشيء الذي كان متوقعًا منه، وما مكانته في هذا العالم؟ لقد داس الهاركونين على كل ذلك، لأنهم رأَوْا فيه مجرد أداة بوسعهم استغلالها، مجرد حالة ضعف تحتاج لمن يستغلها، وذلك خلال مُضِيِّهِم قُدُمًا في مشروعهم الساعي لحشد القوة. ثم إنه لا شيء يوحي أنهم عاشوا صراعًا مع قراراهم الذي اتَّخذوه حيال تدمير شخص بشكل كامل. إن ما فعلوه مريعٌ للغاية لدرجة أن المرء قد تغريه الفكرة التي ترى أنهم لم يستوعبوا حجم الدمار الذي سببوه ليويه.

وبالنظر إلى الهاركونين بطريقةٍ مباشرة، يمكننا أن نصل لمعنى أعمق من الشيء الذي عاشوا من أجله، فالبارون فلاديمير هاركونين كان بدينًا وبحاجة لأربطة معلَّقة حتى يرفع جسمه الضخم، وهنا تظهر صورة ذات شِقَّين، فمن جهة أولى تفوح من هذا الوزن الثقيل رائحة القوة، وفي ذلك فخامة وجاذبية وتأتي أهميتها من كونها مخلوقة من لحم ودم، وتشي بأكثر من رغبة طبيعية تجاه الطعام أو التوسع الطبيعي للقوة. فالكل يحتاج إلى القوة في نهاية المطاف. ولقد اعترفت مجموعةٌ كبيرة من الفلاسفة أن القوة شيء ضروري، وكل مخلوق لا بد أن يسعى من أجل القوة أو أن يتخلى عن كل الرغبات. وذلك لأن القوة تُعَدُّ وسيلة لتحقيق كل الأغراض، فالقوة تجلب لك ما تريده، بصرف النظر عما تريده. قد نكون مختلفين ورغباتنا مختلفة، ولكننا جميعًا نرغب في القوة، وذلك أمر طبيعي، وله مَغزًى، فلا جشع أو انحراف في ذلك، أو على الأقل ليس هنالك أي شيء من هذا القبيل بالضرورة.

ولكن مع البارون فلاديمير هاركونين، بوسعنا أن نرى كيف يخرج كل شيء عن السيطرة، فقد تجاوز هذا الرجل الرغبة الطبيعية لتناول الطعام، فهو بدين ولا يستطيع أن يتحرك دون مساعدة، ومع ذلك لا يخجل من حجمه الكبير، بل إن حجمه يعبِّر عن الرغبة التي يريدها من كل قلبه: القوة، وليس أي قوة بكل قوة تفوق كل قوة طبيعية، أي قوة تتجاوز حاجتهم إليها. ولهذا يجمع الهاركونين القوة من أجل القوة نفسها، ويستغلون هذه الفرصة لتدمير مؤسسة أتريديس ولتدمير يويه خلال هذه العملية، وكل ذلك يتم تحت اسم هدفهم المتمثل في جمع

المزيد من القوة.

وفي نهاية المطاف، نجد أن الهاركونين لا يرسمون صورةً جميلة، فهم ليسوا أشخاصًا يرغب المرء في محاكاتهم أو تقليدهم، بل هم مجموعة من شرار الناس، ويقف هؤلاء بمثابة تحذير على حافة الكثيب يخبرنا عن الأشياء التي يجب ألا نعيش من أجلها. ثم إن شعب الهاركونين بالرغم من كل أوزانهم الضخمة يبدو أجوف؛ وذلك لأنهم يفتقرون إلى هُوِيَّة ملموسة وإلى ارتباطٍ عاطفي، بل حتى إلى الإحساس بالتماسك ضمن مجموعة. ففلاديمير يجد في نفسه حاجة إلى تابع، إلى ربيب؛ وذلك لأن الموت ينهي قوته بدون ذلك الربيب، لكنه لا يتماهى مع ذلك الشاب، كما لا يتماهى فيد-روثا مع البارون، بل إن كلًّا منهما يحتاج إلى الآخر ليكسب المزيد من القوة، أي إن الحظ والصدفة هما اللذان ربطاهما بعضهما ببعض وجمعا بينهما؛ لذا بوسعهما أن يعملا معًا ما احتاج الأمر لذلك، ولكن القوة هي الشيء الوحيد الذي يجمع بينهما.

وإن صَحَّ كل ذلك، فإننا نحكم على الهاركونين بعيش حياة بلا قيمة أو ناقصة، ولكن ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لحياتنا؟ إننا نشبههم في بعض النواحي، فنحن بحاجة للقوة، وفي الوقت ذاته، علينا أن نؤمن أن للقوة غاية، وسواء أكانت القوة الزائدة تحسن حياتنا أم لا، فإن ذلك يعتمد على ما نفعله بها؛ وذلك لأن الجري وراءها مثلما فعل الهاركونين هو السبب الذي جعلهم منعزلين عن بعضهم وعن العالم الاجتماعي بطريقة يعُدُّها غالبيتنا مثيرة للاشمئزاز والرعب، وفي ذلك إشارة لدرس أعمق هنا أيضًا؛ وذلك لأننا نشمئِزُّ من استغلالهم ليويه؛ لأن هذا الاستغلال يبدو مدمرًا، ليس لأنه قتله أو دمَّر جسده حرفيًّا، بل لأنه قوَّض هُوِيَّته وهدمها، ولهذا يجب علينا أن نفكر أن الهويات تقدم شيئًا للحياة التي نعيشها أيضًا.

ومن خلال تلك الصورة، لا نستطيع أن نرى ما يقومون به إضافة لكل ما فعلوه، بل إننا نُترك ونحن نعيش حالة من التحذير إلى حدٍّ ما؛ إذ لا يمكننا تجاهل عناصر الهاركونين داخلنا، ولكن النهاية ستكون مروعة في حال انتصارهم، أي إننا سنخسر شيئًا ما، فالهُوِيات التي تبقي القصة ممتعة وتجعل لحياتنا هدفًا ومعنى، يمكن أن تتحول إلى أفكار وأخيلة مفيدة، الهدف منها هو إيقاع المرء بخصومه.

الفريمين والهُوِية

يشغل الفريمين الطرف الآخر من هذا الكمِّ المتصل؛ وذلك لأن حياتهم تسلط الضوء على قيمة الهوية. فبما أنهم مجموعة؛ لذا يبحثون عن القوة فقط لأنهم بحاجة إليها. أما على الصعيد الداخلي، فلديهم شعائرهم الصارمة التي تحمل معنًى محددًا وكاملًا وأبديًّا. فالفريمين لا يسألون أبدًا كيف ينطلقون، وليسوا بحاجة للتفكير في هُوِيَّتهم وفيما يفعلونه،

فهم يعيشون على الأرض، ويغيِّرونها ببطء، ويمارسون إرادتهم وقوتهم، ولكن فقط في سبيل عودة الأمور إلى نصابها. فهم يسعَوْن لإعادة أراكيس لما كان عليه قبل أن يصبح كوكبهم مركزًا لتجارة التوابل.

وتمامًا كما اكتشف بول بعد مدة قصيرة، فإن العيش بين الفريمين مليء بالقواعد والشعائر؛ ولهذا أستغرب عدم تطرق أي أحد لتلك القواعد. إذ على الرغم من أنهم يمثلون شخصيات أكثر تعاطفًا بكثير من شعب الهاركونين، فإن الفريمين يعارضون الفلسفة؛ وذلك لأنه حتى الأسئلة التي تتطرق إلى طريقة العيش وما الذي ينبغي على المرء فعله، قد وصلوا إلى إجابات حولها. ثم إن لكل إنش مربع على أرضهم اسم وهدف ومجموعة واسعة من القواعد التي تتصل بمن يمكنه أن يقوم بشيء معين ضمن تلك المساحة. وبالرغم من أن أحدًا لم يطرح أي سؤال جِدِّيٍّ حول تلك القواعد ومعانيها، فإن هيربرت يقدم لنا بعض التفاسير حول وصول الفريمين إلى هذه الطريقة في العيش.

تلعب قسوة المناخ هنا دورًا مُهمًّا؛ إذ بوجود تلك الشمس التي تلسع ظهورهم وتحرق جلودهم، وذلك العرق الذي يسيل منهم في كل لحظة، يتعيَّن على الفريمين العمل كفريق، فلا وقت لديهم للنقاش والجدال، وفي الوقت ذاته، لا يمكن للبيئة أن تشرح موقفهم بما فيه الكفاية، حيث كان بوسعهم أن يكُفُّوا عن ذلك قبل وقتٍ طويل، كما كان بوسعهم أن يستسلموا وأن يبيعوا التوابل ويكسبوا المال من خلال ذلك، وبعد ذلك يمكنهم أن يرحلوا. فإن عاشوا من أجل المتعة، فإنهم بالتأكيد قد حصلوا عليها، وإن عاشوا من أجل القوة، فإن ذلك يبدو أمرًا لا مفرَّ منه، ولكنهم لم يفعلوا كل ذلك، بل ثمة شيءٌ آخر جعل الفريمين يتمسَّكون بكوكب أراكيس.

كان ذلك الشيء الآخر هو هويتهم؛ إذ إن تفسيرات هيربرت لشعائر الفريمين تعود دومًا إلى الماضي، حيث نسمع عن الشعائر القديمة والقادة العظام الذين وضعوا الأمور ضمن هذا المسار. كما نسمع عن الرسل والأنبياء الذين تنبئوا بالمستقبل ودعوا لإحياء ثقافة الفريمين بشكلٍ كبير. لذا، ومن خلال تلك القواعد والقوانين، ومن خلال إحساسهم العميق بانتمائهم لبعضهم، وخاصة لأسلافهم، رسم الفريمين شكل حياة ذات معنى وهدف بكل قوة وهي تتوجه نحو وجهةٍ واحدة، فلم يُثِرْ ذلك استياء أي أحد منهم على ما يبدو.

تجري الديدان مع مياه الحياة تحت قصة الفريمين؛ إذ ثمة الكثير من الأمور هنا التي لم يستوعبها الفريمين بشكلٍ جيد، فهم لا يدرون من أين تأتي التوابل، بالرغم من أنهم يحتاجون إليها، ويبيعونها، ولكنهم لا يزرعونها، بل يجمعون ما يصل إليهم منها. وينطبق الشيء ذاته على ركوبهم للديدان واطِّلاعهم على ما يكفي من المعلومات للسيطرة عليها

والتجوُّل بها، لكنهم لم يحاولوا ترويضها على الإطلاق. ثم إن ماء الحياة أمر مهم للغاية، لكنه محرَّم؛ ولهذا لا يشربون الكثير منه، ولا يغطسون فيه، أي إنهم يتركون البِنَى التي تحدد هويتهم وحياتهم مجهولة وخارجة عن سيطرتهم؛ وذلك لأنهم يتصرفون من داخل الهوية التي مُنحت لهم دون أن يشكّكوا فيها أو أن يسعوا للتحول إلى كائنات أكثر تطورًا.

بيد أن هيربرت يمنحنا إحساسًا قويًا بالانجذاب لهذا النوع من الحياة؛ إذ بمجرد أن تنتقل جيسيكا مع بول للعيش في الصحراء، يفقد كلٌّ منهما ذلك الإحساس المتقلب بوجود أعداء يتربصون لهما في كل زاوية، ويصبح كلٌّ منهما على ثقة أكبر بمعرفته بمن يمكن الوثوق به.

وفي الوقت الذي نحسُّ فيه بالعجلة مع كل الأحداث التي تأتي بعد ذلك، فإن العيش مع الفريمين يبدو أسلم؛ إذ حتى لو واجها خطرًا ماديًا، بل العديد من تلك المخاطر، فإن حياتهما تصبح ذات معنى بين هؤلاء الناس.

بيد أن الحياة بالنسبة للفريمين لا يمكن أن تبقى على هذا المنوال؛ لأن هذه ليست طريقة بشرية للعيش؛ إذ في الوقت الذي تُبقي فيه السكة المتينة للهوية والتقاليد قوة البشر تحت السيطرة، تعاني هذه الحياة من الاختناق بسببها؛ وذلك لأن الفردانية أمر عابر تمامًا كما هي حال الموتى الذين يُستوعَبون من جديد. قلة قليلة فقط من تتمكن من العيش في الأساطير، وحتى هناك تذوب حياتهم وتتحلَّل ضمن قصة أكبر، فيصبحون مجرد خطوة ضرورية فيها.

ما الذي تقوله لنا هذه الحكاية حول عيش الحياة كما يجب؟ لدينا صورة أكثر إيجابية عن الهُوِيَّة هنا، فهي ليست مجرد أداة بالنسبة للفريمين كما كان حالها مع الهاركونين؛ وذلك لأنهم يأخذون الهُوِيَّة على محمل الجِدِّ ويبقون رغباتهم الطبيعية للقوة تحت السيطرة، أي إن الهوية ترسم شكل حاجتهم للقوة، كما لديهم أهداف محددة يسعَوْن لتحقيقها، وهم مقتنعون بقيمتها، ولديهم شعائر وطقوس وحكايات يبدو أن الهدف منها هو تحقيق هذه الغايات. وإن صحّت نظرة هيربرت، فهذا يعني أننا بحاجة لهوية تعطي شكلًا محددًا لخياراتنا، ولفَهمنا لمن نحن، ومن هنا فقط بوسعنا أن نفكر بالطريقة التي يجب أن نعيش الحياة من خلالها. وفي الوقت ذاته، يبدو أن شعب الفريمين يعاني من الاختناق؛ إذ هنالك الكثير من الأمور التي تتصل بحياتهم وهم لا يستوعبونها. ولهذا نجد لدى بول وجيسيكا على الدوام هذا الفضول لمعرفة السبب الكامن وراء تلك العادات، ولهذا يبدو كلٌّ منهما وكأنه نموذج أفضل إذا نظرنا إليهما من تلك الناحية. إذن أمامنا نموذج للهوية يعكس قيمتها وحدودها، وثمة شيء إيجابي حيال ذلك، ولكن إن أخذنا تلك المسألة بشكلٍ مبالغ في جدِّيته، فإنها ستخنق شيئًا ضروريًا من أجل العيش بطريقة جيدة. وإذا كنا نرى أن حياة الفريمين أفضل من حياة الهاركونين ومع ذلك ما تزال غير مرضية، عندها يتعين علينا أن نبحث في مكانٍ آخر عن ضالتنا.

أصبح على بول تغيير الأمور وإعادة ابتكار الشعائر عند انضمامه للفريمين، بيد أنه اكتسب أيضًا القدرة على رؤية المستقبل وجمع المعاني من أحداث لم تحدث بعدُ. غير أن سيطرته محدودة، وفهمه لما يراه محدود أيضًا، ولكن على عكس بقية شعب الفريمين، فإنه لا يحتاج أن ينظر إلى الخلف طوال الوقت، وهذا هو السبب الذي ساعد بول على تغيير كل شيء للأبد.

سيسلك دروب الفريمين وكأنه خُلِقَ ليسلكها

إن هذه الدراسة حول حياة الهاركونين والفريمين تُهيِّئنا لأسلوب أعمق وأكثر واقعية لفهم الطريقة التي يمكن من خلالها للبشر أن يعيشوا بشكلٍ مفيد في هذا العالم، حيث يأتي شعب الأتريديس مباشرة بين شعب الهاركونين وشعب الفريمين. ثم إن شعب أتريديس هو الذي بوسعه أن يعلمنا أهم الأمور حول عيش الحياة.

وهنا يمكنني أن أشير إلى عدد من الأحداث التي وردت في رواية الكثيب والتي اتخذ فيها شعب أتريديس قرارات تجاوزت حدود هُوِيَّتِهم وتقاليدهم، وسعى للقوة خدمة لغايات أخرى ذات قيمة، ولهذا السبب يبدو شعب الأتريديس أنه يعيش بشكل جيد على نحو فريد. ثم صار من واجب بول كسر قواعد الفريمين حتى يستطيع أن يعيش في الصحراء، ولحقت به السيدة جيسيكا في ذلك عندما خرقت قواعد البيني جيسيرت. أي إن كلًّا منهما انتزع القوة بحذر وحيطة، مع وعي وتَوْق لما يمكن أن يضيف ذلك لحياتهما وكونهما. بيد أنه بوسعنا أن نرى كيف يمكننا أن نعيش بشكلٍ جيد بكل وضوح في لحظة فشل. ومن هنا جاءت أكثر لحظة مظلمة لدى مؤسسة أتريديس، وتمثلت في العشاء الذي سبق اختطاف الهاركونين لليتو.

برأيي كانت تلك هي اللحظة التي تعثر فيها ليتو، ففي الوقت الذي لا توحي فيه القصة بأي شكل من الأشكال إلى تعثُّر ليتو، هنا يظهر لدينا شيء يتسبب في قتله، وهنا بوسعنا أن نرى الفضيلة التي يتمتع بها بأفضل حالاتها. فقد بدأ ليتو تلك المأدبة بالقضاء على عادة قديمة؛ إذ من عادة الضيوف أن يغمسوا أيديهم ببعض الماء ثم يرشُّون هذا الماء على الأرض، حتى تجفَّ أيديهم ومن ثَمَّ يرمون بالمنشفة على الأرض بجانب الماء. وخلال تناول الطعام تؤخذ المناشف المبللة إلى الخارج وتُعطَى للمتسولين الذين يمرون بالبيت. بيد أن ردة فعل ليتو كانت كردة فعل كثيرين من بيننا، فقد أُصِيب بالذعر، فأنهى المراسم، وهذا ما أشعر الطبقات الأدنى منه بالإهانة؛ وذلك لأن فقرهم دفعهم لقبول الماء الذي سكبه آخرون، وهنا يتضح جليًّا أن ليتو تجاوز الثقافة المحلية وأنهى تلك العادة، وهذا في العموم أمرٌ جيد.

بيد أن نتائج ذلك كانت عكسية؛ إذ بمجرد أن فرغ ليتو من إملاء الأوامر، استطاع أن يقرأ

في وجه إحدى الخادمات أنه قضى على شعيرة محلية، وقد كان بوسع الخادمة أن تُخرج المناشف وتبيع ما تيسر بيعه منها. ولكن بالرغم من أن ليتو أحسَّ بسخطها، فإنه أصر على أن تنفذ أوامره، فقد كان يريد أن يتم منح الماء دون أن يسكب على الأرض. غير أنه بذلك حرم الخادمة من المال دون قصد منه.

لم يكن ليتو يرى كيف تخرج عادات ظالمة بمراسم من تلقاء نفسها؛ إذ يبدو أن الناس ملتزمون بتلك العادات، كونها تمنحهم المال على الأقل، كما تجعل لوجود كثيرين معنى؛ إذ في ظلها يدرك هؤلاء أنهم خدم ويدرك الآخرون أنهم متسولون، وكلهم يعرف مكانته، ويصلون إلى معنى لذواتهم من خلال تلك المواقع، حتى لو حكم أحد من الخارج على تلك الأدوار أنها قائمة على الظلم. ولهذا تدخل ليتو ليغير الوضع، وبذلك أكَّد قوته، وحاول القيام بشيءٍ جيد، إلا أنه أخلَّ بالميزان الذي ضُبط بعناية، فلم يتضح العمل الخيري الذي قام به.

وفي وقتٍ متأخر من تلك الأمسية، عمد ليتو لاستخدام الماء لتحقيق أغراضه الشخصية، حيث سكب بعض الماء على الأرض عندما فرغ من شرب نخبه كما سبق وذكرت. وقد تعمد أن يختبر ضيوفه بذلك، فقد كان يريد أن يرى كيف ستكون ردة فعلهم؛ وذلك لأن القوة تملكته، ولذلك استخدم الماء لتحقيق غاياته، لا بطريقة يحفظ بها حياته؛ إذ لم يشرب الماء، ولم يغتسل به، بل استخدمه في لُعبة سياسية. وكان بوسع المتسولين أن يستخدموا ذلك الماء هم أيضًا، كما كان بوسعه أن يحقق هدفًا أنبل، لكنه لم يفعل. وفي ذلك إشارة إلى أن ليتو لا يتفق مع تلك العادة تمامًا؛ ولذلك بدت تصرفاته غير مناسبة في تلك اللحظة؛ لأنها لا تتصل كثيرًا بالسياق الذي ظهرت فيه، أي إن ليتو استخدم أثمن وأنفس مورد لديهم ليسجل نقاطًا على الصعيد السياسي.

ولكن من نحن حتى نُقيِّم تلك المناسبات؟ وكيف يجب أن نحكم على ليتو؟

هذه المسألة أصعب؛ إذ أرى أن الفريمين والهاركونين يقدمان حالات أكثر وضوحًا بأشواط، ويمكن لتعليلنا السابق أن يساعدنا هنا. إذ بالنسبة للهاركونين، خلصنا إلى نتيجة مفادها أن القوة ضرورية ليعيش المرء بشكل جيد، لكنها لا تكفي. كما اكتشفنا أن ما فعله الهاركونين بيويه كان شريرًا، ولهذا خلصنا إلى القول إن الهويات تعطي للحياة شيئًا من المعنى. أما الفريمين فهم على النقيض من ذلك؛ إذ إننا بحاجة لمسافة قصيرة، لأننا إن انغمسنا في الهويات والعادات والتقاليد فلا بد وأن نغرق. وما رأيناه مع ليتو يشبه تلك المسافة التي تفصلنا عن الهويات والعادات والتقاليد، ولهذا بدأ زيارته بخرق للثقافة المحلية.

قد نظنُّ للوهلة الأولى أننا معجبون بليتو لأنه أفضل من الناحية الأخلاقية؛ إذ عندما ينهي ليتو تلك الممارسة التي تقوم على إعطاء الماء المسكوب للفقراء، فإنه يفعل ذلك من باب

العطف والعدالة. وبالرغم من ذلك، يبدو تصرفه في بداية الأمر أخرق ولا يهدف إلى الفضيلة، حتى بالرغم من أنه قائم على نيةٍ طيبة من الناحية الأخلاقية. وتظهر حالة عدم وجود فضيلة فيما قام به في تلك الرابطة التي كسرها ومضى في سبيله، حيث قضى على عادة وعلى سلسلة من المعاني دون أن يربط البشر بشيء جديد. وبعد ذلك، عندما يسكب ليتو الماء يتعرف على ضيوفه، لكنه لا يغير تلك العادة إلى شيء أهم وأكبر قيمة ومعنى. ولذلك نجد في شخصية ليتو تفاعلًا ديناميكيًا بين المعاني المتغيرة والمحاولات الساعية لفعل الخير وكسب القوة، والمعاني التقليدية القديمة التي رسمت شكل الحياة على كوكب أراكيس لعصور. ولأن قلمي يعجِز عن التعبير بصورة أبلغ؛ لذا سأكتفي بالقول إن ليتو لا يظهر الفضيلة، بل ينهض ويسمو بعيدًا عن التقاليد بطريقة لا يعرفها الفريمين. وهو بذلك يسعى جاهدًا ليكون أعظم منهم، لكنه لا يعاود ربط الناس بالماضي بطريقة يمكنها أن تحفظ كل إنجازاته النبيلة.

إن الجمع ما بين هذين الأمرين، أي الابتعاد برشاقة عما تعنيه التقاليد ولكن بطريقة تحفظ تلك الروابط دون السعي لجمع القوة من أجل القوة بحد ذاتها، يحتاج إلى نوع محدد من المهارات، وحتى يقوم المرء بذلك عليه أن ينخرط في نضالٍ دائم، يوازن من خلاله بين مخاوفه ويفكر مليًا في الإجراء المناسب ليقوم باتخاذه. أي إنه لا توجد صيغة أو مجموعة آمنة من القواعد يمكن اتباعها في هذا المضمار. ثم إن السياق والتاريخ مهمٌ هنا، ولكن ليس بوسعهما تقويض كل فعل أو عمل.

تفاجئ الأحداث ليتو، إلا أن الموضع الذي فشل فيه، نجح بول وجيسيكا فيه، حيث استخدما الموارد الثقافية التي عثرا عليها في الصحراء ليخلقا وجودًا مفيدًا من حياتهما التي بدت مدمَّرة. كما اكتسبا قوة عبر خرق قواعد ثقافية معينة بمهارة، إلا أنهما كانا يُصلحان الروابط الاجتماعية في كل مرة، ويقدمان طريقة جديدة للفريمين ليمضوا قُدُمًا، فخرجا بذلك بمجتمع أقوى وأمتن وأكثر عدلًا. كما نجحا في تغيير القواعد، ليس تبعًا لإرادتهما فحسب، بل بطريقة تتماشى مع احتياجات الوضع دون أن يمس الفريمين أي سوء.

كان بول يراوح في مكانه بين إحساسه بنفسه بوصفه من الأتريديس وقد تورط في صراع حياة أو موت من أجل القوة مع شعب الهاركونين، وبين هويته الجديدة بوصفه المواديب. ولهذا كان ينظر للأمام، وهو يحمل نظرة لعالمٍ مهم ومفيد، يزدهر فيه أراكيس ويصبح مغطى بأوراق الشجر الخضراء؛ عالم تصبح فيه الحياة آمنة، ويحقق فيه الناس النجاح والازدهار. وحتى يصل إلى ذلك، يتعين على بول أن يضع نفسه في مرتبة فوق المعاني الثقافية التي وجدها لدى شعب الفريمين، دون أن يستسلم أو أن يصبح مهووسًا بالقوة كما حصل لشعب الهاركونين. أي إن هذا الصراع لا قواعد له، بل إن الرؤى التي يراها

هي التي توجهه، وكذلك المثل الغامضة التي تمثلها بأفضل صورة ممكنة، مع تحسسه بشكل دائم للاحتياجات وللأمور التي يدركها كل من حوله.

توابل تحمل نكهة المعنى

في النهاية، يشبع بول وجيسيكا من التوابل، ويستحيل لون عيونهما إلى الأزرق، وإنها لفكرةٌ مثيرة للاهتمام؛ وذلك لأن العيون هي أول شيء نلاحِظُه عندما ننظر إلى أحدهم، أي إن النظر إلى الشخص يعني النظر إلى عينَيه؛ لذا يمثل هذا اللون الصورة التي قدَّمها كلٌ منهما للعالم، أي صورتهما كما تبدو في عيون الآخرين.

وفي الوقت ذاته، فإننا نرى العالم من خلال أعيننا، لكن التوابل تخترق كل شيء، أي إنها تعطيه الحياة وتمنحه المعنى، وتحتل قلب كل هذا النشاط. ففي الوقت الذي يناضل فيه الناس على كوكب أراكيس ليبقوا على قيد الحياة، حيث يحاول شعب الأتريديس أن يقيم وطنًا جديدًا، ويحاول شعب الهاركونين السيطرة على عالم جديد، تحتل التوابل كواليس كل ذلك، فبعض الناس ينغمسون فيها، وبعضهم يقف خارجها وهو يحاول أن يسيطر عليها، فيما يحاول زوجان وهما بول وجيسيكا أن يقوما بالأمرين معًا، أي إنهما يحاولان أن يعيشا حياةً ذات معنى قائمة على الفضيلة.

والفضيلة كما وصفتُها شيء ذو نهايةٍ مفتوحة، والطريقة التي تختتم بها رواية الكثيب تخلف لدينا إحساسًا بهذه النهاية. والآن ينخرط بول بشكل كامل في دوره كموديب، إلا أن معاركه التي خاضها مع الإمبراطور تعيد له هُوِيته القديمة، فقد طُرد لكونه من الأتريديس، والآن بات عليه أن يخلق حالة توازن بين كلتا الهويتين في آنٍ معًا. لست مقتنعًا أنه تَدبر أمره بشكل جيد، ففي نهاية الرواية، يصل بول إلى عرش الإمبراطور، ويعيد رسم معالم القوة في الكون، كما يعيش بشكل جيد جدًا وفقًا لمعايير شعب الهاركونين.

وبالرغم من ذلك لا أحسُّ بالارتياح لما حدث؛ وذلك لأن الطريقة التي حقق بها انتصاره تهدد كل شيء على كوكب أراكيس، وفي الكون بأسره. أي إننا نشعر بالقلق لأن حاجته للقوة طغت على كل شيء في نهاية المطاف. وحتى لو كان ذلك ضروريًا، فإننا لا نستطيع أن نستبعد ذلك الإحساس بعدم الارتياح، وفي الوقت ذاته، تعيش هوية موديب حياة خاصة بها مع الفريمين، وهنا يجب على بول أن يستعد لمواجهة نفسه، غير أنه لا يتضح أبدًا هل ستكون النتيجة للأفضل أم للأسوأ.

وعند تلك النقطة تنتهي الرواية، دون أن نصل إلى قرار، وهذه النهاية قوية بطريقة ما، كونها تركز على شيء مهم يتصل بالطريقة التي نختبر بها حياتنا. وهنا نجد أن أي حالة توازن نكتشفها، وأي لحظة نستطيع من خلالها أن نسمو فوق التقاليد والقيم التي ترسم

معالمنا، وأن نمضي قُدُمًا بطريقة تحفظ اتصالنا مع الماضي، ما هي إلا حالات مؤقتة، لكنها نجحت حتى الآن. أي إن الصراع على العيش بطريقة أفضل لا بد أن يستمر، دون أن تضمن أي من الخطوات السابقة النجاح مستقبلًا.

إذن فالصورة التي بقيتُ أفكر بها بعد قراءتي لرواية الكثيب هي صورة راكبي الديدان. لقد كانوا في الصحراء، والرمل ينثال تحت أقدامهم وهم يحاولون أن يمتطوا ظهر دودة. والديدان هنا ليست سيارات، فهي لا تمضي إلى حيث تريد لها أن تمضي، كما أنها ليست بخيول؛ وذلك لأن الدود يعيش تحت الأرض بعيدًا عن نظر الجميع أغلب الأوقات. كما أنها تخلُق التوابل بصورةٍ عجيبة، وهذه التوابل تندفع نحو السطح. يمكن استدعاء تلك الديدان دون السيطرة عليها بشكلٍ كامل؛ إذ كل ما بوسع راكب الدودة فعله هو تقييم الموقف، وغرز أقدام الدودة في الرمال التي تنثال بأقصى ما تستطيع من قوة، والسعي لامتطاء الدودة لتنقُله إلى المكان الذي يجب أن تمضي إليه. وبذلك تبقى الديدان في الأعلى دون أن تندفع نحو باطن الأرض؛ وذلك لأنها لا تمثل جزءًا أصليًا من الأرض، كما أنها لا يمكن أن تنفصل عن الأرض أيضًا، أي إن تلك الديدان تناضل لتبقى بين بين، ويمثل ذلك صورة الصراع من أجل المعنى الذي يستحق أن نفكر فيه لوهلة، بما أن لدينا متسعًا من الوقت اللازم للتفكير بطريقة فلسفية، على عكس كل الشخصيات في رواية الكثيب.

ما الذي تفعله بالعرق البشري على أية حال؟

ما يعثر عليه لدى الطائفة يضيع ثم يُعثر عليه

الكاتب: غير معروف (لعلها إحدى الأمهات الموقَّرات)

التاريخ: الشتات

كان أحد الفريمين الشباب يشتكي لعجوز من الفريمين من الإمبراطورية في أحد المرات، حيث قال: «كل ما يهم الكورينو هو المال والقوة، فهم يحكمون سائر البشرية، ولكن ما الذي فعلوه ليجعلوا حياتنا أفضل؟» فتساءل النائب العجوز: «أفضل؟ لقد منحتك المثابرة القوة، والحياة الصحراوية قدرة على التحمل، والشدة منحتك الشجاعة، فما الذي يستحق أن تسعى للحصول عليه أكثر من ذلك». نظر الشاب إلى الأفق بحزن وقال: «كوب ماء بحجم دودة».

من النوادر الفلسفية لأراكيس القديم

كتبتها الأميرة إيرولان(2)

ما الذي ستفعله إن كنت تسيطر على العرق البشري بأكمله؟ من غير المرجح لك أن تتعرض لهذه المشكلة، لكنها كانت تمثِّل جزءًا من المهام التي يجب على أباطرة المجرة في تاريخ الكثيب التعامل معها؛ وذلك لأن الحكام الديكتاتوريين من أمثال العاهل الإمبراطور صدَّام الرابع، وبول أتريديس، وعلياء أتريديس، وليتو أتريديس الثاني كانوا جميعًا يتحكمون في البشرية ومسؤولين عن التخطيط لمستقبلها. وبالتأكيد لا يمثل الإمبراطور القوة الوحيدة التي تحاول أن تخطط مصير كل فرد؛ وذلك لأن أخوية البيني جيسيرت تخطط ليولد لها مسيح، وتخطط مؤسسة الهاركونين للاستيلاء على العرش، ويأتي الرسل من الصحراء ليتلاعبوا بالسياسة، في حين تدبر طائفة التباعد والبيني تليلاكس مكائد أعقد من تصميمها، وكل ذلك من أجل السيطرة على البشرية. ولو اشتركت جميع الشخصيات في رواية تاريخ الكثيب بسمة واحدة، فستكون ممارسة السلطة على الغير من الناس. بل إنه حتى السيطرة على أراكيس وعلى التوابل هي وسيلة لتحقيق تلك الغاية.

لماذا يطلبون القوة بشدة؟ كل ذلك يرجع إلى رغبتهم في تحسين الحياة؛ إذ إن البعض، مثل البارون هاركونين، يرغبون في تحسين حياتهم، فيما ترغب شخصيات أخرى في تحسين حياة الجميع. فلقد انتزع بول أتريديس السلطة فقط من أجل مساعدة البشرية، كونه يؤمن أنها بحاجة إليه لينقذها، في حين بقي ليتو الثاني يتمتع بالسلطة المطلَقة لقرون طويلة من أجل السبب الغيري ذاته. وفي الوقت الذي لا تتضح فيه تمامًا الأجندة النهائية

جيسيرت، نلمس لديهن اهتمامًا بمصالح البشرية التي تحتل موقع الصدارة بالنسبة لهن؛ ولذلك يمارسن برامج التربية لإنتاج كويستاز هاديراتش لأن البيني جيسيرت تريد هي أيضًا أن ينعم البشر بمستقبل أفضل.

ولكن قبل أن تتمكن من ترتيب الأمور لمستقبل أفضل، من أجلك أو من أجل كل البشرية، يجب أن تكون لديك فكرة عن نوع المستقبل الذي يُعَد أفضل بالنسبة للناس، وهذا يحتاج لوجود فكرة حول نوع الحياة الجيدة بالنسبة للإنسان. إن شخصيات رواية تاريخ الكثيب غالبًا ما تتألم بسبب الظروف البشرية، لا سيما عندما تظهر أفكار كلٍّ منهم بخط مائل. إذ يتعين علينا نحن القراء أن نفكر في هذه المشكلة أيضًا، فلكلٍّ منا حياة عليه أن يعيشها؛ ولهذا يجب علينا أن نقرر ما هو نوع الحياة الذي يعد جيدًا بالنسبة لنا.

في هذا الفصل، سأطرح السؤال: كيف من الممكن أن يقيم الفيلسوفان اليونانيان القديمان سقراط وأرسطو حياة الأبطال والشعوب في كون الكثيب. إذ كما ذكر العجوز من شعب الفريمين، فإن هذين الفيلسوفين ينحدران من بلاد قاسية كانت الحياة فيها صعبة والفقر منتشرًا. وكما هي حال بول والكثيرين غيره في تاريخ الكثيب، فقد فكرا كثيرًا حول الطريقة التي يجب أن يعيش الناس بها، في زمن كانت فيه المعارضة السياسية تتسبب في القتل، ولكن لنبدأ بالفكرة الأكثر شيوعًا لـ«الحياة الجيدة».

مياه في ثيابك الواقية وتوابل في المصرف

بكل صدق، عاش بارون هاركونين أفضل حياة رأيتها في حياتي. فقد رغب في أمورٍ كثيرة وحصل على معظمها، كما حقق متعةً هائلة عبر الطعام والجنس والمال والقوة؛ أي إن صحبته كانت جميلة.

من الكونت هاسيمير يخبر الجميع،

بواسطة الكونت هاسيمير فينرينغ.

قد تكون الفكرة الرائجة حول معنى العيش بشكل جيد غامضة، إلا أن شكلها الأساسي معروف بالنسبة لنا كما كان معروفًا لدى سقراط وأرسطو. ففي اليونان القديمة، كانت الحياة الجيدة، كما يراها كثيرون، تتلخص في أن تكون ثريًّا، وصاحب نفوذ، وأن تتمتع بصحةٍ جيدة وإمكانياتٍ كبيرة، وأن يحترمك الجميع، وما يزال كل ذلك يعبِّر عما يصفه الكثير من الناس أنه «حياة جيدة» أو «النجاح في الحياة» في يومنا هذا. ومن هذا المنظور، عاش الدوق ليتو والسيدة جيسيكا حياةً جيدة في بداية رواية الكثيب، فقط لأنهما كانا ينعمان بالثروة والاحترام، ويحكمان كوكب كالادان بأكمله. وقد عاش البارون هاركونين حياةً سعيدة هو

أيضًا؛ إذ بالرغم من أنه لم يكن يتمتع بصحةٍ جيدة ولا الجميع يحترمه، فإنه كان ثريًّا بشكل فاحش وصاحب نفوذ هائل، ولهذا استمتع بوقته وحياته. في الحقيقة، معظم الشخصيات المعروفة في تاريخ الكثيب تعيش الحياة السعيدة بهذا المعنى، أي إن بيديها الحل والربط، ولم تقلق حيال مصدر الماء الذي ستحصل عليه عندما تطلبه.

بيد أن بقية الشخصيات لم تكن تتمتع بكل هذا الحظ، ففي رواية الكثيب، كانت الحياة بالغة القسوة بالنسبة لأي شخص عادي من شعب الفريمين يعيش على كوكب أراكيس، بل إنها كانت سيئة لدرجة ظهور نقش فوق البوابة المخصَّصة للمسافرين المغادرين جاء فيه: «يا أيها الذين يعرفون ما نعانيه هنا، لا تنسَوْنا في صلواتكم»، أي إن الحياة كانت بغاية السوء لدرجة أن الأهالي أصبحوا أشد بأسًا من جنود النخبة لدى الإمبراطور المعروفين باسم سارداوكار؛ وذلك فقط لأنهم يعيشون في ذلك المكان. لم يكن لدى الفريمين سوى القليل من الماء ليشربوه، لدرجة أنه حتى الدموع كانت تُعَد إسرافًا، وكان البارون هاركونين يستقطب المتسوِّلين عبر رميه لمناشف رطبة على الأرض. أي إن هذا الشعب لم يكن يعيش حياة سعيدة بالمفهوم السائد؛ وذلك فقط لأن ظروفهم المادية كانت مريعة.

إن هذا المفهوم السائد حول الحياة السعيدة يتحوَّل إلى مفهومٍ شائع ومألوف لدى شخصيات تاريخ الكثيب؛ إذ حتى البارون هاركونين الذي لا يكترث لأمر البشرية عمومًا، يسعى لتحقيق حياة سعيدة لنفسه، ويرى ذلك من ناحية الثروة والسلطة والمكانة. وينطبق الأمر ذاته على معظم طبقة النبلاء، ومن بينهم الإمبراطور صدَّام الرابع ملك كورينو، والدوق ليتو أتريديس. إذ حتى لو طمح الدوق ليتو إلى مُثلٍ أعلى من المُثل التي لدى منافسه، أي البارون، فلن يبلغ مرتبة حكم الكواكب بوصفه ديكتاتورًا يخطط لتطوير نفسه وعائلته. يبدو أن شعب الفريمين أدرك هذه الفكرة حول العيش الرغيد أيضًا؛ إذ مع كل اهتمامهم بالدين، يهدف مشروعهم الأساسي في الكثيب إلى تحسين مستوى العيش وذلك عبر ري أراكيس.

وبالحكم على الرواية من هذا المنظور، تقدم ملحمة عائلة أتريديس في رواية الكثيب ومسيح الكثيب وأبناء الكثيب وإمبراطور الكثيب الرباني قصة حول انتصار البشر؛ إذ بالنسبة للبشرية عمومًا، حمل حكم الأتريديس ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من السلام والاستقرار. وبالنسبة لشعب أراكيس، فإن ذلك يُعبر عن تحويل كوكبهم من صحراء قاحلة، قيمة الإنسان فيها أدنى من قيمة الماء الموجود في جسده، إلى أرض خصبة في قلب إمبراطورية غنية.

وبالتأكيد يظهر شيء جذَّاب هنا يتصل بهذه الفكرة السائدة حول الحياة الجيدة، فمن الذي لا يريد أن يكون غنيًّا بدلًا من أن يصبح فقيرًا، يحترمه الجميع بدلًا من أن يكرهوه،

بصرف النظر عن «النجاح» الدنيوي؟

يبدو أن بول وليتو الثاني فكَّرَا بالطريقة ذاتها؛ لأن كلًّا منهما كره الإمبراطورية التي أقامها، بالرغم من أنها حملت الأمن والسلام، ولكن إذا كان هنالك شيء آخر أهم من النجاح الدنيوي، فما هو إذن؟

لا يمكن لدودة رمل أن تضرك

لأنها لا تستطيع أن تجعلك أسوأ من الناحية الأخلاقية

سقراط؟ لقد أُعدم الرجل على يد شعب أثينا! لذا فإن الأخذ بنصيحة حول طريقة العيش، من رجل تسبب لنفسه في الإعدام، أشبه بالعمل بنصيحة الدوق ليتو بشأن فحص العاملين.

من حالات تشدُّق جُمِعت من قِبَل

البارون فلاديمير هاركونين.

لقد رفض سقراط بشكلٍ قاطع تلك الفكرة السائدة حول معنى الحياة السعيدة وانتقد أبناء جلدته من شعب أثينا لهوسهم بالثروة والمجد، بدلًا من اهتمامهم بحال روحهم؛ إذ كان سقراط يعتقد أن الحياة السعيدة تعني العيش بطريقةٍ فاضلة، أما السلع مثل المال والجاه، وحتى الصحة، فقد أثبتت أنها بلا قيمة بل وضارَّة إن لم تكن لدى شخص فاضل. ولهذا يجب علينا أن نوجه اهتمامنا نحو تحسين أنفسنا من الناحية الأخلاقية بدلًا من السعي وراء النجاح الدنيوي؛ إذ يرى سقراط أنه حتى البقاء بحد ذاته يجب ألَّا يشغَل تفكيرنا، بل ما يجب أن يهمنا أولًا وأخيرًا هو أن نتصرف بعدل.

كنا نتمنى له ذلك، إلا أن خصومه السياسيين دفعوه لحتفه، كما هي حال الدوق ليتو. وحتى أثناء محاكمته على الحياة التي يعيشها، ظن سقراط أنه لن يُصاب بأي أذى؛ وذلك لأن المحكمة لا يمكنها أن تدمر شخصيته الأخلاقية، غير أن سقراط حُكِم عليه بالموت بعد السجن، مثله مثل مثيري الشغب في كون الكثيب.

قبل أن نتمكن من عيش حياة فاضلة بحسب رأي سقراط، علينا أن نعرف ما هو السلوك الفاضل؛ وذلك لأن الأفكار الأخلاقية تختلف باختلاف الناس، أي إن الحياة التي قد تبدو فاضلة لأحد قد تظهر حياةً مِلؤُها الشر بالنسبة لشخص آخر. ثم إن سقراط لم يحدد ما تحتاجه الحياة السعيدة الفاضلة، بالرغم من أنه قدم لنا مفاتيحها. ففي كتابه: Euthydemus أي القتل الرحيم، على وجه الخصوص، صنَّف سقراط أربع فضائل بوصفها أساسية حتى يتمكن المرء من عيش حياة سعيدة، وهي العدل والشجاعة والزهد والحكمة.

إن الشخص الذي يحيا حياة طيبة هو شخص عادل، كما أنه شجاع في مواجهة الخطر، وزاهد أمام المغريات، والأهم من ذلك هو أن الشخص الذي يحيا حياة طيبة هو شخص حكيم؛ لأن الحكمة تسمح له بالتمييز بين الحق والباطل. وبالمقابل، في كتاب الاعتذار، يعطي سقراط أمثلة على السلوك المجحف الذي لا يتوافق مع عيش حياة طيبة؛ لأن من يعيش حياة طيبة لا يسرق ولا يحنث بوعوده، ولا يخون أصدقائه ولا يمارس الزنا. إذن، كيف تُقاس حياة الشعب في كون الكثيب بتلك المعايير؟ وهل يحيا ذلك الشعب حياة طيبة؟

سقراط على متن سفينة للطائفة

أروع شيء في أراكين هو أنه بوسعك أن تعثر على جدال فلسفي عند ناصية أي شارع، وبالطبع يمكن لبعض الفريمين أن يبذلوا جهدًا أكبر.

من الشك والارتباك في أراكين،

بقلم: سقراط (تحرير أفلاطون).

لنبدأ بالشيء السهل، لا يعتقد سقراط أن البارون فلاديمير هاركونين يعيش حياة طيبة نهائيًا؛ وذلك لأن العدالة لم تكن تهمه أبدًا، بل كان يمارس ضغوطاته على الفقراء في أراكيس حتى يحقق أهدافه الاقتصادية والسياسية، كما أنه لا يعرف معنى الزهد؛ وذلك لأنه بقي عبدًا للطعام وللشهوة والجشع. كما أنه يمارس السرقة بكل حماسة، وينكث بوعوده، ويخون أصدقاءه، حيث سرق أراكيس من شعب الأتريديس، وأخلف وعده أمام الطبيب يويه وذلك عندما وعده بلم شمله مع زوجته ثم حنث، وخطط لخيانة المينتات لديه، أي بيتير دي فرييز، فقط لأن: «عمره صار أطول من فائدته». وبالمقابل، تمتع هذا الرجل بالشجاعة في السعي وراء أهدافه، فلم تقف في طريقه أي محاولة لاغتياله، أو أي احتمال لوقوع كارثة سياسية.

من المرجَّح ألا يحقق الإمبراطور صدَّام الرابع درجة أعلى مع تلك المعايير، كما أننا لم نطلع على حياته بصورة أكبر من اطِّلاعنا على حياة البارون، ولكنه يبدو ديكتاتورًا يمارس النوع ذاته من الفساد والخداع، حتى على الرغم من عدم جريه بشكل كبير وراء ملذات الجسد؛ إذ لم نره مهتمًّا بأي شيء أكثر من حماية منصبه، ولهذا أصبح على استعداد للتحالف مع مؤسسة هاركونين من خلف ظهر اللاندسراد حتى يخون مؤسسة الأتريديس ويدمرها. ويبدو أنه «كره الضرورات السياسية التي جعلت منهم أعداء»، حسبما ذكرت إيرولان في رواية «الكثيب»، إلا أن ذلك لم يمنعه من محاولة مسح مؤسسة الأتريديس عن وجه الكوكب.

أثبت الدوق ليتو أنه يمثل حالة أشد خداعًا، فهو يتمتع بفضائل أكثر من البارون أو من

الإمبراطور، بالرغم من أن ذلك لا يعبر عن شخصيته كثيرًا. وبالتأكيد يبدو أنه أكثر صدقًا من مناوئيه، فهو لا يسرق، ولا يتآمر حتى يخون أصدقاءه. ولقد أبدى ليتو شجاعة عندما توجَّه نحو الفخ وهو يعرف أن البارون قد نصبه له في كوكب أراكيس. وبالمقابل، نجد أن نيته الساعية لتحقيق زواج مفيد على المستوى السياسي دون أن يتخلى عن محظيته جيسيكا التي يعشقها تُعَد نية لممارسة الزنا.

ومن منظور القرن الحادي والعشرين الذي نعيش فيه، من الصعب أن نفكر في الدوق ليتو كشخص عادل؛ وذلك لأنه بالنهاية ديكتاتور، استولى على كواكب كاملة أضافها لإقطاعياته رغم أنف سكانها. غير أن سقراط احتقر الديمقراطية ونصح أن يكون الحكم بيد الأكثر حكمة، وهذا الوصف ينطبق على ليتو. إلا أن الشيء البغيض في نظر سقراط هو أن ليتو تجاوز القانون ليعزز أهدافه، حيث أمر ثوفير هاوات مثلًا أن يزوِّر شهادات الولاء التي أضيفت بعد الحصول على تواقيع وكلاء الهاركونين وذلك حتى يتمكن هو من مصادرة ممتلكاتهم و«طرد عائلاتهم» (من رواية الكثيب). وبالمقابل نجد سقراط وقد رفض خرق قانون أثينا، حتى أثناء انتظاره لحكم الإعدام بعد إدانته. كما رشا أصدقاؤه السجان حتى يتمكن سقراط من الهرب، لكنه رفض أن يهرب.

لقد ذاع صيت عدل ليتو بكل تأكيد، لدرجة أن بقية النبلاء صاروا يلقبونه بـ «ليتو العادل» (من رواية الكثيب). ولعل من أطلقوا عليه تلك التسمية كانوا يتملَّقونه أو أن ذلك أتى ردًّا على وزارة الدعايات، التي اعترف هو أنها «واحدة من أرفع» الوزارات. (من رواية الكثيب). وهنا نرجح بناء على ما رأيناه من سلوكه، أنه اشتهر بتلك الصفة لكونه نموذجًا للعدل فعلاً مقارنة بمنافسيه، ويعود الأمر إليك عزيزي القارئ في أن تحدِّد ما إذا كان بلوغ ذلك المعيار كافيًا حتى يصبح المرء عادلًا فعلًا أم لا، ولكني أشك أن هذا يمكن أن يرضي سقراط.

يمثل بول أتريديس حالة أعقد بكثير من والده؛ وذلك لأن بول قد لا ينكث بوعوده، ولكنه يمارس التضليل إلى حدٍّ كبير، حيث تلاعب بشعب الفريمين عندما جعلهم يعتقدون أنه يقودهم نحو عصر ذهبي، في الوقت الذي كان يعلم فيه علم اليقين أن المستقبل الذي كان يقودهم نحوه لم يكن كذلك، كما أنه لم يقدم معلومات لبقية البشرية. واعتمد باعترافه على «صناعة الأساطير» وعلى «الادعاءات» حتى يخدع رعاياه بواسطة الدعاية الدينية (من رواية الكثيب). (استعان أفلاطون بسقراط ليكون لسانه في كتابه الجمهورية، حيث تعاطف مع فكرة الاستعانة بالأسطورة للتحكم في الناس، ولكن تلك حكاية أخرى).

ثمة جدل كبير حول خيانة بول لأصدقائه من عدمها، إلا أن أمر استغلال المقربين منه من أجل تحقيق سعادة أكبر ليس بمستبعد؛ وذلك لأنه حتى أمه جيسيكا وصديقه ستيلغار كانا

أدوات سياسية بالنسبة له. والأبشع من ذلك هو أنه باع شقيقته علياء، عبر استغلالها لمواجهة الإمبراطور لصالحه، وهي ما تزال مجرد طفلة، ثم تخلى عنها لتعيش في حيرة ووحدة عندما أصبحت مراهقة، حتى وهو يتنازل لها عن العرش. كما كان يسعده أن يخرج من الصحراء كل مدة ليثير مشكلة ضدها، دون أن يمد يد الصداقة لها بوصفه شقيقها أو أن يقدم لها أي نصيحة عملية. وبالنسبة للزنا، يجب علينا أن نحكم على بول كما حكمنا على أبيه هنا؛ إذ بالرغم من زواجه من ابنة الإمبراطور، إيرولان، فإنه بقي ينام مع خليلته التي يعشقها من شعب الفريمين واسمها تشاني.

أعتقد أن سقراط سيحكم على بول أنه ظالم، حتى لو كان القصد من وراء الظلم الذي ارتكبه مساعدة البشرية على المدى البعيد؛ إذ ما بين الكثيب ومسيح الكثيب، يفرض بول دينه على البشرية بالقوة، ويشن حرب فتح وضغط على المعارضين كافة. وفي رواية أبناء الكثيب، يشتكي دانكان إيداهو من أن «تعاليم موديب أصبحت ملعبًا للدارسين المهتمين بالخرافات والفساد»، ويلاحظ ستيغلار أن «إكسير الحياة الذهبي الذي لدى موديب خلق وحشًا بيروقراطيًا يجثم فوق شؤون البشر، فقد اتحدت الحكومة مع الدين، وأصبح خرق القانون ذنبًا. وأصبحت رائحة الكفر تتصاعد كما الدخان حول أي مُساءلة أو تشكيك في مراسيم الحكومة».

وعندما نتابع نجد أن بول يمثل الزهد في حياته الشخصية، حيث يفضل الوجود الإسبارطي لشعب الفريمين الصحراوي على ترف البلاط الإمبراطوري. كما يحجم أيضًا عن المشاركة في طقوس العربدة لدى الفريمين (بالرغم من احتمال ارتباط ذلك بوجود والدته في الغرفة). ويتمتع بول بشجاعة منقطعة النظير، لدرجة أنه في نهاية الأمر، لم يعد يهاب الموت تمامًا كسقراط.

إذن هل عاش بول حياة طيبة أم لا؟ إذا أخذنا كل شيء بعين الاعتبار، فسنجد أن سقراط سيقول لا، بل حتى بول نفسه لا يعتقد أنه كان يعيش حياة طيبة، فالجميع من حوله قد يضمر شهوة للعرش الإمبراطوري، إلا أن بول اكتشف أن قدره عبء، فتمنى الإفلات منه.

سقراط يراعي العرق البشري

أنى نظرت، أرى الشعب وقد بقي جاهلًا بسبب الحكم الظالم للطاغية ليتو الثاني.

سقراط كما جرى اقتباس ما قاله في مقابلات جرت

في أمتع زنزانة للموت خصصت لمحاوري الأسماك.

كذلك كان الأمر بالنسبة لطبقة النبلاء الرفيعة، ولكن ماذا عن عامة الناس الذين يشكلون

كل الشعب تقريبًا؟ هل عاشوا حياة فاضلة؟ أي ذلك النوع من الحياة التي يمكن لسقراط أن يسميها بالحياة الطيبة؟ لم نلقِ نظرة عن كثب على شكل الحياة في إمبراطورية إمبيريوم بما يكفي لنصدر أحكامنا ونحن على يقين حول العدل والزهد والشجاعة والحكمة فيها، أو حول حجم السرقة ونكث الوعود وخيانة الأصدقاء وارتكاب الزنا الذي يحدث هناك.

ثم إن عامة الشعب الذين ألقينا نظرة عليهم عن كثب كانوا من شعب الفريمين، ووجدنا لديهم الكثير مما قد يعجب سقراط بالنسبة لطريقتهم في الحياة، تمامًا كما وجدنا الكثير من الأمور التي بوسع سقراط أن يعجب بها في الوجود القاسي لقدماء الإسبرطيين. إن الطبيعة القاسية للبيئة التي يعيش فيها الفريمين أجبرتهم على الزهد، كما أجبرتهم على أن يعتادوا على قلة الماء وعدم توافر الكثير من أي عنصر آخر؛ إذ يقول موديب: «كان الفريمين هم الأرقى في فرض حالة التأجيل الذاتية بين رغبتهم في الحصول على شيء وفعل مد اليد للإمساك بذلك الشيء» (من رواية الكثيب). (وبالطبع كان شعب الفريمين يحب أن يمارس طقوس العربدة بين الفينة والأخرى أيضًا، حيث كان ينغمس في تناول المخدرات والرقص والجنس، لذا من الصعب على سقراط أن يوافق على ذلك). يعرف شعب الفريمين ببسالته، حيث أبدوا شجاعة أكبر من تلك التي أبداها مقاتلو الساراداوكار الهيابين لدى صدَّام الرابع. كما يلتزم الفريمين بمبدأ إيتشوان بيدوين الذي يعدُّ كل الفريمين إخوة ويأخذ سائر عهودهم وصداقاتهم على محمل الجد. وبالمقابل، يعد هذا الشعب زانيًا بمعايير الإغريق القدماء، وذلك لاتخاذ الرجال بينهم لأكثر من زوجة، كما فعل ستيلغار.

وعقب النصر الذي حققه بول بنهاية رواية الكثيب، تنهار تلك الأساليب القديمة، فيحلُّ الطمع والجشع محل وحدة الفريمين بما أن إمبراطورية الفريمين الواسعة أصبحت قائمة على الظلم الذي حل محل جناح الفريمين. هل يمكن أن يكون السبب في ذلك هو أنه بدلًا من أن تعم الحياة الطيبة، أدى الازدهار والقوة التي يتمتع بها شعب الفريمين إلى جعل حياتهم أسوأ وذلك عبر تحويلهم إلى شعب أسوأ من الناحية الأخلاقية؟ قد يشرح ذلك سبب توجه بول لحياة الصحراء وتقاليدها، ونأيه عن أساليب العيش في إمبراطورية أراكيس الجديدة.

قد ينتقد سقراط الفريمين في كل المراحل وذلك لثقتهم بأنفسهم بشكل مفرط؛ إذ يميل الفريمين لعدم التشكيك في الحكمة التقليدية، كما أن دينهم الذي ترعاه ميسيوناريا بروتيكتيفا التابعة للبيني جيسيرت يطلعهم عن شكل الأمور وكيف ستكون عليه في المستقبل؛ ولهذا يأخذ الفريمين تلك الأمور على سبيل الإيمان، ولكن فقط عبر التلاعب بالمعتقدات الدينية التي لا يمكن أن تهتزَّ لديهم يتمكن بول من أن يجعل من نفسه إمبراطورًا في المقام الأول، وفقط عبر الاستشهاد بهذا الدين لإسكات كل المعارضين، تمكن بول وعلياء وليتو الثاني من التمسك بالسلطة.

ومن جهة أخرى، يرى سقراط أن على الناس التشكيك في كل شيء بوسعهم أن يشكّكوا فيه، لأنه من الأفضل أن تعرف ما تجهله على أن تظن أنك تعرف شيئًا تجهله فعلًا. والشخصية التي تعرف أنها جاهلة تجلس في موضع يمكنها من خلاله البحث عن الحقيقة فتكتسب الحكمة نتيجة لذلك. ولو فكر الفريميين بالطريقة ذاتها، لكان قد أصبح لديهم من الحكمة ما يكفي لمنعهم من المضي في ذلك السبيل بسهولة.

لم يضع بول ولا علياء ولا ليتو الثاني نصب أعينهم هدف إسباغ المزيد من الحكمة على شعب أراكيس، أو على بقية العرق البشري. إذ عندما ظهر بول بوصفه شخصية ثورية في رواية الكثيب وديكتاتورًا في رواية مسيح الكثيب، احتفظ بما يوحى إليه وبخططه كسِرٍّ بعيدًا عن العامة، بالرغم من أنه كان يخطط لتاريخ البشرية. كما لم يخبر الفريميين أنه يقودهم إلى حرب مقدسة. وفي رواية أبناء الكثيب، أصبح بول متحفظًا لدرجة أنه كرَّس حياته للتجول متنكرًا بهيئة نبي قادم من الصحراء، وأخذ يلقي بتعليقات مبهمة ليؤثر على الأحداث السياسية. وبالمثل، لم تقُم كل من الديكتاتورة علياء والديكتاتور ليتو الثاني بتنمية حالة الحكمة لدى الرعاع الخاضعين لحكمهما؛ إذ أخفيا الطبيعة الحقيقية للمجتمع والتاريخ، وأحالا التلاعب المعيب بالدين إلى نشر الفهم. وهنا لا يمكن لسقراط أن يوافق على حياة الجهل التي عاشها أتباعهما المُضلَّلون كما أنه سيحكم على عامة الشعب في إمبراطورية أتريديس أنه لم يعش حياة طيبة.

حقق إمكانياتك البشرية: كن مينتاتًا

أرسطو؟ كانت أثينا على وشك أن تعدمه تمامًا كما فعلت مع سقراط، إلا أنه فرَّ إلى منفاه بالسرعة القصوى. فلم إذن يمكن لشخص أن ينشد نصيحة حول طريقة الحياة من رجل لم ينجح بشكل واضح في التعامل مع غيره من الناس؟ احرموه من سمة الدخول، واقتلوه أيضًا.

من حالات تشدُّق جُمِعَت من قِبَل

البارون فلاديمير هاركونين.

كان أرسطو تلميذًا لأفلاطون الذي كان تلميذ سقراط؛ ولهذا اعتقد أرسطو، كما اعتقد سقراط وأفلاطون، أن المرء لا يمكن أن يحيا حياة طيبة دون أن يعيش حياة فاضلة، بيد أنه اختلف معهما في أنه يرى أن عيش حياة فاضلة كافٍ.

ذكر أرسطو في كتابه: أخلاق النيكوماخية أن أفضل وجود لأي شيء هو الوجود الذي يعمل من خلاله بشكلٍ جيد، فمثلًا، أفضل وجود للسكين هو أن تُستخدَم للتقطيع، والتقطيع

بشكل جيد. وهنا يمكن لأرسطو أن يقول إن سكين البكاء التي لدى شعب الفريمين كان وجودها جيدًا بالنسبة لوصفها سكينًا، لأنها كانت ماضية وحادة، وبذلك أدت وظيفة السكين بشكل جيد للغاية. وتمامًا كما هي حال الوجود الأفضل لسكين البكاء والذي يتمثل في تأديتها لدورها بوصفها سكينًا بشكل جيد، تصبح أفضل حياة بالنسبة للإنسان هي تلك التي تتمثل في تأديته لوظيفته بوصفه إنسانًا بشكل جيد.

ذكر أرسطو أنه حتى نتمكن من تحديد وظيفة شيء ما، علينا أن نراعي ما يفعله على أكمل وجه، فسكين البكاء تقطع الأشياء أفضل من أي شيء آخر؛ ولهذا بوسعنا أن نقول إن وظيفتها هي القطع. والشاي-هولود أفضل من أي شيء آخر بالنسبة لإنتاج التوابل، وبذلك تصبح تلك العملية وظيفة لشاي-هولود. ويرى أرسطو أن الشيء الذي يفعله الإنسان بصورة أفضل من أي شيء آخر هو التفكير، وعليه يصبح التفكير بشكل جيد وظيفة من وظائف الإنسان. أي بمعنى أصح، تشتمل الحياة التي يُفكَّر فيها بشكل جيد على حياة طيبة للإنسان. ومن بين المجالات العديدة التي يمكن للمرء فيها أن يفكر بشكل جيد، يظهر مجال السياسة على أنه الأفضل؛ وذلك لأن السياسة تحكم طريقة استعمال كل الإمكانيات الأخرى. إذ قد يفكر الفريمين بشكل جيد في عملية الري، إلا أن بول الذي يفهم السياسة يسيطر عليهم.

بيد أن أرسطو لا يعتقد أن التفكير بشكل جيد هو كل ما يهم في الحياة؛ لأنه يرى أن ذلك مهم حتى يصبح المرء فاضلًا وماهرًا وحتى يصبح له أصدقاء، وينال احترام وتقدير الناس، وأن المتعة تستحق أن يبحث المرء عنها ويسعى للحصول عليها من أجلها فقط. إذ حتى الثروة تمثل عنصرًا مهمًّا من عناصر العيش بشكل جيد، والأهم من ذلك هو أنها تمنحنا المزيد من الوقت لنقدر فكرنا وعقلنا، وتوفر لنا المزيد من الفرص لنمارس أعمالًا فاضلة. وكمثال على ذلك من رواية الكثيب، نرى الدوق ليتو وهو يستعرض كرمه أمام الفريمين، وذلك عبر منح كوب مترع بالماء لكل متسول مرَّ ببابه أثناء المأدبة التي أقامها. ولكن ذلك لم يكن ليحدث لو لم يكن ثريًّا بما فيه الكفاية ليستبقي ما يكفي من الماء «لإبقاء أسرة فقيرة من شعب أراكيس على قيد الحياة لأكثر من عام» (من رواية الكثيب)، وبذلك تسنَّت له فرصة للقيام بعمل فاضل.

ومع ذلك تحتل الأخلاق قلب الحياة في الحياة الطيبة؛ إذ يرى أرسطو أنه بوسعنا تحديد السمات التي تتألف منها الفضائل لأن الفضيلة تكمُن دومًا في حال وسط بين الإفراط والتفريط. فمثلًا، إذا كنا نتمتع بثقة مبالغ فيها، عندها سنصبح متهورين، في حين أننا في حال عدم تمتعنا بما يكفي من الثقة سنصبح جبناء. ما يعني أن الحالة الوسط بين طرفي النقيض هذين تتمثل في الشجاعة، ولهذا تعد الشجاعة فضيلة، ولنفكر هنا على سبيل المثال في المرة الأولى التي امتطى فيها بول الشاي-هولود، فلو بالغ وقتها بالثقة لدرجة منعته من

تعلم أساليب الفريمين في ركوب الديدان، وتحدى هو بكل بساطة ذلك الحيوان بهدف منازلته حتى يخضع، عندها لن يكون تصرفه نابعًا من الشجاعة، بل من التهور. ولو لم يكن لديه ما يكفي من الثقة، عندها بدلًا من الاقتراب من الدودة سيهرب ويعود إلى جناح تابر ليختبئ هناك، وعندها لن يكون تصرفه نابعًا من شجاعة بل من جبن. ولكن لأنه اتخذ مسارًا بين هذين النقيضين، حيث تعلم بدقة أساليب توجيه وقيادة الدودة من قبل الفريمين، لذا اقترب من شاي-هولود بحذر ولكن بحزم، وهنا يمكننا أن نقول إنه تصرف بدافع الشجاعة.

إذن، تمثل الحياة الطيبة في نظر أرسطو حياة تشتمل على نشاط ذهني، أي إنها حياة لا تتباهى بصحة الروح وأخلاقها وحسب، بل أيضًا بضعف الأصول الرومانسية فيها مثل الثروة والأصدقاء والمتعة. أي إن الحياة الطيبة هي حياة يمتلك فيها المرء كل صفة من صفاته الشخصية في حالة توازن؛ إذ إن الفضائل البشرية تكمن في حالة التوازن والتوسط ما بين الإفراط والتفريط.

أرسطو يجوب كون الكثيب

نصيحتي الأساسية هي أن يهدأ الجميع، فالتورط السياسي أمر جيد، إلا أن الناس أصبحوا متعصبين، فالهيستيريا الدينية تحجُب العقل في كل أنحاء الإمبراطورية.

من رسائل من سجن أراكين كتبها أرسطو.

قد يعثر أرسطو على الكثير من الأمور التي تعجبه في كون الكثيب، بما أنه يؤمن أن الحياة الطيبة تكمن في التفكير بشكل جيد. ولو كان هنالك شيء واحد بوسع الشخصيات الرئيسية في رواية تاريخ الكثيب أن تفعله، فلا بد أن يكون التفكير في المشكلات، حيث أثبتت الحسابات السياسية التي قام بها أمثال الدوق ليتو، والسيدة جيسيكا، وصدَّام الرابع، وعلياء، أنها اتُّخِذت بعناية ودراية ومهارة بشكل مذهل. إذ حتى البارون هاركونين الذي يُعَد رمزًا لكل الشرور في الكثيب، تألق في هذا المجال؛ إذ بصرف النظر عما كان عليه من قسوة ورذيلة، لا يمكن أن نصِفه إلا بالمُخطط الإستراتيجي المتميز.

تبدو الخطط المعقدة للمؤسسات باهتة مقارنة بالخطط المعقدة للمنظمات مثل منظمة البيني جيسيرت وطائفة التباعُد، والتي تتكشف على مدار آلاف السنين. إذ ليست كل أم موقرة أو بحار لدى الطائفة عباقرة بالضرورة، إلا أن التفكير بشكل جيد صفة مشتركة بينهم. ولقد تدرب المينتات من أمثال ثوفير هاوات وبيتير دي فرييز بشكل خاص حتى يتحولوا إلى آلات تفكير متميزة، وليصبحوا بديلًا عن الإنسان بالنسبة لتقانة الحواسيب المحظورة. وكأن ذلك لا يكفي ليثير شهية أرسطو؛ وذلك لأن الذكاء الذي يفوق الذكاء البشري والذي بلغه بول أتريديس والذكاء الذي يشبه ذكاء الآلهة الذي بلغه ابنه، ليتو الثاني، يميزان الحياة التي

تقترب من الكمال الذي تحدث عنه أرسطو. فقد ينظر بول وليتو إلى وجودهما بمشاعر القلق والخوف، إلا أني على يقين من أن أرسطو سيكون على استعداد لتقديم أي شيء حتى يكون في مكان أيٍّ منهما.

ماذا عن الفضيلة؟ لا يمكن للحياة أن تكون طيبة بدونها. هل ستصبح شخصيات تاريخ الكثيب فاضلة بنظر أرسطو؟ لم يقدم لنا أرسطو قائمة كاملة بما يعتقد أنه فضائل، ولكنه لحسن الحظ قدم لنا طريقة للتعرف على الخصال التي توصف بأنها فضائل وذلك عبر إيجاد نقطة التوسط والاعتدال بين نقيضين. سبق أن نظرنا إلى فضائل العدل والشجاعة والزهد (وجميعها مهمة بنظر أرسطو)، إذن لنستخدم طريقته في تحديد الفضائل الأخرى التي نجدها أو لا نجدها لدى تلك الشخصيات.

إليكم كيف تم ذلك باعتقادي: تظهر معاملة البارون للشعب في أراكيس أنه يفتقر إلى الحنان (أي الحالة الوسط بين القسوة والسذاجة)، فيما تعكس أكاذيبه التي لا تنتهي أنه يفتقر إلى الصدق (أي الحالة الوسط بين الغش وانعدام الذوق). وبالمقابل، تظهر الدقة التي يخطط بها أن لديه صبرًا كبيرًا (أي حالة بين عدم الخمول والإفراط في التسرع). وهنا يرى أرسطو أن المهارة السياسية فضيلة، والبارون يتمتع بهذه الفضيلة بكل تأكيد. إذ في النهاية، إن لم يكن الأمر من أجل قدوم الكويستاز هاديراتش، فيمكنه أن يجعل نفسه في المرتبة الثانية مباشرة بعد الإمبراطور. ومع ذلك، عندما نقارن بين التوسط والعدل في هذه الصفقة، لا أعتقد أن لدى البارون فرصة في الحكم عليه أنه فاضل بحسب رأي أرسطو؛ وذلك لأنه ليس فاضلًا، كما أنه لا يحيا حياة طيبة.

إلا أن الدوق ليتو والسيدة جيسيكا يتمتعان بحظ أوفر في التأثير على أرسطو، فهما ليسا شجاعَيْن ومعتدلَيْن في عاداتهما الشخصية، وربما عادلَيْن فحسب، بل أيضًا لطيفان (أي الحالة الوسط بين القسوة والسذاجة)، ومنضبطان (أي الحالة الوسط بين التراخي والصرامة). وقد تشير مخططاتهما التي تدور حول أراكيس إلى أنهما مخادعان (عدم الانفتاح) ويسهل خداعُهما (عدم الشك). وكذلك ليس ثمة شيء معتدل بالنسبة لطموحات ليتو، فقد أشار ثوفير هاوات إلى أن ليتو «لا يمكنه أن يرفض أغنى مصدر للدخل على مستوى الكواكب في الكون الذي نعيش فيه» بالرغم من الخطر، في الوقت الذي تلاحظ فيه جيسيكا أنه يمكن لطموح ليتو أن يجعله «باردًا وقاسيًا ومتطلبًا وأنانيًّا، أي قاسيًا كريح شتوية» (من رواية الكثيب). والحق يقال هنا إن أرسطو لم يعترض عندما قام تلميذه، أي الإسكندر العظيم، بفتح ما كان يعرف وقتها بالعالم المعروف، ولكني أشك كما فعل ستيلغار وسيونا والكثير من المعارضين غيرهما في رواية تاريخ الكثيب، أن أرسطو أبقى فاه مغلقًا فقط ليتجنب الإعدام.

يمثل بول وليتو الثاني حالتين إشكاليتين، لأن الفضائل التي نرغب بشدة في عزوها لهما يبدو أن لا مكان لها بموجب نظام أرسطو. كما أن أكثر سمة مؤثرة لديهما هي الغيرية، فقد كرَّس بول حياته ليحقق أفضل مستقبل ممكن للبشرية، فضحى بسعادته وثروته وبصره في سبيل تحقيق تلك الغاية. أما ليتو الثاني فقد كرَّس الألفية لضمان بقاء البشرية وضحى *ببشريته*، وهنا قد نرغب في وصف الغيرية على أنها فضيلة، ولكن بالنسبة لأرسطو، لا بد أن تحتل أي فضيلة موقعًا وسطًا بين الإفراط والتفريط؛ وذلك لأن التفريط في الغيرية قد يتحول إلى أنانية، ولكن كيف ستكون الحال عند الإفراط في الغيرية؟ لقد وصل الشخص الغيري إلى الحالة القصوى بالأصل، فوهب كل ما بوسعه أن يهبه؛ ولهذا يبدو من المستحيل أن نجد حالة إفراط تصبح معها حالة الغيرية بديلًا معتدلًا، ثم إن الشخصيات التي تعبر عن حالة قصوى في رواية تاريخ الكثيب لا تناسب نموذج أرسطو للشخصية الفاضلة، وبدون تلك الشخصية الفاضلة، لا يمكن لتلك الشخصيات أن تحيا حياة طيبة.

بالنسبة للمتعة، يبدو أن الشخصيات الرئيسية في رواية الكثيب لم تحصل على قدر كبير منها؛ إذ يبدو أن البارون هاركونين وبطانته المقربة يقضون أوقاتًا طيبة، وذلك بوجود الولائم واستعراضات المصارعين والمخدرات والعربدة التي يعيشونها. ولعل الدوق ليتو والسيدة جيسيكا استمتعا بوقت طيب هما أيضًا بوصفهما من طبقة النبلاء الثرية، وبالمقابل نجد أن علياء تمضي معظم وقتها بمفردها، وهي تعيش في قلق وإحباط. في حين نجد أن بول وليتو الثاني كانا من التعساء، فقد أثقلت كاهلهما مسؤوليات جسيمة، امتدت لآلاف السنين مع ليتو. وبالرغم من أنهما كانا إمبراطورين من المينتات، فإنهما لم يعيشا حياة طيبة.

ولكن قد يكون من الصعب عليك عزيزي القارئ ألا تفكر في شيء من المتعة التي تقترن بامتطاء الديدان العملاقة أو عندما يصبح المرء إمبراطورًا على المجرات، إلا أن تلك الشخصيات نجحت في عدم الحصول على تلك المتعة.

أرسطو يفكر في العِرق البشري

كان انتصار بول أتريديس على صدَّام الرابع مأساة مريعة؛ إذ بنى شعب الأتريديس إمبراطورية من إمكانات البشر المهدورة. وبدلًا من مساعدة الرعايا على الازدهار، أوهن الأتريديس تطورهم الفكري والسياسي بشكل مقصود.

من السياسة 2: الخليط والمينتات، بقلم: أرسطو.

يمثل كل ذلك جوانب كثيرة من حياة النبلاء، ولكن هل يحيا عامة الشعب حياة طيبة؟ بكل تأكيد لا يعتقد شعب الفريمين الصحراوي التقليدي الذي التقى ببول أتريديس في رواية الكثيب أن حياته طيبة، وقد يوافقه أرسطو في ذلك؛ إذ قد يسأل أرسطو: هل يعيش

الفريمين حياة الفكر؟ أي حالة وجود مكرسة للتفكير، لكنه سيصل إلى نتيجة مفادها أنهم ليسوا كذلك. فالفريمين يعيشون حياة مكرسة لمهمة البقاء القاسية، وهي مهمة لا يمكن تحملها لولا دينهم الصوفي. ولا يعوز النواب مثل ستيلغار أي ذكاء، كما يتمتعون بالقدرة على تنفيذ مخططات معقدة وطويلة الأمد، إلا أن الإنسان العادي من شعب الفريمين ليس لديه الوقت الكافي ليخصِّصه لحياة الفكر ولشيء من التعليم الذي يُعمِل الفكر من خلاله، أي إنه ليس أمام شعب الفريمين سوى فرصة ضئيلة لتطوير أو ممارسة مهارة السياسة، بما أنهم ليسوا أكثر من عبيد لدى مؤسسة الهاركونين.

وقد يكون من المأمول أن تكون حياة عامة الناس في أماكن أخرى من إمبراطورية إمبريوم أقل تعاسة، إن لم تكن أكثر حرية، ولكن ليس لدينا الكثير من المعلومات حتى نستعرضها في هذا السياق؛ لأن كل ما نعرفه هو أن الظروف على الكوكب العسكري سالوسا سيكوندوز ليست بأفضل بكثير مما هي عليه ظروف الحياة في كوكب أراكيس، ولكن بالمقابل، نعرف أيضًا أن شعب جيدي برايم يشاهد عروض المصارعين التي قام غامونت «بالتنويه إلى ثقافتها القائمة على اللذة وممارساتها الجنسية الغريبة» (من رواية الكثيب). وبالرغم من كل ذلك، ليست لدينا سوى فكرة ضئيلة حول شكل حياة الإنسان العادي في كوكب كالادان، أو لدى شعب الجيدي برايم، أو أي أحد من شعب كورينو، أو أي شخص ممن يعيش في مئات العوالم الأخرى التابعة لإمبراطورية إمبيريوم.

وهنا أظن أن كوكب كالادان مكان طيب للعيش إلى حدٍّ ما، وأن شعب الجيدي برايم شعب سيئ إلى حدٍّ ما، ولكن الفلاحين يشعرون بما يناقض ذلك على حد علمي.

ماذا عن الفضيلة؟ سبق أن نوَّهنا إلى أن شعب الفريمين في رواية الكثيب شعب جسور وزاهد، وعلاوة على ذلك يعكس مشروعهم السري لري العالم مدى صبرهم (أي حالة وسط بين الخمول والتهور)، ومثابرتهم (أي الحالة الوسط بين الكسل والوضاعة)، كما أنهم شعب ماهر؛ إذ تشمل إنجازاتهم القدرة على النجاة في ظل ظروف قد تقتل أي شخص آخر بسرعة، وذلك شعب متقدم في تحويل الأرض، بما أن لديهم ثقافة ثرية وشاعرية، وبما أنهم أفضل جنود في إمبراطورية إمبيريوم. وبالمقابل، في الوقت الذي قد يبتعد فيه عناد الفريمين وصلابتهم عن حالة انعدام التفاني التي تشير إلى الضعف، يتجاوزون بتفانيهم أي موضع معتدل فيصلون بذلك إلى حالة الإفراط في العناد. إذ في النهاية، يدعم هذا الشعب مشاريع مسيحهم وورثته حتى بعد مرور وقت طويل على اكتشاف أن ما أتوا به هو الظلم والاضطهاد. أي إن هنالك فضائل كثيرة بعيدة عن فهم شعب الفريمين في رواية الكثيب، ويرجع ذلك إلى ظروفهم بشكل أساسي؛ إذ لا يمكنهم أن يبالغوا في كرمهم؛ لأنهم لا يملكون سوى القليل ليقدموه، ولهذا لا يمكنهم أن يكونوا مضيافين للغاية لأنه يتعين عليهم أن يعيشوا في

مجتمعات سرية، كما لا يمكنهم أن ينشطوا سياسيًا، لعدم تمتعهم بأي رأي حيال حكومتهم.

هل تحسنت الحياة بعد انتصار بول؟ لا بد أن يكون العيش خلال الحرب المقدسة التي شنَّها بول وامتدت لاثنتي عشرة سنة مرعبًا، إلا أن تلك السنوات أعقبتها آلاف السنين من السلام، لدرجة أنه حتى الفقراء من شعب الفريمين أصبح لديهم في النهاية الكثير من الماء ليشربوه. ومع ذلك، لا يمكن أن أرى أن أرسطو يوافق على هذه الإمبراطورية الجديدة، فالحياة على كوكب أراكيس قد تتطور لتصبح أكثر رخاء، وقد يحل السلام على مليارات الناس، إلا أن الفكر الحر سُحِق في مختلف أنحاء الإمبراطورية على يد الحكومة الدينية. وهنا لا بد لي أن أعترف أن غالبية شعب الفريمين قد وصلوا إلى مناصب في السلطة تخوِّلهم الاستفادة من المهارات السياسية واستغلالها، إلا أن الحكومة في هذه الإمبراطورية تملي على المواطنين ما يجب أن يؤمنوا به، وكما كانت الحال في زمن سقراط وأرسطو، يمكن أن يتعرض أي مخالف أو معارض للقتل. ثم إن الفريمين في كوكب أراكيس الجديد اشتهروا بجشعهم ووحشيتهم وظلمهم، كما أن نشاطهم السياسي أصبح ينحصر في دعم نظام فاسد. وهنا قد يصاب أرسطو بالذعر لما وصلت إليه حال البشرية، وسيعتقد أن الشعب في إمبراطورية بول وليتو أبعد ما يكون عن عيش حياة طيبة.

وحيدًا في الصحراء

آه ... لقد تملَّص منا أرسطو، لقد هرب فيلسوفنا الصغير من إمبيريوم إلى توبيل فسبق بذلك الصياد الذي يبحث عنه. والآن أعتقد أن الناس سينحصر تفكيرهم في أنفسهم فقط ... ها ها ها!

من حالات تشدق تم جمعها من قِبَل

البارون فلاديمير هاركونين.

إذن، من الذي كان على حق بالنسبة للحياة الطيبة التي يعيشها إنسان ما؟ أهو سقراط أم أرسطو أم لا أحد منهما؟ أليست الحياة الطيبة بالنسبة للإنسان هي حياة الثروة والسلطة؟ أم هي حياة لا يلتفت فيها المرء للأشياء الدنيوية؟ أم هي حياة تفكر العقل؟ أم شيء آخر مختلف كلية؟

لقد قُتل سقراط لأنه رفض المفهوم السائد حول الحياة الطيبة؛ إذ بالتأكيد يمكن لشخص ما أن يكون ثريًا و«ناجحًا» بالمعنى المادي بينما يعيش حالة إخفاق تام على المستوى الإنساني. فالشخصيات الثرية والمحتقرة بين الناس من أمثال البارون هاركونين وفيد-روثا وبيتير دي فرييز عاشت بشكل سيئ حتى وهي تعيش حياتها لأقصاها. وبالمقابل، لا يمكنني

أن أتقبل فكرة سقراط التي ترى أن الفضيلة الأخلاقية تكفي حتى يحيا المرء حياةً طيبة، وأن الضرر الوحيد الذي يمكن أن يصيب الإنسان هو الضرر الأخلاقي. فلو كان سقراط على حق، لكان الدوق ليتو وجيسيكا لم يتضررا بسبب خيانة يويه لهما، ولم يتضرر البارون هاركونين عندما سُمِّم على يد غوم جبار بتحريض من علياء فمات، ولا يمكن للأذى أن يصيب أي شخص من العامة ممن بُقرت بطونهم بسكين أو انفجر مسدس ليزر أمام وجوههم خلال الحرب المقدسة التي شنها بول وامتدت لاثنتي عشرة سنة.

لا أصدق كل ذلك، وأعتقد أن شعب الفريمين في رواية الكثيب سيتفق معي في هذا، بما أنهم كرَّسوا جُل وقتهم وطاقتهم للبقاء على كوكب أراكيس؛ أي إنهم لن يقبلوا بتجاهل فكرة البقاء بكل هذا الاستخفاف. إذ لو كان الضرر الوحيد الذي يمكن أن يصيبك هو أن تَظلم، فلِمَ ترتدي الثياب الواقية كل صباح؟ ولا أجد أن النبلاء في كون الكثيب ينحازون لسقراط هم أيضًا؛ وذلك لأن عالمهم مهيب وخطير في آنٍ معًا، ومن لا يأخذ حيطته بشكل كبير لا بد أن يقع بسرعة فريسةً للصياد الذي يبحث عنه، أو للسن الذي يحوي غازًا سامًّا، أو لسكين تخترق بسرعة درعه الواقي.

كما أن البقاء لوحده لا يكفي؛ إذ ينبغي أن يتمتع الناس بدرجة محددة من الراحة المادية حتى يعيشوا بشكل جيد، وقد كان سقراط على حق في تقدير قيمة الزهد، ولكن ينبغي أن يحصل الناس على ما يكفيهم من الطعام والماء والدواء والخدمات الاجتماعية الأساسية؛ وذلك لأن البشر الذين يعانون من الحرمان والفقر لا يعيشون بشكل جيد، حتى وإن كانوا فاضلين. أعتقد أن ذلك يصبح واضحًا عندما نفكر في حياة شعب الفريمين الصحراوي؛ إذ بالرغم من أن وجودهم ربَّى لديهم الكثير من الفضائل، فإنهم لا يمكن أن يعيشوا حياة طيبة لمجرد أن حياتهم كانت أشبه بالجحيم. كما أن سعيهم لري كوكب أراكيس مهم للغاية؛ لأن قيامهم بذلك سيحسن من ظروف حياتهم التي سادها العطش إلى حد كبير.

يبدي أرسطو تقديرًا أفضل وأكبر لقيام الحياة الطيبة على عوامل أخرى غير الفضيلة الأخلاقية؛ إذ تقترب رؤيته للحياة الطيبة من الحقيقة أكثر من النظرة السائدة أو تلك التي قدمها سقراط، فقد كان على حق عندما اعترف بأهمية العوامل الخارجية مثل المال والأصدقاء حتى يعيش المرء بشكل جيد. وكما يتفهم شعب الفريمين بشكل جيد، فإن الحرمان يحمل معه المعاناة. وبخلاف أرسطو، لا أعتقد أن هنالك وظيفة للبشرية؛ ولهذا لا أتقبل فكرته التي ترى أن وظيفة البشرية هي التفكير بشكل جيد. ولكني أعتقد أنه أصاب عندما ذكر أن التفكير بشكل جيد هو جزء من العيش بشكل جيد؛ وذلك لأن الشخص الذي باستطاعته أن يفكر بشكل جيد يحتل موقعًا ومكانة أفضل يمكنه من خلالها الحكم على طريقة العيش. فمينتات مثل ثوفير هاوات قادر على تنظيم حياته وتقدير العواقب على

المدى البعيد إزاء المكاسب على المدى القريب وذلك بطريقة لا يمكن لأي شخص عادي أن يقوم بها.

ولقد أصاب أرسطو وكذلك سقراط تمامًا عندما أكدا على أهمية الفضيلة الأخلاقية في أي حياة تستحق أن توصف بأنها «حياة طيبة». ولكني لا أصدق فكرته التي ترى أن الفضيلة يجب أن تكمن على الدوام عند درجة التوسط والاعتدال، وأظن أن رواية تاريخ الكثيب توضح سبب ضرورة عدم تصديق ذلك. إذ تصبح سمة بلغت حدها الأقصى في بعض الأحيان أفضل من تلك السمة عندما تكون في حالة الاعتدال. فقد بلغ بول وليتو الثاني أقصى الدرجات في خدمتهما للبشرية القائمة على الإيثار والغيرية، فأنقذا البشرية لأنهما بلغا تلك المرحلة. وليس ثمة أي شيء معتدل حول عقليتهما المتفردة التي تبدَّت والتضحيات التي بذلاها، والتي امتدت لآلاف السنين في حالة ليتو الثاني. إذ عبر قيامهما بما قاما به؛ قام بول وليتو بالشيء الصحيح من الناحية الأخلاقية في ظل ظروفهما. ومن الواضح أنهما لم يعيشا أفضل حياة ممكنة لأنه كان عليهما تحمل الكثير من المعاناة بحيث تحولت مسؤولياتهما إلى عبء، غير أنهما أنقذا العرق البشري بأكمله، وهذا لا بد أن يكون نتيجةً تُبرر أفعالهما.

وبالطريقة ذاتها في العالم الواقعي، يمكن للأشخاص الذين يتميزون بشخصيات بلغت حدودها القصوى أن يعيشوا حياة أكثر مثالية؛ إذ لا يتعين على كل الناس إنقاذ العرق البشري، ولكن البعض منهم يكرِّس نفسه بكل إيثار لمحاربة الجوع في العالم ولإنهاء التعذيب أو القيام بأي شيء تجاه أي قضية مهمة. وهنا لا يمكنني أن أتهم هؤلاء الأفراد المانحين بأنهم تعوزهم الفضيلة، بالرغم من عدم وجود شيء معتدل في شخصياتهم، لكني أرى أن هؤلاء الأفراد هم من يعيشون أفضل حياة بين الجميع.

وفي الختام، لا أتفق مع كلٍّ من سقراط وأرسطو حول الفكرة التي ترى أنه يمكن للشخص أن يحيا حياة طيبة فقط إن كان عادلًا؛ وذلك لأنني أعتقد أنه من الأفضل للشخص في بعض الأحيان ألا يتصرف بعدل، وأكرر هنا أن رواية تاريخ الكثيب تشرح أسباب ذلك. فبول وليتو الثاني ما هما إلا حاكمان ظالمان يدعمان أنظمة فاسدة، إلا أن ما قاما به عاد بالنفع على البشرية على المدى البعيد، غير أنهما قاما بذلك على حساب الأبرياء الذين بات لزامًا عليهم تحمل تلك الديكتاتوريات الدينية القمعية. وهنا أعتقد أنه لا مفرَّ من وصف هاتين الشخصيتين بالعدل، مع أني أرى أنهما سارا على أفضل درب كان مفتوحًا أمامهما، فقاما بالشيء الصحيح من الناحية الأخلاقية بالرغم من أنهما لم يمارسا العدل فيه، إلا أن اتصافهما بالعدل لن يقربهما من الحياة الطيبة، بل لا بد أن يبعدهما عنها بأشواط.

أما في الحياة الواقعية فإن الشيء العادل هو الشيء الصحيح في أغلب الأحيان، ولكن لا

يوجد سبب من حيث المبدأ لضرورة بقاء ذلك على الدوام. إذ يمكن أن تظهر حالة تَفُوقُ فيها فوائد الظلم الحاجة للعدل، كما هي الحال مع حكم بول وليتو الثاني. إذ خلال جائحة مرعبة مثلًا، قد يرفض المجتمع الذي يعاني الغرباء الأبرياء الذين هم بحاجة للمساعدة، حتى لو لم يكن ذلك المجتمع على يقين من أن هؤلاء الغرباء يحملون العدوى. ولا تبدو لي تلك الحالة طريقة عادلة في التعامل مع الناس، ولكن إذا كان الخطر كبيرًا فقد يكون فعل ذلك هو الصواب.

إذن كيف يجب علينا أن نسعى للحصول على حياة طيبة؟ شخصيًا، أعتقد أن سعادة البشر هي ما يهم في الحياة، وأن الشخص الذي يعيش الحياة كما يجب أن يعيشها لا بد أن يشعر بالقلق حيال سعادة الآخرين كما يشعر بالقلق حيال سعادته. وهنا أعتقد أن أفضل شيء يخدم سعادة البشرية هو اللطف والعدل والديمقراطية والتشكيك وحرية الفكر والكلام، وهذه الحياة لا تشبه كثيرًا الحياة في كنف موديب أو ليتو الثاني، إلا أن كلًّا منهما يتمتع بعلم الغيب، وبوسعه أن يرى أنه سيختار الخيار الأفضل المتوافر لديه.

عليك أن تقرر النوع الأفضل من الحياة بالنسبة للإنسان، وبما أنك أحد المعجبين برواية تاريخ الكثيب، فإنك تدرك تمامًا ما حدث عندما سمح الناس لشخص معين بالتفكير نيابة عنهم، بدون كيف!

كما قدمها: غريغ ليتمان

الخير والشر في الكثيب ديفيد لينتش

من: أسطورة الكثيب

التاريخ: 13000 حسب التقويم الإغريقي

تتكرر فكرة الخير مقابل الشر في العمل السينمائي والتلفزيوني للمخرج ديفيد لينتش، ابتداءً من الشخصية الشيطانية في BOB والعميل الخاص العقلاني صاحب الضمير دالي كوبر في «قمتان توأمتان»، إلى القوة الغامضة التي تمثل السيد روك وبيتي إلمز الطيبة في طريق مولهولاند، حيث تكررت معالجة لينتش لموضوع الشر وعواقبه باستخدام الصور والرمزية التي توحي بوجود قوى شريرة وخارقة للطبيعة في أغلب الأحيان.

كثيرًا ما تصور لينتش وجود الشر بطريقة موضعية للغاية؛ ففي أعماله الأولى، عزّى الأسرار القاتمة لأميركا التي باتت تشبه مدينة صغيرة مسيجة بسياج خشبي، ولعل ذلك ظهر بشكل بارز في كل من «قمتان توأمتان» ومخمل أزرق، ومن ثم في عمل أتى لاحقًا ولفت الانتباه إلى الركائز الخطيرة للأحياء الراقية في لوس أنجلوس، وذلك في طريق سريع ضائع، وطريق مولهولاند، والإمبراطورية الداخلية، حيث تميل آثار قوى الشر إلى التموضع لدى شخصية معينة ولمجتمع محدد منعزل إلى حدٍّ ما في أغلب الأحيان.

إلا أن هذا الموضوع الذي يميز أعمال لينتش يتخذ بعدًا أوسع وأوضح في تصويره لنسخة الفيلم الملحمي المأخوذة عن رواية الكثيب لفرانك هيربرت. ففي تلك الرواية، يمثل البارون هاركونين والإمبراطور قوى الشر، فيما يمثل قوى الخير ذلك الشعب الغامض الذي يعرف باسم الفريمين، والذي ينقاد في نهاية الأمر نحو الحرية بفضل «ذات» المسيح التي تنطق بالوحي؛ أي بول أتريديس. وفي الوقت الذي تصب شخصيات لينتش الأخرى التي تجسد الشر كل شرورها بطريقة موضعية للغاية، وخاصة على أفراد بعينهم أو على سكان منطقة واحدة معينة، كما هي حال شخصية فرانك بووث في المخمل الأزرق والرجل الغامض في طريق سريع ضائع، وبي أو بي في «قمتان توأمتان»، تتردد أصداء الشر في كامل الكون، كما حدث في الكثيب. وفي هذا السياق، يصبح لدى الشر بُعد يتصل بالكواكب والعلاقات القائمة بينها. إذ يتعرض كون الكثيب لحروبٍ هائلة، ولنزاعات سياسية بين الممالك، فتعاني شعوب بأكملها وتتحمل، وكل ذلك يرتبط بتأثير قوى الشر ويأتي بسببها.

ومن الجوانب التي لا يمكن أن تُنسى في فيلم الكثيب الذي أخرجه لينتش الطريقة المميزة التي نجح بها في نقل مفهوم الشر المعروف لدى الكون بأسره من خلال تصويره لشخصية البارون هاركونين. إذ بالرغم من أن الإمبراطور يمثل أيضًا قوى الشر وهي تعمل في

كون الكثيب، فإن البارون هاركونين يتقمص دور الشخصية الشيطانية حقًّا، لدرجة أنها تصبح الشر مجسَّدًا. ولتمثيل الشر هذا جانبان أحدهما عقلي والآخر جسدي؛ إذ يبدو البارون هاركونين مختلًّا؛ ولهذا يضفي اضطرابه العقلي وانحرافه الجنسي، الذي يتجلى عندما يقتل ضحاياه، صفةً مقلقة للغاية. كما أن بشاعته الجسدية المقرفة، والتي تتمثل في جسده الضخم ووزنه الزائد بإفراط وبدماله المتقيِّحة، تزيد لشروره شرورًا ولو على الأقل ظاهريًّا.

المسيح وأحلامه

في ظل كون يتعرض للتهديد من قبل قوى الشر، يظهر بول أتريديس نجل الدوق ليتو أتريديس والسيدة جيسيكا، ووريث دوقية مجلس الأتريديس في كوكب كالادان. وهو تلميذ رائع من حيث التدريب الجسدي والفكري الذي تلقاه؛ ولهذا يصبح بول مصدر فخر لوالده.

وطوال قصة الكثيب، يرى بول ما قد نسميه أحلامًا أو أحلام يقظة مشبعة بصور دينية، وتهدف إلى تحذيره من شرور ستحدث في المستقبل، إلا أنها تحاول في النهاية أن تكشف له هدفه الحقيقي بوصفه فردًا بوسعه التغلب على هذه الشرور. وفي محاولة لفهم معنى تلك الأحلام ودورها في كون الكثيب، قد نتذكر هنا بعض القصص التي وردت في العهد القديم، وخاصة تلك التي يخاطب بها الله أفرادًا بعينهم، حيث يتجلى بنفسه عليهم، من خلال أحلامهم؛ إذ تعرض الكثير من الشخصيات التي ورد اسمها في الإنجيل لتجربة الوحي تلك، ومنهم يوسف ويعقوب وموسى وإبراهيم ومريم وشقيقة مريم إليصابات (والدة يوحنا المعمدان).

وينطبق الأمر ذاته على شخصية تشبه شخصية المسيح، مثل شخصية بول أتريديس، وهنا يمكن أن تذكرنا هذه التجربة بالحالة التي تجلى فيها الله، الذي يمثل شخصية الأب على الرب الذي يمثل شخصية الابن، وذلك ليحذره من خلال رؤى تنبؤية كاشفة للشر الذي ينبغي عليه أن يقهره.

إن الفكرة التي وردت في الإنجيل والتي تظهر هنا، تدور حول تلك الأحلام التي يمكن أن نقول عنها إنها تكشف إرادة الله، أو طبيعة الله، وبهذه الطريقة تعمل عمل الوحي بالنسبة للمؤمنين المتدينين. وتتمثل تلك الأحلام في الكثيب على شكل يقظة روحية، ولعل هذه الحقيقة تتجلى بصورة أوضح من خلال المقولة التي تتردد طوال الفيلم وهي: «على النائم أن يستيقظ». ومن هذا المنظور، يصبح لهذه الفكرة التي تدور حول مخاطبة الله الأب وللرب الابن تعبير مجازي في المشهد الأول، وذلك عندما يقول الدوق ليتو أتريديس في لحظة شخصية وأبوية عميقة لابنه بول: «يحتاج المرء لتجارب جديدة ... دون تغيير أي شيء هاجع داخلنا. على النائم أن يستيقظ». بيد أن الفكرة الضمنية في رسالة الدوق، والتي بقيت

كذلك في كل أحلام بول، هي أن الشخص الذي يجب أن يستيقظ عبر تلك الأحلام قد تغير كثيرًا وأصبح أقوى من الناحية الروحية.

وكما يوضح الفيلم، فقد بقيت شخصية تشبه المسيح تتنبأ بالكثير بالنسبة لكون الكثيب؛ إذ تقول الأميرة إيرولان في مونولوجها الافتتاحي: «لطالما تمسك الفريمين بنبوءة تقول بأن رجلًا سوف يأتي، ليصبح مسيحًا، ويرشدهم إلى الحرية الحقيقية». تقدم لنا مشاهد أحلام اليقظة ما يبشر بصفات المسيح التي تظهر لدى بول فيما بعدُ عندما يتحول إلى ذلك الرجل الذي يرشد شعب الفريمين إلى الحرية.

مشكلة الشر

إن المحتوى الروحاني والديني في رواية الكثيب لا يقتصر على ما يظهر في أحلام بول؛ إذ منذ بداية الفيلم، وفي المناجاة الذاتية الافتتاحية التي تقدمها الأميرة إيرولان، نعرف بأن: «التوابل تطيل العمر، وتوسع الإدراك». وتظهر الشخصيات الرئيسية إيمانًا بالله ومعرفة بوجوده طوال الفيلم، وهنا نستذكر على سبيل المثال الإيمان الديني الذي يتجلى في الحوار بين دانكان وبول، حيث يقول دانكان: «عسى أن تكون يد الله معك» فيردُّ بول: «عسى أن تكون يد الله معنا جميعًا يا دانكان».

وتلك العناصر التي تدل على الإيمان الديني، عندما تجتمع مع عالمية الشر الذي تم تصويره في كون الكثيب، تثير فكرة فلسفية وهي «مشكلة الشر» التي ناقشها فلاسفة الدين لآلاف السنين، كما أن مشكلة الشر الفلسفية تشكك في الإيمان بوجود الله.

في التراث اليهودي-المسيحي، ثمة ثلاث خصائص تعرف الله، وهي: أنه أولًا كُلِّي القدرة؛ أي بمعنى أصح، يتمتع بقوة غير محدودة على القيام بما يحلو له، وإذا رأينا كيف يتجلى ذلك في حالة الأحلام مثلًا، عندها سندرك أن الله قادر على ضمان أن أشخاصًا مثل بول سيرون أحلامًا وسيصلون إلى حالة اليقظة الروحية نتيجة لتلك الأحلام. أما الصفة الثانية فهي أن الله كلي العلم؛ أي إنه العالم بكل شيء، وهذا يعني أن لديه معرفةً بكل شيء، وهذا يشمل معرفة المستقبل، وبذلك بوسعه أن يرسل رسائل تنبؤية للأشخاص من خلال أحلامهم. والصفة الثالثة تشير إلى أن الله هو الرحيم؛ أي إنه يشمل كل الطيبة، وهذا يعني أنه لا يقوم بأي عمل شرير.

ومع ذلك يبقى الشر موجودًا في العالم؛ إذ يقتل شعب الهاركونين الناس بغية تحقيق أغراضهم، أما الفريمين فيعيشون حياة صعبة في صحراء لا ترحم تمارس فيها الديدان والعواصف عملية التدمير. فلو كان الله كلي القدرة، ويعرف كل شيء، ورحيمًا، إذن لمَ توجد أمور مثل الشر والألم والمعاناة في العالم؟ ولمَ يسمح الله لتلك الأمور بالظهور؟

الخير والشر في الكثيب دينيد لينتش - صفحة 121 / 224

يعتقد بعض الفلاسفة أن مشكلة الشر تشكك بشكل كبير في وجود الله، بل حتى تدحض فكرة وجوده؛ إذ يرون أن الفكرة التي تفترض أن الله أرحم الراحمين ولكنه مع ذلك يسمح للشر بالظهور في العالم، بالرغم من قوته المطلقة وبالتالي قدرته على منع حدوث ذلك، أثبتت أنها غير مترابطة، وقد نعتبر ذلك مشكلة منطقية بالنسبة لمشكلة الشر. وهذه المشكلة المنطقية تتمثل بالفكرة اليهودية-المسيحية التي ترى أن وجود الله لا يتوافق مع وجود الشر والمعاناة بكل بساطة، وبما أن الشر والمعاناة موجودان بشكل لا لبس فيه في هذا العالم؛ لذا فإن المشكلة المنطقية قد تعتبر مجرد محاولة لدحض فكرة وجود الله فقط.

إلا أن البعض يستعين بحرية الإنسان كوسيلة للدفاع عن المعتقد الديني الذي يرى أن الله موجود، وكما سنرى فإن موضوع الحرية عندما يتصل بمشكلة الشر يثير بعض الأسئلة المهمة فيما يتعلق بقوى الشر التي تظهر وتنشط في كون الكثيب. ولعل أشهر تلك الدفاعات التي تقف في وجه مشكلة الشر هي تلك التي تعرف باسم: «دفاع الإرادة الحرة»، إلا أن ملحمة الكثيب تقدم بديلًا للرد القائم على الحرية بالنسبة لمشكلة الشر، وفي ذلك الرد يبدو أن الطيبة والرحمة تنبع من الشر، لتعرف أنها نقيض له.

دفاع الإرادة الحرة

يطلق على النقاشات الفلسفية التي تحاول أن تحل مشكلة الشر اسم الثيوديسيات أي إثبات الخير الإلهي في ظل وجود الشر، وتعتبر فكرة «دفاع الإرادة الحرة» ضد مشكلة الشر الأشهر بين تلك الثيوديسيات. إذ يرى هذا الدفاع الذي تم تحديد سماته على نطاق واسع أن الله خلق البشر كوكلاء أحرار؛ لأنه اعتقد أن ذلك سيفيد البشر أكثر مما لو كانوا مقيدين بسبب حرمانهم من الحرية (ولعل في ذلك امتحانًا لإيمان المرء). ونتيجة لهذه الحقيقة، أتى البشر بالشر إلى العالم من خلال أفعالهم الحرة. وبحسب هذه الفكرة، فإن الله بريء من الشر في هذا العالم، الذي يعتبر سكان العالم هم الملومين بشأنه، ومن هذا المنطلق يرى المؤمنون بالدين أن مشكلة الشر لا تقدم دحضًا مقنعًا لوجود الله؛ ولهذا عندما يمارس البارون هاركونين إرادته الحرة عبر قتل الدوق ليتو، وإغواء الشبان الصغار، والضغط على كوكب أراكيس حتى يحصل على مخزون التوابل الخاص به، عندها لا يمكن أن نُنحي باللائمة على الله بالنسبة لأفعال البارون هاركونين.

وبالرغم من أن هذه الفكرة تبدو مقنعة في البداية، فإن الكثير من الفلاسفة رأوا أن هذا النوع من الدفاع يعاني من مشكلات معينة، فمثلًا، قد نتساءل: هل هنالك سبب وجيه لعدم قدرة الله على خلق البشر بتلك الصورة؛ أي مع تمتعهم بالحرية وقيامهم بأعمال طيبة على الدوام؟ إذ من المفترض أن الله في اليهودية-المسيحية قادر على كل شيء في نهاية

المطاف، إذن لمَ استحال عليه أن يخلق البشر أحرارًا وأن يمارسوا أعمالًا طيبة على الدوام؟ ولمَ لا يستطيع أن يخلق عالمًا مليئًا بأمثال الدوق ليتو وبول أتريديس وليس البارون هاركونين وفيد-روثا؟

قد يظن المرء هنا أن ذلك لا يمثل خيارًا حرًّا حقيقيًّا، ولكن لا يزال بوسعنا أن نرى أن البشر يمكن أن يكونوا قادرين على الاختيار بحرية بين مجموعة من الأعمال الخيرة، وهذا ما وصفه الفيلسوف الأسترالي جون ماكي بقوله:

في حال عدم وجود استحالة منطقية لاختيار الإنسان بحرية للخير في مناسبة واحدة أو مناسبات عديدة، فلا توجد استحالة منطقية في اختياره للخير بحرية في كل مناسبة؛ أي إن الله لم يواجه إذن حالة الاختيار بين خلق بشر آليين أبرياء وخلق بشر قد يرتكبون الشر في بعض الأحيان وهم يتصرفون بحرية؛ أي إن الخيار الأفضل الواضح المتمثل في خلق بشر يتصرفون بحرية ويفعلون الخير دومًا كان مفتوحًا أمامه. ومن الواضح أن عدم استفادته من ذلك الاحتمال يتعارض مع كونه كلي القدرة ورحيمًا (ص 231).

ولعل الاعتراض الأهم على دفاع الإرادة الحرة قد يتضح إن ميَّزنا بين نوعين من الشر الموجود في العالم، وهما: الشر الأخلاقي من جهة، والشر الطبيعي من جهة أخرى. فالشر الأخلاقي هو شر يمارسه بشر أو غيرهم من الوكلاء الأخلاقيين، فقد سمم فيد-روثا نصل سيفه وقتل به أشد مصارع لدى شعب الأتريديس. وبالمقابل، يأتي الشر الطبيعي نتيجة لقوى الطبيعة، حيث تسمع دودة صوت كائن زاحف نحو التوابل، فتهاجمه، وتأخذ منه التوابل سواء أكان رجلًا أم امرأة أم آلة.

وهذا التمييز يخلق حالة اعتراض على دفاع الإرادة الحرة، فعلى سبيل المثال هنالك دودة الرمل التي تدمر أي كائن يزحف نحو التوابل؛ لذلك إن تمسكنا بهذا الفرق بين الشر الأخلاقي والطبيعي، عندها بوسعنا أن نقول بأن سبب الشر هو قوى الطبيعة وليس الإنسان. وهنا يبدو من الصعب أن نتخيل كيف تسببت الإرادة الحرة لفرد معين أو لمجموعة من الأفراد في هذا الشر، ويبدو أن الله يجب أن يكون السبب وراء بعض الشر على الأقل في العالم.

أما الفلاسفة الذين يحفزهم الدين ويدفعهم فقد كانوا تواقين للرد على هذا الاعتراض، حيث استشهد البعض منهم بوجود «ملائكة هبطوا إلى الأرض» كي يفسروا الشر الطبيعي. إذن، حتى ولو كنا نرى أنه لا يمكن عزو الشر الطبيعي لإرادة البشر الحرة، عندها قد يعزى ذلك إلى الإرادة الحرة لدى تلك الملائكة. ولكن تظهر مشكلة هنا وهي أنه حتى يصل هؤلاء لتلك النتيجة التي يرغبون في الوصول إليها؛ أي أن الله موجود، يعتمد هؤلاء الفلاسفة الذين يدفعهم الدين ويحفزهم على وجود شكل لكيان خارق مبهم آخر.

الخير والشر في الكتب ديفيد ليستر - صفحة 123 / 224

يقدم فلاسفة آخرون يؤيدون دفاع الإرادة الحرة ردًّا قد يبدو منطقيًّا بشكل أكبر؛ إذ يرى هؤلاء أن الشر الطبيعي يأتي نتيجة للإرادة الحرة لدى البشر؛ وذلك لأن البشر بإرادتهم الحرة أفسدوا النظام الطبيعي للأشياء جراء ارتكابهم للمعاصي والذنوب بصورة متواصلة، أما الأمثلة التي يوردونها فأهمها الاحتباس الحراري؛ إذ ترى تلك الفكرة أن البشر لم يكونوا حماة جيدين للطبيعة، وهذا ما يفسر سبب وجود شر طبيعي.

فيما يقدم فيلم الكثيب الذي أخرجه لينتش ردًّا مختلفًا؛ إذ يبدو وكأنه يقدم تعبيرًا مجازيًّا عن شيء يبدو نقيضًا للدور الذي تلعبه الحرية البشرية في دفاع الإرادة الحرة. ففي الكثيب، تظهر الحرية ضمن بيئة من الشر، حيث نشاهد شعبًا مستعبدًا على يد الشر، ومن ثم يتحرر منه. وقد نرى أن هذا الشر وسيلة لتحديد الخير وتعريفه.

ظهور الخير من الشر

من الطرق المتبعة للتفكير بوجود الشر في العالم ولتوفيقه مع المعتقد الديني ووجود الله، التفكير بأن وجود الشر والمعاناة يخلق ظرفًا ضروريًّا لظهور الخير. إذ على سبيل المثال، بالرغم من أن التعاطف والحنان، بوصفهما فضيلتين أخلاقيتين، تعتمدان في وجودهما على ما يسبقهما من معاناة، ثمة فكرة عامة هنا حول العلاقة بين الخير والشر.

والعمل الذي قدمه لينتش عن الكثيب يقدم تعبيرًا مجازيًّا عن هذه الفكرة؛ إذ قد يرى أحدهم أن الفريمين يمثلون عرقًا هاجعًا بصورة أساسية، وأن «الخير» فيهم لا ينهض إلا من خلال معركة ضد قوى الشر. وهنا نجد أن الخير نائم لكن لا بد من إيقاظه، فمن أهم المواضيع في الكثيب؛ تلك الفكرة التي تدور حول تحرر شعب معين؛ إذ بعدما أدرك بول أتريديس ما لديه من إمكانيات وبعد توليه لدور شخصية المسيح، قاد شعب الفريمين نحو حريتهم.

ثمة توازٍ مهم هنا مع قصة المسيح؛ إذ بحسب العقيدة المسيحية، يعتبر البشر مذنبين وخطائين، والمسيح الذي لم يرتكب أي خطيئة يموت من أجل ذنوبنا ليكفِّر عنها، وبذلك يتحرر البشر. وبالرغم من أن بول لا يموت أثناء اضطلاعه بدور منقذ شعب الفريمين، فإنه يبدو شبيهًا بالمسيح بقدر ما يحرر الشعب من الشيء الذي يقوم باستعبادهم، فلقد استعبدت قوى الشر في بداية الأمر شعب الفريمين، ثم حررهم مسيح ما. وبدون وجود ذلك الشر، لم يكن لدى شعب الفريمين شيء يحاربونه، ولذلك لن يكون هنالك أي معنًى يمكن من خلاله للخير فيهم أن يتجلى، ولذلك قد نرى أن مفهومَي «الخير» و«الشر» يعتمد كلٌّ منهما على الآخر في تعريفه؛ إذ لا يمكن لأحدهما أن يكون بدون الآخر حرفيًّا. وبحسب تلك الفكرة فإن فكرة الشر الضروري لوجود الخير تتغلب على مشكلة الشر.

لذا ومن خلال هذه الفكرة حول التحرر، يمكننا أن نرى فيلم الكثيب على أنه يمثل

«الخير» و«الطيبة» بوصفهما نابعين من الشر. وعليه، فإن هذا العمل بخلاف فيلم «قمتان توأمتان» وطريق مولهولاند، حيث يصور لينتش الشر على أنه القوة المسيطرة التي تهزم كل شيء، يقدم لنا طريقة بديلة للنظر إلى الشر، وأسلوبًا يبدو في معظمه يبعث على التفاؤل ويقوي العزيمة. وبذلك يعالج الفيلم مشكلة الشر بطريقة ممتعة، فهو يتناول فكرة الحرية ويناقش أن الإرادة الحرة للبشر ليست هي من يحمل الشر في العالم (كما هي في فكرة «دفاع الإرادة الحرة»)، بل لا بد من تعريف فكرة الخير بحد ذاتها مقابل الحرية أو التحرر من الشر. وإذا أردنا أن نأخذ مثالًا على ذلك نجد أن بول حدد الخير مقابل ما حددته شخصية البارون هاركونين في الخلفية.

يبدو أن تصور وجود الشر على أنه شرط أساسي لوجود الخير يمثل طريقة واعدة لتعليل مشكلة الشر. ولكن ثمة مشكلات تتصل بمعالجة مشكلة الشر بهذه الطريقة.

لنفكر هنا في مشكلة قد نسميها مشكلة واضحة أو ظاهرية، وهذه المشكلة تثير السؤال: لماذا يوجد كل هذا الشر والمعاناة في العالم؟ إذن فهذا الاعتراض لا يدعو للتشكيك في الحقيقة التي ترى أن بعض الشر والمعاناة موجودان (كما هي الحال مع المشكلة المنطقية).

ولكن المشكلة الظاهرية تتعارض بشكل خاص مع كم الشر والمعاناة الموجودَين في العالم؛ ولهذا وبدلًا من أن تسأل لماذا يوجد شر في العالم، فهي تسأل لماذا يوجد كل هذا الشر في العالم؟ ثم إننا لا نحتاج إلا إلى قدر ضئيل من الشر في العالم حتى يتم تحديد الخير بنقيضه، ولذلك يبدو الشر في عالم الكثيب – كما الشر في عالمنا – كبيرًا من حيث الكم بشكل فائض عن الحاجة لتقديم هذا التفسير بدون مشكلات.

وهنالك مشكلة أخرى هنا وهي أن الله في اليهودية-المسيحية يُفترض أن يكون إلهًا شخصيًا؛ أي له علاقة شخصية مع كل واحد منا. ووفقًا لهذه الفكرة، فإن الله لا يمكنه أن يكون إلهًا نفعيًا؛ أي إنه بكل بساطة لا يمكنه أن يحاول زيادة الخير إلى أقصى الحدود؛ لأن ذلك قد يبدو أشبه بتجاوز للعلاقة الشخصية التي من المفترض أن الله يقيمها مع كل فرد منا. كما أنه من المفترض في نهاية الأمر أن يهتم الله بكل البشر بشكل متساوٍ، فمن غير المرجح له أن يرغب في التسبب بالألم أو المعاناة لفرد بعينه حتى يزيد من كم الخير لأبعد الحدود.

إذن، بالرغم من أن فيلم الكثيب الذي قدمه لينتش يقدم تعبيرًا مجازيًا حول الرد على مشكلة الشر التي ترى أن وجود بعض الشر ضروري لتحديد الخير، فإن هذه الفكرة تقف ضدها المشكلة الظاهرية وكذلك الفكرة التي تعتبر الله موضوعيًا وغير شخصي بطبيعته. وإن هذه الفكرة تنسجم على ما يبدو مع موضوع فيلم الكثيب حول التطور الروحي والتغلب على المحن، ذلك الموضوع الذي يتضح تمامًا من خلال محاولة بول تحرير الفريمين. وبناء

على تلك الفكرة، ثمة معنًى يقوم من خلاله الشر بتوليد الخير من حيث الطريقة التي يتجاوب الفرد معه بواسطتها، كما كتب الفيلسوف البريطاني المعاصر جون هيك وهو يقلد رسالة الدوق ليتو أتريديس الأبوية ونصائحه لابنه:

إن عالمًا بلا مشكلات ومصاعب وأخطار وشدائد قد يكون ثابتًا من الناحية الأخلاقية، أما التطور الأخلاقي والروحاني فيأتي عبر الاستجابة للتحديات، وفي الجنة لا توجد أية تحديات **(الشر وإله الحب، ص 372)**.

وفي حالة الكثيب، يمكننا أن نقول إنه من خلال الطريقة التي يستجيب بها المرء للشر يتضح كيف ينبغي على النائم أن يستيقظ(3)

ترجمة: سيمون ريتشز

نفس موديب
غول بالصدفة

من الخطبة الرنانة التي أُلقيت في الذكرى الألفية الخامسة لصعود ليتو الثاني

التاريخ: 15217 حسب التقويم الإغريقي

«أتعرف ما تركته يفلت منك يا دانييل؟» سألت وهي تتقدم لتقف بجانبه، ثم تابعت: «كان لدى السيد أنبوب نولينتروبيا فاسد في صدره، مليء بخلايا الغيلان أيضًا».

«لقد رأيته».

«ولهذا السبب تركتها تفلت منك!»

«لم أتركها». وهنا أخذت مقصات التقليم لديه تقص برفق، وهو يتابع بالقول: «الغيلان. إنه مصدر ترحيب بالنسبة لهم».

البيت المقسم: الكثيب.

يتمدد دانكان إيداهو على الأرضية في وضع لا غرفة على كوكب غامو لدى شعب الهاركونين، وهو يتلوَّى من الألم وعقله مضطرب ومشوَّش، حيث يتذكر أمه الجميلة التي ربته، وكيف قامت وحوش الهاركونين بتعذيبها وقتلها، وفي الوقت ذاته يتذكر طفولة ثانية، تعود له أيضًا، حيث تربى في غامو وتدرب على يد ساحرات البيني جيسيرت. تبدو ذاكرته كرؤية مزدوجة، بتشابكها وتشعبها. إلا أن الأسوأ من ذلك هو أنه يتذكر كيف احتضر ومات على كوكب أراكيس، وهو يحارب 19 سارداوكار حتى يتمكن بول وجيسيكا من الهرب. أين أنا؟ ومتى يحدث هذا؟ بإمكانك أن تسمع أفكاره وهي تصرخ من داخله، من أنا؟

إن سؤاله يمثل سؤالنا، فهل هذا الدانكان هو الدانكان إيداهو ذاته الذي نكنُّ له الاحترام والإعجاب في رواية الكثيب؟ وهل يحمل الغول المستنسخ وذكرياته الأصلية التي تمت إعادة تفعيلها العلاقة ذاتها مع الهوية الشخصية التي ترتبط بذاته الأصلية كما يفعل أشخاص مثلنا؟

تقدم لنا الغيلان مشكلات خاصة تتصل بهويتها، وهذا الغول على وجه الخصوص يتمتع بخصوصية كبيرة، فقد طبع شعب التليلاكسو شيئًا آخر ضمن جيناته؛ إذ بالإضافة للذكريات التي تدور حول ذاته الأصلية، يحمل هذا الدانكان شيئًا مخفيًا داخل الذكريات التي تخص سائر شعب الإيداهو بالتسلسل بدءًا من هايت وصولًا إلى آخر دانكان خدم الإمبراطور الرباني

وخانه. لقد قامت منظمة البيني تليلاكس بتعبئة تلك الذكريات المتسلسلة حتى يتم إعادة تفعيلها داخل الدانكان وذلك عندما يقوم بممارسة الجنس مع أي أم موقرة (وقد نجح الأمر هنا أيضًا وذلك عندما نتحدث عن اليقظة الوقحة!). وعندما تتفجر كل تلك الحيوات داخل وعيه، فيستوعبها بنجاح، فهل يصبح عندها الدانكان الأخير دانكانًا؟ يبدو أن الأمر صعب المنال إلى حد ما، حتى بالنسبة لبعض أعمال الخيال العلمي العظيمة كتلك التي كتبها فرانك هيربرت؛ أي أن تحيا نسخة مستنسخة قرونًا بعد النسخة الأصلية، التي امتلأ وعيها بتجارب كثيرة لأعمار كثيرة ولتكون الشخص ذاته الذي كانت عليه دومًا. لقد تعامل فرانك هيربرت مع أي شخصية كان عليها دانكان قبل أن يصبح دانكانًا في ملحمة الكثيب بوصفه دانكانًا. وإننا لنصدق، بالرغم من انطباعاتنا الأولى أن لديه سببًا فلسفيًا وجيهًا للقيام بذلك.

الغول في الآلة

في ملحمة الكثيب، يمثل الغول نسخة مستنسخة خلقت من الخلايا التي تم جمعها من جثة وزراعتها في خزان قنفذ البحر، وبما أن الغيلان هي أكثر من نسخ مستنسخة فهي تمثل عملية إعادة خلق لجسد الشخص بعد وفاته. إلا أن مجرد خلق اللحم والجسد لا يتعلق بالهوية الشخصية. ففي كون الكثيب برواية هيربرت، يمكن لوعي الغول الأصلي أن يستيقظ من جديد، فتبقى ذكرياته سليمة ومتاحة للغول حيث يتم الدمج بين الغول والشخصية التي خلقت منه. وتحدث حالة اليقظة الجديدة على الدوام من خلال أزمة شخصية عميقة ومؤلمة للغاية.

أما البيني تليلاكس فهي حضارة قائمة على متعصبين للدين كارهين للأجانب، عباقرة في مجال الهندسة الوراثية، وهؤلاء يمثلون الخالقين الحصريين للغيلان. إذ إن أكبر سر لدى شعب التليلاكسو يتمثل في إيمانهم بأن عملهم قائم على أوامر إلهية، فهم يعتقدون أن الشيفرة الوراثية تمثل «لغة الله»، وبصرف النظر عن أشكالهم البشعة التي تشبه أشكال العفاريت، (والتي يتم تشكيلها على تلك الصورة المهينة بغية استرضائهم)، فإن معظم الحشود السيئة تصل إلى نتيجة من خلال الحقيقة القائلة بأنهم يمارسون التجارة بمنتجات مثل العبيد والأعضاء، والهندسة الوراثية مع أي شخص بوسعه أن يدفع الثمن الذي يحددونه. كما يخيف التليلاكسو الآخرين بما أن أجساد الأشخاص الواعين تمثل مادة خام بالنسبة لهم حتى يمارسوا تجارتهم الوراثية.

ولكن حذار! فالبيني تليلاكس ليسوا مجرد رجال أعمال، فهم يتاجرون بإمبراطورية إمبيريوم السائدة حتى يحققوا أغراضهم الشخصية، وعلى رأسها معتقدهم الديني الذي يرى أن صعودهم محتوم، والذي يصل إلى ذروته في رواية زنادقة الكثيب، إلا أن ذلك لا يحدث

إلا لتكون نهايتهم الفشل. إذ ما الذي يريدونه بعد ذلك من الغيلان؟ أول غول يتم تعريفنا عليه هو هايت، وهو يمثل حالة إعادة خلق وراثي لكبير الديدان دانكان إيداهو. ولا يستطيع هذا الغول الوصول إلى ذكرياته، وتاريخه الذي سبق ظهوره في رواية مسيح الكثيب، مما يشير إلى أن التليلاكسو لم ينجحوا بعدُ في استحضار ذكريات النسخة الأصلية داخل الغيلان؛ ولهذا كانت الغيلان تعتبر بمثابة مشروع جانبي ثانوي بالنسبة لشعب التليلاكسو في بداية الأمر.

منح شعب التليلاكسو الإمبراطور بول موديب الغول هايت، وكان الغرض الظاهري من وراء تلك الهدية هو مجرد غطاء، إلا أنه حتى بول أتريديس لم يتمكن من اكتشاف أن هدف الغول هو قتله، وذلك عبر موجِّه للأوامر زُرع فيه وبموجب اقتراح ما بعد التنويم. بيد أن محاولة الاغتيال مُنيت بالفشل، ولكن كما تمنى شعب التليلاكسو فإن التوتر الناجم عن محاولة قتل شخص كان محبوبًا بشدة في الحياة السابقة للغول كسر الحاجز العقلي بين وعي الغول وذكريات هايت عن الشخصية الأصلية. فالغول الذي يعرِّف عن نفسه بأنه هايت يستعيد ذكريات الشخصية الأصلية ويتقمص هوية دانكان إيداهو.

وهكذا تظهر مخططات ضمن مخططات: إذ لم تنجح محاولة الاغتيال، إلا أنه أصبح لدى البيني تليلاكس نفوذٌ جديد، كما أن خليلة ومعشوقة بول واسمها تشاني كانت قد فارقت الحياة لتوِّها؛ لذا يمكن للبيني تليلاكس، إن رغب بول الحزين، في استبدالها بغولة كاملة مع ذكرياتها الأصلية، فتصبح تلك ورقة وحيدة للمساومة السياسية.

يشتري ابن بول موديب؛ أي الإمبراطور الرباني ليتو الثاني مجموعة من غيلان دانكان إيداهو مع ذكرياتها المحفوظة عن إيداهو الأصلي. إذ يحتاجهم ليتو الثاني من أجل برنامج التربية الخاص به ومن أجل صحبتهم أيضًا على مدار 3500 عام، إلا أن ذكريات دانكان إيداهو الأصلي وحدها التي يتم إيقاظها فتتوافر لهم؛ وذلك لأن جميع الغيلان التي يوجد منها بالمئات خلقت من خلايا أخذت من الجسم ذاته؛ أي جثة دانكان إيداهو الأصلي الذي توفي في إحدى المعارك التي دارت في رواية الكثيب.

وفيما بعدُ؛ أي في رواية زنادقة الكثيب، تصبح البيني جيسيرت عبارة عن مجموعة من المستهلكات لغيلان دانكان إيداهو التي يخلقها شعب التليلاكسو. فيقوم آخر غول من غيلان دانكان باسترجاع ذكرياته، لكنه يسترجع أيضًا ذكريات كل الغيلان الذين تجسدوا على صورته. وتغير قدرة الغيلان على استعادة الحياة الماضية طبيعة سادة التليلاكسو أنفسهم؛ إذ يصبح السادة غيلانًا بأنفسهم في خزانات قنفذ البحر. كما تتم «إعادة خلق» كل سيد عند وفاته عبر الذكريات التي تتم استعادتها، فتتراكم بذلك حالات تكرار كثيرة للمعارف

والخبرات، وهذا يؤكد شكوكنا وشكوك البيني جيسيرت حول ما يريده شعب التليلاكسو وهو خلودٌ افتراضي يتمخَّض عن مشروعهم الجانبي الثانوي الذي يعتمد على خلق الغيلان.

دعونا نتحدث عن الجانب الجسدي

ثمة وسيلة خيالية ذكية ظهرت في كون الكثيب الذي قدمه هيربرت، وتتمثل في الذكريات التي يتم حفظها بشكلها المادي في المورثات؛ إذ هنالك أنواع مختلفة للذكريات، فهنالك ذكرى تتصل بالحقائق، وذكرى تتصل بالإجراءات الخاصة بالأساليب وطرق أداء المهام، وهنالك ذكرى تتصل بالتجارب والأحاسيس التي تتصل بعملية اللمس والتفكير في زمان ومكان معينين. وهكذا تصبح ذكريات حياة الأمس حاضرة بالنسبة لوعي البيني جيسيرت في محنة التوابل وذاكرة أخرى. وهنالك ذكريات ترجع للأجداد، تعود لتنتابهم، كما هي حالة علياء، وذلك عندما تتلبسها الروح الشريرة لجدها البارون هاركونين فتصبح تنتابها حرفيًّا. أما بالنسبة للغيلان، فالوضع مختلف؛ وذلك لأنها مخلوقات مستنسخة من خلايا محفوظة تمت إعادة استنباتها في خزانات قنفذ البحر التي لدى شعب التليلاكسو؛ أي إنها لا تعود للأجداد. إلا أن السؤال الذي نود أن نطرحه الآن هو: هل الدانكان الأخير هو دانكان إيداهو نفسه؟

والجواب بكل بساطة هو أن هايت أول غول على شكل دانكان هو دانكان إيداهو؛ وذلك لأن جسم هايت يستمر بصورته المادية مع إيداهو الأصلي. وقد تشكل جسم هايت من خلايا كانت جزءًا ماديًّا من إيداهو الأصلي. ومن المفترض أن هايت يتمتع بالبنية الوراثية ذاتها التي تمتع بها إيداهو، وهكذا تم حفظ الذكريات في جسده، إلا أن هذا الجسد هو الذي جعل من هايت الشخص ذاته؛ أي دانكان إيداهو، وبذات الجسد والرجل عينه.

إن المعايير الجسدية عملية وتمثل كيانات واقعية كما أنها قابلة للقياس والملاحظة بكل سهولة، ثم إنها معايير تعتمد على المنطق السليم لتحديد ما إذا كان شخصٌ ما يمثل الشخص ذاته (أي ما إذا كان صموئيل كليمينز يمثل مارك توين بعينه). وهنا ما عليك إلا أن تستفتي الأدلة المادية لتتخذ القرار. وهذا يكفي عمومًا في العالم الواقعي الذي نعيشه اليوم، خارج كون الكثيب الخيالي. أما الطريقة التي يمكننا من خلالها الحكم على نسخة مستنسخة من خلال الشخصية الأصلية التي تجسدها فتعتمد على تعقب الأجساد المادية عبر المكان والزمان. إذ أولًا، تجري عملية الحمل بالشخصية الأصلية، المولودة لرجل وامرأة، من خلال الطريقة القديمة. أما الطريقة الثانية فيتم من خلالها الحمل بالصورة المستنسخة داخل أنبوب اختبار بعد مرور سنوات على وفاة النسخة الأصلية. وهنا يبدو ذلك، على الرغم من أن النسختين الحقيقية والمستنسخة قد تبدوان كشخصيتين مختلفتين وذلك لاختلاف مسار

نفسر موديب غول بالصدفة - صفحة 130 /224

تاريخهما الجسدي.

وفي حالة الغيلان، قد تمنحنا المعايير الجسدية فرقًا لطيفًا وأنيقًا ومنظمًا بين النسخة النهائية لدانكان والخصم الآخر في الكون بالنسبة لأرفع مواطن؛ أي ليتو الثاني، أو الإمبراطور الرباني. فليتو صاحب عمر طويل نسبيًا، أما من ناحية الحدس فيبدو وكأنه أقرب للشخص المفرد، له الجسد ذاته، دون أي فواصل زمنية، وميلاد واحد، وعمر واحد، ووفاة واحدة؛ أي شخص واحد بعينه، وليس حيواتٍ كثيرة وحالات وفاة عديدة والكثير من عمليات إعادة الخلق الموجودة لدى غولات الدانكان.

المؤسف هنا هو أن التركيز على الجانب الجسدي يفتقر إلى وجود ذلك الفويرق الصغير. ففي الحالات العادية البعيدة عن الخيال، نتمتع بالموضوع الجسدي ذاته على مدار الوقت، ويعود ذلك بصورة أساسية إلى أننا نلمس تغيرات تدريجية في أجسامنا المادية. وبمرور الوقت تتكيف حالة تقبلنا وسماحنا لأنواع التغير مع التقنيات الموجودة لدينا. تخيلوا ردة فعل عالم فيزياء عاش في القرن العاشر تجاه فكرة زرع القلب؛ إذ بناء على ما استوعبه الناس حول الوضع البشري، قد يعتقد هؤلاء أن الهوية الأساسية للشخص قد تغيرت عند إجرائه لعملية زرع قلب. أما اليوم فصرنا نتقبل فكرة زرع القلب، بل حتى زرع الوجه! ولكن ماذا سنفعل تجاه عملية زرع المخ؟!

يبدو أنه إن لم يكن الاستمرار المادي يكفينا لتأسيس الهوية في الحالات العادية البعيدة عن الخيال، فلن نعتمد بكل تأكيد على ذلك بالنسبة لمفهوم قائم على التخمين مثل فكرة الغول التي قدمها هيربرت. كما أن فكرة تعقب ما هو مادي، كما هي الحال مع الغيلان بالنسبة للخلايا البشرية المادية، لا تعبر تمامًا عما يبدو استثنائيًا بالنسبة لغول دانكان النهائي؛ إذ يتذكر ذلك الغول كل الأعمار السابقة بالتسلسل، الأمر الذي يجعله مختلفًا إلى حدٍّ ما من حيث النوع عن غيلان الدنكان السابقة في تلك السلسلة، كما أن الشخصية الأخيرة لدانكان تختلف عن غيلان الدانكان الأخرى بعد حالة اليقظة؛ وذلك لأنه يشتمل على الكثير الكثير من الذكريات، إلى جانب قوى جديدة مثل إدراك المينتات، وفلسفة مذهب الزن، وقول الحقيقة.

تمامًا كدانكان كما بوسع عين البصيرة أن تراه

قد تبدو الإجابات البسيطة مغرية، إلا أن جمالها ظاهري فحسب؛ إذ بما أننا لا ندري كيف قام شعب التليلاكسو بزرع المزيد من الذكريات المتسلسلة في داخل دانكان الأخير، لا يمكننا أن نحدد هل ثمة استمرار جسدي ما بين ذلك الغول مع أي غول دانكان من الماضي، باستثناء النسخة الأصلية. ثم إن الدانكان الأخير هو الذي يحتاج لتفسير أكبر بحسب ما نراه. وقد يساعدنا المعيار النفسي للهوية الشخصية في الموضع الذي قد لا يخدمنا فيه المعيار

الجسدي.

في عام 1690 وفي: مقالة حول الفهم البشري، بحث جون لوك في مسألة ماذا يعني أن يكون المرء يمثل نفسه ذاتها؛ أي أن يمثل الشخص ذاته، وأن يظل الشخص ذاته على مدار الزمن. إن شَبَه الإنسان بنفسه يتسم باتحاد الوعي لديه، حيث كتب لوك: «الذات هي الشيء المفكر الواعي والحساس أو المدرك للذة والألم، والقادر على السعادة أو التعاسة، وبذلك فهي تهتم بنفسها بقدر ما يتوسع الإدراك لديها».

إذن، إذا كان بوسع المرء، ضمن وعيه في الزمن الحاضر، أن يكرر تجارب عمل سابق مع الوعي نفسه الذي كان لديه عند وقوع الحالة الأصلية، فهذا يعني أن ذلك الفرد يمثل الشخصية ذاتها؛ أي بمعنى آخر، هل بوسعه أن يتذكر ذلك؟

يرى لوك أن الإصرار على المعايير الجسدية يؤدي إلى وقوع نتائج مخالفة للحدس؛ إذ قد يشترك هايت بالمادة الجسدية نفسها (أو البنية الجسدية المحددة وراثيًا) التي لدى دانكان الأصلي، إلا أنه من العبث أن نصف هايت بأنه سيد الديدان لدى شعب جيناز. وعندما يُقدَّم هايت لبول أتريديس للمرة الأولى بوصفه هدية لعرش الأسد، يسأله بول إن كان يتذكر أي شيء عن دانكان إيداهو، فيجيب بأن أصواتًا معينة مثل صوت بول يشعره بالبهجة، وبأن سيفًا أو ضوابط مثل ضوابط ثوبتر هي ما يناسب يده إذ يبدو وكأنه قد اعتاد على ذلك. إذ يعتقد ذلك الغول أن ذلك ليس أكثر من نمط محدد موجود في موروثاته (وهي أشبه بذكريات موجودة في اللاوعي وهذا ما سيُكتشف لاحقًا).

ومع ذلك، وفي ظل غياب وعي مناسب ليربط بينهم، قد يعترف لوك بأن هايت أو أي دانكان لدى ليتو، ليس بدانكان إيداهو إلى أن يتم إيقاظ ذكرياته الأصلية من جديد، وفقط عندما تتحد تلك الذكريات في وعي واحد عندها ينطبق تعريف لوك حول «شبه الشخصية» على هايت؛ أي إيداهو الثاني. ولهذا السبب من المنطقي أن يشجع ستيلغار على قتله، فيموت للمرة الثانية بسبب وفائه القديم لمؤسسة الأتريديس، فقد كان ولاء هايت متينًا بقدر ما كان ولاء النسخة الأصلية منه كذلك، والآن أصبح الغول واعيًا لذلك من جديد.

أطلق لوك النقاش الفلسفي الحديث حول الهوية الشخصية، وهو نقاش لا يزال دائرًا؛ وذلك لأن الهوية الشخصية تمثل مسألة معقدة، تحتل الذكريات مركزها، كما سترون في فصل آدم فيرنر: «ذكريات مصنوعة من التوابل»، حيث يظهر لنا لوك فيما يتصل بالبيني جيسيرت وذاكرتهم الأخرى. ولكن بخلاف الأخوات في البيني جيسيرت، من المفترض للغيلان أن يستعيدوا الذكريات السابقة للنفس الأصلية لديهم، وليس تلك الذكريات التي تعود لأسلافهم. إذ بما أن الغيلان هم عبارة عن مخلوقات مستنسخة؛ لذا فإنهم يشتركون، بطريقة

أو بأخرى، بمادة الجسد، وبالبيولوجيا أو البنية الوراثية لذواتهم الأصلية. وعلى عكس الأخوات، يبدو أن الغيلان يخلطون وعيهم مع ذواتهم الأصلية التي يجري استرجاعها. ولفهم الهوية الشخصية لكائنات معقدة مثل الغيلان، علينا أن نمضي أبعد من لوك، لنصل إلى اللوكية الجديدة.

حافظت على نفسي السابقة وكل ما جنيته هو هذا القميص الخفيف

ديريك بارفيت عضو في كلية كل الأرواح بأكسفورد، ومهتم بشكل كبير بالهوية الشخصية وبالروح اللوكية الجديدة. وفي كتابه الذي صدر في عام 1984 تحت عنوان: أسباب وأشخاص، مضى بارفيت في نظرية لوك إلى أقصى حد منطقي لها.

يرى بارفيت أن لوك لم يعنِ الذاكرة فقط عندما تحدث عن «الوعي»، وذلك لسبب واحد هو أن الوعي والذاكرة يمثلان قوتين مختلفتين وأدواتهما مختلفة. فالوعي يمثل المعرفة المباشرة بالحاضر، أما الذاكرة فتمثل المعرفة المباشرة بالماضي، وبعد ذلك تأتي النية وهي المعرفة المباشرة بالطريقة التي سيتصرف بها المرء مستقبلًا. والنية عندما تجتمع مع الرغبة تصبح الشيء الذي يقرر أفعالك.

يعتبر بارفيت كل هذه الروابط النفسية غير المحددة لكنها مهمة بأنها متشابهة؛ إذ لديك ترابط نفسي مع نفسك في الماضي بمجرد ظهور رابط نفسي مباشر بين النفسين. وعندما يصبح لديك ما يكفي من الروابط النفسية المباشرة بين نفسك الحالية ونفسك السابقة، عندها سترتبطان بشكلٍ متين. أما الاستمرار النفسي فيعني الإمساك بسلسلة متداخلة من حالة الارتباط المتينة، فالارتباط يساعدنا على فهم الطريقة التي بقي فيها ليتو على حاله، بالرغم من التغير الذي طرأ عليه، كما يحدث لسائر المخلوقات بمرور الوقت، مع نسيانه لبعض الأمور التي حدثت عندما كان صبيًا يافعًا قبل ثلاثة آلاف عام. ولقد كان لدى ليتو على الدوام ما يكفي من الروابط النفسية المباشرة من أسبوع لأسبوع، ومن سنة لسنة، مع تداخلها بشكل كاف، لدرجة أنه حتى لو خسر بعض الروابط، فإن تداخل تلك السلاسل يجعل منه الشخص ذاته.

وهنا يزل بارفيت أمامنا بفكرة تدور حول لغة جديدة للهوية؛ إذ إن الهوية بالمعنى الدقيق لها تعبر بشكل رسمي عن صلة لا تعترف بالدرجات، فمارك توين وصموئيل كليمينز ليسا بمتطابقين تمامًا، كما أنهما ليسا بمختلفين عن بعضهما بشكل كامل. لذا فإن الاحتفاظ بما يكفي من الروابط النفسية المباشرة يعادل الاحتفاظ بكل رابط نفسي، إلا أن ليتو نفسه لم يفعل هذا! فقد تضيع منا بعض الذكريات والنوايا هنا وهناك، كما نكتسب غيرها الكثير بمرور الوقت. وعليه فإن الإمبراطور الرباني يمثل شخصية ليتو الشاب نفسها، فقط من ناحية

الاحتفاظ بنفسه السابقة والشابة بدرجة معينة. ثم إن كل ما تشير إليه كلمة «هوية» يعبر عن شخص لديه صلات متينة عادية بالنجاة والبقاء. إذ بالعموم، تتمسك العلاقات القريبة والعادية بموقعها بين نفسك ونفسك الماضية والمستقبلية، هذا بالعموم وليس بالضرورة؛ أي بمعنى آخر، وكما يرى بارفيت، لا تفترض أن ما يهم هو مفهوم الهوية، بخصائصه الشكلية المحددة، بل ما يهم فعلًا هو البقاء، ولكن هذا مقبول؛ لأن كل ما لدى البشر هو علاقة البقاء.

إن كل العلاقات التي تعتبر مهمة بالنسبة للاستمرار النفسي يُعاد توصيفها في اللغة الجديدة للبقاء، حيث تصبح الذاكرة شبه ذاكرة؛ إذ تبدو وكأنك تتذكر تجربة ما؛ أي إن خضوعك لتلك التجربة يعتمد على الحقيقة التي ترى أن المرء لديه تجربة بالفعل، ما يعني أن الذاكرة الواضحة تقوم على تجربة تتحول إلى ذكرى. وهنا ليس ثمة افتراض مسبق حول الهوية الشخصية ولا تداول لها، بل تصبح هنا النية شبه نية وهكذا دواليك، أما البقاء بحد ذاته فهو أشبه بشبه هوية.

حوار مع الأم الرئيسة

أهم مشهد في الإجابة على سؤالنا حول هل من الصواب التعامل مع دانكان الأخير على أنه دانكان إيداهو نفسه، يظهر في أرض اللاسفن التي تم تأسيسها في البيت المقسم؛ أي الكوكب الذي اتخذت منه البيني جيسيرت موطنًا لها؛ إذ لم يسمح للدنكان بالخروج من أرض اللاسفن؛ لأن ذلك يكشفه أمام مراقبي الأمهات الموقرات الذين يتمتعون بنفاذ البصيرة، كما أنه لا يحمل العلامة الوراثية التي لدى سيونا والتي يمكن أن تخفيه عن أعين وسطاء الوحي.

يقف دانكان في سفينة غريت هولد في الوقت الذي تواجهه فيه الأم الموقرة الرئيسة داروي أودرادي. تشك الأخوية في أن إيداهو يتذكر أكثر من حياة واحدة للغيلان، لكنه عندما يدرك أن أوداردي تريد لتلك الحيلة أن تنتهي نظرًا لعدم وجود وقت لتضيعه على ذلك، يعترف لها، فتأمره بالقول:

«حدثني عن ذكرياتك المتسلسلة»، فيخبرها دانكان: «أعرف تلك ... الحيوات. تبدو لي كعمر واحد».

(من رواية: البيت المقسم: الكثيب).

ومع ذلك تبقى أسئلتنا؛ إذ يسعدنا أن نسمح باستمرار ليتو الثاني على الصعيد النفسي شأنه في ذلك شأن أي إنسان. أما حالات الوفاة وإعادة الولادة المتعددة التي عاشها دانكان فتبدو مختلفة إلى حدٍّ صادم عما جرى مع ليتو وأي شخص آخر؛ إذ هل ثمة دانكان من بين الدانكانات يتمتع بالاستمرارية التي حظي بها ليتو؟ وهل بوسع أي شخص أن يرتبط بشكل

متين وأن يستمر على المستوى النفسي في حال توفي أو وُلد من جديد؟ كما حدث لدانكان مرات كثيرة؟ حتى لو تكرر ذلك لمرة واحدة معه فقط؟

يتحدث بارفيت عن ثلاثة أنواع من العلاقة التي تحقق المعيار النفسي للهوية الشخصية بمرور الوقت؛ إذ بالنسبة للنوع الضيق، يجب أن تكون القضية المحققة عادية فقط، أما بالنسبة للنوع الواسع، فيجب أن تكون القضية المحققة قضية جديرة بالثقة، وبالنسبة للنوع الأوسع، قد تكون القضية المحققة تمثل أي قضية.

يعمل النوع الأوسع بطريقة سريعة وحرة، ولا بد أن الدانكان قد حقق ذلك بكل تأكيد، كما أنه يحقق شروط النوع الواسع، فنحن نعرف أن إعادة تفعيل الذكريات المتسلسلة تعمل بطريقة جديرة بالثقة؛ وذلك لأننا لاحظنا ذلك لدى غيلان دانكان الآخرين وكذلك لدى سادة التليلاكسو كما سنكتشف لاحقًا، بما أنهم كانوا يستعينون بتقنية الغيلان المتسلسلة لتحقيق الخلود الافتراضي منذ زمن موديب.

أما بالنسبة للنوع الضيق، فلا شيء يهزم الترابط النفسي المتين لدى شعب عادي، إلا أن كلمة «عادي» التي استُخدمت بمعناها المألوف، تعتمد على السياق الاجتماعي والتاريخي. ففي كون يوجد فيه غيلان، يتغير فيه ما يُوصف بأنه عادي؛ إذ بوجود غيلان تتذكر الحيوات السابقة لذواتها الأصلية، يتغير العادي بدرجة أكبر. والأهم من ذلك هو أن هذا ليس بسبب تعليقنا لحالة عدم الإيمان بذلك بوصفنا قراء؛ إذ جعل التليلاكسو من تلك الممارسة أمرًا شائعًا، كما أن تأقلم البيني جيسيرت بسرعة مع الوحي ومع الفكرة التي تقول بأن دانكان لديهم ما هو إلا رجل عمره خمسة آلاف عام، جعل الأمور طبيعية أكثر من أي وقت مضى.

إنه لموقف إجباري ومألوف بأن ترى الأزمان تتغير، والتقنيات تتغير، وكذلك الأمر بالنسبة للوضع الراهن. ولكن ينبغي علينا أن نشك؛ وذلك لأن الحالة الطبيعية لا تعبّر دومًا عن قاعدة جيدة للحكم، فقد تعامل البيني تليلاكس والبيني جيسيرت مع الغيلان المتسلسلة بوصفها تحمل شيئًا قريبًا من العلاقة الطبيعية للهوية الشخصية لدى الأشخاص العاديين. رائع ... ولكن هل ينبغي عليها أن تفعل ذلك؟ وهل ثمة سبب وجيه لهذا؟

الذاكرة هي المفتاح، فلمَ ينبغي على أي من الدانكانات التعامل مع الذكريات الواضحة التي تتدفق من الماضي إليها في حالة اليقظة وكأنها حقيقية؟ إذ في النهاية، لم تعش الغيلان تلك الحيوات، ولم تتعلم كيف تشغل الآلة الحوامة أو كيف تحمل السيف؛ إذ إن كل ذلك حدث ويعود إلى شخص آخر توفي قبل زمن طويل. إذن، فالأسوأ من بعض التحليلات المعقدة التي قدمها هي-فالوتين عندما وصف تلك الأمور بأنها أشبه بشبه ذاكرة، هو عندما يتم التعامل معها على أنها ذكريات زائفة، فلمَ لم يتعامل الدانكان معها كهلوسات حقيقية

مثلًا؟ إذ إنها نوع من الهلوسة لأنها تشبه إلى حد كبير الذاكرة العادية، لكنها ليست بذكرياته، بل تعود لشخص آخر، أما وصفها بالحقيقية، فيرجع إلى أنه لا بد من الاعتراف بأن كل ذكرى يتم إيقاظها من جديد هي عبارة عن مسند تاريخي يشير إلى حدوث شيء على تلك الشاكلة لأشخاص عاديين عندما كانوا على قيد الحياة.

وبناء على التحديات التي واجهتها نظرية لوك حول الهوية الشخصية، قد تكون القراءة خاطئة منذ البداية.

انشقاق أتباع اللوكية الجديدة

خلال السنوات العشرين الماضية ظهرت نظرية مخالفة، وهي النظرية السردية، ويصف المنظِّرون السرديون أنفسهم بأنهم أتباع النظرية اللوكية الجديدة، تمامًا كبارفيت، لكنهم يختلفون معه حول قراءته التقليدية. تعتبر ماريا شيتكمان أبرز من تحدثوا عن النظرية السردية، كونها طرحت التساؤل: هل اعتقد لوك بوجود علاقةٍ دقيقة ومعقدة بين الوعي والذاكرة؟ أي تلك العلاقة التي تقوم على الاسترجاع والتأويل.

وفي كتابها «دستور الأنفس»، الذي فتح آفاقًا جديدة، ترى ماريا أن النفس تمثل موضوع خبرة مثابر ولكنها لا تمثل حالة إدراك منفصلة أو سلبية أو ارتكاسية؛ وذلك لأن الأنفس تهتم بنفسها بشكلٍ فعلي، وتمثل حالة انخراط واهتمام بالمصلحة الذاتية. ثم إننا نراقب أنفسنا على الدوام حتى نتحكم في شخصية خبراتنا.

ترى شيتكمان أن نشاط عملية مراقبة الذات «يمنحنا إحساسًا بالاستمرارية والتلاحم كنفس، كما يزودنا بنوع من المفهوم الذاتي والعلاقة مع ماضٍ معين يمثل الهوية الشخصية» (شيتكمان 2005، ص 18). ثم إن عملية مراقبة الذات ليست مجرد عملية تحقق، بل إنها تشمل التحقق والموازنة وتحديد القوة المقابلة. فالذات ليست مجرد شيء موجود هناك، بل إنها تمثل القيام بذلك الشيء؛ أي إنها ديناميكية وسريعة الاستجابة وانتقائية ومتحيزة. ونرى هذا النمط من السلوك لدى العديد من أبطال ملحمة الكثيب؛ أي البيني جيسيرت والمينتات وكذلك بول وليتو، الذين نتماهى معهم كقراء (تظهر هذه الكلمة «تماهي» هنا مرة أخرى!)؛ وذلك لأنهم يقومون بما ندرك في أنفسنا أننا نقوم به.

تعتبر شيتكمان أن لوك رأى في الهوية الشخصية تعريفًا تحليليًا قويًا وثريًا من الناحية النفسية، فنحن بوصفنا ذواتًا نندفع نحو وحدة التلاحم والوضوح حتى يصبح لحياتنا مسار ولتتناسب مراحلها وحلقاتها بعضها مع بعض، ولذلك يجبر البشر على البحث عن نظامٍ مفيد، أو سردي إن كنتم تفضلون ذلك. تقوم النظرية السردية على أبحاث جيدة في الفلسفة وعلم النفس، تدور حول التطور العقلي للإنسان ودور اللغة والبيئة الاجتماعية في الوصول إلى

نشر موذيب غول بالصدفة - صفحة 136 / 224

تعريف جديد مذهل حول النفس؛ لأن معنى أن تكون نفسًا هو بالنسبة لك أن تكون وكأنك الشخصية الرئيسية في قصة تُسرد بلسان المتكلم وتحكيها أنت.

إن النظرية السردية هي نظرية حول تأسيس الذات؛ إذ تعتمد الذات على تجاربنا في الماضي والحاضر بعد أن تم تنظيمها، وفرزها، حيث يتم تنظيم البعض منها على المستوى الواعي والبعض الآخر على المستوى اللاواعي، وذلك من خلال مجموعة من المبادئ التنظيمية؛ إذ تقوم عملية التنظيم بتصفية الخبرات الخام كما يفعل غربال أو عدسة، وتحويلها إلى رأيٍ فريدٍ مبني على التجارب. ولهذا أن تكون ذاتًا يعني أن تكون هنالك «قصة عن حياتك» متماسكة ومفهومة ولذلك يجب أن تكون منظمة، ومن المحتمل أن تكون متاحة ومتوافرة لمن يرغب في الوصول إليها، إن لم يكن من قِبلك، فمن قِبل أفراد من مجتمعك. وبما أن رأيك يمثل موضوعًا حول الخبرات؛ لذا فإنه يرسم شكل خبراتك فعلًا.

ثم إن شكل السردية بحد ذاته ليس من الضروري أن يكون مستمدًّا من جنس أدبي بعينه، بالرغم من أن غالبية المؤمنين والمنظِّرين في هذه النظرية السردية لن يفاجئهم إن أن يفهم البشر خبراتهم الذاتية ويعبروا عنها من خلال العناصر المعروفة للسرد؛ أي الشخصية والقصة والحبكة والوسيلة والحافز والموضوع ومنحنى الشخصية ومنحنى القصة. وذلك لأن سرد القصص عملية يمارسها البشر في مختلف أنحاء العالم، ووسيلة مهمة للتعبير عن أهمية ومعنى شيء بطريقة منظَّمة، كما أن السرد والتفسير السردي يُعتبر طريقة لفهم خبراتنا كمخلوقات وُجدت في زمنها.

إن النظرية السردية تشير أيضًا إلى معنًى جديد للذاكرة؛ وذلك لأن تَذكُّر حدث أو فعل أو تجربة ليس بعملية وصول معرفية مسطحة وفقيرة على المستوى العاطفي؛ إذ عندما يتذكر الدانكان كيف تعذبت أمه أو الجرح الذي أصاب رأسه فقتله، تكون تلك الذكرى مندمجة مع المشاعر تمامًا. والأهم من ذلك أن المشاعر ذاتها التي عاشها المرء في تجربة معينة في وقت من الأوقات قد تتكرر بكل حيويتها وكأنها ظهرت للتو؛ أي إنها لا تأتي باردة وبعيدة كما يُعرض فيلم مبني على قصة كتاب معين أمام بصيرة المرء. إن أثر الحياة الماضية الملونة التي عاشها دانكان الأصلي يظهر اليوم مع الغول حيث يلون حاضره ويشرح سلوكه ورؤيته المختلفة التي يُظهرها على الفور بعد استيقاظه، وبذلك يدمج مجموعة جديدة من ذكريات تعود لعمليات وإجراءات وتجارب مع المجموعة المنتقاة من حياته قبل الاستيقاظ، وتتم عملية الدمج تلك على المستويين الواعي واللاواعي.

تشرح النظرية السردية سبب تعامل الدانكان الأخير في رواية «البيت المقسم» مع ذكرياته الأصلية وكأنها تخصه؛ وذلك لأنها تمثل تلك الحيوات التي تم دمجها في وعيه

الحاضر؛ أي إنها عادت إليه، ونعني بذلك كل تلك الحيوات وكل تلك الولادات وكل حالات الوفاة، وكل المهن، والأصدقاء والزوجات والأولاد وكل ما حدث وظهر على مدار ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من الوجود المَعيش، بقدر ما لديه ذكريات تخصه كغول في الزمن الحاضر.

دانكان إيداهو الخاص بي

ج. ديفيد فيليمان أستاذ الفلسفة في جامعة نيويورك، لكنك إن رفعته لتعاينه في الضوء بدرجة معينة، عندها سيبدو كمُنَظِّر للسردية، فقد لاحظ أن ضمير المتكلم المفرد «أنا» يمثل شخصية متقلبة، وبالمقابل قد تكون الذات الماضية لنفس الشخص ذاته الذي أنا عليه اليوم، وقد تماهى مع الماضي في مرحلة معينة؛ أي إن علاقة غيبية قد نشأت بمرور الوقت. يشير الشيء الغيبي هنا إلى شيء خارج الشيء المادي أو إلى شيء يدعم الشيء المادي، ولنفرض هنا على سبيل المثال أني متُّ على كوكب أراكيس وسرقوا خلاياي بغية استنساخي، فمن جهة أولى، قد تمثل الذات في الماضي شخصًا من الماضي بوسعي أن أفكر فيه بصورة انعكاسية؛ أي من خلال المتكلم، فقد تفادى أحد مقاتلي الساراداوكار سكاكيني وقتلني، وتلك علاقة نفسية أقامتها نفسي وأنا لأننا نمثل موضوعين بصيغة المتكلم. أما سِيَرنا الذاتية، أو الأفضل أن نقول هنا سردياتنا، فهي خيال ولكنها حقيقية. «نحن نخترع أنفسنا ... ولكننا نمثل الشخصيات التي نخترعها» (فيليمان 2006أ، ص 206). فهل تعني شجرة الكستناء العتيقة التي تمثل الحياة أن يبقى العمل جاريًا؟ من خلال النظرية السردية، يتبين لنا أن الشخص يعيشها؛ أي إنها عمل فني.

لماذا نجحت عملية الدمج التي قام بها دانكان الأخير مع الكثير من السلاسل السابقة بشكل جيد وبكل سلاسة؟ حسنًا، في البداية، حصل على كل القوى التي تعود لأحد المينتات ولفيلسوف من طائفة الزن، ولأحد من يقولون الحقيقة، وذلك بعدما عادت تلك القوى لليقظة من جديد فأصبحت طوع بنانه وعلى استعداد لمساعدته. ثانيًا، أيقظ الغول داخله رجلاً يشبهه كثيرًا، وهكذا لم يعد يتعين عليه أن يحارب تلك الأنفس الماضية التي تغزو وعيه كما فعلت إحدى عضوات البيني جيسيرت مع ذاكرتها الأخرى. ثم إن كل أفراد الدانكان يتشابهون في الشخصية، بل حتى ذواتهم الغولية قبل حالة اليقظة تشبه ذواتهم المدمجة بعد حالة اليقظة على مستوى اللاوعي إلى حد كبير.

ثالثًا والأهم برأينا، هو أن الدانكان الأخير يمثل نفسًا بشرية، فقد أشار فيليمان إلى أن الذوات البشرية لديها دافع قوي للاتساق الذاتي، وفي مواجهة هجوم لخبرات الحاضر بشكلها الفوري والحيوي وبذاتيتها التي لا يمكنها أن تتخلى عنها، تتحول تلك الخبرات إلى ذكريات يمكن التعرف عليها وإدراكها لأن من يحملها شخص يشبه نفسه إلى أقصى الحدود؛ ولهذا

فعل ما تفعله تلك الأنفس، فقام بعملية الدمج، ولا يهم سواء أنفذها بشكل واعٍ أو حدثت كرد فعل انعكاسي كما يفعل البشر عادة؛ لأن الحقيقة والزيف لا يمثلان المشكلة الحقيقية. في حين يمثل الدانكان الأخير عملية دمج حالات الوعي السابقة لدى الدانكانات السابقة ضمن وعيه الحالي بصورة مستمرة على المستوى النفسي.

ديدان الذات في الكثيب

يبدو أن فرانك هيربرت تبنَّى هذه المقاربة التي ترى أن الأشخاص في كون الكثيب الخيالي يتفاوتون في صيادو الكثيب الشكل والحجم والعدد، وهنالك مجموعات تمثل شخصًا واحدًا، مثل ليتو الثاني، وأخرى تختلف معاييرها حول الهوية الشخصية بشكلٍ جذري عن معايير الآخرين، فمراقصو الوجوه يمثلون أنفسهم وشخصًا آخر (ما لم يكونوا يقلدونه بطريقة جيدة للغاية ولمدة طويلة؛ إذ في تلك الحالة «ينسون» من يكونون و«يتذكرون» الفرد الذي يقلدونه فقط). ولدى الأمهات الموقرات ذاكرة أخرى تمثل شكلًا من أشكال الوعي الذي بوسعهن أن يتحدن معه بشكل خطير في حال انغمسن فيه بعمق شديد.

هل بوسع الحدود الغريبة لهويات الغيلان أن تساعدنا على فهم الهوية الشخصية بكاملها؟ علينا أن نراعي هنا ثلاث حقائق وهي:

1- الغول قبل اليقظة لا يمثل الشخص الأصلي.

2- لا بد لمن يقطن إمبراطورية إمبيريوم المهيمنة من التمييز بين الأصل الذي يظهر بشكل طبيعي والغيلان.

3- لا يظهر هذا الفرق بشكل واضح في حالة شعب التليلاكسو نفسه وفي حالة الغول دانكان الأخير.

لقد أصبحت حيوات الغيلان الماضية لدى دانكان حياة واحدة اندمجت مع وعيه الذي يعيشه في الوقت الحاضر، وذلك عندما أصبح مدركًا لها جميعًا. وعليه فإن الوعي الذاتي الاندماجي الذي يمتد ويوحِّد ويلمُّ شمل حالات الوعي المتفرقة يعبر عن الموقف الذي اتخذه دانكان الأخير تجاه الحيوات السابقة له، وذلك من حيث إنها تمثل عمرًا واحدًا، ولكنها في الوقت ذاته تعبر عن علاقة نفسية فردية تُسرد بضمير المتكلم. إلا أنها لا تمثل «عمرًا واحدًا» يعيشه، بل أعمارًا متفرقة عاشها كل من سبقه من الدانكان بشكل متفرق. فهل يمكننا مراجعة مفهومنا حول غيبيات الهوية الشخصية حتى ندعم موقفه؟

على اعتبار أن تقنية الغول تُختصر بفكرة إعادة تناسخ الجسد من خلايا الشخص الميت التي تنتقل كنسيج حي ينمو في أجساد بشرية جديدة، يمكن وصف هيربرت بالمُختزل، حيث

إنه يؤمن بكون الشخص شخصًا لا يعبر عن خاصية بمفردها، بل يمكن اختزالها لخصائص أخرى أو إلى مجموعة من الخصائص. ثم إنه دانكان نفسه سواء أكان نائمًا أو تم إيقاظه من جديد، وذلك في حال مشاركته بالخلايا ذاتها والبنية الوراثية نفسها، تلك البنية التي تتأثر بموجبها ويتم معها اختراق الحالات النفسية مثل الذكريات الأصلية. وهنا نعتقد أن هيربرت، من خلال مثال الغيلان المتسلسلة مثل دانكان الأخير وسادة التليلاكسو، يكشف لنا ذلك عندما يتصل الأمر بالهوية الشخصية، ولكن علينا هنا عوضًا عن ذلك أن نراقب لفترة، ويجب أن تكون تلك المراقبة طويلة بالفعل.

دعونا نفكر بطريقة ممكنة للاختزالية تظل معها الهوية مهمة، وأعني هنا طريقة الأبعاد الأربعة؛ إذ إن كل ما هو موجود في الكون موجود ضمن حيز ولكن أيضًا ضمن زمن معين وخلاله، وعليه فإن مخلوقات مثل الأشخاص تتمتع بجزأين مكاني وزمني. وهنا يمكن اعتبار الشخص بناء على تلك الفكرة أنه الشيء الخالد الذي يتسرب ضمن نسيج الحيِّز والزمن، وهذه المقاربة تتيح لنا أن نفكر في التاريخ الزماني للشخص بوصفه جزءًا من الشخص ككل، فأنت تمثل شيئًا أكبر من مجرد الاستمرار الجسدي والنفسي، لأنك تمثل تاريخك المكاني-الزماني بأكمله.

الحياة ضمن أربعة أبعاد

كما هي حال دودة الرمل، لا يمكنك أن تحصل على دودة دون أجزاء، أو على أجزاء دون دودة تنتمي إليها، كما لا يمكن التفكير في الأشخاص دون كامل أجزائهم المكانية-الزمانية؛ أي عمرهم كديدان، فتلك الأجزاء التي تمتد بمرور الوقت، مثل الفترات الزمنية، هي التي يُعِين بعضها بعضًا على البقاء. أما الشخص فهو نتاجٌ لكل تلك العناصر، ويمثل الجزء المستمر المؤلَّف من كل تلك الأجزاء التي تأتي بالتسلسل، واحدة تلو الأخرى، عبر الزمن. وهنا تظهر شخصية جورني هاليك كمثال جيد، فهو عبارة عن دودة مكانية-زمانية تتسلل عبر المكان من خلال جيدي برايم، في كالادان وأراكيس وغيرهما من الكواكب، كما تتسلل عبر الزمان من خلال المدة الزمنية المخصصة لعمره البشري العادي. ويعبر الأفراد من شعب الدانكان على ذات لدودة أطول عمرًا بكثير، تتخللها فجوات بحيث تفارق آخرها في سلسلة الدانكان الحياة، أما خلايا النسخة الأصلية فهي الوحيدة التي تبقى خالدة.

من الصعب تخيُّل مدى أهمية الهوية في علاقة المرء مع المستقبل البعيد من ساحته الشخصية. فهنا علينا أن نفكر بليتو الثاني الذي عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة عام؛ إذ بحسب الرواية القائمة على الأبعاد الأربعة، يتوحد هذا الرجل في أي لحظة مع جزء منه؛ أي العنصر المستمر في الزمان والمكان ذاته، وذلك ليشكل نفسه التي يمتد عمرها لثلاثة آلاف وخمسمائة

نفس موديب غول بالصدفة - صفحة 140/ 224

عام. ولكن بالنسبة لكم ولنا فإن إسقاط كل ذلك على المستقبل صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلًا على المستوى النفسي. إذ قد نقلق حيال ما هو موجود لدينا في المكان والزمان ذاته، بشكل يدفع ذلك الشخص الآخر (أي ذاتنا المستقبلية) للقلق حيال أمور ستحدث بعد ألف عام. لقد أظهر ليتو ردة الفعل ذاتها تمامًا؛ إذ عندما كان يافعًا، كان بشريًا بشكلٍ كامل، وعندما تقدم في السن تحول إلى كائن هجين مؤلّف من إنسان ودودة رمل عملاقة.

قد نتوقع في بعض الأحيان أن ذواتنا في المستقبل البعيد ستصبح مختلفة للغاية؛ إذ يبدو أن ذواتنا المستقبلية ستختلف بما فيه الكفاية حتى تصبح علاقتنا بالهوية متوترة. إذ يبدو أنه عمليًا، لا يوجد شيء مهم فعلًا في البقاء العادي في الزمن الحاضر بالنسبة لذلك الشخص المستقبلي، على الرغم من وجود هوية زمانية-مكانية.

تبين أن البناء الحذر الذي قدمه هيربرت لشخصية ليتو على المستوى النفسي ما هو إلا بناء إرشادي، ففكرة الوقت والاستمرارية والمستقبل تختلف بشكل كبير؛ وذلك لأن عمره الزمني يمتد لفترة طويلة، إلا أن ذلك يحدث أيضًا لأنه يعود إلى الوراء كثيرًا؛ لأن لديه كل الذكريات والهويات التي كانت لدى من سبقوه من أسلافه، والآن يبدو أن وجود درجة قوية من الارتباط النفسي تفضي إلى علاقة توحد بين المراحل الزمنية المتعددة لليتو الثاني. وإن كان الأمر كذلك، إذن قد تبدو تلك العملية التي تقوم من خلالها بتتبع تلك العلاقة التي تحاول أن تحتفظ «بما يهم» بالنسبة لليتو بما أن ذاته تمثل نفسه، كما قد يخبرنا بارفيت، أنها مجرد استمرار نفسي لا أكثر.

وهنا يبين لنا هيربرت كيف يمكن لمفهوم الهوية الشخصية أن يتغير وفقًا للظروف الجسدية والنفسية، فليتو يعيش ويخلق لنفسه ظروفًا جسدية ونفسية خارقة؛ إذ لديه جسد إنسان اندمج بشكل مادي مع جماد، وهو على المستوى الجسدي عبارة عن خنفساء غير قابلة للتدمير تمامًا؛ إذ لديه عقل يستطيع الوصول إلى كل ذكريات أسلافه بالإضافة إلى الرؤى المبنية على علم الغيب التي ترى المستقبل البعيد. ومن خلال المعرفة الكاملة بالرؤية البعيدة، يصمم ليتو هوية بوسعها أن تحافظ على نفسها على مدار حياة طويلة بما يكفي لتحقيق هدفه المتمثل بالطريق الذهبي. وفي النهاية، يتحول إلى الشخص ذاته الذي قام بتحريك كل تلك الأحداث؛ أي الرجل الدودة عينه؛ أي الشخص ذاته. ثم إن الإمبراطور الرباني يمثل الدودة المفردة ذاتها المستمرة مكانيًا وزمانيًا والتي تمثل جورني؛ أي إنها أطول عمرًا بقدر ثلاثة آلاف وخمسمائة عام.

وشخصية دانكان إيداهو الأخير، التي تبقى مع سلسلتي هيربرت وأندرسون؛ أي في «صيادو الكثيب وديدان الكثيب الرملية»، فتغير هي أيضًا مفهومنا للهوية الشخصية؛ إذ

عام. ولكن بالنسبة لكم ولنا فإن إسقاط كل ذلك على المستقبل صعب للغاية، إن لم يكن مستحيلًا على المستوى النفسي. إذ قد نقلق حيال ما هو موجود لدينا في المكان والزمان ذاته، بشكل يدفع ذلك الشخص الآخر (أي ذاتنا المستقبلية) للقلق حيال أمور ستحدث بعد ألف عام. لقد أظهر ليتو ردة الفعل ذاتها تمامًا؛ إذ عندما كان يافعًا، كان بشريًا بشكلٍ كامل، وعندما تقدم في السن تحول إلى كائن هجين مؤلَّف من إنسان ودودة رمل عملاقة.

قد نتوقع في بعض الأحيان أن ذواتنا في المستقبل البعيد ستصبح مختلفة للغاية؛ إذ يبدو أن ذواتنا المستقبلية ستختلف بما فيه الكفاية حتى تصبح علاقتنا بالهوية متوترة. إذ يبدو أنه عمليًا، لا يوجد شيء مهم فعلًا في البقاء العادي في الزمن الحاضر بالنسبة لذلك الشخص المستقبلي، على الرغم من وجود هوية زمانية-مكانية.

تبين أن البناء الحذر الذي قدمه هيربرت لشخصية ليتو على المستوى النفسي ما هو إلا بناء إرشادي، ففكرة الوقت والاستمرارية والمستقبل تختلف بشكل كبير؛ وذلك لأن عمره الزمني يمتد لفترة طويلة، إلا أن ذلك يحدث أيضًا لأنه يعود إلى الوراء كثيرًا؛ لأن لديه كل الذكريات والهويات التي كانت لدى من سبقوه من أسلافه، والآن يبدو أن وجود درجة قوية من الارتباط النفسي تفضي إلى علاقة توحد بين المراحل الزمنية المتعددة لليتو الثاني. وإن كان الأمر كذلك، إذن قد تبدو تلك العملية التي تقوم من خلالها بتتبع تلك العلاقة التي تحاول أن تحتفظ «بما يهم» بالنسبة لليتو بما أن ذاته تمثل نفسه، كما قد يخبرنا بارفيت، أنها مجرد استمرار نفسي لا أكثر.

وهنا يبين لنا هيربرت كيف يمكن لمفهوم الهوية الشخصية أن يتغير وفقًا للظروف الجسدية والنفسية، فليتو يعيش ويخلق لنفسه ظروفًا جسدية ونفسية خارقة؛ إذ لديه جسد إنسان اندمج بشكل مادي مع جماد، وهو على المستوى الجسدي عبارة عن خنفساء غير قابلة للتدمير تمامًا؛ إذ لديه عقل يستطيع الوصول إلى كل ذكريات أسلافه بالإضافة إلى الرؤى المبنية على علم الغيب التي ترى المستقبل البعيد. ومن خلال المعرفة الكاملة بالرؤية البعيدة، يصمم ليتو هوية بوسعها أن تحافظ على نفسها على مدار حياة طويلة بما يكفي لتحقيق هدفه المتمثل بالطريق الذهبي. وفي النهاية، يتحول إلى الشخص ذاته الذي قام بتحريك كل تلك الأحداث؛ أي الرجل الدودة عينه؛ أي الشخص ذاته. ثم إن الإمبراطور الرباني يمثل الدودة المفردة ذاتها المستمرة مكانيًا وزمانيًا والتي تمثل جورني؛ أي إنها أطول عمرًا بقدر ثلاثة آلاف وخمسمائة عام.

وشخصية دانكان إيداهو الأخير، التي تبقى مع سلسلتي هيربرت وأندرسون؛ أي في «صيادو الكثيب وديدان الكثيب الرملية»، فتغير هي أيضًا مفهومنا للهوية الشخصية؛ إذ

عندما تدرك تلك الشخصية الذكريات التي تأتيها من الحيوات السابقة للغيلان، بالإضافة إلى ذكريات الدانكان الأصلي، تصبح متواصلة ومستمرة على المستوى النفسي بفضل كل ذلك، والمقصود بذلك حياته الحالية وحيواته السابقة. ولو قامت البيني تليلاكس بدمج مادي لخلاياه الأصلية مع آثار الذاكرة الخلوية لحيوات الغيلان المتسلسلة لديه التي عاشت لخدمة الإمبراطور الرباني، عندها سيكون الدانكان الأخير مستمرًا ومتواصلًا بشكله الجسدي على الأقل مع احتفاظه بكل الحيوات السابقة لديه (لم يتم الكشف عن هذه التقنية، وهذا لا يهم، ولكن تذكروا أنه بقدر ما تكون الطريقة التي نستخدمها موثوقة، فإن ذلك سيعمل على تطبيعها فقط).

ولكن بخلاف ليتو الثاني، تترك الدودة الزمانية-المكانية لدى دانكان بعض المسارات المتقطعة في البعد الرابع؛ أي الزمن؛ إذ هنالك فجواتٌ طويلة لا يوجد فيها إنسان على قيد الحياة يتواصل جسديًا مع الإنسان الأصلي، بل لا يوجد سوى خلايا محفوظة في مخابر التليلاكسو. وفي بعض الأحيان تبقى الخلايا الأصلية محفوظة كما تتجسد في دانكانٍ حيٍّ في ذات الوقت. وإذا كان الدانكان الأخير هو عبارة عن حالة دمج جسدية لخلايا دانكان إيداهو الأصلية مع خلايا مختارة يتم استخلاصها من كل فرد من أفراد الغيلان المتسلسلة أيضًا، عندها سيصبح الدانكان الأخير – على الأقل خلال لحظة معينة – الناجي بشكلٍ جزئي على المستوى الجسدي والنفسي من بين كل الغيلان المتسلسلة مجتمعة، وهنا يمثل دودة زمنية-مكانية تشتمل على أجزاء منقطة على مدار السنوات الخمسمائة الماضية. وعلى عكس سادة التليلاكسو تمامًا، عاش ذلك المخلوق حيواته الكثيرة المختلفة، كل واحدة بمعزل عن الأخرى. أي إن شخصية الدانكان الأخير تمثل كيانًا يندمج فيه رجال يشبهونها تمامًا، وقد تأثروا جميعًا بشخصية دانكان إيداهو الأصلية، سواء بشكل واعٍ أم غير واع؛ وذلك لأنه يمثل الوعي الجمعي، لكنه ضيق على المستوى النفسي.

الهوية الطويلة الأمد

يتطلب التسلسل القصصي الشامل لروايات الكثيب أن يمثل بعض الأشخاص الشخصية ذاتها، مثل بعض الشخصيات الأخرى، إذن فإن مفهوم الهوية الشخصية هو المهم بالنسبة لتفكير هيربرت، فقد يتيح المجال للفكرة التي ترى أنه يمكن لهوية المرء ألا تكون تحت سيطرته، كما أن جزءًا منها تكوَّن بفعل المعتقدات التي يحملها من حولنا.

يقدم لنا هيربرت نظرية متنوعة عن الهوية، تنتهي بالفكرة التي ترى أن الفكرة هي ما يهم حقًّا، وأننا نهتم بها كثيرًا. كما يبين لنا هيربرت أن الوضع النسبي لتناسخنا الجسدي يرسم الحدود الأساسية للأشخاص. ثم إن الفكرة تتغير باستمرار، ويعود أحد أسباب ذلك للطريقة

نفس موديب غول بالصدفة - صفحة 142/ 224

التي تدرك فيها المجتمعات، وتخلق من خلال تأويلها المشترك تعاريف جديدة أكثر انفتاحًا حول الشخص. وعند تجاوز الحدود النفسية والتقنية، بوسعنا أن نرسم حدودًا وعلاقاتٍ زمنية جديدة، وهنا يخبرنا هيربرت أنه إن كان بوسعنا تغيير ذواتنا وتحويلها إلى أي شيء نريده، عندها سيكون لدينا المفهوم ذاته عن الهوية، وبالاعتماد على التقانة الموجودة لدينا، بوسعنا أن نصممها بأكملها كما نحب.

يقدم لنا هيربرت مقاربات عديدة للذات الطويلة الأمد؛ إذ بناء على الفهم العادي للهوية، نفترض أنه في حال وجود علاقة بين هوياتنا واهتماماتنا العملية، فإنها لا بد وأن تكون في حالة تكافؤ. وبناء على النظرة الساذجة، نتوقع أن يظهر لنا خيط واحد، يمتد من المفهوم الدقيق المفرد للهوية الشخصية، ليفصل بين اهتماماتنا العملية الفردية ومصالحنا في المستقبل؛ إذ تعمل اهتماماتنا العملية خلال عمرنا العادي بشكل جيد بوجود ذلك الفهم الساذج للهوية لدينا، ولكن أيجب أن تكون الحالة كذلك؟ هنا يبين لنا هيربرت أن الاهتمامات العملية على نطاق واسع، بالنسبة لليتو ولسادة التليلاكسو وللدانكانات، قد تتصل بمعايير الهوية التي تتجاوز ما نفكر فيه الآن بوصفه عمرًا عاديًا. وفي حال صدق حدس هيربرت، وقد صدق بالفعل، عندها يمكن للمعايير الصحيحة للهوية أن تتغير بناء على جوانب معينة تتصل بنواحٍ فكرية وجسدية لوجودنا.

ثم إن المثال المحدد للغيلان في كون الكثيب ما هو إلا إحدى الطرق التي يبين لنا هيربرت من خلالها مدى صحة هذه الفكرة. إذ يصبح الدانكان الأخير على دراية بذوات الغيلان السابقة لديه ويتماهى معها كفرد واحد ويتوحد مع من صنعوا الهوية الوراثية والاجتماعية لديه. ولو قُيِّض لنا أن ندرك ذواتنا السابقة، عندها من المحتمل أن ننسجها ضمن ذواتنا الحالية، كما هي الحال مع الأمهات الموقرات في البيني جيسيرت، ومن ولدوا قبل أوانهم مثل علياء وغنيمة وليتو الثاني. وبالشكل ذاته يمكننا أن نسقط ذاتنا على المستقبل إن كان بوسعنا أن نتوقع بخيالنا بقاءنا على قيد الحياة، مهما كان عنصر الاستمرار في المستقبل بعيدًا؛ إذ كل ما نحتاجه هنا هو إمكانية العيش التي يتمتع بها عنصر الاستمرار في المستقبل البعيد، كما بوسعنا أن نفكر في ذاتنا المستقبلية بوصفها ذاتًا تندمج في ذاتنا الحالية.

هذا النوع من توقُّع البقاء على المدى البعيد منطقي، في حال كانت علاقة الهوية تعتمد على معيارٍ نفسي، بما أن الغيلان تتيح إمكانية عدم الوعي بهوية المرء لفترات طويلة. وقد أصبح الدانكان الأخير يدرك هويته الحقيقة بعد استحواذه على الذكريات السابقة للغيلان؛ إذ يشبه ذلك ما يفعله الشخص الذي يعاني من فقدان الذاكرة عندما يستعيد ذكرياته؛ أي إنه يستعيدها ضمن المجال الأوسع فقط. هذا ويسمح الغول لشخصيات هيربرت أن تخطط

نفس موديب غول بالصدفة - صفحة 143/ 224

لذواتها المستقبلية، كما فعل سادة التليلاكسو. ويمثل السيد سيتيل أحد الغيلان من سلسلة الغيلان الطويلة، فكل غول يتمتع بذكريات الغول الذي سبقه، بما أن الخلايا قد أُخذت وزُرعت قبل موته. وفي هذه الحالة، يمكن تطبيق المعيار البيولوجي للهوية الشخصية، بما أنه يمكن تخيل العديد من الغيلان للشخص الواحد (كما فعل برايان هيربرت وكيفين ج. أندرسون في سلاسل الروايات مع واف وهو أحد أسياد شعب التليلاكس). بيد أن احتمال الخلود لا يعني شيئًا ما لم تحمل النسخ الوراثية الأهمية الأخلاقية ذاتها التي كانت موجودة لدى النسخة الأصلية. كما أن الحقائق التي تدور حول حياة جسد شخص ما يمكن أن تتغير بحسب الطريقة التي يتم استيعابها بها، كما تتغير بحسب مجالها أيضًا.

على أرضية مكان يعرف باسم اللاغرفة والذي يعتمده شعب الهاركونين، وفي الوقت الذي استيقظت فيه الذكريات الأصلية داخل دانكان الأخير، فتقبلها كما لو كانت له، بكل ما فيها من آلام ومرارة وصدمات، لم يحدث شيء خارجٌ عن المألوف والعادي في كون الكثيب، كما لم يكن أي شيء استثنائيًا كما كانت قضية الهوية الشخصية، فقد شاهدناها قبل ذلك، واعتدنا عليها. إلا أن ممارسة الحب مع الأم الموقرة ميربيلا، وذكريات كل غول من غيلان دانكان اللواتي سبقنه وأصبحت جاهزة للتفعيل عبر هذا السيناريو، لتقتحم وعيه، موجة إثر موجة، تمثل ظهور نوع جديد من الأشخاص الذين يظهر معهم مفهوم جديد حول معنى أن تكون الشخص ذاته على مدار الزمن. ومفهوم الهوية هذا يتلاءم مع انقطاعات دامت لقرون من الزمان ضمن تاريخ الشخص ذاته، أو لعله يجدر بنا القول إنه تاريخ الأشخاص ذاتهم؛ أي تاريخ الدانكانات أنفسهم، الذين يمثلون الشخص نفسه.

تم الاكتشاف على يد:

سام غيتس-سكوفيل

ستيفاني سيملر

محو الإجابات النهائية من كون لانهائي

مذكرة الطائفة

إلى: أعضاء الطائفة

من: كريستيان لوند، أمين سر الطائفة

الرد: درس للإنسانية من ليتو الثاني

التاريخ: 14000 حسب التقويم الإغريقي

تلك مغالطة القوة؛ ففي النهاية لا تكون فعالة إلا في المطلق؛ أي في كون محدود. إلا أن الدرس الأساسي لكوننا النسبي هو أن الأشياء تتغير. لذا ينبغي لأي قوة أن تلتقي بقوة أكبر. وقد علَّم بول موديب هذا الدرس للسارداوكار في سهول أراكين، ولا يزال ينبغي على أحفاده أن يعلِّموا هذا الدرس لأنفسهم.

الواعظ في أراكين (من رواية أبناء الكثيب).

كثيب، على الرغم من أنها عبارة عن أوبرا تجري أحداثها في الفضاء وتمتد لتشمل كامل المجرة، فإنها تدور حول الإنسانية بأكملها؛ إذ لا يوجد فيها كائناتٌ فضائية، ولا آلهة، ولا كوارث طبيعية توجهنا أو تهددنا؛ أي لا يوجد إلا أنفسنا. يمكن القول إن هذا التركيز على الإنسانية هو ما يجعل ملحمة الكثيب عملًا أدبيًّا، بالرغم من أني لا أشك لحظة في ذلك، لكني أميل لأن أرى أن عمق التحليل الذي قدمه فرانك هيربرت عن الإنسانية ومشكلاتها هو ما يجعل الكثيب عملًا يقدم فلسفة أخلاقية وسياسية.

لا تعتمد رواية الكثيب على توظيف فكرة البطل-الأسطورة (بطريقة احترافية) فحسب، بل أيضًا تعكسها وتعلق عليها وتخبرنا بأمور مهمة حول الأبطال، ولا تشتمل فقط على حبكة (معقدة ببراعة) تدور حول المؤامرات والسياسة والقوة، بل تعلمنا فلسفة سياسية متكاملة. إذ تتألف لمسة العبقرية الحقيقية فيما قدمه فرانك هيربرت، ليس فقط في صناعته لبيئة وقصة قائمة على الخيال العلمي، بل أيضًا في دعوة الآخرين للتفكير في الإنسانية والتاريخ والدين والسياسة بوصفها أمورًا معقدة ويعتمد بعضها على بعض؛ أي إنها بيئات قائمة بذاتها.

يمكن للمرء أن يتعقب هذا النهج «البيئي» من خلال كامل رواية الكثيب ومعظم ما كتبه هيربرت، في الفلسفة السياسية التي تؤكد على أن التقانة والعلم والإجراءات الفردية التي تتخذ مع كل مشكلة بغيضة وتتمخض عن نتائج عكسية، أو بحسب ما ذكره عالم الكواكب الذي قام بالدفع نحو الكثير من التحولات لكوكب أراكيس: «لا يمكن أن تحل كارثة أسوأ على

شعبك من وقوعهم بيد بطل».

وبالنظر إلى تلك المواضيع الفلسفية، والمدارس الفكرية التي وردت في كتابات هيربرت، بوسعنا أن نصل إلى فهم أكمل حول الجهاد البتلياري ودوره في ملحمة الكثيب، فهو أيضًا يدور حول خيار أخلاقي وسياسي يسعى لرفض الجواب الثابت حول مشكلات البشرية. ففي رواية «إمبراطور الكثيب الرباني»، يخبرنا ليتو الثاني عن الدافع الذي يكمن وراء ذلك وهو: «لقد وضع البشر تلك الآلات ليغتصبوا إحساسنا بالجمال، وذاتنا الضرورية التي يمكننا عندما نخرج منها أن نقوم بأحكام حية. ولذلك تم تدمير تلك الآلات بصورة طبيعية». ثم إن ليتو الثاني ليس الشخصية الأبسط التي تشرِّف الأدب، وهنا أكرر أن فرانك هيربرت دفعنا للسعي حتى نفهم ما حدث تمامًا، وقد أصبح ذلك على المحك هنا. إلا أن الشيء الواضح هو أن الإنسانية «نصَّبت» الآلات في مجتمعنا فتأثرت بطريقة ما على مستوى عميق ومهم. ونظرًا لهذا التغير الحاصل في أنفسنا، تم تدمير تلك الآلات ومنعها في نهاية المطاف، حيث تم رفض حل آخر بسيط وأنيق وخاطئ.

يزخر كون الكثيب وكتابات هيربرت عمومًا بأمثلة حول فشل أمور مطلقة من هذا القبيل، فالحلول المؤكدة خاطئة تمامًا، مهما تحدَّث عنها دليل موظفي شركة هاي. كما أن الأنظمة الديمقراطية تصبح أنظمة طغيان، ما لم يتم تعطيلها بشكل مناسب. وحدهم من يتقبلون ظروفهم ويتكيفون معها، بدلًا من التشبث بمعايير كوكب الأرض حول العوالم الجديدة، لديهم فرصة للنجاة والبقاء في كون يتغير على الدوام.

بيد أن الحلول البسيطة، سواء أتمثلت بأبطال أو تقنيات أو إجابات سهلة، مغرية للغاية. إذ أبدت البشرية بشكل واضح على مدار التاريخ تفضيلها للقادة الذين يتمتعون بجاذبية والذين بوسعهم أن يشيروا إلى وجود جنة في السماء. كما أننا نتبنى تقنية جديدة بسرعة طالما كانت ملائمة، وننسى بالسرعة ذاتها كل الشكوك والعيوب، ونتقبل «الحقائق العلمية» بوصفها غطاءً مريحًا، في الوقت الذي يقوم فيه مفهوم العلم ذاته على تجريب الفرضيات، وعلى الانفتاح على العيوب في أعز نظرياتنا وأغلاها، وعلى القيام بتخمينات جديدة وجريئة.

يعلمنا هيربرت علم البيئة؛ أي تقبل القوى المحيطة بنا والتعامل معها، وتقبل فكرة أن العالم يغيرنا بالمقابل. لذا لا يمكن لما يكفي من القوة أو لأداة متكاملة واحدة أن تحل كل شيء، خاصة إن كانت تلك الأداة مجرد تفكير تقدمه آلة جامدة: «الكون الحقيقي يبعد دائمًا خطوة واحدة عن المنطق» (من رواية الكثيب).

بتلار وهايدغار

يمكن تحديد أحد الأمور التي استُلهم منها الجهاد البتلياري من اسمه؛ ففي القرن التاسع

نحو الإجابات النهائية من كون لانهائي - صفحة 146/ 224

عشر، نشر صموئيل بتلار كتاب إيرون الذي يدور حول بلدٍ خيالي قام قاطنوه «بحملة تنظيف» لكل الآلات. وبالرغم من أن عمليات التطهير تمت لأسباب مختلفة، فإن الإشارة إلى قرارٍ بشري يقضي بالتخلص من تقنيات معينة غيَّرت حياة الناس؛ كانت جلية وواضحة.

بيد أن هيربرت لم يقم باستعارة ذلك الدافع أو تلك الأفكار من صموئيل بتلار، بل قام باستعارة اسمه فقط. وكذلك لم يكن الجهاد مجرد وسيلة أدبية تعفي كاتبًا كسولًا من وجوب التعامل مع التطورات الحاسوبية المجهولة في المستقبل البعيد، بل إنها حددت مرحلة غريبة في المستقبل تشبه القرون الوسطى، بحيث أضحت كاميلوت تحس بمن يتغلغل في الأسرة المخلصة لقلعة كالادان، إلا أن تلك الفكرة فعلت ما هو أكثر من ذلك بكثير، حيث أنذرت فكرة الجهاد البتلياري بالمواضيع الفلسفية لرواية الكثيب، فهي تمثل حالة توقع قائم على تنبؤ لبعض المواضيع يمكن لمسلسلات بأكملها أن تعالجها. وتمامًا كما توحي عناوين الفصول في هذا الكتاب، وأحلام بول المبكرة، تلمح هذه الفكرة لما يمكن أن يصيب بول وما الذي يهدد البشرية بأسرها.

وخلال الامتحان الأول لبول مع غوم جبار، كان عليه أن يثبت للأم الموقرة غايوس هيلين موهيام أنه إنسان فعلًا، فتصله كما تصل للقارئ رؤى عبر الخبرات السياسية والتاريخية الواسعة للبيني جيسيرت. وتتحدث الأم الموقرة عن فكرة السماح للآلات بالتفكير بالنيابة عنا، وكيف أجبرت البشرية عند التخلص من تلك الركيزة على التحسن والتكيف. وهكذا يتوجه هيربرت بطريقة مميزة نحو تلك النقطة ويتخطى الحقائق الصعبة الباردة، حيث لا يقدم لنا درسًا تاريخيًّا حول الجهاد، باستثناء أنه كان عبارة عن اضطراب داخل المجتمع وثورة دينية وتغيرًا في المسار العام للإنسانية، بل لا يحدثنا عن أي سبب محدد أو عيب في تلك المنظومة، ولا حتى عن النكبة، ولهذا، بدلًا أن نفترض أن هيربرت كان شديد النسيان أو غامضًا، لا بد لنا أن نصل إلى نتيجة مفادها أن الجهاد بدأ من لا شيء؛ أي كان ردة فعل على التقانة التي تفكر بالنيابة عنا، وتوجَّه لمعالجة مشكلة مع تلك التقانة بحد ذاتها. ولفهم الجهاد بشكل مطلق، علينا أن ننظر إلى المشكلات الأوسع التي تقف خلفه، وكذلك المواضيع التي تناولها هيربرت معه، ألا وهي الإنسانية واستخدامها لتلك التقانة.

كان الفيلسوف الألماني مارتن هايدغار مصدر إلهام واضح بالنسبة لفرانك هيربرت؛ إذ في جوهرة هيربرت الصغيرة؛ أي رواية «حاجز سانتاروغا»، حمل البطل اسم أحد المصطلحات الأساسية التي جاء بها هايدغر أي «داسين». ومن خلال أفكاره حول الآلات والبشرية، تعكس أعمال هيربرت نهجًا يتصل بدراسة الظواهر إزاء التقانة؛ ذلك المجال الذي تحول هايدغر إلى رائد فيه. وقد عُرف عن هايدغر تأكيده على الفكرة القائلة إنه حتى تفهم شيئًا معينًا، عليك أن تنظر لا للأجزاء المكوِّنة له أو لصفاته المتأصلة فيه بل لما يعنيه بالنسبة لنا.

لنأخذ هنا خطافات الصانع في ثقافة الفريمين، فعندما يَشرع أي فريمين برحلة الحج، فإنه يرفع دودة وهو يستعد للعبور، دون أن يفكر في عدد الكيلوغرامات التي تزنها، أو بلونها أو بالأجزاء التي تتألف منها، بل إنه يحس بوزنها كامتداد لنفسه، ويدرك درجة انحنائها وطولها عبر الحدس، تمامًا كما يعرف عبر الحدس إلى أين ستمتد ذراعه. إذ إنها لا تمثل شيئًا بالنسبة له في تلك اللحظة، بل جزءًا من نشاط اجتماعي وبدني انغمس هو فيه. ولهذا لا يوجد أي فريمين يحمل معه خطاف الصانع، بل رجل خطاف فقط. وتلك العلاقات الفردية، التي تتمثل في مد الجسم والتحول إلى جزء من عملية ثقافية مقدسة، أمتع وأهم وأكثر أصالة من نوع المعدن الذي صُنع الخطاف منه.

قام هايدغر بتطبيق تلك الفكرة بعد إدراكها، والتي ترى أن الطريقة العلمية والمادية لفهم العالم تمثل مجرد منظور واحد بالنسبة للكثير من المصطلحات المجردة. فالتقانة لا تتعلق بنوع الأدوات التي نستخدمها أو بمستوى معين من تعقيد تلك الأدوات، بل إنها تمثل طريقة استخدامنا للأدوات وللعالم معها؛ وذلك لأن طريقة استخدامنا للأدوات وما ينتج عنها من نظرة تجاه العالم هي ما يغيرنا.

وبالنسبة لهيدغار، تكمن الميزة المهمة بالنسبة لمصيدة الريح في أنها ناتجة عن طريقة نعتمدها لرؤية العالم، بوصفه يمثل مخزونًا غير مكرر للطاقة والماء وغير ذلك من الموارد التي يتم تسخيرها ليصبح استخدامها أسهل. ليست مصيدة الريح بوصفها وسيلة هي ما يهم هنا، بل طريقة التفكير في العالم التي تدفعنا لبناء مصائد للريح. وبالطبع لن نخطئ إن قلنا إن العالم مؤلف من موارد مفيدة، إلا أن التفكير في العالم من خلال هذه المصطلحات فحسب يحجب حقيقته؛ ولهذا ينتقد هايدغار بشدة هذه الطريقة في «تأطير» العالم بوصفه يمثل عددًا من الأصول المفيدة؛ وذلك لأنها طريقة تفكير تعيسة لا روح فيها تجاه الكون الذي نعيش فيه وتجاه أبناء جلدتنا من بني البشر.

كان شعب الهاركونين وسائر الإمبراطورية ينظرون إلى شعب الفريمين على أنه مؤلَّف من أراذل الناس وقراصنة وسط الرمال، فهم يهدرون الموارد ويخلقون الأعداء عند محاولتهم إخضاعهم. بل كان البارون ينظر إلى جنوده على أنهم مجرد نحلات عاملات، أو مجرد طائرات مسيَّرة تنفذ ما يأمرها به. في حين احترم الدوق ليتو شعب الفريمين المجهول بالنسبة له بوصفه يمثل ثقافة منفصلة، وأرسل دانكان إيداهو ليعيش بينهم، وليصبح جزءًا من هذا الشعب في نهاية المطاف. أما المعرفة والصداقة التي تحققت فقد تحولت إلى «قوة صحراوية» ليستعين بها بول بشكل كامل فيما بعدُ.

إن اتبع المرء هيدغار وقراءة هيربرت له، عندها سيصبح الجهاد بمثابة تحذير أخلاقي

يأتي على شكل تقليد للنبوءات القديمة، مثل الخطيب القادم من الصحراء الذي يحذر أبناء ثقافته ليس عبر تنبؤ محدد، بل من خلال تحذير من المسار الحالي. يخبرنا الجهاد عن مخاطر الاعتماد على أداة وطريقة محددة للتفكير؛ إذ ثمة أمثلة معروفة مسبقًا حول ما تفعله العقلية التي تتعامل مع العالم بوصفه أصولًا وموجودات. وفي رواية الكثيب وما بعدها، يبين لنا هيربرت كلًا من العيب والحماقة المتأصلة في الاعتماد على حل ثابت في كون ديناميكي، إلى جانب تبيان التداعيات الشخصية والأخلاقية التي سوف تنتقل إلينا، مثل الموقف القائم على الحسابات تجاه العالم.

قوة الساراداوكار الغاشمة أم قدرة الفريمين على التكيف؟

ثمة انتقاد حاد للبراغماتية الباردة في رواية الكثيب، وهذا الانتقاد لا يستهدف فقط فكرة الاعتماد على «عقول الحواسيب» بل ينتقد أيضًا النظرة التقنية للعالم التي تعتبر العالم مجرد مخزون من الأشياء التي يجب تسخيرها حتى نستهلكها ونستغلها. وقد يظهر أوضح مثال على ذلك في الأساليب المختلفة التي تفكر من خلالها الجماعات التالية بكوكب أراكيس وتتعامل معه بموجبها:

إذ بالنسبة للنظرة البراغماتية للعالم التي يتبناها شعب الهاركونين، يمثل كوكب أراكيس كنزًا دفينًا، فعندما نلتقي بالبارون للمرة الأولى، نجده مسرورًا بجائزته وخطته، فيقدم أراكيس لفيد-روثا على أنه نموذج نفيس، يشبه الكراميل لكونه يشتمل على الثروات والألماس. كما أنه يعتز به بسبب الوظيفة التي يمارسها؛ وذلك لأنه عبارة عن مصيدة ستهزم الدوق ليتو. تلك هي النظرة التقنية للعالم التي حذر هيدغار منها، بالمختصر يمكن القول إن الكثيب في نظر شعب الهاركونين يمثل ما يمكن أن يفعله من أجلهم.

تتعارض رؤية شعب الفريمين التي اكتسبها بول بمرور الوقت مع نظرة الهاركونين بشدة؛ وذلك لأن الكثيب وطنهم، وهو يملي عليهم كل تفصيل في حياتهم، بدءًا من أسخف المهام اليومية وصولًا إلى الهدف الذي تسعى إليه ثقافتهم. وبالرغم من أنهم يسعون لتغيير الكوكب، فإن هذا التغيير ليس لمصلحة شخصية ولا حتى جمعية فقط، بل إن ذلك يمثل حلمًا دينيًا، وجزءًا من الدور المقدس للكوكب الذي يعتبرونه وطنًا لهم. وفي الوقت الذي يوظفون فيه العلم والتقانة لإحداث ذلك التغيير، نجد أن نهجهم بيئي وكلي؛ إذ ليست لديهم خطة بسيطة لقوة غاشمة تشمل المياه المستوردة، التي يدركون أنها لن تنفع بمفردها، بل يسعون لتغيير النظام البيئي بأكمله ولكن بصورة تدريجية وذلك حتى يشمل المياه الجارية على السطح. إذ يدرك شعب الفريمين أن الكوكب هو الذي يشكلهم، حتى عندما يقومون بتشكيله.

بيد أن الأمر ليس كذلك بالنسبة للبارون هاركونين، الذي يعتبر أراكيس مجرد فرصة

لمشروع تجاري. إذ بناء على نفقات وقدرها كذا وكذا، ومبلغ مالي للأضرار التي تصيب المعدات، ومع تقبل بعض المخاطر، تصبح عملية التنقيب عن التوابل عملية مربحة جدًّا. وبما أن شعب الهاركونين براغماتي بحق؛ لذا إن لم تكن هذه الصفقة مربحة، فسيعود للعمل في سوق فراء الحيتان. فهذا الكوكب بحد ذاته، مع الشعب الذي يقوم باستخراج التوابل، هم عبارة عن مخزون بالنسبة للنخبة في هذه الإمبراطورية. وهذه النظرة الأحادية الجانب التي حذر هايدغر منها، تعمي شعب الهاركونين وإمبراطوره عن الحقيقة التي تقول إن مصيرهم مرتبط بشكل وثيق بمصير كوكب أراكيس.

يتعزز انتصار بول عبر استيعاب تلك النقاط العمياء واستغلالها؛ إذ بعد أن يتعلم الساراوكار درسهم عن السلطة، يهددهم بوقف تدفق التوابل. وفي تلك الأمثلة، تتكشف لنا مخاطر الأدوات والنظرة البراغماتية للعالم التي استحدثوها. إذ لا يمكن لبِنَى السلطة في الكون؛ أي مؤسسات اللاندسراد والطائفة والبيني جيسيرت، أن تعمل بلا توابل، لكنها تفشل في رؤية هذا الاعتماد التكافلي المتبادل. وعندما يهدد بول بتدمير ذلك للأبد، تتحول كل قوتهم إلى هباء. إذ عندما نعتمد على أداة ما بشكل كامل، فإن من يتحكمون في تلك الأداة يتحكمون فينا أيضًا، وبذلك تصبح أراكيس حقيقة «في محور الكون».

كان ينبغي على الجهاد أن يُعلِّم المتآمرين في الإمبراطورية القديمة ما يلي: «عندما يحيل الرجال تفكيرهم إلى الآلات على أمل أن يقوم ذلك بتحريرهم، سيكتشفون أن هذا سيسمح لرجال آخرين باستعبادهم مع الآلات» (من رواية الكثيب). فإذا كانت هنالك ثقافة كاملة تقوم على شيء واحد، سواء أكان آلات أم توابل، عندها ستتجمع بِنَى السلطة (القابلة للفساد) حولها، وستسيطر على تلك الثقافة في نهاية الأمر. وكل ما فعله بول هو أنه جعل هذه الضوابط واضحة بصورة صارخة.

قبل ذلك بساعات، تحرر الساراوكار من أوهامهم تجاه القوة والسلطة؛ إذ كانوا يعتبرون أنفسهم أقوى قوة مقاتلة في الكون المعروف، ولكن بطبيعة الحال، سيقوم التطور التقني أو البشري بالوقوف في وجه ما تفتخر به من قوة في نهاية المطاف أو سيتمكن من تعطيلها أو هزيمتها بكل بساطة. إن أساس القتال جنبًا إلى جنب في الكون المعروف؛ أي درع الهولتزمان، لا يسمن ولا يغني من جوع في صحراء أراكيس؛ إذ يمكن لأحدهم أن يتمرس في فن الصوت بما يكفي لإسكات أكثر عضوة مهارة في البيني جيسيرت. أما مؤسسة كورينو فقد راهنت على إمبراطوريتها بفضل جنود الصدمة الأشداء، وبالتالي لم يعد لديها وسيلة للتعامل مع رعاع الفريمين الذين تم التغاضي عنهم في سهول أراكين. وهكذا بقدر ما تنجح أداة ما، تزيد ثقتك بها واعتمادك عليها؛ أي إنك تجهز نفسك لكارثة أكبر بكثير، ثم تأتي الصدمة دومًا، سواء عاجلًا أو آجلًا، وفي تلك اللحظة، سينجح من بوسعه أن يرتجل وأن

إن الثقة بالأدوات والأجهزة وبقدر معين من القوة أو الثروة التي تم جمعها وتكديسها، أو بخطة كبرى تعتمد على أدق النماذج، لا بد وأن تعمينا عن الحاجة للارتجال؛ إذ يغرينا خداع أنفسنا أننا في أمان، وأن الطريق أمامنا اليوم معروف ومشروع، وأنه لا يمكن لشيء أن يباغتنا على حين غرة. وهكذا نميل لنسيان أهم نقاط القوة والامتيازات لدى البشر، والمقصود بذلك أننا لسنا مجرد مصدر آخر أو مجرد آلات أو مستودع للقوة الفكرية، بل بوسعنا القيام باختيارات جديدة والتكيف مع الظروف.

عندما داهم العجز بول وجيسيكا في الصحراء، ودفنت معدَّاتهما في وهدة من الرمال، لم ينقذهما سوى تفكيرهما خارج الصندوق. إذ لم يرد شيء في دليل البوصلة حول قاعدة القوة الحمضية، وكيف بوسعها أن تتفاعل مع الخليط لتكوِّن رغوة من شأنها تحقيق حالة استقرار بالنسبة لعملية حفر صغيرة تقوم على إما الحياة أو الموت. وبذلك لن يفكر صاحب العقل المتشدد أو أي آلة في الأنشطة والاحتمالات من داخل المشهد، بل إن العقلية المنفتحة والمرنة هي التي أنقذت حياة بول وجيسيكا.

وكما لخص ليتو الثاني الوضع، فإن مشكلة الجهاد التي تم حلها كانت تتصل بـ«الموقف القائم على الآلة بقدر ما تعتمد على الآلات» (من رواية إمبراطور الكثيب الرباني). إذ عندما يُنظر إلى كل شيء بما فيهم البشر على أنهم مجرد أدوات أو أجزاء ميكانيكية يمكن تحويلها لمصلحتك، عندها لا بد لك أن تتغاضى عن بعض جوانب الأمر المطروح. إذ تبين العلاقات مع بدائل الحاسوب؛ أي المينتات، إلى أي مدى تُحترم الروح الكامنة وراء محظورات الجهاد بين العديد من الفرقاء. فقد وثقت مؤسسة أتريديس بالأصدقاء والحلفاء الذين هم من المينتات أيضًا. أما البارون هاركونين فقد اعتبر المينتات لديه مجرد أداة، أو مسيرة أخرى بوسعه أن يستبدلها إن أصبحت خطيرة أو بلا فائدة، كما لم يعجبه عندما لم يلتزم بيتير بمهمته الحالية.

ولهذا لا عجب أن يستحوذ البارون على علياء في رواية «أبناء الكثيب»؛ وذلك لأنها بدأت تفكر بالطريقة نفسها، وعندما طُلب من إيداهو معرفة ما إذا كانت إيرولان خائنة أم لا، قاده فضوله وولاؤه، ليس فقط لعلياء بل لمؤسسة الأتريديس، نحو التشكيك في قضايا أكبر بكثير، فانزعجت علياء، كما البارون، من عدم تركيزه على الهدف، «لكن علياء باتت تتوق اليوم لآلة مستكينة، فهما لا يريدان أن يعانيا بسبب قصور إيداهو ومحدوديته، ولكنك لا تستطيع أن تخون آلة». وبالطبع، كانت علياء على حق؛ وذلك لأن الآلة ستفعل ما يُطلب منها مهما كان، إلا أن ما تصفه بالقصور يعبر عن إنسانية زوجها؛ أي فضوله وأخلاقه الشخصية.

تكمن القوة الحقيقية للمينتات في أن قوتهم في مجال الحساب مستمدة دومًا من بشر؛ أي إنها ليست مجرد أداة؛ وذلك لأن المينتات يعرف نقاط قصوره، ولن يُغريه الاعتقاد بأن

أمامه طريقًا يوصله إلى الحقيقة المطلقة أو للإجابة على كل الأسئلة. قد يكون من الصعب التعامل مع البشر في بعض الأحيان، إلا أن التعاون والعمل مع شخصٍ ما له فوائده مقارنة بمجرد الاستعانة بمصدر أو أداة. إذ بوسع إنسان آخر أن يساعدك على الارتجال، وأن يخبرك متى تصبح فرضياتك مشكلة حقيقية، وأن يمنعك عن المضي في الطريق الخاطئ، وذلك عندما لا تستطيع أن ترى أي طريق تسير فيه. يواصل إيداهو خدمته لمؤسسة أتريديس، حتى عندما لا تخدم علياء سوى نفسها؛ إذ بوسعه أن يختار حتى يصب اهتمامه في الموضع الذي يحتاجه، وليس في المواضع التي يشير إليها الآخرون. وهذه ليست بنقطة ضعف، بل نقطة قوة.

عندما يتحول التكيف الكامل إلى مصيدة

يحذر ليتو الثاني من الموقف الذي يُتخذ بناء على الآلة لأنه خطير ليس فقط من حيث المعنى المباشر والمقصود به أنه يقودك نحو الضياع بسهولة، أو عدم توضيحه لافتراضات وحلول مبتكرة أمامك، بل أيضًا لأنه يضر بأخلاقنا وتقريرنا لمصيرنا، سواء أكنا أفرادًا أم أجناسًا من المخلوقات. وتكمن المشكلة هنا مجددًا في طريقة التفكير بأكملها والتي تعتمد على الاحتكام للأدوات والاستعانة بها. إذ عندما تعتاد على التعامل مع الآلات من خلال سلوك محدد لا من حيث الأهمية الأخلاقية، يصبح من السهل عليك أن ترى في حلفائك وخصومك السياسيين وبِنَى القوى مجرد أجزاء يمكن التلاعب بها ضمن لعبةٍ كبرى. وهنا يبدو أن البارون هاركونين استمتع بذلك، كما فعلت علياء عندما وقعت تحت سيطرته، وذلك عندما رغبت في آلة بدلًا من نصيحة البشر، لأنها تمنت الحصول على قوة مطلقة بالحساب، وكانت تريد إجابات واضحة دون تدخل البشر وعواطفهم، وهكذا تم اختصار الحساب والنصيحة في أداة أخرى، فتمنت نتيجة لذلك أن يُختزل الذكاء في مصدر معين.

هنا نرى التداعيات الأخلاقية لتحذير هيدغار، فالتقانة تدفعك للتفكير في البشر على أنهم أقل بكثير مما هم عليه فعلًا، حيث يتم احتساب قيمتهم بناء على قيمتهم لديك وحسب، وهذا ليس كل شيء؛ إذ حتى حياتهم الداخلية التي تقوم على الأفكار والعواطف تُختزل إلى ما بوسع منطقهم أن يفعله لصالحك، وبذلك ينظر إليهم بوصفهم شكلًا آخر من أشكال التقانة والآلات؛ إذ عندما تعطي المينتات مدخلات صحيحة، فسيقدم إجابات مفيدة، تمامًا كما تفعل الآلات القديمة.

في كتاب «بدوني أنت لا شيء» وهو كتاب غير خيالي حول الثورة الحقيقية للحواسيب التي تدور حوله، لم يقتنع هيربرت بالفرضية التي ترى أن: «وظائف عقلك يمكن أن تُختزل إلى قواعد ميكانيكية» (ص 33). فيما تأثر فلاسفة آخرون من أمثال هوبيرت دريفوس

بهيدغار فرأوا أن الحواسيب والنظم الرسمية الأخرى التي تعتمد على الرموز لا يمكن أن تقلد طريقتنا في التفكير وتحليل الأمور؛ إذ برأيهم لا يمكن لأي قدر من التلاعب الرمزي أن يعوِّض عن خبرة الحياة، بل بوسعه فقط أن يقدم إجابة بوسعها أن تقلد تفكير البشر، وحتى لو فاق ذلك التقليد إمكانياتنا، فهل سنرغب أن تستولي تلك الآلات على تفكيرنا؟ إذ حتى أكثر خطوة محسوبة بشكل دقيق يمكن أن تكون خاطئة، كما تبين رواية الكثيب، وكما ينذر الجهاد البتلياري.

كانت إيرولان أول من واجه علياء بهذا الخطر المتمثل في الفساد الأخلاقي، حيث قالت: «إننا نقع على قراراتنا في هذه الأيام كما نقع على أعدائنا، أو، مهلًا مهلًا! أي شيء يمثل شكلاً من أشكال الاستسلام، ثم إننا نسمح لقرارات الآخرين أن تدفعنا للتحرك، فهل نسينا أننا من جعل هذا التيار يتدفق؟» (من رواية أبناء الكثيب). لقد رفضت علياء ذلك؛ كونها تريد أن تتمسك بالسلطة فقط؛ ولهذا كانت على استعداد للقيام بكل ما يلزم لتحقيق تلك الغاية. إلا أن انتقاد إيرولان كان حادًّا؛ إذ عند اختيار لعب لعبة السياسة الكبرى فحسب، لم تقم علياء باختيارٍ فعلي، حيث تم تجاهل دوافعها ومعتقداتها الشخصية، إن وجدت، على اعتبار أنها غير عملية، كما كانت الضرورات السياسية تسيطر عليها كثيرًا، لدرجة تدفع المرء للتساؤل: ما الذي اختارت علياء أن تفعله بوصفها شخصًا؟ وهل هنالك أي فعل يعود إليها حقًّا، دون أن تمليه الظروف عليها؟

إن هذه الورطة بعينها هي التي رد عليها الجهاد بقوة، وذلك على مستوى أنواع وأجناس المخلوقات. إذ حتى لو كانت الحواسيب تتوصل إلى الجواب الصحيح على الدوام، فمن سنكون إن سمحنا لها بالسيطرة على حياتنا والتحكم فيها؟ إذن، عندما يُعطى جواب على كل سؤال، تصبح الحياة تسير تبعًا لإرشادات المرشد الآلي، كما كانت حياة بول في «مسيح الكثيب». وهكذا ظهر التحذير من الثورة الكبرى حول التخلي عن «الذات» بعد القيام بعملية ركوب الموجة وظهور الأعمال البطولية في رواية الكثيب. وعندما تباطأ الحدث الدرامي حد التوقف، وفاز من فاز بالعرش، اضطررنا لمواجهة الحقائق؛ إذ تبين أن الجهاد الذي جاء به بول ما هو إلا عملية استئثار دموية، كما أن شعب الفريمين فاسد من الداخل، وبول في أحسن الأحوال بطل لديه عيوبه، فاستغلاله لشعب الفريمين حط من قدرهم، واختزلهم في أداة، ومرغ أنوفهم بالتراب في نهاية المطاف. بل حتى شقيقه صاحب الأجنحة ستيلغار أصبح متعصبًا: «كانت عملية للتقليل من شأن الرجل». وقد سبق لبول أن فكر بذلك في الفصل الأخير من الكثيب عندما قال: «رأيت صديقًا تحوَّل إلى عابد».

والأهم من ذلك ربما، هو أن نعرف أن السلاح الأمضى بيد بول؛ أي علم الغيب، لم يكن إلا مصيدة ولعنة.

محو الإعلانات النهائية من كون لانهائي - صفحة 153/ 224

تصبح رؤية المستقبل بكل وضوح مسألة عملية عندما تخوض حربًا عليك أن تربحها وأن تتفوق فيها بالمناورة والبراعة على خصومك السياسيين. ولهذا اختار بول أفضل حركة وذلك عبر رؤية النتيجة التي ستنتهي عليها الأمور، فصار يعطي نصائح متميزة ويقدم على أفعال متميزة في كل مرة. وهنا يبدو أن بول قد تغلب على المنظومة، فوجد «أداة تقنية» فعلا تتيح له أن يفوز في كل مرة، وتضمن له عدم ظهور أي مفاجأة مزعجة.

ولكن من الواضح أنه كان عليه أن «يبقى على المسار»، بمجرد أن يجد الطريق إلى أفضل نتيجة، حيث يتعين عليه أن يواصل المسير عليه. وبالنظر إلى كيف يمكن لاختيار الكلمات أو لأي انحراف بسيط عن الفعل أن يتسببا في وقوع عواقب كبيرة وأنت تسير على الطريق، لا يمكن لبول أن ينعم بالأمان إلا عندما يلتزم بالرؤيا بشدة. وبما أنه أصبح مدمنًا ومقاومًا للتوابل عينها؛ لذا فإنه يحتاج لدقة أكبر تأتيه عبر رؤاه حتى يبقى على الطريق. فقد أصبح مدمنًا على الأداة ذاتها التي استفاد منها لتقويض السلالة السابقة. ومن جديد، يتكشف هنا وهم الأداة المحايدة التي يمكن استخدامها كأصل لا يسبب أي مشكلة.

ثمة تكاليف لطريقة التفكير والتصرف التقنية، وهذه التكاليف هي ذاتها التي تخفيها النظرة العالمية عنك، فعلم الغيب الذي يتمتع به بول لم يساعده على تحقيق أهدافه السياسية، بل كان أداة للتنبؤ تسببت في قتله بحسب رأي برونسو من إكس؛ إذ ورد في الرواية: «قد يكون هنالك جواب وحيد دقيق بشكل كامل، وتوقع كلي مميت» (من رواية مسيح الكثيب).

لقد قتل هذا المؤرخ نفسه على يد شعب الكيزاراتي وذلك عندما رأى أن بول فقد إنسانيته، مع أنه كان من الواضح أن رؤاه كلفته كل ذلك؛ إذ بالكاد لاحظ أنه أصبح أعمى؛ وذلك لأنه سبق أن رأى كل شيء حوله. ثم إنه أصبح باردًا وعبوسًا، وكأن الحياة أصبحت مجرد حلم مكرر بالنسبة له، كما أصبحت خطواته ثقيلة وهو يسير ليرى ابنته، بما أنه كان يعرف ما لدى الأطباء من أخبار عن تشاني. وفي نهاية الأمر، سيطلق ليتو الثاني على كل ذلك اسم: «الملل المقدس»؛ إذ ما الجميل في حياة تخلو من المفاجآت ومن «الأحكام الحية» التي بوسع المرء أن يقوم بها؟

لقد أضحى بول أسيرًا لعملية الإرشاد الآلية بالطريقة ذاتها التي يمكن للمرء أن يتخيل عليها حال من عاشوا في زمن الجهاد. إذ حتى لو كانت الآلات القديمة جيدة ومتكاملة، لدرجة أنها أصبحت تعمل كمستشار منطقي، فإنها لا تفضي لأي احترام حقيقي لحرية البشر، تمامًا كما فعل علم الغيب الذي يتمتع به بول.

وبطريقة ما، تصبح هذه مشكلة التأقلم الكامل، فقد تكيف بول بشكل كامل مع الكون

بأسره، حيث أصبح قادرًا على القيام بما يتطلب الأمر تمامًا ليساعد نفسه بأفضل شكل ممكن عند أي منعطف. كما كانت ردود فعله مناسبة للظروف، ولكنه عبر قيامه بذلك، أصبح واقعًا تحت سيطرة الظروف بشكل كامل. فالنصيحة الكاملة لا تترك لك خيارات حقيقية. ومع الجهاد، قررت البشرية أن تقرير المصير والقيم أهم من العيش دون بذل أي جهد.

امتحان البشرية

إن الإغراء المتمثل في ظهور تقنية مستقبلية ستنقذنا، أو مسيح ليقودنا إلى الجنة، أو بأداة متكاملة ستجعل من حياتنا سهلة، شديد لدرجة لا يمكن لأحد أن ينكرها. فقد كان أول شيء بدأت علياء بتمنيه، وهي في طريقها نحو الجنون، كان علم الغيب ذاته بكامل قواه وقدراته الذي كان شقيقها يتمتع به. ولكن عندما نفكر مليًا في هذا الأمر، أو نراه كما عرض في رواية الكثيب، نكتشف أن تداعيات تلك «الأداة» التي يمكنها أن توجه حياتك بأكملها، مرعبة بالفعل. تخيل هاتفك النقال يقدم لك النصائح في كل الأوقات دون أي خطأ، وكم سيكون رائعًا كل شيء تفعله عندئذٍ، حيث سيساعدك في اختيار أي وظيفة يناسبك أن تعمل بها، وأي فتاة ستدعوها للخروج ومن ثم ستتزوجها، ومتى تقطع الشارع، دون أن تدري لماذا كان هذا الخيار بالذات صائبًا أو عمليًا. وعندما تتمدد في فراش الموت، بعد اتباعك لكل نصيحة من تلك النصائح، بلا أي قرار منك، عندها ستمتد يدك لتحاول تحطيم «عقل الحاسوب» الذي عاش حياتك بدلًا عنك، وتلك اليد تمثل الجهاد البتلياري داخلك.

إن السنوات الطويلة التي أمضاها بول وهو إمبراطور، والتي كان يعرف كل ثانية فيها قبل وقوعها، مرعبة هي أيضًا. وفي نهاية المطاف، يخلص ابنه البشرية ويحررها من كل علم الغيب وذلك عبر تربية بشر مخفيين حتى بعيدًا عن ناظريه. ولا غرو في أن هذا التشابه بين المسير على طريق واحد قائم على علم الغيب، أو على طريق خلقته الحواسيب، يراه ليتو الثاني بوضوح أكبر من خلال ذاكرته الأخرى، حيث يقول: «ينبغي على البشر أن يضعوا قواعدهم، لأنها شيء لا يمكن للآلات أن تقوم به». وهو يهدف بذلك إلى تحرير البشرية من أي مركزية أو من أي أداة لعلم الغيب، لأنها قوية بما يكفي لربط البشر بعضهم ببعض بحيث يشتركون في المصير ذاته، تمامًا كما هي الحال مع الاعتماد على التوابل وكيف أدى ذلك إلى ربط الإمبراطورية القديمة بعضها ببعض في محور أراكيس.

لقد تم القيام بكل ذلك لضمان بقائنا وتقريرنا لمصيرنا الذي بدونه لن نكون بشرًا حقيقيين؛ أي لن نكون أفرادًا ولا حتى أجناسًا. وهنا يقلب هيربرت أسطورة البطل رأسًا على عقب من جديد، حيث يصبح الطاغية العظيم، بشكله الذي يشبه شكل دودة متوحشة، المنقذ الحقيقي للبشرية. وعندما تبدأ قصة صعود الأتريديس، يخضع بول لاختبار لبشريته الحقيقية، وفي

النهاية يثبت ليتو الثاني لنفسه أنه على استعداد للمعاناة من أجل البشرية بأكملها، فيبقى في شرك علم الغيب، عله يحطم تلك الأداة المريعة، فيبعد خطرها على أبناء جنسه. وبحركة مماثلة، يقلب فرانك هيربرت بكل براعة الصيغة المبتذلة المكررة للخيال العلمي حول وجود «ماكغوفين اللطيف» (وهي أي أداة أو جهاز يظهر في فيلم أو رواية ويعمل عمل محرض للوصول إلى الحبكة)، الذي يقود الحبكة وينقذ الوضع، فيجعل من وجود تلك الأداة بحد ذاته خطرًا!

ثم يأتي الجهاد البتلياري كتحذير، وبحسب التراجيديا الإغريقية التقليدية، يتبين أن هذا التحذير لم ينتبه له أي من شخصيات الكثيب؛ لذا يجب عليهم أن يعرفوا به من جديد عبر علم الغيب الذي يمثل دور الأداة الخطيرة. ثم إن التحذير السياسي الذي ابتدعه هيربرت ليس ضد الحلول التي هي بسيطة للغاية، ولكنه ضد كل الحلول الفردية؛ أي إن أيَّ خطة أحادية المسار هي رهيبة على الأرجح. وهنا لا تستدعي الحاجة للدعوة لحمل السلاح كما فعل لوديتي؛ أي إنه يجب علينا أن نخلص أنفسنا من كل تلك الآلات المفكرة قبل أن تغري أحفادنا بملل انعدام التفكير والجمود، ولا يمثل ذلك دعوة لعدم التفكير في المستقبل والتخطيط للغد.

في كتابه «بدوني أنت لا شيء»، لا ينتقد هيربرت الحواسيب: «إن أدواتنا ليست على خطأ، بل طريقة استخدامنا لتلك الأدوات والمعتقدات التي استثمرناها فيها هي الخطأ» (ص 73). بل يحاول الكتاب عوضًا عن ذلك رفع الوعي حول الحواسيب وتحذيرنا من الاختيارات التي قمنا بها حتى نستخدمها، مع التأكيد على وجوب التحكم فيها من قبل الأفراد وليس من قبل نخبة صاحبة سلطة تحتكر الفهم والسلطة ومفتاح إيقاف حواسيبنا والمحتوى الذي صنعناه. تدفعنا رواية الكثيب للتفكير في المخزون الذي نودعه في أي حل تقني، كما تدفعنا للتساؤل متى سيبدأ شيء كالحاسوب بعيش الحياة نيابة عنا: متى ستُرسل رسائلنا؟ متى ستُحل مسائل الجبر؟ كيف ستنُظم جداولنا؟ وهل ستخبرنا أي من معارفنا هو الأقرب حتى نتناول معه قدحًا من البيرة، ومتى يحين الوقت المناسب للتواصل مجددًا مع شخص معين؟

يتمثل الخطر الأخلاقي لآلات التفكير في إمكانية تركنا لها لتستولي على التفكير البشري لدينا، سواء في حياتنا، وبوصفنا نمثل ثقافة أو جنسًا من أجناس المخلوقات. وحتى لو كانت النصيحة محقة تمامًا، ثمة نوع من النبالة في قيامنا بأحكامنا أنفسنا؛ ولهذا يجب علينا ألا نتخلى عن ذلك؛ وذلك لأن حياة البشر «ليست مشكلة بحاجة إلى حل، بل إنها واقع يعاش» (من رواية أبناء الكثيب).

تتفق الفلسفة القائمة على الظواهر مع ذلك وتؤكد على أن طريقتنا البشرية في الوجود

والتفكير شيء مختلف تمامًا عن أي تقليد آلي؛ أي لا يمكن استبدال إحداهما بالأخرى دون خسارة شيء مما يجعلنا بشرًا خلال تلك العملية. إن الاستخدام الأعمى لصيغة اقتصادية، أو لمنظومة خبرة حاسوبية، أو استعانتك بزعيم ديني تثق به ضمنيًا، يعني أنك قمت بإحالة بعض المهام الفكرية لطرف خارج نفسك؛ أي إنك عندما تقوم بتكليف شخص أو شيء بما يكفي من التفكير، فإنك تُفرغ نفسك من الداخل. وأي ثقافة تتبع زعيمًا بلا تفكير أو سؤال، أو أي أداة للتخطيط، أو أي علم أو تقانة، فهي بذلك تتنازل عن جزء أساسي من تقريرها لمصيرها البشري، بصرف النظر عن مدى الحرية التي يتمتع بها نظامها السياسي.

ذكريات مصنوعة من التوابل

من: دار-إس-بالات 2

المناسبة والتاريخ: مجهولان

أحدهم حررها من القلق وطلب منها أن تجلس، فرأت الأم الموقرة العجوز رامالو وقد أتوا بها لتجلس بجانبها على الحافة المغطاة بسجادة. لمست يدٌ جافة رقبتها.

فكانت ذرة حركية نفسية أخرى داخل وعيها! حاولت جيسيكا أن تردها، إلا أن الذرة انسلّت لتصبح أقرب فأقرب ...

ثم تلامستا!

كان ذلك أشبه بحالة تجانس مطلق، بالتحول إلى شخصين في آنٍ واحد. إذ لم يكن ذلك تخاطرًا، بل وعيًا مشتركًا.

مع الأم الموقرة العجوز!

من رواية الكثيب

السيدة جيسيكا شخصية غريبة؛ إذ عبر شرب آخر نفس سائل من دودة رمل غارقة، امتصت الأفكار الحية لأسلافها، فأصبحت تُمثل اليوم آخر صلة وصل في سلسلة مقطوعة للوعي تعود لأول صيادينا، واسمها راكيللا بيرتو-أنيرول. وبوصفها أمًا موقرة بدأت أعمالها منذ مدة قريبة، بإمكان جيسيكا أن تتذكر الأفكار التي تعود لكل هؤلاء الذين عانوا من عذاب التوابل. ثم إن ابنتها التي لم تُولد بعدُ؛ أي علياء صاحبة الرجس، فتشاركها بهذه المتعة المريبة؛ لأن لديها الذكريات ذاتها هي أيضًا والتي تصلها من أمها وترجع بها إلى أول أم موقرة.

جميعنا يدرك أن جيسيكا تأثرت بمحنتها كثيرًا، إلا أن بعض العزاء يمكن أن يأتي من معرفة أن فيلسوفًا بريطانيًا اسمه جون لوك قد حاول، قبل ألف سنة، فهم وضعها؛ إذ في: مقالة حول فهم الإنسان، يحاول لوك أن يفهم كيف تساهم الذكريات والوعي في تشكيل الشخص تمامًا. وبحسب نظريته: «الهوية الشخصية»، لا بد للسيدة جيسيكا أن تكون شخصية غريبة للغاية، وبفضل شاي هولود سندرك سبب ذلك.

من هو هذا المودیب؟

من هو الزعيم الديني الجديد في كوكب أراكيس؟ لقد قلّب ثوفير هاوات هذا السؤال ذاته

من كل جوانبه، بما أنه مُستعبد من قبل بارونية الهاركونين. فقد زادت هجمات الفريمين على أراكيس، حيث احتشدوا بصيحة من «موديب»، ولم يستطع ثوفير أن يخمن ولا حتى تجرأ على أن يحلم أن يقوم بول أتريديس، الذي كان أكثر طلابه نجابة، «بصناعة طبول من جلود أعدائه» (حسب زعمه)، وأن يتخذ لنفسه اسم «موديب». وبذلك أصبح مسيح الفريمين هو بول أتريديس نفسه. أي إن بول أتريديس هو نفسه موديب (وعلاقة الهوية هذه لم تُثر غضب البارون العجوز عندما اكتشف أمرها).

كما أن علاقات الهوية تبقى صامدة بمرور الزمن. فبول موديب الأكبر، الذي «حتى اسمه موديب هو عبارة عن كلمة قاتلة» هو نفسه الدوق أتريديس الأصغر غير الموجود الذي عاش على كوكب كالادان قبل سنين. ولكن حتى الطفل بول لا يشبه الإمبراطور بول الذي سيظهر بعد ذلك في شيء، ولذلك يدفعنا حدسنا للتفكير أنه الشخص ذاته. وعندما تحدث لوك عن «الهوية الشخصية» كان يبحث في الأسباب الدقيقة التي أدت لذلك؛ أي في نوع الشروط التي يجب على المرء أن يحققها حتى يظل الشخص ذاته. عمومًا، نطلق على تلك الشروط اسم: «شروط الاستمرارية» لأنها تحدد ما يحتاج إليه المرء ليبقى على مدار الزمن.

اعتقد لوك بما لديه من عقل وحكمة أن شروط الاستمرارية تختلف باختلاف الأشياء؛ إذ يمكن لبعض الأمور أن تبقى على حالها بمرور الزمن فقط عبر احتفاظها بالذرّات ذاتها، وهنا بوسعنا أن نفكر بخاتم الأتريديس، فقد بقي خاتم ليتو على حاله عندما وصل إلى بول بما أنه مصنوع من المادة ذاتها. إلا أن ذلك لا ينطبق على كل حالات الهوية. وهنا لا بد من التفكير فيما قاله لوك حول المخلوقات الحية (مقتبس من مقالته):

في حالة المخلوقات الحية، تعتمد هويتها ليس على كتلة من الجزيئات ذاتها، بل على شيء آخر. وذلك لأن تغير أجزاء كبيرة من المادة داخل تلك المخلوقات لا يغير هويتها، فالدودة الصغيرة التي تكبر لتصبح شاي-هولود، تكون مكتنزة أحيانًا، وأحيانًا أخرى نحيلة، لكنها تبقى الدودة ذاتها طيلة الوقت.

هذا صحيح، ولكن ما الشيء الذي يجعل منها الدودة ذاتها؟ إذ يمكن أن تفقد مادتها (وذلك عندما تصنع الخليط)، كما يمكن أن تكسب مادة أكثر (عبر تناولها لعوالق الرمل)؛ أي إن الكتلة ليست مهمة. يرى لوك أن الحيوان هو عبارة عن مجموعة من الأعضاء المرتبطة بأداء وظائف معينة، مثل التنفس والهضم. وما دام بقي ذلك المتعضي يعمل؛ أي يتنفس ويضخ الدم ...إلخ، فسيبقى الحيوان على حاله. ويصف لوك استمرار تلك الوظائف بالـ«مشاركة بحياة واحدة مشتركة»، والتي تشتمل على ظرف الاستمرارية الحيوانية.

وبالصدفة، لم يخطر ببال لوك أن الشيء ذاته يصح حول استمرارية الإنسان الآلي؛ إذ على

(كريات مصنوعة من التوائل - صفحة 159/ 224

ما يبدو، لم تكن لديه فكرة حول مدى التعقيد المذهل الذي سيصل إليه علم الروبوتات (فقد كان يرتعب من الساحرات المخادعات). وإلى حد ما لم يكن الأمر مهمًّا، بما أن الحواسيب في الوقت الذي وصل فيه شعب الأتريديس إلى أراكيس، أصبحت محظورة لعشرة آلاف سنة. ولكن بالنسبة للوك عمومًا، تختلف الآلات عن الحيوانات من ناحية واحدة فقط، وهي أنها بحاجة إلى تحفيز «من الخارج»؛ أي يجب أن نقوم نحن بتشغيلها وبرمجتها. أما حياة الحيوان، فمن المفترض أن حالة التحفيز لديها تأتي «من الداخل».

نحن البيني جيسيرت نغربل الناس لنكتشف البشر

إذن فإن الخواتم والديدان والروبوتات تبدو مباشرة وبسيطة (إلى حد ما)، ولكن ماذا عن البشر؟ وماذا عن الأشخاص؟ إذ بالرغم من الطريقة التي نتحدث بها عادة، يبدو أن كلمة «إنسان» و«شخص» تنطبق على أمور مختلفة (كتب لوك عن «الرجال» بدلًا من «البشر»، ولكن بما أن السيدة جيسيكا لم تعانِ من هذه الكراهية الطارئة للنساء، فلن نتحسس منها أيضًا). والآن، بالنسبة لشروط استمرارية الإنسان، والتي هي بالتأكيد نوع من أنواع الاستمرارية الحيوانية، أليست كذلك؟ وهنا نقصد الإنسان العاقل على وجه الدقة، فقد تم تنظيم أجزائها بطريقة معينة، بحيث أصبح أي شيء غير تنظيم الجسد، مثل المنطق، ليست له علاقة بكون المرء «إنسانًا». فإذا قلنا مثلًا إننا التقينا بشخص يتمتع بذكاء دودة، لكنه من الناحية البيولوجية منظم مثلنا، فإننا سنصفه أنه إنسان على الأرجح (لكنه أضعف منا بعض الشيء). ولكن إذا التقينا برجل من الطائفة، يتمتع بذكاء مثل ذكائنا (وبعد قيام البعض منا) بالنظر إلى جسده الضخم المترهل وفمه الصغير المرتخي، فإننا يمكن أن نتردد قبل أن نطلق عليه الصفة ذاتها.

بالنسبة للوك، يحتاج المرء لكي يصبح شخصًا شيئًا أكثر من مجرد التنظيم البيولوجي المتماسك، ولمعرفة ما قصده لوك من خلال «شروط أن يصبح المرء شخصًا»، علينا أن نلتفت للمينتات المعدَّل، بيتير دي فرييز، مع التفكير في الفقرة المقتبسة الآتية:

«أنت ترى أيها البارون، فأنا أعرف كمينتات متى ستُرسل الجلاد، وأنك ستُحجم عن ذلك ما دمت مفيدًا ... فالتحرك في وقت أبكر قد يكون مضيعة، لأنني لا أزال مفيدًا» **(من رواية الكثيب)**.

الشخص هو كائن ذكي مفكر؛ أي لديه عقل وتفكير، ويعتبر نفسه نفسًا، وهو يمثل الشيء المفكر ذاته مع اختلاف الزمان والمكان، وتلك الذات تفعل ذلك من خلال الوعي فقط الذي يعتبر جزءًا لا يتجزأ من التفكير، وهو جزء أساسي منه كما يبدو لي **(من مقالة لوك)**.

يقدم الاقتباس الأول مقتطفًا قصيرًا من إحدى مشاحنات بيتير الكثيرة مع البارون. إذ

ذكريات مصنوعة من التوابل - صفحة 160/ 224

بعدما فكر بفائدته، استطاع أن يتنبأ وبكل ذكاء كيف سيتصرف البارون هاركونين. فهو يعرف نفسه تمامًا (وفي كثير من الأحيان يتحدث بشكل مخيف عن «بيتير» بصيغة الغائب وهو يشتهي السيدة جيسيكا التي نعرفها). كما يفكر بنفسه أنه موجود بمرور الزمن. في الحقيقة، إنه يوضح بشكل مفيد شروط لوك ليصبح المرء شخصًا (وهذا ما نجده في الاقتباس الثاني). وتشتمل تلك الشروط على التفكير والتأمل والوعي بالذات والوعي أن النفس موجودة بمرور الزمن. إذ يعتقد لوك أن الوعي أثبت أنه ضروري لكل تلك الأمور.

ثم إن البشر يمثلون نوعًا من الحيوانات، والأشخاص هم عبارة عن كائنات تفكر منطقيًا وواعية. بيد أننا نحتاج إلى الوعي في المقام الثاني، ولكن أولًا لا بد من تصفية الحسابات مع الأخوية؛ وذلك لأن البيني جيسيرت تعادي النظرية اللوكية، في لغتها على الأقل، فهن يعتقدن أن كلمة «ناس» تشير إلى نوع من الحيوانات، فيما تشير كلمة «بشر» إلى كائن مفكر واعٍ. وتلك هي فكرة الغوم جبار؛ أي فصل «البشر» المميزين عن «الناس» العاديين. أما بالنسبة للوك، فكان ينبغي على الأم الموقرة غايوس هيلين موهيام أن تقول: «نحن البيني جيسيرت نغربل البشر لنكتشف الناس»، وليس العكس، إلا أن ما دفعها لذلك هو دم الساحرات الذي يجري في عروقها!

بالنسبة للوعي، فهو مفهوم مخادع، بل غامض وعصيٌّ على الفهم، كما هي حال الصياد-الباحث في حقل معلق. ولقد كتب الفلاسفة مقالات محيِّرة لفهم ما يعنيه ذلك المفهوم. ولكن، ومن أجل الغرض الذي حددناه، لا نحتاج إلا لخلاصة ما يعنيه لوك بهذا المصطلح، وهو أن وعينا يمثل أفكارنا وإدراكنا أن تلك الأفكار تعود لنا؛ أي إنها تنتمي «لذاتنا»، وتلك الذات موجودة بمرور الزمن. وتوجد الهوية الشخصية داخل هذا الوعي، وبالنتيجة، يبقى الشخص الشخص ذاته طالما بقي وعيه ذاته: «ما دام بوسع هذا الوعي أن يرجع نحو الخلف باتجاه أي فعل أو فكر وقع في الماضي، وبذلك يصل إلى هوية ذلك الشخص؛ وتكون الذات الآن هي نفسها التي كانت في ذلك الحين».

وبالرغم من كتابته لذلك قبل مئات السنين، فإن جون لوك بين بوضوح نظرية مؤثرة ومهمة تدور حول كيف يمكن للمرء أن يصبح شخصًا. («غول بالصدفة» في هذا الكتاب تبحث في نظرية لوك أيضًا). وبالطبع، لا تزال نظرته تؤثر على طريقة تفكيرنا حيال الأشخاص اليوم. إذ عندما ذكر أن الوعي (الذي يشمل الوعي بالذات والتفكير) يمثل الجوهر الذي يجعل من المرء «شخصًا»، فإن ذلك لا يزال يتمتع بجاذبية قوية من حيث بديهيته. إذ يمثل الوعي المتوسع شخصًا لا يزال نفسه بمرور الزمن، وهنا تتضح أهمية الذكريات؛ إذ يبدو «الوعي المتوسع» ضربًا من الخيال، ولكنه يمثل بصورة أساسية ما نختبره عندما نتذكر ما نقوم به من أفعال. إذ عندما يتذكر بول كيف غادر كالادان (شعب الهايلاينر العملاق، ويد

والده الثقيلة فوق كتفه ...)، يدرك أنه يمثل الشخص ذاته وقتها كما هو اليوم؛ أي تدفق الوعي نفسه يربط بينهما، وتلك طريقةٌ نقوم من خلالها بجعل الشيء يمتد بمرور الزمن.

قد يلاحظ أكثر مينتات ثاقب الفكر بيننا بعض المكر والخداع من قبل شعب الهاركونين عندما يكون ذلك على قدم وساق هنا، ولكن، قبل أن يجربوا السم في الأطعمة الصلبة (تشاوماس) والسم في السوائل (تشاوميركي) على مائدة لوك، يجب عليهم أن يلتفتوا لقضية أخرى تتعلق بالطهي.

يقال إن حثالة الفريمين تشرب دماء موتاها

يمثل أَكَلَة لحوم البشر مصدر قلق حقيقي بالنسبة للوك، ليس لأنه التقى بأحدهم (وهو يدري)، بل لأنهم يمثلون عقبة غريبة بالنسبة لمبدأ القيامة والبعث في الدين المسيحي؛ إذ يعتقد أبناء جلدة لوك من المسيحيين أنه عندما يأتي يوم الحساب، فلا بد وأن يُبعث كل من عاش ليحاسبه الله على أعماله. وفي كثير من الأحيان كان لوك وأصدقاؤه يتكهنون بتفاصيل دقيقة عن عملية البعث، فمثلًا، هل ستكون عملية البعث كاملة؟ وعلى فرض أن الله يتمتع بقوة كافية ليقوم بإحياء جسد متحلل، وإعادة تشكيل أجساد متعفنة، علينا أن نفكر في المأزق الذي عاشه عالم الفيزياء روبرت بويل الذي قال:

ستكون عملية إعادة الاندماج مستحيلة أكثر، إذا أخذنا حالة المتوفى الذي اتُّهمه آكلو لحوم البشر؛ إذ عندها سيصبح الجسد ذاته ينتمي لشخصين مختلفين؛ ولهذا يستحيل بالنسبة لكليهما أن يسترجعا ذلك الجسد في الحال، كذلك الأمر بالنسبة لأي خطوة يمكن أن تبقى بين ذلك الجسد وبين صاحبه الأول (بويل 1979، ص 198).

أي إنك إذا تناولت شخصًا فستمتصُّ جسده حتى يصبح لك، إذن كيف سيفصل الله كل ذلك عن بعضه؟ تبين أن هذه المشكلة قد أقلقت أحفاد مسيح الكثيب. فقد انتشرت شائعة على ألسن نخبة شعب أراكين التي تقطن في المدن، جاء فيها أن شعب الفريمين يشرب دماء موتاه، وكما أشار ليت-كينيز، فإن الدم مصدر طاقة فعال، ولذلك تبعات ونتائج تشبه ما وصفه بويل بـ«إعادة الاندماج».

حسنًا، لنفرض أننا حاولنا إحياء مقاتل آكل للحوم البشر من شعب الفريمين، قد يكون ذلك ممكنًا تمامًا نظرًا للأساليب التي تتمتع بها مؤسسة البيني تليلاكس السرية. إذ عندما نأتمر بإمرتهم، يتعين علينا أن نأخذ بعض اللحم من جثة أحد الفريمين وأن نضعها في خزان «قنفذ البحر»، ثم نتركها لتنضج على نار هادئة لمدة يومين، بعد ذلك بوسعنا أن نعد لأنفسنا مخلوقًا مستنسخًا لطيفًا وصغيرًا، أو «غولًا». (لا حاجة للقول إن هذا يعتمد على إيجادنا لتليلاكسيان، وإقناع هؤلاء المتشددين المشهورين بخوفهم من الغرباء بالمساعدة في ذلك). ممتاز، ولكن

تذكيرات مصنوعة من التوائل - صفحة 162/ 224

إن كان ذلك الرجل من شعب الفريمين قد تناول في حياته السابقة رجلًا آخر من الفريمين (ولعل ذلك الرجل قد تناول هو أيضًا رجلًا آخر من شعب الفريمين)، فماذا أو من الذي سنقوم باستنساخه؟

لعب آكلو لحوم البشر في زمانهم دورًا في صياغة الفرق الذي وضعه لوك بين «البشر» و«الأشخاص»، حيث قدموا له سببًا وجيهًا ليفترض أن البشر (بوصفهم حيوانات) لن يُبعثوا يوم الحساب، في حين أن الأشخاص سيبعثون على الأغلب. وبالمقابل، أسهم ذلك في اعتقاد لوك بإمكانية فصل الشخص عن الحيوان البشري الذي يمثله. وطوال مقالته، قدم لوك العديد من الأمثلة حول عملية زرع الشخص حيث يقطن الشخص ذاته في أجساد مختلفة، (بعد تعديله وتكييفه قليلًا من جديد):

لأنه إذا كانت روح الدوق التي تحمل معها وعي الحياة السابقة لدى الدوق، تدخل جسد فرد من شعب السيميك وتعلمه فور مبارحة روحه له، عندها وكما يرى الجميع، سيصبح الشخص ذاته الذي يمثله الدوق، ولن يُحاسَب إلا على أفعال الدوق، ولكن من هو الذي يقول إنه الرجل ذاته؟

أصبحنا اليوم أكثر تشكيكًا في فكرة الأرواح التي تغادر الأجساد وتعود إليها؛ إذ صرنا نفكر بالعموم أن الوعي بأسبابه ونتائجه يرتبط بالبيولوجيا بصورة أكبر، ودون أن نُعرِّج على التفاصيل، تشير الأفكار التي يوردها علم الأعصاب إلى أن ما يحدث في عقلنا يؤثر مباشرة على طريقة تفكيرنا وتصرفنا وتأملنا. أي إن دماغنا يعتبر أساسيًّا في تحولنا إلى أشخاص. وبالنتيجة، عندما يناقش الفلاسفة فكرة وجود أشخاص يقومون باستبدال أجسادهم اليوم، فإنهم يتحدثون عن تلك الفكرة عادة من حيث عملية «زراعة الدماغ» لا بوصفها عملية هجرة لأرواح غير مادية.

وماذا عن أكلة لحوم البشر؟ ماذا لو قرر البارون أن يأكل دماغ مولاه؟ بصراحة، لا يوجد ما يقلقنا هنا؛ وذلك لأنهم يوجهون أساليب الاستنساخ لديهم نحو المستوى الجزيئي؛ أي إنهم يستهدفون سلاسل الحمض النووي ويضاعفونها. وذلك لأن تناول الأشياء لا يغير بنيتك الوراثية بالعادة.

إن تلك الاعتبارات تمثل مراجعةً للفرق الأساسي الذي وضعه لوك بين البشر والأشخاص؛ إذ يجب علينا أن نكفَّ عن التفكير في الأرواح اللامادية التي تدخل الأجساد وتخرج منها، وأن نؤسس علاقة أقرب بين الوعي وبيولوجيتنا. ربما يجب علينا أن نقول إن أدمغتنا تهتم بالهوية الشخصية، وإذا كان علينا القيام بذلك، عندها لن يصبح الوعي الشرط الوحيد لبقاء الشخص.

ذكريات مصنوعة من النوايل - صفحة 163/ 224

الضابط المقدام جورني

لو توافر أمام لوك الوقت الكافي لكان قد اقتنع أن الاحتفاظ بالدماغ ذاته أمر ضروري لبقاء الشخص هو نفسه. ولكن حتى لو فعل ذلك، فليس من المؤكد أنه سيعتقد أن ذلك كافٍ لحدوث هذا؛ وذلك لأن الذكريات و«الاستمرار النفسي» سيظلان عنصرين أساسيين، إلا أن تلك الذكريات تتسبب في وقوع مشكلات، وبوسعنا أن نرى ذلك إن ألقينا نظرة عن كثب على علاقة الهوية.

للهوية؛ أي تلك العلاقة الذكية التي ربطت موديب ببول، وبول الأكبر ببول الصغير، سماتٌ خاصة؛ أولها أنها متناسقة؛ أي إنه إذا كان بول متطابقًا مع موديب، فهذا يعني أن موديب متطابق مع بول، ثانيها أنها انعكاسية؛ أي إن بول متطابق مع بول، وثالثها أنه يفترض أن علاقة الهوية متعدية، وهذا يعني أن العلاقة تحمل أنه إذا كان بول الإمبراطور الرباني يتطابق مع بول صاحب حرب العصابات لدى شعب الفريمين، فهذا يعني أن بول صاحب حرب العصابات لدى شعب الفريمين يتطابق مع بول الذي يمثل ولي عهد الدوق، وهذا يعني أيضًا أن بول الإمبراطور الرباني يتطابق مع بول الذي يمثل ولي عهد الدوق؛ أي جيوديتشار مانتيني أي الحقيقة الأصلية والداعمة، أليس كذلك؟

ولكن مهلًا؛ إذ بحسب توماس ريد، وهو أحد معاصري لوك، فإن الذكريات لا تستوعب هذه السمة الأساسية الثالثة للهوية؛ أي التعدي. ما يعني أن نموذج لوك خاطئ؛ لأن الهوية الشخصية تقوم على ذكرى ليست بمتعدية. ولهذا فهو يقدم تجربة فكرة «الضابط المقدام» لتوضيح سبب ذلك. إليكم إحدى المقولات التي يمكن من خلالها رؤية جورني هالك والتي توضح صفات الضابط المقدام لدى ريد:

لا أحد ينكر أن جورني ضابط باسل؛ إذ استطاع أن يبز إيداهو ست مرات من أصل عشرة، كما عزف لحنًا شريرًا على آلة الباليسيت، لكن السؤال هنا هو إلى أي مدى كانت ذاكرته جيدة؟ فعلى كوكب الكثيب، كان بوسعه أن يتذكر محاولاته مع الوحش رابان، والوحشية التي خلّفت لديه ندبة بحبر الدوالي حدثت قبل ذلك بسنوات، إلا أنه كان بوسعه تذكر لسعات سوط الهاركونين بكل وضوح. أما على كوكب أراكيس، فقد تعثرت ذاكرته، وأقلقته فكرة عدم قدرته على تذكر لون عينَي شقيقته التي قتلها الهاركونين هي وبقية أفراد أسرته عندما كان صبيًّا، إلا أن رمال الكثيب جعلت تلك الذكريات تتحلل. ففي حفر العبيد، كان سيتذكر كل قسمة من قسمات وجهها، لكنه نسي كل ذلك بمرور الوقت.

ثم إن النسيان عقبة حقيقية بالنسبة للتعدي الذي تتصف به الهوية الشخصية؛ إذ بوسع جورني، ذلك المهرب الأركيني، أن يتذكر كيف قام رابان، ذلك الحاكم الشيطاني، بتعذيبه.

ذكريات مصنوعة من التوائل - صفحة 164/ 224

ووفقًا للوك، فإن المُهرب وضحية التعذيب يمثلان شخصين متطابقين، وفي حفر العبيد في جيدي برايم، كان بوسع جورني أن يتذكر أيام يفاعته التي قضاها مع شقيقته، وبذلك تصبح الضحية والفتى يمثلان شخصين متطابقين. ولكن، لا يمكن لجورني المهرب تذكر أيام يفاعته؛ لذا لا يمكن للوك أن يقول إنهما متطابقين. يا! يا! يوم! (أي الآن اسمع هذا، وهذه الجملة هي عبارة عن إيقاع غنائي لدى شعب الفريمين يُستخدم ليُعبر عن أهمية شعائرية عميقة، «يا» تعني: «انتبه الآن»، «يوم» أداة نداء تحُثُّ على العجلة).

هل تذوقت في حياتك الماء المبارك؟

يؤكد اعتراض ريد على الصعوبات التي تتمثل في بناء هوية الشخص على شيء حساس مثل ذكرياته، لأننا نفقدها باستمرار. إلا أن السيدة جيسيكا تواجه مشكلة أخرى، كونها تتذكر أكثر من اللازم.

يتمتع ماء الحياة برائحة القرفة التي تميز الخليط، إلا أنه سام وقاتل؛ إذ بعد شربه، أصبح يتعين على جيسيكا أن تغير تركيبته الجزيئية بواسطة مهاراتها، ولذلك تحوله إلى ماء حميد غير ضار، «بواسطة سبرها النفسي الحسي الحركي انتقلت إليه، فغيرت ذرة الأوكسجين، وسمحت لذرة كربون أخرى بالاتحاد، وأعادت ربط رابطة الأوكسجين ... فظهر الهيدروجين» (من رواية الكثيب). يا لها من طريقة رائعة! وبمجرد أن تم ذلك، ظهرت لها الأم الموقرة رامالو، وعندما لمستها، اتحد وعي كلٍّ منهما بالأخرى «تحولتا إلى شخصين في الحال». وقد حدث ذلك لرامالو نفسها عندما أصبحت صيادينا؛ أي إنها عادت إلى الوراء لتصل إلى أول ساحرة من ساحرات الفريمين على كوكب روساك. وبعد خضوعها لمعاناة التوابل تلك، حصلت جيسيكا على كل ذكريات القبيلة المتراكمة لدى كل أسلافها، والتي تعرف باسم: «الذاكرة الأخرى». وعند هذه النقطة، بوسعنا أن نقول بشكل منطقي ومعقول إن وعيها قد توسع فعاد إلى الوراء، إلى ما قبل ولادتها بسنين طويلة. وبالنسبة للوك، فإن هذا يمكن أن يشير إلى أنها متطابقة، بوصفها شخصًا، مع الأم الموقرة الأولى لدى الفريمين؛ أي راكيللا بيرتو-أنيرول (وكل الأمهات الموقرات بينهما).

مهلًا! خذ نَفَسًا! فهذه طريقة غريبة بالفعل. إذ هل بوسع جيسيكا أن تكون الشخص ذاته الذي يمثل راكيللا بيرتو-أنيرول؟ بما أن إحداهما جارية الدوق ليتو أتريديس، وابنة البارون فلاديمير هاركونين، أما الأخرى فهي طبيبة شاركت في تأسيس مدرسة سوك، وحفيدة فوريان أتريديس. بالنسبة للنموذج الأصلي لدى لوك، فإن هوية الشخص ترجع به إلى وعيه؛ ولهذا كان على جيسيكا أن تعود إلى ذلك. ومع ذلك ... ومع ذلك ... لن تمثل راكيللا وجيسيكا الشخص ذاته إلا إذا كان الوعي الموسع يكفي بحد ذاته لهوية شخصية بمرور الزمن. إلا أننا

سبق أن شككنا في تلك الحالة لأنها ليست كذلك (ولهذا السبب أضفنا الأدمغة لروايتنا بشكل مؤقت).

والآن تقدم لنا محنة جيسيكا سببًا آخر لرفض شمولية المعيار الأصلي الذي قدمه لوك.

ثمة أمور قليلة مجهولة هنا؛ إذ لم يتضح مثلًا كيف تختبر جيسيكا ذكرياتها الجديدة؛ إذ هل تتذكرها بصيغة المتكلم أم بصيغة الغائب؟ وهل تلقتها بالفعل أم إنها موجودة لديها بالأصل، لكنها ظلت حبيسة داخل روحها؟ إن الغموض مع أشباح أخوية البيني جيسيرت يحيط بتلك الإجابات، ولذلك، ومن أجل تحقيق أغراضنا، إليكم إحدى المقولات الممكنة المختصرة:

قبل محنة التوابل، توسع وعي الأخت جيسيكا وعاد إلى الوراء حتى تاريخ ولادتها تقريبًا. بعد ذلك، توسع فعاد إلى سنة 137 بحسب التقويم الإغريقي؛ أي تاريخ ميلاد راكيللا (أي ألف سنة قبل مولد جيسيكا). وبعد محنة التوابل، أصبحت الأم الموقرة جيسيكا متطابقة مع راكيللا، ولكن قبلها، وبوصفها أختًا تابعة للبيني جيسيرت ولديها وعي محدود بحياتها، لم تكن جيسيكا متطابقة مع راكيللا بكل تأكيد.

مو زين والله (هكذا وردت في النص الأصلي)؛ إذ هل نسينا أمر تعدي الهوية؟ يبين لنا توماس ريد إحدى الطرق التي لم تتسع من خلالها الذاكرة بحسب رأي لوك لحالة التعدي هذه، غير أن جيسيكا أوضحت لنا طريقة أخرى.

لدينا ثلاثة أشخاص، جيسيكا أ، الماهرة، التي لم تشرب ماء الحياة بعد، وجيسيكا ب، الصيادينا، التي شربت ذلك الماء، وراكيللا ج، أول صيادينا من شعب الفريمين.

• من الواضح أن جيسيكا ب بوسعها أن تتذكر أنها كانت جيسيكا أ؛ أي إن لدينا حالة هوية شخصية بحسب رأي لوك.

• بوسعنا أن نكتب أن ب = أ.

• وبالطريقة ذاتها يمكن لجيسيكا ب أن تتذكر أنها كانت راكيللا ج، وذلك بفضل ماء الحياة.

• إذن فإنهما تمثلان الشخص ذاته أيضًا؛ أي بوسعنا أن نكتب أن ب = ج.

• والآن، بوسع جيسيكا ب أن تتذكر أنها كانت جيسيكا أ التي غادرت كالادان، وبوسع جيسيكا ب أيضًا أن تتذكر أنها كانت راكيللا ج وأنها رحلت عن كوكب روساك. وهكذا، وبحسب فكرة تعدي الهوية، فإن الشخص الذي تمثله جيسيكا أ، يجب أن يتطابق مع

الشخص الذي تمثله راكيللا ج.

• أي إن أ = ج.

ولكن بحسب نموذج لوك، فإنها ليست كذلك! إذ ليس بوسع جيسيكا أ أن تتذكر أنها كانت راكيللا التي غادرت كوكب روساك! فلا وعي يربط بينهما، بالرغم من أن الوعي يربط جيسيكا أ بجيسيكا ب، وجيسيكا ب براكيللا ج. ولهذا بوسعنا أن نقول بكل ثقة إنه لا يمكن للوعي المتمدد أن يتحول إلى حالة مفردة بالنسبة لهوية أي شخص بمرور الزمن. وهذا صحيح بالنسبة للسيدة جيسيكا على الأقل. وإن لم يكن الوضع كذلك، إذن فإنها يمكن أن تصبح متطابقة وغير متطابقة مع راكيللا بيرتو-أنيرول، وهذا هراء، أو ذرق السيلاغو.

بوسعنا أن ندرس هذه الصعوبة من زاوية أخرى، وذلك عبر النظر إلى الرجس؛ أي علياء، فهي قد عانت أيضًا من محنة التوابل، وتلقت الذاكرة الأخرى في الوقت ذاته الذي تلقتها أمها فيه. كما توسع وعيها هي أيضًا، هذا إن كان لديها وعي، فعاد بها إلى أفعال راكيللا بيرتو-أنيرول. وبالنسبة لنموذج لوك، فإنها يمكن أن تصبح الشخص ذاته الذي تمثله راكيللا، وذلك لوجود رابط في الذاكرة يربط بينهما لم ينقطع بعدُ. ولكن ألم نفكر أن جيسيكا هي أيضًا أصبحت الشخص ذاته الذي تمثله راكيللا؟ لا بد أن يقودنا ذلك إلى تناقضات كبيرة. فإذا كانت كل من جيسيكا وعلياء تمثلان راكيللا، إذن فلا بد لهما من أن تمثلا الشخص ذاته! إلا أن ذلك تبين أنه غريب جدًّا؛ إذ لدينا هنا حالة قد تكون كلٌّ من علياء وجيسيكا بموجبها تقومان بأمور مختلفة، فعلياء سعيدة، بينما جيسيكا ليست كذلك، وعندها بوسعنا أن نقول: «ذلك الشخص سعيد وغير سعيد في الوقت ذاته»، أو: «ذلك الشخص يقوم بقتل البارون هاركونين ويمتنع عن قتله في الوقت ذاته».

أي طريق للمستقبل علينا أن نتخذه؟

في البداية، بدا لنا أن لوك قد قام بتسليط بعض الضوء على معضلة السيدة جيسيكا، ولكن الآن، يبدو أنها هي وابنتها قد سلطتا الضوء على معضلته هو؛ إذ أبدت جيسيكا سببًا آخر للتفكير في أن الوعي المتمدد، كما يُختبر من خلال الذكريات، لا يكفي لصنع هوية شخصية، أو كلٌّ واحد، وهذا ما أثر فيَّ بشكل عميق. ولكن يا خالة، ليس الهدف من ذلك هو أن نقول إنه يتعين علينا أن ننبذ نموذج لوك لأنه خارج عن السيطرة. إذ لا تزال الاستمرارية النفسية حتى اليوم تعتبر جزءًا مهمًّا من استمرارية الشخص بمرور الزمن.

يختلف الفلاسفة المعاصرون حول نوع الاستمرارية النفسية المهم بالتحديد؛ إذ يرى بعضهم أننا نستمر بمرور الزمن بفضل علاقة المحتويات الفكرية. والسمات النفسية الأولى هي التي تتسبب في ظهور المحتويات الفكرية التي أمتلكها اليوم. إذ مثلًا كان السبب الكامن

وراء قرار موديب بالهجوم على الهاركونين هو نيته وعزمه على الثأر لأبيه (والتي بناها على أخبار وصلته عن وفاة الدوق العجوز). فيما يتحدث فلاسفة آخرون حول القدرات العقلية؛ أي القدرة على القيام بأمور معينة؛ إذ مثلًا، بالرغم من أن جورني هالك ينسى بعض الأمور (لون عينَي شقيقته)، إلا أنه يواصل صناعة الذكريات، والتفكير بطريقة تكتيكية ومنهجية، كما لديه ميل وولع بآلة الباليسيت.

ولكن ليس كل الفلاسفة المعاصرين يرون أن استمراريتنا تعتمد على علم النفس. إذ ثمة وجهة نظر أخرى ترى أن ظروف استمراريتنا هي نفس الظروف التي يعتمد عليها الحيوان البشري لاستمراريته. والمقصود بذلك هو أننا حيوانات ولسنا بأشخاص بصورة أساسية. فالحيوان البشري يستمر من لحظة الإدراك حتى لحظة الوفاة، وبالتالي فإننا نعيش الرحلة ذاتها أيضًا. ويزعم هؤلاء «المنظرون البيولوجيون» أن المرء يبقى فقط عندما تستمر وظائف الحيوان لديه (كوظيفة الأيض أو التنفس). أي إن جيسيكا تبقى جيسيكا طالما بقي الحيوان موجودًا لديها، وهي هنا لا تحتاج لأن تكون واعية، بل بوسعها أن تكون بحالة سبات وغيبوبة أيضًا. أي لا حاجة لوظائف الدماغ الأعلى إلا من أجل تحول المرء إلى شخص؛ ولهذا فنحن لسنا بأشخاص بالأساس، بل إننا بوصفنا حيوانات بشرية يمكن أن نتحول إلى أشخاص بالطريقة ذاتها التي يمكن من خلالها لأي فرد من شعب الفريمين أن يتحول إلى رجل ماء أو بالطريقة عينها التي يتحول بها أحد من شعب أتريديس إلى دوق.

إن الاختيار ما بين هذين الخيارين المختلفين قد يتحول إلى مهمة صعبة. إذ كما رأينا، فإن المسألة تعتمد غالبًا على تقديم «تجارب فكرية» مختلفة وتقييم ردود فعلنا تجاهها. إذ مثلًا تشير حالات زرع المخ إلى أننا لسنا بحيوانات بشرية في الأساس. ولكن كما أوضحت جيسيكا، فإن الوعي المتمدد بمفرده لا يمكن أن يكون كافيًا لبقائنا. ثم إن السير وراء كل ذلك الحدس أشبه بتعقُّب أثر دودة؛ إذ قد تنتهي بك الأمور وأنت تعقد الأمور على نفسك. كما أن معتقداتنا المبنية على تفكير وفطرة سليمة تشير إلى اتجاهات مختلفة في أغلب الأحوال، كما تقودنا نحو تناقضات كثيرة، وهذا بالمقابل يقوِّض سلطتها. وبالنتيجة، قرر بعض الفلاسفة أنه لا يهم بالنسبة لنموذجهم الخاص بالهوية الشخصية أن يكون «حدسيًا».

ومن بين هؤلاء المنظِّرين والمفكرين نذكر دانييل دينيت الذي ارتأى في كتابه «شرح الوعي»، أنه لا وجود لشيء يدعى شخصًا، حيث كتب:

إن أغرب وأروع البِنى في عالم الحيوان بأكمله هي عبارة عن بِنًى مذهلة ومعقدة صنعتها الرئيسيات أي الإنسان العاقل، فكل فرد عادي من هذا النوع يشكل نفسًا، ومن خلال دماغه ينسج شبكة من الكلام والأفعال؛ إذ يفعل ذلك فحسب، دون أن يتعين عليه معرفة ما يفعله،

شأنه في ذلك شأن غيره من المخلوقات. وهذه الشبكة تحميه كما تحمي الصدفة الحلزون، وتقدم له مصدر رزق تمامًا كما تفعل شبكة العنكبوت. (ص 416).

بالنسبة لدينيت، يمثل «الشخص» محور الجاذبية السردية؛ إذ بوسع البشر أن يتحدثوا، وأن يشيروا لأنفسهم، وعند قيامهم بذلك يُلمحون إلى وجود شيءٍ ما، أو كيان ما أكبر من مجرد الجسد. ولكن ليس ثمة شيء حقيقي يبقى بمرور الزمن، بل هي مجرد سردية تستمر ويجري تعزيزها وزخرفتها بشكل متواصل. وعليه فإننا تمامًا كجيسيكا، مجرد شخصيات ضمن قصص بُنيت من الخارج.

إذن، هنالك ثلاث طرق للمستقبل عليك أن تختار من بينها؛ إذ عليك إما أن تفكر أننا سنبقى على حالنا بمرور الوقت، وذلك عبر بقائنا الشخص ذاته، بناء على شيء معقد يقوم على علاقات نفسية (مثلما ذكر جون لوك). وإن صح ذلك، عندها ستكون جيسيكا هي راكيللا بيرتو-أنيرول نفسها. أو لعلك قد ترى أنك تتحول إلى «شخص» غير مهم، وأننا نبقى على حالنا فقط عبر كوننا الحيوان نفسه (مثلما ذكر إيريك أولسون)، وعليه فإن جيسيكا تمثل الحيوان ذاته الذي يستمر طالما بقيت هي قادرة على الاستمرار من الناحية البيولوجية. وختامًا، قد تعتقد بعدم وجود شيء من هذا القبيل؛ أي لا وجود لشيء يدعى «شخصًا» (مثلما ذكر دينيت)، فإذا كان الوضع كذلك، عندها يجب أن نكون مجرد شخصيات في قصص، كما هي حال «جيسيكا»؛ أي إننا لسنا أكثر من مجرد مجموعة من الكلمات.

بلا خلاف(4).

اخرج من عقلي!

أثبتت صحاري الكثيب أنها أرضٌ خصبةٌ مذهلة بالنسبة للنقاش حول الهوية الشخصية؛ لذا لا بد من توافر عرق بالنسبة للوك حتى يخلق حالة سلام بينه وبين جيسيكا. ولكن لا بد من قول بضعة أمور عن الرجس؛ أي القديسة علياء صاحبة المدية، لأنها قد تنزعج إن لم نأتِ على ذكرها.

لا شك أن علياء هي عبارة عن وحش صغير؛ ولهذا طلبت المتنبئة العجوز موهيام القضاء على تلك الطفلة التي لم تكن طفلة، حيث صرخت: «اقتلوها! اقتلوها!» من وراء عرش الإمبراطور. وتابعت بالقول: «لقد وصلَنا تحذير منذ أمد بعيد من هذا وكيف نمنع ولادته» (من رواية الكثيب). ولكن في وجه هذا الخبث الجامح، قد تجد علياء في جون لوك حليفًا قويًا.

كان من الشائع في زمن لوك أن يجري قتل الأجنَّة إن كانت مشوهة (وهذا ما تصفه الأخوية بالرجس). ولكن في مقالته، يرى لوك أنه ما دام الرضيع قادرًا على التفكير، عندها «لا

بد من الاحتفاظ بالجنين البشري»، فإذا كان الطفل مختلفًا عن البقية، كما هي حال علياء، فإن ذلك يدل على عدم وجود فئاتٍ ثابتة في الطبيعة برأي لوك، وهنا يُبدي موقفًا شاملاً يسمح بظهور اختلافات كبيرة. إذ بخلاف أفراد جناحها، لن ينظر لوك إلى علياء على اعتبار أنها غريبة، بل مجرد مثال حول التنوع داخل النوع نفسه.

وقد يأسره وضعها كشخص؛ إذ بعد خضوعها لمأساة التوابل عندما كانت جنينًا، لم يعد لديها ذكريات خاصة بها كما لدى جيسيكا. إذ تقول علياء: «استيقظت في أحد الأيام، وكان ذلك أشبه بالاستيقاظ من النوم، باستثناء أني لم أستطع أن أتذكر كيف أنام. كنت في مكان دافئ ومظلم، وكنت خائفة» (من رواية الكثيب).

الرجس هو عبارة عن جنين باغتته ذكريات أسلافه بأكملها؛ لذا تخاف موهيام من الرجس المتمثل في علياء، لأنها تمثل «ذاكرة أخرى» بأكملها، وليست لديها ذكرياتٌ حقيقية خاصة بها، ولا مجرد قطرة صغيرة تضيفها إلى ذلك البحر الكبير. وبالتالي، يجب أن تتطابق مع أمها جيسيكا بشكل مثير للاهتمام، بما أنهما تشتركان في كل ذكرى. ولقد سبق لنا أن تطرقنا إلى تلك الفكرة، وهي أن جيسيكا وعلياء تمثلان الشخص ذاته، والتناقضات الناجمة عنها. لذا من المستحيل للشخص ذاته أن يكون ضمن الجمهور مع الإمبراطور (كما هي حال علياء) وأن يكون مستشارًا في الوقت ذاته في جناح الفريمين (كما هي حال جيسيكا). لأنه بكل بساطة لا يمكن للشخص نفسه أن يظهر في مكانين في وقتٍ واحد! وأنا على يقين من أن المشاغبة الصغيرة لا بد أن تستمتع كثيرًا بالمصاعب التي تسببها لفلاسفتنا.

لسوء الحظ، وكما هي الحال غالبًا مع الدراسات الفلسفية، فإننا نخرج بأسئلة أكثر من الأسئلة التي بدأنا بها، وحتى نبدأ سنقول إن بقاءنا بمرور الزمن يبدو عملية مباشرة إلى حدٍّ ما، ولكن الآن! حتى أكون بكامل صراحتي، لست أدري هل أنا حيوان أم شخص يتمتع بخصائص نفسية، كما لست أدري إن كان بوسعي أن أنقسم إلى شخصين، أم أنني بحاجة لاستمرارية جسدية حتى أبقى. وعلى أمل أن تبقوا أكثر انسجامًا مع الطريقة الغريبة، إليكم بعض الألغاز المحيِّرة عن الهوية الشخصية والتي تم طرحها في كون الكثيب.

• بما أن بول أتريديس نفسه يميز بين أوسول وبول وموديب، حيث يحدد ثلاث خصال مختلفة في كلٍّ منهم؛ إذ يصف الأول بالعاشق، والثاني بالدوق والثالث بالزعيم الديني، فهل بوسعنا أن نقول حقًّا إنهم متطابقون؟

• في رواية أبناء الكثيب، يغطي ليتو الثاني نفسه بخنفساء ويختلط معها ليتحول إلى شاي-هولود («بدون تفرد فظيع في التركيز، حقق الاتحاد بين جلده الجديد وجسده ... جلدي ليس لي»). وبعد ذلك التحول العضوي، هل أصبح الشاي-هولود يمثل الحيوان

نفسه الذي يمثله ليتو الثاني؟

- **بعد شرب ماء الحياة والخضوع لمحنة التوابل، هل هنالك أي جدل عن كون بول يمثل الشخص ذاته الذي تمثله راكيللا بيرتو-أنيرول، في حال تلقّيه لذكرياتها؟**

- **هل تمثل الذاكرة الأخرى؛ أي الكيان الذي يتم تلقيه بواسطة ماء الحياة، شخصًا؟**

يجبرنا كون الكثيب على طرح أسئلة غريبة ومخيفة في أغلب الأحوال عن أنفسنا. إذ عبر تحوير وتمديد ما نراه «طبيعيًا»؛ أي الطبيعة البشرية والشخصية، تشجعنا قصص أراكيس على تقصي حدسنا وبديهياتنا الشاملة واليومية. وفي البحث عن إجابات لتلك الأسئلة، يتعين علينا أن نكون منفتحين تجاه أي موقف، كما يجب ألّا ننأى بأنفسنا بعيدًا عن الاحتمالات التي لا تعجبنا (كتلك التي ترى مثلًا أننا لسنا أكثر من دوامات تافهة من «الجاذبية السردية»)، أو أن نخشى من إخضاع أنفسنا لفحصٍ شامل. وذلك لأن الخوف في الفلسفة تحديدًا أكثر من أي مجال آخر يقتل الفكر؛ إذ يمكن أن يحجب الخوف من تفاهتنا مثلاً قدرتنا على الحكم بسهولة.

لذا ما علينا سوى أن نتبنى موقف أحد محاربي شعب الفريمين الشجعان، وأن نمارس شيئًا من تأمل برانا-بيندو (أي نقطة الحياة بالهندية) بشكل سريع، ثم نأخذ نفَسًا عميقًا قبل أن نقترب من الأشخاص، وبعدها نصيح: «ياخي شو هادا!» (هكذا وردت في النص الأصلي)، ثم نهتف: «يعيش المناظرون المفكرون!»

تم الاكتشاف على يد: آدم فيرنر

ذكريات مصنوعة من التوابل - صفحة 171/ 224

بطولة موديب
بول أتريديس البطل برأي نيتشه

من: محفوظات البيني جيسيرت

بقلم: الأميرة إيرولان

التاريخ: 10216 حسب التقويم الإغريقي

«أعرف مصيري، وفي يوم من الأيام سيرتبط اسمي بذكرى شيء جلل، بأزمة لم تشبهها أزمة على كوكب الأرض، بأشد تصادم للضمير، بقرار ظهر ضد أي شيء كان الناس يؤمنون به، أو يطالبون به، أو يقدّسونه حتى ذلك الحين ... لا أريد أن أصبح رجلًا مقدسًا خلال فترة قريبة ولا حتى مهرجًا؛ إذ لعلي مهرج، ولكن مع ذلك، أو ليس بالرغم من ذلك؛ لأنه حتى الآن لم يظهر من هم أكذب من الرجال المقدسين، أما أنا فأنطق بالحقيقة، ولكن الحقيقة التي أقولها مرعبة؛ لأن المرء بقي حتى الآن يصف الأكاذيب أنها حقائق. لأنه عندما ستدخل الحقيقة في صراع مع أكاذيب تعود لآلاف السنين، فإننا سنشهد انتفاضات، وستنقبض الأرض وتظهر الزلازل، وستميد الجبال والوديان، بطريقة لم يتخيل أحد أن يحدث ما يشبهها. وسيختلط مفهوم السياسة بمعنويات الحرب بشكل كامل، وستنفجر كل بِنَى السلطة في المجتمع القديم؛ وذلك لأن جميعها قائمة على أكاذيب، وستقوم حروب لم تشهد الأرض شبيهًا لها؛ أي إن البداية لن تكون إلا معي عندما تدرك الأرض معنى السياسة العظيمة. وأنى ترَ المثاليات أرَ ما هو بشري، ولكن يا حسرة، كل شيء مبالغ في بشريته».

فريدريك نيتشه، هو ذا الرجل (مقدمة)

مع وصول ثلاثية ملحمة الكثيب إلى نهايتها، يجري «أسد أتريديس» المسيح الحي ليتو الثاني أسرع من الريح، «هنالك غشاوة فوق الكثبان الرملية». يجري ليتو بالمعنى الجسدي للكلمة، وبالمعنى النفسي للكلمة، ليصبح ما يفعله طريقة للهروب من إنسانيته، «لأن ذكريات الإنسان غنية داخله». أن تكون إنسانًا، أو أن تكون «إنسانًا جدًّا بشكلٍ كامل»، كما هي حال ليتو على وجه الخصوص، نعمة ونقمة في آنٍ معًا. ترسم هذه الثلاثية بطريقة غنية ومعقدة كم هو مؤلم أن تكون إنسانًا! وكم يمكن أن يتصرف البشر بقسوة بعضهم تجاه البعض. في الحقيقة، تلك الأفعال ليست «قاسية» بقدر ما هي بشرية، وهذه الصفة البشرية تصل إلى منتهاها لدى ليتو. فحياة والد ليتو؛ أي الرجل الموجود داخل ليتو نفسه، وهو بول أتريديس، تعبر عن تلك الصفة بأشد صورة مأساوية.

يمكن قراءة ثلاثية فرانك هيربرت العظيمة هذه على مستويات عديدة، فهي تتصف بالـ«خيال» بكل تأكيد، ولكننا لا نتعامل هنا مع كائنات تختلف عنا تمام الاختلاف عبر مقاومتها ورفضها للخوف أو التعاطف؛ لأن تلك الكائنات جميعها بشرية للغاية؛ أي إنها تعاني ولديها رغباتها، وتنزف، وتموت، ولديها طموحاتها، وعائلاتها، ودينها. ومن الناحية الجغرافية، تظهر الأحداث على ساحات مختلفة كثيرة، تبدأ من القصور والأجنحة، لتصل إلى الكواكب كلها، وإلى الإمبراطورية نفسها، غير أن أهمية الجغرافيا المادية من حيث الحجم لا تقارن بتأثير تلك البيئات على نفوس من يقطنها. إذ بوسع أحد الرجال أن يحكم آلاف الكواكب، لكنه يبقى رجلًا. فها هو الواعظ، الذي حكم في وقت من الأوقات تلك الكواكب، يشير إلى الأمير فارادن في رواية أبناء الكثيب، فيقول:

«قد تظهر الحكومات وتسقط لأسباب تبدو غير مهمة أيها الأمير. يا لها من أحداث صغيرة! جدال بين امرأتين ... من أي جهة ستهب الريح في يوم معين ... عطاس، سعال، طول العباءة، أو ارتطام مفاجئ يحدث بين حبة رمل وعين أحد رجال البلاط. إذ ليست فقط المخاوف العظيمة التي يبديها وزراء الإمبراطورية هي التي ترسم مسار التاريخ، كما أن تبجيل القساوسة لا يحرك بالضرورة يدي الله».

في الحقيقة، إن الأحداث «الصغيرة» مهمة كما الأحداث «الكبيرة»، وهذا ما أعرب عنه الواعظ بقوله: «لا توجد أضداد عنيدة إلا في معتقدات الرجال، وفي أحلامهم أحيانًا».

موديب: ساخر وغير منطقي وأسطوري

إن العَظَمَة تجربة زائلة، فهي لا تبقى إلى الأبد، بل تعتمد في جزء منها على الخيال الذي يقوم بصناعة الأساطير حول بني البشر. والشخص الذي يختبر العظمة لا بد أن لديه مشاعر تجاه الأسطورة التي يعيشها؛ أي إنه لا بد أن يعكس ما تم إسقاطه عليه، كما يجب أن يكون لديه أيضًا حسٌّ عالٍ بالسخرية؛ لأن هذا ما يفصله عن الإيمان بالمظاهر الموجودة لديه؛ لأن الجانب الساخر هو الشيء الوحيد الذي يسمح له بالتحرك داخل نفسه، وبدون تلك الصفة، يمكن لأي عَظَمَة عارضة أن تدمر الإنسان.

من مقولات لموديب جمعتها الأميرة إيرولان

(من رواية الكثيب).

إن بول أتريديس؛ أي موديب، بطل وإله في أعين مليارات الناس، لكنه يرى «الصغير» و«الكبير» كما هو في الواقع. والأبطال العظماء في تاريخ البشرية يمكن أن يخسروا أنفسهم مقابل عظمتهم؛ إذ يمكن أن يؤمنوا بأسطورتهم الشخصية التي بوسعها أن تدمرهم. ثم إن

الكثير من الشخصيات التاريخية في الزمن الغابر أحسنت صنعًا عندما انتبهت لهذه الملاحظة النفسية حول صفة السخرية، واستعداد المرء للاستهزاء بنفسه. ولا بد أن الفيلسوف الألماني فريدريك *نيتشه* (1844-1900) قد أقرَّ بالحاجة للفكاهة وسخرية المرء من نفسه، إذا قُيِّض للمرء أن يكون عظيمًا وفي الوقت ذاته مستقرًّا من الناحية العقلية. وفي كتابه «النبي» تمثل شخصية *زرادشت* بالنسبة *لنيتشه* هذا النوع من العظمة الساخرة، حيث جاء فيه:

«هذا التاج القائم على الضحك، ذلك التاج القائم على إكليل من الورد، أنا من وضعت هذا التاج فوق رأسي، وأنا بنفسي طويت ضحكي، ولم أجد ما هو أقوى منه اليوم. زرادشت الراقص، زرادشت الخفيف، الذي يرفرف بجناحيه، استعدادًا للتحليق، ويرفرف لكل الطيور، وهو مستعد وجاهز، بكل طيبة قلب ونعمة ومرح: زرادشت النبي، زرادشت النبي الضاحك، إنه ليس بعَجول ولا عنيد متصلِّب، بل إنه ذلك الشخص الذي يحب القفز والمغامرات، وأنا بنفسي وضعت هذا التاج فوق رأسي!» **(من كتاب: هكذا تكلم زرادشت، فصل: «عن الرجل الأعلى»)**.

ينبغي على المرء ألا يأخذ نفسه على محمل الجد كثيرًا، وهذا ما يعرفه بول أتريديس تمامًا. ففي رواية الكثيب، يلاحظ البارون هاركونين ذلك، فيقول: «لديهم نبي جديد أو زعيم ديني بشكل من الأشكال بين شعب الفريمين ... وينادونه بموديب ... مضحك للغاية، فعلًا، فهذا يعني: «الفأر». سبق وأن أخبرت رابان أن يدعهم ليختاروا دينهم، فهذا سيبقيهم مشغولين». أي إن البارون، فسر حالة السخرية والتسلية - بلا أي حكمة كما تبين لاحقًا - على أنها حالة تسخيف وتحقير؛ ولهذا لم يُقدِّر قوة الدين حق قدرها. إذ في الوقت الذي يمكن فيه للدين أن «يبقيهم مشغولين» فعلًا، انشغل هؤلاء بما بقي البارون يجهله. فالبارون يبحث عن الطرق الملتوية، وعن المنطق البارد الذي يبديه المينتات ثوفير هاوات، إلا أن الدين لا يتبع المنطق، وعن ذلك يقول:

«في أعماق اللاوعي البشري ثمة حاجة ماسَّة لكونٍ منطقي. إلا أن الكون الواقعي يبتعد عن المنطق دومًا مسافة خطوة واحدة» (من رواية الكثيب). ففي كتاب، «ما وراء الخير والشر»، كتب نيتشه ما يلي: «خلف كل المنطق أيضًا، وطغيانه الواضح في الحركة، ثمة أحكام قيمة، أو إذا أردنا أن نعبر عن ذلك بوضوح، هنالك طلب فسيولوجي لحفظ نوع معين من الحياة». أي إنه عندما لا يتبع أحد تلك الأشياء المنطق، فهذا لا يعني أنه غير مهم أو قوي. وذلك لأن المنطق والعلم و«التطور» بوسعهم أن يقدموا لنا فهمًا واحدًا للعالم، وليس بالضرورة أن يكون ذلك هو الفهم «الصحيح».

إذن فإن السؤال المهم بالنسبة لنيتشه ليس إن كان شيء معين «حقيقيًا» أم لا، بل هل

القيم التي يرفعها ذلك الشيء تعزز الحياة ولها مكان في هذا العالم العصري الساعي نحو العلمنة! إن افتراض قيمة الحقيقة بالنسبة للبشر يعني أن نفترض وجود حالة انسجام بين الحقيقة وطبيعتنا؛ وذلك لأن الحقيقة تناسبنا بحكم الطبيعة، والسعي لبلوغ «الحقيقة» موجود في الفلسفات والأديان منذ آلاف السنين، إلا أن نيتشه يطرح السؤال الآتي: ماذا لو كانت الحقيقة ليست جيدة بالنسبة لنا، فضلًا عن كونها شيئًا لا يمكن بلوغه؟ فالقيم والمعتقدات التي عاش عليها شعب الفريميين لم تكن «حقيقية»، بل «انطبعت بشكلٍ شديد على قول الحقيقة الذي شكّلته البيني جيسيرت» وذلك لتحقيق غرض معين. وبذلك تصبح «الحقيقة» غير مهمة، إلا أن القوة ليست كذلك: «في إحدى المرات أخبرني والدي أن احترام الحقيقة يكاد يكون أساس كل الفضائل، حيث قال لي: إنها شيء لا يمكن أن يأتي من فراغ، وهذا التفكير عميق إن استوعبت مدى إمكانية تقلقل «الحقيقة» وزعزعتها» (من رواية الكثيب).

عندما نظر نيتشه إلى الإنسان، رآه بشرًا «بلا أسطورة»، غير أننا فقدنا السحر الذي يختبره الطفل في المسرح، وذلك عندما أصبحنا نسخر بشدة كما بالغنا في منطقيتنا. إذ عندما ننظر إلى التاريخ، فإننا نقسمه إلى أجزاء وننتقده، وعندها يصبح ما يهم هو «الحقيقي»، وليس «الجميل». كما لم تعد للأساطير أية قيمة؛ وذلك لأنها ليست حقيقية. ولكن عند طرح تاريخ «مينتات» موضوعي وعلمي، فإننا بذلك نقتل الأسطورة والدين؛ لأنه «أسطوري» هو الآخر، وذلك عبر اتهامه أنه باطل، وفج، وغير منطقي وعبثي. ثمة مكان للعلم، ولكن ثمة مكان للأسطورة أيضًا. فلقد علق بيرنارد نايتنغيل تعليقًا رائعًا في أركاديا توم ستوبارد، حيث قال: «لماذا يعتبر التقدم العلمي أهم من الشخصيات؟ ... لا تخلطوا بين التطور والقدرة على بلوغ الكمال. فالشاعر العظيم يظهر دومًا في زمنه، والفيلسوف العظيم يعتبر حاجة ملحة، وليست هنالك أي عجلة في ظهور إسحاق نيوتن، وقد كنا سعداء للغاية بكون أرسطو، فأنا شخصيًا أفضله. ثم إن الفكرة التي تقول إن هنالك خمسًا وخمسين كرة بلورية موجهة نحو عمود التحريك لدى الله هي فكرتي حول وجود كون مُرضٍ. إذ ليس بوسعي أن أفكر في شيء أتفه من سرعة الضوء».

جمود الأسطورة

في التاريخ الذي بين أيدينا، نحتاج إلى نماذج تحتذى، نستلهم منها العظمة عبر تقليدها. وحتى تكون الشخصيات عظيمة يجب أن تكون مؤسطرة، لا مفككة البنيان بحيث تتحول إلى فرد. لذا يجب أن يفتقد أبطالنا لتفصيل معين، وألا تكون كل جوانبهم واضحة، وذلك حتى نملأ الفراغات بـ«ابتكار شاعري» نقدمه؛ أي إن تلك الشخصيات يجب أن تتمتع بالمرونة التي تجعلها جزءًا من زمننا المعاصر. إذ بالنسبة لنيتشه تتألف الحضارة المزدهرة الصحية من

حضارة لديها «قوة مرنة» على «دمج ... ما هو ماضٍ وغريب»، وذلك «لتعيد تشكيل القوالب» الخاصة بالماضي بلغة الحاضر (تأملات في غير حينها). وهذا يعني أن الشخصيات المؤسطرة تعمل عمل قوانين غير مكتوبة بالنسبة لمجتمع معين. وكما لاحظ سيتيل في مسيح الكثيب، فقال: «البعض يقول ... إن الناس يتمسكون بالقيادة الإمبراطورية لأن الفضاء لا متناهٍ. فهم يشعرون بالوحدة بلا رمزٍ يوحدهم. إذ بالنسبة للشعب الوحيد، يمثل الإمبراطور مكانًا محددًا، بوسعهم التوجه إليه بالقول: «انظر! إنه هناك! إنه من يوحدنا». ولعل الدين يخدم الغرض ذاته يا «مولاي».

ينبغي للتاريخ أن يكون مبدعًا، وحتى يصبح كذلك، يجب أن يكون على استعداد لتفحص ذاته على الدوام، كما يقول نيتشه في كتابه: (تأملات في غير حينها): «ينبغي على الإنسان أن يمتلك القوة ويوظفها من حين لآخر في تقسيم جزء من الماضي وحلّه» (ص 75). وإننا نحكم على ذلك بناء على ما ننجزه في الحياة؛ أي بناء على ما يجعلنا نتطور. وعندما تحول موديب إلى إله حي، عاين مخاطر الدين، بالإضافة إلى روحه الإبداعية، فقال: «لديَّ تخمة من الإله وعمل الكاهن! أوَ تعتقد أني لا أرى كل الأمور التي تتصل بالأساطير لديَّ؟ عد إلى معلوماتك مرة أخرى يا هايت. لقد سرَّبتُ شعائري إلى أهم الأفعال البشرية الأساسية، فالناس يأكلون باسم موديب! ويمارسون الحب باسمي، ويولدون باسمي، ويعبرون الشارع باسمي. ولا يمكن لعارضة سقف أن تُرفع في أحقر كوخ يقع في أقاصي غانغيشري دون استحضار بركة موديب!» (من رواية مسيح الكثيب).

عندما بدأ الناس بتأليه الشخصيات، جمدت تلك الشخصيات في مكانها، كما ذكر نيتشه في مقدمة كتابه «شفق الآلهة»: «إن هذه المقالة الصغيرة هي إعلان عظيم للحرب، وفيما يتصل باتخاذ الآلهة، فهم في هذه المرة ليسوا مجرد آلهة العصر، بل آلهة أبدية، يتم لمسها هنا بمطرقة كما يتم لمسها بشوكةٍ رنانة؛ أي إنه لا يوجد آلهة أقدم أو أكثر اقتناعًا أو أشد انتفاخًا وتفاخرًا، ومن بين خلقه، يصبح الكون الذي خلقه رقيقًا وراكدًا: «إنه يقاوم على الدوام الرغبة التي تدفعه لاختيار مسار واضح وآمن؛ إذ يحذر من أن: هذا الطريق سيقود إلى درك الركود» (من رواية الكثيب). وهكذا فإنه يمضي إلى الصحراء ويتحول إلى الواعظ، وتلخص الرسالة الثانية لـ«موعظته على الجبل» في رواية أبناء الكثيب هدفه الجديد وهو: «إن أخطر المخلوقات جميعًا قانون أخلاقي صارم؛ لأنه سينقلب ضدكم ويدفعكم نحو المنافي».

إلا أن موديب «حرّك الكون المسالم، واستبدل الأمن بفكرة الجهاد التي أتى بها» (من رواية مسيح الكثيب)، ولكن ذلك أتى على حساب شعب الفريمين في كوكب أراكيس. إذ بوجود حكم موديب، أخذ شعب الفريمين القديم يرجع إلى الوراء ويتذكر كيف كانت الأمور في السابق. «اشتاق الفريمين للأيام الخوالي وللأساليب القديمة» هذا ما لاحظه سيتيل في

مسيح الكثيب؛ ولهذا تساءل ما الذي أتى بالفريمين فاروق ليشارك في المؤامرة ضد المهدي. ويرثي ستيلغار في أبناء الكثيب لتلك الحال هو أيضًا فيقول: «الصحراء الودودة التي كانت فيما مضى تمتد من القطب إلى القطب، تقلّصت إلى نصف مساحتها السابقة. والجنة الصوفية التي تمتد فيها المساحات الخضراء ملأته رعبًا. لم يكن ذلك كالحلم. إذ عندما تغير كوكبه، أدرك أنه تغير». أي إن التغييرات التي قام بها موديب جعلته يسأم ويملُّ مما خلقه ويرغب في أعماق نفسه بـ«هدم الهيكل الذي بُني على اسمه».

الدين والمعاناة

يجب أن يكون هنالك علم للاستياء، فالناس بحاجة للأوقات العصيبة وللظلم حتى يُطوروا عضلاتهم النفسية.

من مقولات لموديب جمعتها الأميرة إيرولان

(من رواية الكثيب).

الفيلسوف نيتشه من كبار منتقدي الفلسفة، فهو يفضل نتائج علم النفس على الاكتشافات العظيمة والمجردة المفترضة في علم الفلسفة. إلا أن الحقيقة ليست حول ما هو «صغير» أو «كبير»، بل إنها تدور حول الناس، فالبشر ما هم إلا أرواح مشوشة، ودوافعهم ما تزال مشتتة، ورغباتهم تنتقل من شيء إلى آخر. وفي رواية الكثيب، يُظهر شعب الفريمين، بفضل أهمية دينهم وإيمانهم بالمهدي؛ أي المسيح، حالة تكامل تبدو مفقودة بين التفاهات وحالة التشتت والانحلال التي تعم المؤسسات المتحاربة. وبالمعنى الذي طرحه نيتشه، نكتشف أن الفريمين كانوا «أكثر صحة» من الأتريديس أو الهاركونين، بالرغم من أن المؤسسات تنظر إليهم على أنهم بدائيون وقليلو القيمة. في الحقيقة، إن شعب الفريمين أكثر تعقيدًا وقوة مما ينسب إليه.

إلا أن ذلك لا ينطبق على الجيل الجديد من الفريمين، مثل آجارفيز في رواية أبناء الكثيب، «أحد أبناء النسل الجديد الذي أصبح بدينًا بفضل الماء»؛ إذ رأى الواعظ أن ما خلقه أصبح: «على حافة الهبوط الثالث الذي التفت عنه الواعظ؛ إذ يبدو وكأنه نظر حوله، فرأى بمحجرَي عينَيه الفارغَين سكان المدينة المفرطين في أناقتهم، وبعضهم من الفريمين، وهم يرتدون عباءات تشبه الملابس الواقية، غير أنها لم تكن أكثر من أقمشة مزركشة». أي إن شعب الفريمين أصبح «مثقفًا»، إلا أنه فقد الصلابة والحيوية التي يتمتع بها سكان الصحاري. ويمثل بول أتريديس؛ أي موديب ذلك الانقسام بين ما هو متمدن وبربري. فمن جهة أولى، لدينا ابن الدوق الذي درس في أفضل المدارس وتلقّى تعليمًا حول الدين والفلسفة والحكومة والعلوم. وبالمقابل، لدينا موديب، ذلك الشخص الذي عاش في الصحراء والذي أمر بصنع

طبول من جلود أعدائه. إن القشرة الفاصلة بين الجزء المتمدن وذلك البربري أثبتت أنها رقيقة جدًا بالفعل؛ وذلك لأن المعاناة تجعلك صلبًا، ولكن بوسعها أيضًا أن تجعل منك شخصًا أكثر إنسانية.

لذلك لا عجب في أن يعتبر فرانك هيربرت الثقافة الإسلامية مصدر إلهام، وأنموذجًا لصنع الأساطير بالإضافة إلى تقدير الرعب والمعاناة التي يمكن للحياة أن تأتي بها؛ إذ من خلال ذلك تَوصَّل إلى نموذج أفضل أخذه من التاريخ، حيث كتب هيربرت في الملحق ما يلي:

«كان الفريمين شعبًا صحراويًّا اعتاد كل أسلافه على المظاهر غير الودية من الطبيعة؛ لذا لن يكون التصوف صعبًا إن كنت تعيش كل ثانية في حياتك عبر التغلب على حالة عدائية مفتوحة؛ إذ بوجود تلك العادة، تصبح المعاناة أمرًا مقبولًا ... كما أن وجودهم اليومي يعتمد على أحكام قاسية (بل مميتة في كثير من الأحيان)، وهذه الأحكام قد تثقل كاهل الرجال بذنب لا يمكن لأحد أن يتحمله وذلك في أرض ألطف».

وكذلك نيتشه يرى في المسلمين سكان الصحراء من العرب شعبًا مميزًا ونبيلًا؛ إذ يقول:

«لقد سلبتنا المسيحية نتاج حضارة العالم القديم، ثم مضت لتسلبنا نتاج حضارة الإسلام. فالعالم الرائع للحضارة المغاربية في إسبانيا، الذي يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنا بالأساس، يخاطب حواسنا وذوقنا بصورة مباشرة أكثر مما فعلته الحضارة الإغريقية والرومانية، إلا أن هذا العالم قد تم سحقه (ولن أتحدث هنا عن الأداة)، بل سأقول: لماذا؟ لأنه كان نبيلًا، ولأن أصوله تعود لفطرة البشر، ولأنه قال نعم للحياة حتى مع ندرة الثروات الفاتنة في الحياة المغاربية! بعد ذلك، حارب الصليبيون شيئًا كان الأجدر بهم أن يتمرغوا في التراب على أن يفعلوه، فقد حاربوا ثقافة إن قورنت بالقرن التاسع عشر الذي نعيشه اليوم، فسنجد أن عصرنا بغاية الفقر والتأخر». **(من كتابه: المسيح الدجال).**

هاجم نيتشه عصره واتهمه بأنه لين، ذلك المجتمع الذي يصف نفسه بالمتحضر، لكنه في الحقيقة ليس أكثر من «معرض متنافر الألوان» و«مزيج فوضوي» من الأساليب المختلطة المختلفة. إذ بدلًا من المشاركة في الحياة، أصبحنا متفرجين. وفي كتابه: تأملات في غير حينها، يقول نيتشه: «ينبغي على بني البشر العمل بصورة متواصلة على إنتاج رجال عظماء متفردين، فتلك هي مهمتهم الوحيدة دون غيرها» (ص 161). إذ يجب على البشرية أن تخلق الظروف المواتية التي يمكن أن تزدهر فيها الشخصيات العظيمة، كما تزدهر النبتة في التربة التي تناسبها. ولقد لاحظ إيدريك في مسيح الكثيب الأشياء التي خلقها موديب، فسأله: «ما الذي يبقى من الجمال والمتعة؟».

«سندمر كلًّا من شعب الأتريديس وحضارته! فهم ينشرون الحضارة التي تناسب الحكم.

الجمال! إنهم يشجعون على الجمال الذي يأسر النفوس. فهم يخلقون جهل العالم؛ أي أسهل شيء من بين كل الأمور. كما أنهم لم يدعوا أي شيء للصدفة. سلاسل! كل ما يفعلونه هو صناعة السلاسل والاستعباد، إلا أن العبيد يثورون على الدوام».

لم يعد شعب الفريمين القديم حرًّا في هذا العالم الجديد، بل شعر وكأنه مقيد، في الوقت الذي كان فيه نسلهم الجديد لينًا وجاهلًا بأمر سلاسلهم. وعبر خلق جنة على كوكب أراكيس، أدرك موديب أنه أعاد خلق كالادان، حيث قال: «أتينا من كالادان، وهو جنة بالنسبة لشكل الحياة التي نعيشها؛ إذ لم تكن هنالك أية حاجة لبناء جنة حقيقية للعقول على كالادان؛ لأنه كان بوسعنا أن نرى كل ذلك فعليًّا من حولنا. والثمن الذي دفعناه لبناء جنة في هذه الحياة، هو أننا أصبحنا شعبًا لينًا؛ أي إننا خسرنا حدَّتنا» (من رواية الكثيب). كان موديب بحاجة لأن يقصي نفسه في الصحراء وأن يقدم مواعظ ضد كل ذلك، وقد اعتمد على الطريقة ذاتها ليؤكد أن «ابننا سيولد في الجناح» الذي يمكن العثور فيه على الأساليب القديمة النبيلة.

أقام موديب مجتمعًا منظَّمًا اعتقد أنه حر، ولكن وكما يقول بول لتشاني في رواية الكثيب: «إن الإفراط في الحرية يتسبب في حدوث حالة فوضى» وليس بوسعنا أن نأتي بذلك، أليس كذلك؟ وكيف لك أن تجعلي من الاستبداد شيئًا محببًا؟ ... ما هو القانون؟ السيطرة؟ هل يقوم القانون بتنقية الفوضى ليتسرب من خلالها؟ ما السكون؟ القانون ما هو إلا مثالنا الأعلى وأحط الطبائع فينا. لا تنظري للقانون عن قرب، وإن فعلتِ فستكتشفين التأويلات التي جعلت منطقية، والفتاوى القانونية، والسوابق الملائمة. ستكتشفين السكون وهو مرادف آخر للموت «فالعاطفة التي تمثل الحب قد حلَّ الموت محلها والذي هو عبارة عن تنظيم وسكون. يعتقد الناس أنهم يعيشون في مجتمع عادل، إلا أن فلاديمير هاركونين يصرخ قائلًا: «لا شيء يعادل العدالة في أي مكان، فالقرارات يجب أن تقاس فقط بناء على أحقيتها في الحفاظ على مجتمع منظم، فلقد تعثرت حضارات سابقة لا حصر لها على صخور العدالة القائمة على المساواة. وتلك الحماقة تدمر التسلسلات الهرمية الطبيعية التي تفوقها أهمية. إذ إن أهمية المرء تحددها علاقته بكامل مجتمعكم، وإن لم يتم تنظيم ذلك المجتمع بناءً على خطوات منطقية، عندها لا يمكن لأي شخص أن يجد مكانه فيه، ويستوي في ذلك الأدنى والأعلى منزلة. تعالي ... تعالي يا حفيدتي! يجب أن تكوني الأم الصارمة تجاه شعبك؛ لأن مهمتك هي حفظ النظام» **(من رواية أبناء الكثيب)**.

قد يعتقد الشعب أنه يتمتع بالحرية والأمن والمساواة، ولكنه في الحقيقة مقيَّد؛ أي إن أبناء هذا الشعب يُضلِّلون أنفسهم عبر إقناعها بأنهم ينعمون بالمساواة. بيد أن الأحرار بحق ينتمون لشعب الفريمين الموجود في الجناح، وهم يعرفون أنهم يجسدون جزءًا من التسلسل الهرمي الضروري الذي لا ينعم بالأمن أو السلام بأي حال من الأحوال، بل يعيش حالة مستمرة

للأبد من القلق والحرب، كما وصف القزم بيجاز لهايت في رواية مسيح الكثيب فقال:

«إن الحرب مفيدة لأنها فعالة في نواحٍ عديدة وكثيرة، فهي تُحفز على حدوث عملية الاستقلال، كما أنها تجبر الحكومة، وتنشر السلاسل الوراثية، وتتمتع بحيوية لا يتمتع بها أي شيء آخر في الكون. وفقط من يدرك قيمة الحرب ويمارسها يتمتع بدرجة من درجات تقرير المصير وحرية الإرادة».

النبي

كان محاربًا ومتصوفًا، غولًا وقديسًا، ثعلبًا وبريئًا، شهمًا لكنه لا يرحم، أدنى من إله، وأكثر من مجرد إنسان. لا توجد معايير عادية يمكن من خلالها لدوافع موديب أن تقاس. ففي لحظة انتصاره، رأى الموت وقد جهز له، إلا أنه تقبل الخيانة، هل بوسعك أن تقول إنه فعل ما فعله بسبب حسه بالعدالة؟ وإن كان الأمر كذلك، فعدالة مَن تلك إذن؟ تذكَّر أننا نتحدث الآن عن موديب الذي أمر بصنع طبول الحرب من جلود أعدائه، موديب الذي تخلى عن تقاليد حياته السابقة كدوق بحركة من يده، حيث قال بكل بساطة: «إنني الكويستاز هاديراتش، وفي ذلك من المنطق ما يكفي».

من يقظة أراكيس بقلم الأميرة إيرولان

(من رواية الكثيب).

لم يسألني أحد كما يجب أن يسألني عما يعنيه اسم زرادشت بالنسبة لي على وجه الخصوص؛ أي بالنسبة لأول فاسق. كان زرادشت أول من رأى في الصراع بين الخير والشر تلك العجلة التي تُصنع من خلالها الأمور: أي ترجمة الأخلاق إلى عالم ما وراء الطبيعة، إلى قوة وسبب وغاية بحد ذاتها ... إلا أن زرادشت خرج بأكبر خطأ مشؤوم، ألا وهو الأخلاق؛ إذ لا بد أنه أول من اعترف بها. إذ تتمسك تعاليمه، تعاليمه لوحده فقط، بالحقيقة بوصفها الفضيلة الأسمى؛ أي إنها بخلاف الجبن بالنسبة للشخص المثالي الذي يهرب عند مجابهة الحقيقة، ما يعني أن زرادشت يتمتع بشجاعة أكبر من بقية المنظرين والمفكرين أجمعين.

هو ذا الرجل، «لماذا أنا القدر»؟

«يوحد الدين قوانا، ولذلك فهو سحرنا»، هذا ما قاله بول أتريديس، فقد خلق موديب الدين ليوحد، ثم أصبح الواعظ ليدمر ما خلقه. أما نيتشه فيستحضر زرادشت لأن هذا النبي الفارسي خلق دينًا، ثم عاد اليوم ليدمر فكرة الإيمان عبر مجموعة من القيم؛ لأن ذلك يمثل «أكبر خطأ مشؤوم». يبشر زرادشت بقدوم نوع جديد من البشر، ويصفهم بالبشر الخارقين. والتركيز هنا يقع على الشجاعة، وعلى النبل والقدرة على مجابهة الواقع والحقيقة، بما أن

تلك الأمور تعتبر فضائل حقيقية يتميز بها الإنسان العظيم، بدلًا من الجبن الذي تتحدث عنه المثالية الزائفة.

«أُنكر في البداية ذلك النوع من البشر الذي بقي يعتبر حتى الآن أنه الأرقى والجيد والمحسن والرحيم، وأنكر في المقام الثاني هذا النوع من الأخلاق التي ظهرت لتكون مقبولة ولتهيمن كالأخلاق نفسها، وأعني هنا أخلاق الانحطاط؛ أي بعبارة أوضح: الأخلاق المسيحية». **(هو ذا الرجل، «لماذا أنا القدر»)**.

كان زرادشت أول نبي زعم أن النجاة يمكن الوصول إليها عبر السلوك الأخلاقي، وبذلك تصبح المسؤولية الشخصية في المقدمة؛ أي إن الفرد سيحاسب يوم الحساب. كما ينظر إلى الزمن على أنه خطي ويتحرك بطريقة أخلاقية نحو اكتماله الأخير في الصراع بين الخير والشر. ويعترف نيتشه بالتقليد الإبراهيمي للأديان التي أتى بها أنبياء والتي تعجب السلطة التي هي أعلى من السلطة الموروثة أو المدنية، لكنه يرى أن أصولها تعود لما هو أبعد من ذلك؛ أي إلى العمل الذي قدمه زرادشت، كما ذكر نيتشه في كتابه: هو ذا الرجل، حيث قال:

«كان زرادشت أول عالم نفس بالصالحين؛ وبالتالي كان صديقًا للأشرار الطالحين. فعندما تتم ترقية فصيلة فاسدة من البشر لتصل إلى مرتبة أعلى فصائل الإنسان، فإن ذلك لن يحدث إلا على حساب فصيلة متناقضة من البشر، تلك الفصيلة من البشر التي تتمتع بالقوة والثقة بالحياة» **(من فصل: «لماذا أنا القدر»)**.

إن هذا التصوير لشخصية زرادشت يمهِّد الطريق لظهور شخصية موديب الذي يتعين عليه أن يقتل حتى يحكم ويقود غيره.

يتحدث نيتشه عن مستقبل الإنسانية، ولكن عن نوع مختلف من الإنسانية؛ إذ يمثل الإنسان الحبل المربوط بين الحيوان والإنسان الخارق؛ ولهذا يتعين عليه أن يقهر نفسه، ونقيض ذلك هو الرغبة في المحافظة على الذات التي يتسم بها موقف «الإنسان النهائي». فقد اكتشفت الإنسانية السعادة والقناعة، ولكنها لم تعد مستعدة لخوض غمار المخاطر أو لتجربة أي شيء ممكنٍ نتيجةً لذلك.

وهذه ليست بسعادة حقيقية، وهذا ما أدركه شعب الفريمين القديم بشكلٍ كامل، في حين لم يهتم له كثيرًا ذلك الجيل الجديد من شعب الفريمين الذي أصبح بدينًا بفضل الماء. إلا أن النبي الجديد الذي يتحدث عنه نيتشه بشري بأكمله وللغاية، فقد رفض زرادشت الإيمان بالآلهة، أو بالحياة الآخرة، وصار ينظر داخل نفسه ليتغلب على العقبات وليحافظ على انضباطه الذاتي. وتمثل شخصية موديب تلك الصفة التي تدور حول الانضباط الذاتي؛ إذ في الوقت الذي يكون فيه الدين مهمًّا بوصفه قوة توحيد؛ أي تلك القوة التي اعترف بها كلٌّ من

موديب وزرادشت، ينبغي على النفس ألا تعتمد على التدخل الإلهي في تحقيق أهدافها. ومع ظهور فكرة الرجل الخارق التي أتى بها نيتشه، والمقصود بذلك نبيُّه الجديد، أصبح لدينا شخص على استعداد للتخلي عن الراحة والأمان بحثًا عن العَظَمة؛ وذلك لأن تجاوز فكرة الخير والشر كما يفهمها عامة الناس يتمثل في خوض المخاطر وتعريض المرء نفسه للخطر.

يمثل كلٌّ من النبي زرادشت والنبي موديب إنسانًا من بني البشر، فهما بشر «فحسب»، يتخليان عن الأمن الذي توفره الثروة والأسرة لتحقيق هدفهما بالرغم من كل الشكوك التي تساورهما. ولذلك أصبحا منبوذَين، وموضع سخرية بالنسبة لكثيرين. كما أن جميع المؤشرات التي تدل على ظهور رجل خارق تبدو وكأنها مؤشرات تدل على ظهور مرض أو جنون بالنسبة لقطيع البشر؛ ولهذا يقول زرادشت: «الجميع يرغب في الشيء ذاته، وكل شخص يشبه الآخر، إلا أن من يفكر يمضي غصبًا عنه إلى مشفى المجانين». بالرغم من تهجمه على كل ما يُعبد، نجد أن نيتشه يتعلق بما هو مثالي؛ وذلك لأن الإنسان الخارق يمنحه الأمل بقدوم المستقبل؛ لأنه يمثل ذلك النموذج الأصلي الذي يتصرف وكأنه قوة تأمل تعمل على توجيه المرء في الزمن الحاضر إلى المستقبل. وتلك هي الفكرة التي قدمها فرانك هيربرت من خلال شخصية موديب، وبالطبع من خلال شخصية ليتو الثاني التي تجسده حيث يقول: «ما الابن إلا امتداد للأب» (من رواية الكثيب).

تم التسجيل على يد: روي جاكسون

فريدريك نيتشه يمضي نحو الفضاء

من محفوظات البيني جيسيرت

رأي بديل للأميرة إيرولان

بقلم: الأم الموقرة بيلوندا

التاريخ: 15210 حسب التقويم الإغريقي

تقدمت بثلاث أفكار جريئة حول فرانك هيربرت ورواياته التي تحمل العنوان الكثيب وهي:

• فرانك هيربرت فيلسوف.

• إنه فيلسوف ليس فقط بالطريقة التي يمكن لأي أحد أن يكون لديه من خلالها «فلسفة» حول شيء أو آخر، بل إنه أيضًا فيلسوف صادق لدرجة الطيبة، فهو يستعين برواياته ليؤسس فلسفته وينقلها للناس.

• تمثل ملحمة الكثيب التي كتبها هيربرت عملًا فلسفيًّا يتفاعل مع أفكار فريدريك نيتشه بصورة أساسية ومع الطريقة التي يمكن من خلالها فهم أفكار نيتشه عن البشرية في ظل الفظائع الموجودة في القرن العشرين.

من زرادشت إلى موديب

يخبرنا أهم تعريف أساسي موجود في الموسوعات حول فريدريك نيتشه أنه فيلسوف من ساكسونيا، ولد عام 1844، وتوفي عام 1900. وقد يرد في ذلك التعريف بعد مزاملته للفيلسوف ريتشل صاحب المذهب الكلاسيكي وتأثره الشديد بكتابات الفيلسوف شوبنهاور، أنه كان من أصغر الأساتذة الجامعيين الذين تم تعيينهم لشغل منصب رئيس قسم فقه اللغة الكلاسيكي لدى جامعة بيزيل، وتلك طريقةٌ رائعة لنخبرك عزيزي القارئ أنه قام بتدريس الحضارات اليونانية والرومانية.

إلا أن شهرة نيتشه الأساسية تأتي من معرفته بالثقافة الشعبية الحديثة، التي عاشت حالة انتعاش في ستينيات القرن الماضي، ومن كتابه الغريب والرائع الذي كتبه بين عامي 1883-1885 والذي يحمل العنوان: هكذا تكلم زرادشت. إذ يمثل زرادشت هنا عملًا يدور حول الفلسفة السردية والشاعرية، تدور فكرته الرئيسية حول نضوج البشرية وتحولها إلى بشرية خارقة أي Übermensch، حيث تترجم هذه الكلمة إلى «فوق بشري» أو «إنسان

خارق»، كما يمكن أن تترجم إلى ما بعد الإنسان. ولكن علينا أن نتفق بشكل أساسي أن شخصية الإنسان الخارق أو سوبرمان ليست شخصية تعتمد على ارتداء زي معين ورد ذكرها في كتاب هزلي، كما أن هذه الشخصية لا تمثل أفضل البشر أو أشدهم بأسًا. إذ بالرغم من أن هذه الفكرة تعتبر من أهم الأفكار المغلوطة عن فكرة نيتشه، إلا أنه يعالجها بشكل مباشر في الصفحات الأولى من كتابه زرادشت، حيث يصف تلك الفكرة أنها تدور حول الإنسان النهائي؛ وذلك لأن الكثير من قراء نيتشه يخلطون بين الإنسان النهائي وبين السوبرمان أو الرجل الخارق الذي تحدث عنه نيتشه، إلا أن هيربرت يستعين بأفكار نيتشه حول هذين المفهومين بالطريقة نفسها التي اعتمدها هو.

كما ينسج هربرت في ملحمة الكثيب فكرة نيتشه حول «التكرار الأبدي» والتي ترى أنه يتعين على المرء أن يعيش وكأنه سيكرر حياته مرات ومرات إلى الأبد. وإن كانت تلك الفكرة عصية على فهمك، فلا تقلق، لأنك لست وحدك في هذا. ولكن إن شاهدت فيلم جمعية الشعراء الموتى الذي أنتج في عام 1989 والذي يقوم على فلسفة «اغتنام اليوم» التي جاء بها جون كيتينغ، فإن هذا الفيلم يعتبر أفضل موضع للبدء بالتفكير حول تلك الفكرة. وذلك لأن الجزاء والقيمة ومعنى الحياة يجب أن يستمد من الحياة، وليس من أي عالم خارجي ما وراء الطبيعة، أو من خلال أي منظومة للأخلاق أو الآداب.

يمكن النظر إلى عمل نيتشه بأكمله على أنه ردة فعل تجاه الطريقة التي طورت بها أوروبا المسيحية (أو عبر تعميم أي ثقافة تتمتع بخلفيةٍ دينية)، منظومة للأخلاق والضروريات مرتبطة سواء بشكل جزئي أو كامل بوجود «إله» ميتافيزيقي وبعمله وأوامره. إذ يمثل عمل العلم المبهج (1882) مثالًا واضحًا على هذا النوع من التفكير، كونه يضع أسس مشروع زرادشت الطموح، ثم إن زرادشت مميزٌ بين أعمال نيتشه، وهذا لا يعود فقط لاحتوائه على أفكار نيتشه التي لم يناقشها في أي مكان آخر، ولم يتطرق لها في أي من أعماله اللاحقة، بل لأنه يربط بين الكثير من أعماله من خلال شكل طالما وقفت الفلسفة ضده، ألا وهو فن الرواية.

ولكن بصرف النظر عن عدد الفلاسفة الأكاديميين الذين ناضلوا ضد هذا الشكل ورفضوه، فإن كل حضارة تعرف أن سرد القصص يعتبر طريقة فعالة للغاية للتحفيز على الفهم والعمل في آنٍ معًا. وقد أدرك نيتشه، الذي يعتبر أهم من حطم الدين وأخلاقه معًا، هذه الفكرة بشكل أفضل مما يعتقده كثيرون. أما حفيده الذي ورث فلسفته؛ أي فرانك هيربرت، فقد تمتع بالموهبة والقدرة على محاكاة برنامج نيتشه وتوسيعه ضمن بيئة القرن العشرين، وذلك في أعقاب أحداث أكدت على أهمية ما سعى نيتشه ليعلمنا إياه.

المتوازيات

هنالك نوعان من المتوازيات في عمل نيتشه وهيربرت، يتصل النوع الأول بالأفكار؛ أي أفكار نيتشه حول الإنسان الخارق والإنسان النهائي، والتكرار الأبدي، التي نسجت ضمن النسيج الأكبر لملحمة الكثيب. أما النوع الآخر من المتوازيات بين عملَي نيتشه وهيربرت فيتصل بالبنية السردية؛ أي الطريقة التي تتكشف بها القصة وتتطور. وحيثما نجد بنية سردية موازية، نكتشف أنها تسلط الضوء على الأفكار التي أخذها هيربرت من كتاب زرادشت لنيتشه.

زرادشت: ملخص سريع

تدور حبكة زرادشت حول «هبوط» النبي زرادشت (على غرار المصلح الديني الفارسي القديم زرادشت تقريبًا)، وذلك من ملاذه الجبلي، حيث بقي يتأمل طوال عشر سنوات، إلى عالم البشر من جديد. وطوال الطريق، يلتقي هذا الرجل بالعديد من الأشخاص والجماعات، ويصبح شاهدًا على الكثير من الأحداث المتنوعة، كما يعظ الناس، ويعلق على ما يجري، ويتفكر فيما يراه ويختبره. ومنذ بداية الكتاب تقريبًا، يبدأ مهرج شيطاني، يقف ضده ويتصرف بطريقة تشبه طريقة مهرج البلاط، بتعقب زرادشت والوقوف ضد وجهة نظره.

هذا وتحدد توطئة هذا الكتاب أساسيات موقف زرادشت بما يلي:

1- الله ميت.

2- يجب على الإنسان أن يتغلب على اعتماده على القوانين التي تتصل بالأخلاق والآداب لكونها مستمدة من الخرافات.

3- وهكذا ستتحول البشرية إلى بشرية خارقة؛ أي ستصل إلى مرحلة النضج التي تعتبر الإنسان سلفًا.

4- يمثل «الإنسان» مرحلة من التطور مثل الحبل الرفيع المشدود بين الحيوان والإنسان الخارق.

فسَّر البعض ذلك أن نتيشه يقول إن بعض البشر يمكن أن يصبحوا خارقين، وكأنه يقدم دليلًا لمساعدة النفس على تحقيق النجاح. بيد أن الربط الخاطئ بين أفكار نيتشه والحزب الاشتراكي الوطني في ألمانيا يتمثل في مسايرة هذا التأويل لتلك الفكرة، بل حتى النظرية النازية تعتبر في أحسن أحوالها بمثابة سوء فهم لفكرة نيتشه، وذلك عبر ربط أفكاره بأفكار

النازيين بشكل يجعل من ذلك سببًا من أسباب استغرابنا لاستخدام هيربرت تلك الأفكار بالطريقة نفسها التي استخدمها نيتشه. ولكن على عكس كل ما ورد، فإن الإنسان الخارق يمثل الشكل الذي يجب على سائر البشرية أن تصل إليه في حال تغلبها على اعتمادها على الخرافات، وتحديد مسارها بنفسها. ففي توطئة الكتاب، تطرق نيتشه للحديث عن ذلك النوع من حالات سوء الفهم التي تجلت بتبني النازيين لأفكاره، حيث وصف ذلك بالإنسان النهائي وهو نوع من سوء الفهم الذي يفضي لجعل الإنسان يعتقد أن بوسعه أن يصبح أكثر أهمية من أي نوع آخر من البشر.

قد يدرك من اطلع على ملحمة الكثيب وجود تشابه هنا مع الغرض من برنامج ليتو الثاني؛ أي نقل البشرية من اعتمادها على الآلهة إلى مستقبل لن تسمح فيه البشرية لنفسها مجددًا أن تسيطر عليها رؤية متجانسة أو فرد واحد، سواء على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو الديني أو غير ذلك، وذلك من خلال غاية الطريق الذهبي.

المتوازيات من النوع 1: الواعظ وزرادشت يتوجهان نحو المدينة

هنالك ثلاثة متوازيات محددة بين الحلقات في سلسلة الكثيب وزرادشت والتي يمكن أن تساعدنا على أن نعرف أن البنية السردية لهيربرت تدين لزرادشت. إذ تأتي أولى المتوازيات على النحو الآتي: في رواية أبناء الكثيب، يدخل موديب الذي أصبح أعمى عضويًا لكنه يبصر من خلال علم الغيب كوكب أراكين بعد غياب يمتد لعقد من الزمان تقريبًا (تمامًا كما يدخل زرادشت لأول مدينة في أول رحلة له نحو الأسفل). يرتقي «الواعظ» سلالم معبد علياء، ويراقب السوق الذي يعجُّ بالأعمال:

«يطرأ تحولٌ مفاجئ بين الحشد عند مهبط السلالم، فقد أتى مراقصو الرمال إلى الساحة عند أسفل الدرج ... ثم إنهم مرتبطون بعضهم ببعض بفضل حبال إيلاكا. من الواضح أنهم كانوا يرقصون على تلك الشاكلة طوال أيام، وهم ينشدون حالة النشوة. يسيل الزبد من أفواههم مع كل هزة وركلة للأرض مع موسيقاهم السرية. يتدلى ثلثهم بالكامل من الحبال وهو فاقد للوعي، حيث يشدهم الآخرون للأمام والخلف كالدمى المربوطة بالخيوط. لكن استيقظت إحدى تلك الدمى فجأة، فأصبح الحشد على ما يبدو يدرك ما الذي سيحدث بعد ذلك».

إن سردية كتاب للجميع وللا أحد (بحسب العنوان الفرعي الذي وضعه زرادشت)، يتوازى مع ذلك؛ إذ يصل زرادشت إلى ساحة السوق: «لأنهم أعلنوا أن أحد من يستطيعون السير على حبل مشدود سوف يظهر» ولذلك يبدأ على الفور بأول حديث مشهور له حول الإنسان الخارق، فيقول:

«إنني أعلمكم عن الرجل الخارق، فالإنسان يمثل شيئًا يجب أن يقهر، فما الذي فعلتموه حتى تقهروه؟

كل المخلوقات خلقت شيئًا خارج نفسها حتى الآن، فهل ترغبون أن تمثلوا حالة الجزر والانحسار لهذا المدّ العظيم؟ هل ترغبون في العودة إلى الحالة الحيوانية بدلًا من أن تقوموا بقهر الإنسان؟

ما الذي يمثله القرد بالنسبة للبشر؟ موضع سخرية أم إحراج ممضٍّ؟ ينطبق الأمر ذاته مع الإنسان أمام الإنسان الخارق؛ إذ إنه ليس أكثر من موضع سخرية أو إحراج ممضٍّ» (ص 41).

في كلتا الحالتين، ثمة حالة يظهر فيها شيء مقيد ويدور ويسترعي الانتباه. وفي كلتا الحالتين، يستعين الواعظ-النبي بتجمع الناس وردة الفعل تجاه هذا المنظر اللافت للانتباه بوصفه مناسبة لتقديم تعاليمه: إذ هنالك حالة توازٍ مع مادة زرادشت التي اقتبسناها للتو، وذلك في رواية أبناء الكثيب، ويتجلى هذا في الرد على ضحك الجمع على منظر مراقص الرمال حول الخراب النهائي لكوكب أراكين، حيث يصرخ الواعظ قائلًا: «هدوء! ... ألم تسمعوا ذاك الرجل؟ أيها الكفرة المشركون! كلكم! إن دين موديب ليس موديب. فهو ينبذه كما ينبذكم!» وعند الرحيل، يلتفت الواعظ ويعرض على الجمع المحتشد شيئًا كان يحمله في كيس، ثم يقول: «إنها يد إنسان حنَّطتها الصحراء، لقد جلبت يد الله، وهذا كل ما حملته معي».

ومباشرة قبل دخول المدينة التي تمثل المشهد الرئيسي للأحداث في توطئة زرادشت، يركض زرادشت نحو «قديس عجوز» في الغابة، كان يعرف زرادشت قبل لجوئه إلى الجبل وانعزاله فيه. وفي تلك المرحلة من السردية، وبعد أن يفرغا من الحديث؛ أي مباشرة قبل دخول المدينة وقبل أن يهتف: «إنني أعلمكم عن الإنسان الخارق»، يسأل زرادشت نفسه إن كان «القديس العجوز قد سمع في غابته أن الله مات» (ص 41). أي إن الواعظ لدى هيربرت وزرادشت يؤديان وظائف متكافئة، إلا أن جمهورهما لا يتأثر بهما ولا يستطيع أيٌّ منهما إقناع جمهوره.

عندما يدخل زرادشت المدينة، يلتقي القارئ للمرة الأولى بشخصية تشبه المهرج والشيطان. إذ يمثل الشخص الذي يسير على حبل مشدود استعارة بصرية لتعاليم زرادشت حول الإنسان الخارق. إذ بدلًا من أن يكتفي بإخبارنا أن الإنسان يمثل مرحلة بين الحيوان والإنسان الخارق، يرسم نيتشه صورة ويدعونا لرؤية ذلك الإنسان الذي يمثل تلك المرحلة بين الحيوان والإنسان الخارق. إلا أن ما يقلق راحة ذلك الشخص الذي يسير على حبل مشدود خلال تقدمه بين الأبراج، هو شخص يرتدي ثيابًا زاهية الألوان يشبه المهرج يلحق به

من خلفه، ويحثه على التقدم ومن ثم الخروج عن ذلك الطريق. وفي نهاية الأمر، ومع ظهور «صرخة تشبه صرخة شيطان»، يقفز المهرج على الشخص الذي يسير فوق الحبل المشدود فيتسبب في وقوعه وموته (ص 47-48).

وكما هي حال ليتو الثاني، الذي يبدأ تحوله الجسدي إلى مخلوق هجين يجمع بين الإنسان ودودة الرمل، بمجرد أن يصافح الواعظ «يد الله» أمام حشد في أراكين، لا يكترث الشيطان-المهرج البتة بحياة الشخص الذي يسير فوق حبل رفيع؛ لأن ما يهم ليتو هو «الطريق الذهبي» وحسب. ومن تلك الناحية، نجد أن ليتو يمثل الشيطان-المهرج والإنسان الخارق، ليس بسبب قوته وسرعته التي اكتشفها حديثًا، بل فقط بسبب إخلاصه وتفانيه تجاه الطريق الذهبي. أما القهر الذي يعظ زرادشت به فلا يتصل بالتحول إلى إنسان أعظم، بل بالتحول إلى إنسان مُتسامٍ. وبالطريقة ذاتها، فإن التطور الشخصي الذي عاشه ليتو الثاني في تحوله إلى كائن هجين بين دودة رمل وإنسان لا يمثل ذلك النوع من التطور الذي يتمنى لأي إنسان غيره أن يخضع له، على الرغم من أنه من المهم بالنسبة له أن يكون بمثابة دافع يحفز البشرية على تغيير نفسها إلى شيء يتجاوز البشرية كما ألفاها ليتو.

إن الأحداث التي تأتي عقب ظهور الواعظ في أراكين توسع من المقارنة بين ملحمة الكثيب وزرادشت؛ إذ مع اقتراب رواية أبناء الكثيب من نهايتها، وفي حوار بين آسان طارق وليتو في اجتماع مع «الواعظ» وابنه في الصحراء، ثمة مقطع عصي على الفهم؛ إذ بعد أن يقوم ليتو بمناداة جني مرات عديدة، يكرر طارق ما قاله فيقول: «إنك جني»، فيرد عليه ليتو: «جنيك، لكنك أنت جنيي». وهذا الحوار يماثل بنية الحوار في اجتماع زرادشت مع الشيطان وفكرة التحول إلى إنسان خارق، والتي تعمل عمل الشيطان-المهرج الذي يحفز على التغيير. وبالرغم من وجود الكثير من المواد المتداخلة في أبناء الكثيب، فإن الأحداث والنقاش يظل في حالة تواز تقريبًا مع البنية السردية لزرادشت. إلا أن التوازي في المفاهيم والأفكار دقيق للغاية.

المتوازيات من النوع 2: الإنسان النهائي ودين موديب ودين ليتو

خلفية تاريخية

لا بد أن تتخذ حالة التوازي السردية الثانية المزيد من التبسيط مقارنة بالحالة الأولى، أما أنا فسأحتاج لبعض الوقت هنا حتى أحاول أن أفهم سبب استعانة هيربرت بعمل نيتشه بكل هذا التوسع في ملحمة الكثيب. ولذلك، لا بد من مراعاة الأحداث التي جرت على مدار العقود الفاصلة بين الفترة التي نشر فيها نيتشه عمله وأول عمل نشره هيربرت من ملحمة الكثيب مع استمراره بالنشر حتى وفاته في ثمانينيات القرن الماضي. وبالطريقة ذاتها تقريبًا، تم

النظر إلى أفكار نيتشه ورؤاه وإعادة النظر فيها مرة أخرى خلال هذه الفترة، وكذلك الأمر بالنسبة لهيربرت الذي وضع ما قاله نيتشه بخصوص البشرية ضمن سياق أحداث حدثت فيما بعدُ.

في أحد الاقتباسات التي ترد ضمن عناوين الفصول في رواية البيت المقسم: الكثيب، يقول سيد طائفة الزن الصوفية (والذي يصبح هنا سيد التليلاكسو، بالرغم من أن ذلك لم يكن معروفًا ضمن السردية)، ما يلي: «إن من يأخذ المبتذل والعادي ويلمعه بطريقة جديدة بوسعه أن يُخيف. إننا لا نريد لأفكارنا أن تتغير؛ إذ إننا نحس بتهديد تلك المطالبات، ونحن نقول: إننا نعرف الأمور المهمة قبل ذلك! ثم يأتي أحد المُغيرين ويرمي بأفكارنا القديمة بعيدًا».

إن استخدام كلمة «مبتذل» هنا يذكرنا بالعمل الذي نشر في الوقت نفسه تقريبًا الذي نشر فيه عمل الكثيب، والذي ألفته الفيلسوفة حنا أرندت، تحت عنوان: إيخمان في القدس: تقرير عن ابتذال الشر. وهذا الكتاب المدهش غالبًا، والذي خضع لمناقشات كثيرة يقدم صورة عن أدولف إيخمان، المعروف باسم «مهندس المحرقة/الهولوكوست» وفي ذلك غرابة تناقض الحدس بسبب عدم وجود مظاهر للغرابة والتنافر.

وبعيدًا عن حكم تلك الفيلسوفة التي ترى أن أفعال إيخمان «كانت وحشية»، تعتبر أرندت أن «الفاعل ... كان عاديًا جدًا ومألوفًا، وليس بشيطاني ولا وحشي» (إيخمان في القدس، ص 4). ثم إنها تتحدث عن أفعاله وتصفها أنها: «إن كان ذلك «مبتذلًا»، ومسليًا أيضًا، وفي حال وجود أفضل إرادة في العالم مع عدم استطاعة المرء استخلاص عمق شيطاني أو وحشي شرير من إيخمان، فهذا يعني أنه لا يزال بعيدًا عن وصفه بأنه مألوف» (ص 288).

عانت البشرية في ردود فعلها تجاه أحداث الحرب العالمية الثانية من مشكلة فشل دعاية عملية سرد ما جرى خلال العقود التالية للحرب، على يد فاعلين من كل الأطراف في تلك الدراما، في إرضاء الناس. لذا فإن تداعيات وحشية الأحداث التي أخذت في الازدياد والتضخم والتي فاجأتنا في القرن العشرين، والتي تبدو بالكاد أشبه بما يجب علينا أن نتوقعه بعد حربين «أي إنهاء كل الحروب».

وبطريقة ما، عند تأمل الشخصية الأساسية التي ألفتها مارغريت آتوود في كتابها عين القط، نجد أن: «الحرب لم تنتهِ في نهاية المطاف، بل كل ما هنالك أنها قُسمت إلى أجزاء وتناثرت» (ص429).

لعل أبسط أسلوب في التعامل مع عمل لفيلسوف يبدو أنه يشجع البشر على التفوق على أنفسهم، ليصبحوا أكثر من مجرد بشر، هو إيداعه في مزبلة التاريخ. إلا أن هيربرت فهم نتيشه بطريقة أبعد من ذلك؛ وذلك لأن «الابتذال» لدى الشر هو ما يصف بالضبط موقف بول

وتطرق هيربرت لوفاة 65 مليار شخص بسبب الجهاد الذي قاده شعب الفريمين، وبالرغم من أنه قيل لنا أكثر من مرة إن هنالك وضعًا أسوأ بكثير يكمن على جانبي الطريق الذي رآه بول، فإن كل ذلك يتجاهل أن ذلك الطريق هو نتاج لأفعال البشر سواء في السراء أو الضراء.

الأبطال الخارقون لدى هيربرت

وأسطورة نسيج المجتمع

في الوقت الذي يتأمل فيه هيربرت في الفقرات الافتتاحية لرواية «سفر تكوين الكثيب»، وذلك من خلال مقالته التي صدرت في عام 1980 وناقش فيها أصول هذا العمل (وذلك قبل نشر رواية إمبراطور الكثيب الرباني مباشرة)، فقال: «أقنعتني الملاحظة الشخصية أنه في منطقة القوة للسياسة والاقتصاد وفي نتيجتهما المنطقية، وهي الحرب، يميل الناس إلى منح أي قائد كل قدرة على اتخاذ القرار بحيث يتمكن من أن يغطي نفسه بنسيج أسطوري للمجتمع». إذ لعل بول قد أتى نتيجة لبرنامج التوالد والتربية الذي وضعته البيني جيسيرت، ولكن حتى الموروث الجيني الذي تلقاه بشكل خامل لا يمكن أن يعفيه من تصرفاته اللاحقة ونتائجها. إذن، وبموجب هذه القراءة، تقدم رواية الكثيب تقريرها الخاص حول ابتذال الشر، وفي ذلك صورة تعكس المشكلات المرتبطة بالقيام بعمل في عالمك الخاص، كما يمثل ذلك نسيجًا يضم خيوط «نسيج الأسطورة» الخاصة بك، الذي نسعى جاهدين لفهم غطائه ولُحمته، في ظل غياب المنظور ووجهة النظر.

يواصل هيربرت في «سفر تكوين الكثيب» توضيح الفكرة القائلة إن الحافز الأصلي لديه كان يتمثل في عملية الانعكاس تمامًا؛ إذ بعد مشاهدته لمشروع الوكالة الأميركية للتنمية الزراعية USDA project في الصحاري الواقعة جنوب فلورنسا وأوريغون، وهو مشروع يحاول أن يوقف امتداد الكثبان الرملية في مكانه عبر الاستعانة بأنواع وأجناس غازِية وأجنبية لأعشاب الفقر، واجه هيربرت احتمال تحول وتحوير بنى العالم في بداية القرن العشرين، لكنها بالرغم من ذلك ستسمر مستقبلًا، حيث قال:

«لقد كان لدى كل من الديماغوجيين والمتعصبين والمحتالين من الفنانين، والمتفرجين من الأبرياء وأولئك الذين ليسوا بأبرياء كثيرًا جزءٌ ليلعبوه في تلك المسرحية. وقد تطور ذلك من خلال نظريتي التي ترى أن الأبطال الخارقين يخلِّفون عواقب وخيمة على البشرية. إذ حتى إن وجدنا بطلًا حقيقيًا (بصرف النظر عمَّا أو من يكون)، فلا بد أن يتولى أمور البنية المسيطرة أشخاص عاديون خطاؤون مصيرهم الموت والفناء، وهؤلاء لا بد وأن يلتفُّوا حول زعيمٍ ما».

هذا وتنشأ مشكلات كبيرة عندما يتم ارتكاب أخطاء بشرية على مستوًى كبير ويصبح

ذلك متاحًا أمام البطل الخارق.

ويمضي هيربرت ليقول إن: «مفهوم البطل الخارق ملأني بالقلق حيال إمكانية تحول علم البيئة إلى الراية التالية التي سيحملها الديماغوجيون والأبطال الذين سيظهرون لاحقًا، وذلك من أجل من يسعون لأجل القوة والسلطة وهؤلاء الذين لديهم استعداد لرفع مستوى الأدرينالين عبر شن حرب صليبية جديدة». وبالرغم من الوعي في زمننا الحالي بانتشار هذه المشكلة أو تلك في كل من الإعلام والسياسة في القرن الحادي والعشرين، لا يظهر علم الغيب لدى هيربرت مفاجئًا أو تنبؤيًا كما يبدو. إذ على الرغم من أن كتاب ألغور «الحقيقة غير الملائمة»، يدفعنا إلى التفكير أن الراية البيئية جديدة، إلا أن الأنماط التي تجري معالجتها اليوم في البيئات الشعبية (والشعبوية) تمثل تلك الأنماط التي تم وضعها خلال القرن الماضي.

إن بعض أنواع الفلسفة تفترض أنه لا ينبغي على الفلاسفة أو أنهم لا يستطيعون أن يُقلقوا أنفسهم بأسئلة حول التاريخ، ما لم تتصل بنظرية تدور حول فعل التاريخ أو «تاريخ الفلسفة». فيما يرى فلاسفة آخرون أن الأفكار والنظرية والتاريخ لا يمكن فصل بعضها عن بعض. ولذلك نجد رواية الكثيب التي ألّفها هيربرت تقع ضمن المعسكر الأخير قطعًا، فهي تدعونا ليس فقط لتجنب حالة الفصل تلك، بل أيضًا لممارسة فعلية للتفكير بالتاريخ وتداوله لصالح تنميط فلسفي للبشرية. إذن، في الوقت الذي تحدد فيه رواية: «سفر تكوين الكثيب» كيف أسهمت فكرة هيربرت حول المشكلات المرتبطة بالقادة الذين يمثلون شخصية «بطل خارق» (حيث تحدث عن هتلر وروزفيلت وستالين وتشرشل، وموسوليني، وجون كينيدي وباتون)، في مشروعه الأدبي، فإنه شرح ذلك بالقول: «إن الأبطال مؤلمون بيد أن الأبطال الخارقين مصائب؛ وذلك لأن أخطاء الأبطال الخارقين تُورط الكثير منا في الكارثة». وتمثل ملحمة الكثيب دراسة قائمة على قصة حول أفكار نيتشه في ضوء التاريخ الذي انتشر وامتد منذ أن نُشر كتاب نيتشه لأول مرة.

وعندما بدأ مشروعه، لم يكن قد مضى عقدان على نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث تورطت الولايات المتحدة في حركة الحقوق المدنية (وفي الوقت الذي نُشرت فيه القصص ضمن الكتاب الأول، كانت الولايات المتحدة قد اتخذت موقفًا معاديًا راسخًا). أما بالنسبة لكوريا التي تُمثل أول حرب خاضتها «الأمم المتحدة»، فقد انتهت بها الأمور إلى حالة الشك، وكذلك كانت فيتنام في طريقها نحو ذلك. لذا عندما تحدث هيربرت عن «الكارثة» كان يدرك جيدًا ما الذي يتحدث عنه.

التشويق: امتداد القوس والطريق الذهبي والحبل الرفيع

فريدريك نيتشه يمضي نحو الفضاء - صفحة 191/ 224

لا يزال السؤال الذي يجب أن يُطرح هو الآتي: لماذا نستمر بالتفاعل مع أفكار فيلسوف ارتبط احتمال سوء تطبيقها بمحك القرن العشرين للشر والابتذال؟ حسنًا، إن حالة التوازي التالية بين هيربرت ونيتشه قد تساعدنا على فهم هذه الفكرة بطريقة أفضل: ففي أحد الاقتباسات الموجودة في فصل المقدمة من رواية الكثيب، المأخوذة من حكمة موديب على يد الأميرة إيرولان، نقرأ الآتي: «كان الفريمين الأرقى في تلك الصفة التي وصفها القدماء بالتشويق، وهي حالة تأخير للرغبة بالشيء يفرضها المرء على نفسه، كما تمثل حالة السعي للحصول على ذلك الشيء المرغوب». ولهذه العبارة المقتبسة دور في زيادة حالة التوتر عمومًا ضمن رواية الكثيب، كما أنه يؤكد على الطريقة التي يدعو من خلالها الكتاب الأول من تلك السلسلة القراء للانحياز إلى بول أتريديس وللتوق إلى وصوله للسلطة والقوة.

على الرغم من الرؤى المقلقة حول الجهاد التي انتابت بول طوال الكتاب، ثمة ما يدفعنا للاعتقاد أن الفريمين (ومنهم ليتكينيز وهو بطل الكوكب الإمبراطوري وزعيم الفريمين)، وكذلك شعب الأتريديس يمثلون «أشخاصًا طيبين»، في حين ترتدي القوى الإمبراطورية وقوات الهاركونين القبعات السوداء دلالة على الشر. وعند هذا المستوى، يمكن قراءة الكثيب كما وصفها المختصون في مجال الأدب أنها رواية تشكيلية؛ أي رواية ناضجة. ويتلاعب هيربرت بهذه القراءة وهو يقوم بتطوير رواية مسيح الكثيب المخيبة للآمال، ويقدم حالات التوازي الجديدة في رواية أبناء الكثيب مع رواية الكثيب. إذ إننا نضع ثقتنا رغمًا عنا في ليتو الثاني (الذي تعتبر شخصيته في رواية أبناء الكثيب قريبة مما نراه في الرواية التشكيلية)، كما سبق لنا أن فعلنا مع بول. وما يراه بول في رؤاه التي تستند إلى علم الغيب ومخاوفه، يعتنقه ليتو بشكل متعمد، واتباعنا الأعمى كالخرفان لـ«بطل» هذا العمل يجعلنا نُعجب بالطاغية.

وعلى مستوى آخر، يمثل الصراع والسعي للاحتفاظ بالسيطرة على أراكيس مادة لأفلام الحرب وأفلام جيمس بوند؛ إذ نعرف فيها دومًا من هو «على صواب». بل حتى وقع كلمتَي «أتريديس» و«فريمين» على الأُذُن، (ناهيك عن إيحاءات الحرية الموجودة في الكلمة الأخيرة)، مقارنة بكلمتَي «هاركونين» و«سارادوكار» (فضلًا عن كلمة «فلاديمير» المشتقة من الروسية، ووقع تلك المفردة في ذروة الحرب الباردة)، تهيئ القارئ لهذا الحكم المبني على ثنائية الخير والشر.

إلا أن الإشارة للتشويق لا تسهم في خلق حالة من التوتر فحسب، بل تشير إلى استمرار ظهور متوازيات فلسفية بين عمل نيتشه وعمل هيربرت. إذ بحسب فهم نيتشه فإن «الإنسان يمثل حبلًا مربوطًا بين الحيوان والإنسان الخارق، وهو عبارة عن رحلة عبور خطرة، وسفر خطر، ونظرة خطيرة نحو الخلف، وارتجاف خطير ثم ثبات» (ص 43).

تمثل هذه الفكرة أصل التوتر الذي يشير إليه هيربرت في حديث إيرولان عن التشويق: إذ يصف الإنسان الخارق في أحد الأجزاء التوترَ بالقوس المشدود، وبذراع الرمح المشدودة نحو الخلف، وبالغيمة الحُبلى بالمطر والبَرد والبرق، كما اكتشف ليتو خلال رؤيته للتحول في جاكاروتو:

«أحسَّ ليتو أنه غامر بقطع الحدود القديمة إلى أرض جديدة لم يشهدها سوى الخيال، وأنه الآن ينظر مباشرة عبر الحجاب التالي تمامًا الذي تسميه البشرية وهي تتثاءب: المجهول.

كانت حقيقة التعطش للدماء ...

أصبحت أكتبُ بالرموز، فأنا رمزٌ حي يتعين عليه أن يدوِّن التغيرات التي يجب أن تأتي حتى تمر، وإذا لم أكتبها، فستتعرض لمثل ألم القلب هذا» **(من رواية أبناء الكثيب)**. (تشير اللغة الرمزية هنا إلى لغة تعتمد على مفاهيم بدلًا من الكلمات).

صور البشر النهائيين: تعكس حقيقتنا في الخيال

يميز نموذج نيتشه بين الإنسان الخارق وما يسميه نيتشه: «الإنسان الأكثر وضاعة: الإنسان النهائي» ويحاول أن يحدد لنا أساس الاختلاف بين الاثنين. ثمة متوازيات واضحة بين هذين؛ أي «الإنسان النهائي» وحالة الإمبراطورية في رواية مسيح الكثيب، وتحت وصاية أبناء الكثيب.

يا حسرتاه! سيأتي الزمن الذي لن يُطلق فيه الإنسان سهمًا من فرط طمعه بالبشرية، كما سينسى وترُ قوسِه كيف يرنُّ!

أقول لكم: يتعين على المرء أن يعيش الفوضى في أحد النجوم حتى يولد نجم راقص. أقول لكم: لا يزال لديكم فوضى داخلكم.

واحسرتاه! سيأتي الزمان الذي لن يُولِّد فيه الإنسان المزيدَ من النجوم. واحسرتاه! سيأتي زمانٌ أشد البشر وضاعة، ذلك الإنسان الذي لن يحتقر ذاته أبدًا.

انظروا! سأريكم الإنسان النهائي.

لقد أصبحت الأرض صغيرة وعلى سطحها يقفز الإنسان النهائي الذي يجعل كل شيء صغيرًا. وسلالته لا تنتهي كما هي حال البراغيث؛ أي إن الإنسان النهائي هو الأطول عمرًا **(هكذا تكلم زرادشت، ص 46)**.

فريدريك نيتشه يمضي نحو الفضاء - صفحة 193/ 224

إليكم فيما يلي بعض سمات الإنسان النهائي (وما أراه يمثل حالات توازٍ في كون الكثيب) (الاقتباسات مأخوذة من كتاب: هكذا تكلم زرادشت، ص 46-47):

• «لقد غادروا الأماكن التي كان العيش فيها صعبًا» (غادر الفريمين حياة الأجنحة، أو أهملوا نظام الماء، وفي نهاية المطاف عاشوا «كفريمين في المتحف» في الكتب اللاحقة).

• «قليل من السُّم الآن وفيما بعدُ؛ فهو يخلق أحلامًا جميلة» (الاعتماد على التوابل من أجل الرؤى في دين موديب الجديد، وخسارة التوابل خلال حكم ليتو بالنسبة للجميع، ويُستثنى من ذلك استخدامها مع أهم الرؤى ولأغراض أخرى).

• «لا يزالون يعملون، فالعمل تسلية، لكنهم ينتبهون لئلا تقوم التسلية باستنزافهم» (مرة أخرى، هنالك إشارات مستمرة طوال عمل أبناء الكثيب على وجه الخصوص حول الانحطاط الجديد لأراكيس).

• «الجميع يريد الشيء نفسه؛ أي إن الجميع متشابهون، ومن يفكر بطريقة أخرى يذهب من طوعه إلى دار المجانين» (تطور دين موديب إلى عقيدة تقليدية متشددة ودموية، وما أعقب ذلك من فرض لنظام موحد في مختلف أنحاء إمبراطورية ليتو الثاني).

• «إنهم أذكياء ويعرفون كل شيء حدث: أي إنه لا نهاية لاستهزائهم» (اعتماد علياء على ذكرياتها الداخلية والذي ينتهي باستحواذ البارون هاركونين عليها، ثمة انقسام داخل البيني جيسيرت يتصل باستيراد التاريخ المتجسد في مواقف الطوائف والأطياف تجاه مشروع الدانكان إيداهو الغول، ما بين الأم الموقرة تارازا والأم الموقرة شوانغيو في زنادقة الكثيب).

ينتهي هذا النقاش بالخطاب الأول لزرادشت، فيرد عليه جمهوره: «قاطعه صراخ الحشد ومرحه. أعطنا هذا الإنسان النهائي يا زرادشت»، هكذا هتفوا، «حوِّلنا إلى هذا الإنسان النهائي! إذ بوسعك أن تخلق الإنسان الخارق!».

وكذلك الأمر بالنسبة للجهاد الذي يداهم رؤيا بول فيؤدي إلى ظهور إمبراطورية ينجح داخلها الإنسان النهائي نجاحًا منقطع النظير، إلى أن يفرض أطول إنسان عمرًا؛ أي ليتو الثاني، الواقع الرتيب الذي لا يحتمله أحد للإنسان النهائي، وذلك خلال فترة حكمه التي تمتد لـ3500 سنة، ما يؤدي إلى ظهور حالة التشتت.

بيد أن كلًّا من جهاد الفريمين، ودين موديب وإمبراطورية علياء ذات السكين، لا تحقق أية رؤيا من رؤى المستقبل التي تؤدي إلى تأسيس بشرية متينة وراسخة في وجه أي محنة مركزية، لكن إمبراطورية ليتو الثاني لا تفعل ذلك هي أيضًا! ولذلك نجد هيربرت على الدوام يحطِّم توقعاتنا السردية حول انتصار بطولي وبالتالي النجاح؛ لأن ذلك يمثل إخلاصنا

وتكريسنا للإنسان النهائي.

بالرغم من أن جوانب الإمبراطورية التي بناها والده سوف تتغير، ومن ثم سوف تُحفظ على يد ليتو الثاني، فإن الطريق الذهبي سيكون شيئًا آخر بالأساس، فلن يكون الجهاد الذي يقوده شعب الفريمين والذي يتطلع إلى الماضي بصورة أساسية يمثل شكله، بل ستغدو رتابة الطريق الذهبي أشبه بالخيط الرفيع الذي ستصدر عنه مجموعة متنوعة وخطيرة من الاحتمالات التي تشتمل على التخلص من كامل مؤسسة الأتريديس وإزالتها من الرؤيا التي يراها أي شخص بفضل علم الغيب (كما سيصبح أحفاد سونيا أتريديس).

إن تحول القوات العسكرية لدى الفريمين والسارداوكار التي يغلب عليها العنصر الذكوري إلى قواتٍ نسائية فقط تعرف باسم محاورات الأسماك، وما يأتي بعد ذلك من خلق للأمهات الموقرات من ذلك، وظهور إناث التليلاكسو المتحررات (أو خزانات قنفذ البحر)، لا بد أن يؤدي في نهاية الأمر إلى ظهور شكلٍ موحد للأخوية عبر المزج بين الأمهات الموقرات والجمع بين دار أتريديس والبني جيسيرت ضمن مؤسسة هجينة. أي إنه لم يبقَ شيء من الأوامر السابقة التي تستوطن كون من يسعون جاهدين ليصبحوا: «بشرًا نهائيين» دون أن تطاله يد الطريق الذهبي الذي ابتدعه ليتو الثاني.

«غريب هو الوجود البشري ولا يزال بلا معنى: إذ يمكن لمهرج أن يقتله. أريد أن أعلِّم الرجال معنى وجودهم: الذي يتمثل بالإنسان الخارق؛ أي الرجل الذي يُولد لبرق قادم من غيمة قاتمة» (هكذا تكلم زرادشت، ص 49). يمكن لهذا الكلام التنبُّئي أن يُستخدم كشعار لحكم ليتو الثاني شديد القسوة والذي يمتد لـ3500 عام. ولهذا فإن التوتر في رواية الكثيب لا يتصل فقط بالدسيسة الداخلية بين الأتريديس وهاركونين، بل يتصل أيضًا برؤى بول حول المستقبل المُقلق للغاية؛ ذلك المستقبل الذي يصبح واضحًا جدًّا في الصفحات الافتتاحية لرواية مسيح الكثيب.

إن إيراد الكلمة-المفهوم الألماني وهو Spannungsbogen/ التشويق بكل صراحة يعتبر دليلًا يوضح المقارنة بين سلسلة الكثيب وفلسفة Übermensch/ الإنسان الخارق التي طورها نيتشه في زرادشت. إذ تبحث رواية الكثيب والأجزاء المكملة لها في فكرة القيادة والكون القائم على المفاهيم الذي يحيط بالرغبة للحصول على السلطة واستخدامها على الساحة السياسية إزاء خلفية هيربرت في زمانه. أي إن هيربرت قدَّم بول كشخص يسير على حبل رفيع مشدود؛ أي الكويستاز هاديراتش بطريقة تُذكرنا بزرادشت.

«الرمح الذي رميته على أعدائي! كيف أشكر أعدائي لأن باستطاعتي رميه في النهاية!

إن التوتر (بالألمانية: Spannung) الذي يصيب سحابتي عظيم: ما بين جلجلة ضحك

فريدريك نيتشه يمضي نحو الفضاء - صفحة 195/ 224

البرق أود أن ألقي زخات البَرد إلى الأعماق». (من: هكذا تكلم زرادشت، ص 108-109).

أصبح بول بعدما أصيب بالحروق والعمى، مثل الشخص الذي فشل في السير على حبل رفيع في زرادشت، بمثابة ذكرى حية لما قاله زرادشت: «لو كانت هنالك آلهة، فكيف بوسعي أن أتحمل ألا أكون إلهًا! لهذا، لا توجد آلهة» (ص 110). إن ابنه سيُظهر إنسانية بحيث إن: «الله فكرة تجعل كل مستقيم معوجًا، وكل ما يقف مترنحًا. ماذا؟ هل سيمضي الوقت فيصبح كل ما هو زائل مجرد كذبة؟» إن سلالة الأتريديس أصبحت إلهًا للبشرية، وشيطانًا لها، ومهرجًا، ونبيًا ورسالة جُمعت كلها سوية لتتحول إلى دافع للتخلي عن الإيمان بـ«التعاليم الشريرة التي تحث على بغض الناس للواحد والكامل وغير المتنقل والكافي وغير الزائل».

لكنها ليست مجرد خيال أنيق، لا، إن هيربرت يختبر ويدرس أفكار نيتشه المتعلق بالإنسان الخارق في تجربة فكرية تتفوق على تجربة نيتشه في زرادشت. إذا أخذنا بعين الاعتبار أحداث العالم الواقعية التي أسهمت فلسفة نيتشه في وصفها، يعترف هيربرت أن نمذجة نيتشه للتطور المحتمل للبشرية يتمتع بقيمة لا توصف بالنسبة لعالم أصبح متأثرًا بشكل كبير ومتزايد بتأثير القادة الذين يتمتعون بشخصية جذابة كما يخاف من تأثيرهم.

يكشف لنا هيربرت أن الانتصار الأجوف للكثيب الذي يدوِّي بشكل ناجح في رواية مسيح الكثيب ما هو إلا انتصار للإنسان النهائي. إذ تُقدم البيني جيسيرت الكويستاز هاديراتش عمدًا لأن تلك المؤسسة تعتقد أنه إنجاز للبشرية. أما في الواقع، فلم تقدم تلك المؤسسة سوى الظروف المناسبة للإنسان الخارق، والنتيجة كانت الطريق الذهبي الذي خرج به ليتو الثاني. تشير كل من رؤية بول للغيب والطريق الذهبي لدى ليتو إلى شيء آخر: أي إلى شيء لا يمثل إنجازًا للبشرية (وبالتالي القدرة على السيطرة عليها)، (وفي هذه الحالة، يتمثل ذلك بالمنظومة السياسية والاقتصادية والدينية لإمبراطورية الكثيب الأصلية)، بل إن ذلك يشير إلى تدمير الحدود الثقافية وغيرها من القيود المتأصلة في هذه المنظومة، كما يقول بول مخاطبًا أمه:

قال لها: «أنت تفكرين أنني الكويستاز هاديراتش؛ لذا أخرجي ذلك من تفكيرك لأنني شيء غير مُتوقع».

فكرت الأم في سرها: يجب عليَّ أن أنقل فكرة عن هذا لإحدى المدارس؛ إذ قد يبين مؤشر التزاوج ما حدث.

قال لها: «لن يعلموا بأمري إلا بعد فوات الأوان» ...

فقالت جيسيكا: «إن لم تكن الكويستاز هاديراتش ... فماذا ...»

ثم فكر في سره: إنني بذرة **(من رواية الكثيب)**.

كما هي الحال مع فكرة الإنسان المتفوق لدى نيتشه، أي: «الإنسان الذي يشبه البرق الآتي من غيمة قاتمة»، فإن الرمح الذي رماه زرادشت على أعدائه، وكذلك بول الذي يمثل البذرة وريح كوريوليس، ومونديب الذي يعتبر: «الشخص الذي يشير إلى الطريق»، فإن إمبراطوريته يمكن أن تكون إمبراطورية الإنسان النهائي، إلا أنه هو وابنه لا بد وأن يُعلِّما البشرية كيف تتحول إلى بشرية خارقة.

إن تحول العرق البشري الذي يحدث على مدار ملحمة الكثيب لم يوجد حتى يُصنع من جديد على صورة بول أتريديس، بل من خلال قوة سلالة أتريديس، يصبح تحول البشرية ممكنًا، في حين أن ليتو الثاني سيخضع لتحول جذري، أما أفعاله فلا تتخذ نمطًا بل إنها من يرسم ذلك النمط؛ أي إنها لا تمثل البرق بل مانع الصواعق.

المتوازيات من النوع 3: علم الغيب والتواتر الأبدي

يدور قسم من أفكار نيتشه التي تتحدث عن الإنسان الخارق حول الأثر الذي تُخلِّفه منظومات ما وراء الطبيعة الخيالية أو المستمدة من الخارج لتضاف على السلوك البشري. إذ يقوم ردًّا على ذلك بتوظيف ما يسميه الفلاسفة بـ«تجربة الفكر» التي يبين لنا من خلالها كم ستكون فكرة تحررية عندما نتخيل أن هذه الحياة هي كل ما هو موجود، ولذلك فهي تلتزم بقيمتها وتتمسك بها. وهذه الفكرة التي تدور حول تجربة الفكر التي طرحت بالأساس في كتاب نيتشه: العلم المبهج، والتي تدور حول «التواتر الأبدي» تلعب دورًا مهمًّا في زرادشت. إذ يتصل التواتر الأبدي بشكل كبير بأهمية علم الغيب في سلسلة الكثيب، ويدرك ليتو ذلك حيث نجد:

إن بنى المجتمع الإمبراطوري تنعكس في البنى الفيزيائية لكواكبه ومجتمعاتها. وكأي اكتشاف عظيم داخله، يظهر ذلك الإلهام كما يجب أن يكون: نافذة تطل على الأجزاء غير المرئية من المجتمع. وبعد أن يظهر ذلك، يدرك ليتو أن لكل منظومة نافذة كتلك، حتى منظومة نفسه ومنظومة كونه.

(من رواية أبناء الكثيب).

يكرر هذا المقطع ويفسر طريقة معالجة نيتشه للتواتر الأبدي في زرادشت، من خلال الرؤية التي تجد أن زرادشت يصف «الإنسان الأشد عزلة». ومن خلال تلك الرؤية، يسير في «طريق صاعد بكل تحدٍّ بين الصخور والحجارة ... على الرغم من الروح التي تشده نحو الأسفل، وتشده نحو الهاوية؛ أي روح الجاذبية، إنها روح شيطاني وعدوي اللدود ... نصفه

قزم والنصف الآخر خُلد» كما يقول.

ثم حدث شيء هوَّن الأمر عليَّ: وذلك عندما قفز القزم من على كتفي ... ثم جلس القرفصاء فوق إحدى الصخور أمامي. إلا أن بوابة كانت هناك حيث توقفنا.

قلت له: «انظر إلى تلك البوابة أيها القزم! إذ لديها جانبان، حيث يلتقي طريقان هنا: لم يصل أي شخص أبدًا إلى نهايتهما.

هذا الطريق الطويل خلفنا يمتد إلى الأبد، وذلك الطريق الطويل أمامنا يصل إلى أبدية أخرى.

إن كلًّا منهما يعارض الآخر، أعني هذين الطريقين: إذ يتاخم أحدهما الآخر: ويلتقيان هنا، عند هذه البوابة. إن اسم هذه البوابة مكتوب فوقها وهو: «لحظة».

«لكن إذا قُيِّض للمرء أن يتبعهما إلى أبعد نقطة، فهل تعتقد يا قزم أن هذين الطريقين سيتعارضان للأبد؟»

تابعت بالقول: «أنظر إلى هذه اللحظة من هذه البوابة؛ بوابة اللحظة إذ ثمة طريق طويل أبدي يعود إلى الوراء: أي إن هنالك أبدية خلفنا.

ألا يجب على كل الأشياء التي بوسعها أن تسير أن تكون قد سارت على هذا الدرب؟ ألا ينبغي على كل الأمور التي بوسعها أن تحدث أن تكون قد حدثت من قبلُ، وتمت قبل ذلك، ووقعت في الماضي؟» (ص 176-178).

إن الخوف من تحول تلك الرؤيا إلى مصدر إلهام لدى زرادشت يمثل وجهًا من وجهَي العملة الواحدة: وبالنظر إلى ذلك من خلال هذا المنظور، تصبح بوابة اللحظة التي تتكرر إلى الأبد طريقًا لا مخرج له. وهذا المنظور يدعو الآلهة والأبطال الخارقين لشرح (وترتيب) المصير المُقدَّر على البشرية. إن هذا المنظور يمثل منظور موديب وإمبراطورية الإنسان النهائي التي يخلقها علم الغيب لديه. ولكن من منظور آخر؛ أي من زاوية بوابة اللحظة، التي تمثل «نافذة ليتو على المنظومة»، تتيح تلك الزاوية تحررًا من فكرة القدر بأكملها.

يوضح لنا هيربرت أن منظومات القيم التي تأتي من أمور ضرورية وأبدية ظاهريًا، ما هي إلا منظومات مؤقتة وتعتمد على قرارات نتخذها نحن. فكما يسأل هيربرت في «سفر تكوين الكثيب»: «هل تريد توقعًا مطلقًا؟ إذن فأنت تريد اليوم فقط، وترفض الغد. ثم إنك المتحفظ النهائي، كونك تحاول أن تكبح الحركة في كون يتغير إلى ما لا نهاية. إن فعل الكون يجعل منا حمقى جميعًا». أي إن الإنسان الخارق يمثل بشرية تحررت من قوة الضرورة الظاهرية

التي تتظاهر أنها ملاط الحضارة، ولكن تنتهي بها الأمور لتتصرف وكأنها مصيدة للزمن.

فيلسوف «ربما الخطيرة»

يتساءل نيتشه في الصفحات الأولى لكتابه: ما وراء الخير والشر فيقول:

لو كان بإمكان ما يمثل قيمة تلك الأمور الطيبة والمكرمة أن يكمن بدقة في اتصال تلك الأمور بمهارة وارتباطها وتداخلها مع تلك الأمور الشريرة الخبيثة، عندها ستبدو تلك الأمور متناقضة ظاهريًا، حتى عندما تكون متطابقة معها بصورة أساسية. ربما، ولكن مَن هو الشخص الذي سيكون على استعداد لإقلاق نفسه بتلك الـ«ربما» الخطيرة؟ من أجل ذلك علينا أن ننتظر قدوم جنس جديد من الفلاسفة لديه أذواق وميول مناقضة ومختلفة عن تلك الموجودة لدى أسلافه؛ أي فلاسفة الـ«ربما» الخطيرة من كل النواحي والمعاني، ليقول بكل جدية: إنني أرى ظهور هذا النوع الجديد من الفلاسفة. (ص 16).

إنه فرانك هيربرت: فيلسوف «ربما الخطيرة»، والشيطان الواقف على الحبل الرفيع، وزرادشت في ثياب موديب.

تم الاكتشاف على يد: بروك و. ر. بيرسون

ابن لعنة الطريق الذهبي

من: دار -إس-بالات

مؤلفون محتملون: سيونا ودانكان إيداهو

التاريخ: 13725 حسب التقويم الإغريقي

هل يرى النبي المستقبل أم إنه يرى خطًّا من الضعف أو عيبًا أو انشقاقًا بوسعه أن يحطمه بالكلام أو القرارات كما يحطم صائغ الألماس جوهرته بضربة سكين؟

تأملات خاصة حول موديب كتبتها الأميرة إيرولان

(من رواية الكثيب)

ضع نفسك في بزة بول-موديب.

أنت ظافر، وذراتك وديدانك الرملية تجاوزت الجدار المُدرَّع وسط أمِّ العواصف. وقد حطمت حشود الفريمين لديك جحافل أشداء السارداوكار لدى الإمبراطور. وتقف من جديد في القاعة العظيمة عند أراكين، بجانب والدتك جيسيكا ومحبوبتك تشاني ومستشاريك الحربيين ستيلغار وغورني هاليك، والشخص الذي اخترته وهو فيدايكن. وجيء بالإمبراطور المهزوم وحاشيته إليك ليفاوضوك على السلام بينما تحتل أنت عرش الأسد، والكون المعلوم ينتظر كل أمر تصدره.

إذن لماذا تدعو كلًّا من فيد-روثا وولي عهد البارون وهاركونين لمبارزة رجل لرجل وسكين بسكين؟ إنها ضغينة رسمية، وثأر محتوم بين تلك المؤسسات لديك. ففيد سريع وماكر وتلوث بالدماء في مئات من جولات القتال، ولم يتعب من قيادة جيش في معركة؛ لذا فإن فرصة قتله لك كبيرة.

أهو التهور؟ أم الشرف؟ أم الثأر؟ لعلها أسباب وجيهة، ولكن ... إن بول وسيط وحي يتمتع بموهبة مميزة في معرفة المستقبل؛ إذ يعرف ما سيحدث بعد ذلك اليوم وفي تلك الساعة قبل وقوعه؛ وذلك لأن لديه رؤى قائمة على علم الغيب حول المستقبل تخبره أن جحافل الفريمين المتعصبة التي تقاتل تحت راية الأتريديس سوف تجتاح الكون المعلوم في حربها المقدسة. ولذلك ليس لدى بول أي سبب وجيه ليخاطر بحياته في قتال بالسكاكين مع فيد؛ لأنه ليس بوسعه القيام بأي شيء لتغيير الفظائع التي تنبأ بوقوعها. وسواء أعاش أم مات فلن يُثني عليه أحد لتحوُّله إلى بطل شهيد ولن يذمه أحد على تهوره أو جبنه؛ وذلك لأن اختياره لمخاطرة فيها حياة أو موت لن تغير أي شيء بطبيعة الحال؛ لأن النتائج حتمية.

بينتُ في «لعنة الطريق الذهبي» أن وسطاء الوحي لدى الأتريديس ينزلقون إلى فخ علم الغيب لأن قوتهم في وساطة الوحي تعمل بطريقة مميزة؛ أي إنها تمثل معرفة قائمة على توقعات تعتمد على حسابات خارقة للاحتمالات التي تتصل بما سيحدث من أحداث أو سلسلة من الأحداث في المستقبل. ولذلك يقف بول-موديب وابنه ليتو الثاني، بفضل تناغمهما الخاص، في موقع فريد فيحاولان التلاعب بالتسلسل الزمني للأحداث التي سوف تقع. إذ عندما يكون احتمال وقوع الأحداث يعادل الصفر، فإنها تخرج من الرؤيا الغيبية، وعندما يقترب احتمال وقوع الأحداث من 1، فإنها تظهر في أكثر من تسلسل زمني، وعندما يصبح الحدث حتميًا بشكل مطلق، فسوف يظهر في كل التسلسلات الزمنية. ولكن هل تمثل تلك المادة حالة من الحرية إن لم نكن نستطيع أن نكيل المديح أو أن نلقي باللوم أو المسؤولية على الأشخاص الذين يتم كبت اختياراتهم بواسطة الحتميات المستقبلية الساحقة؟

إننا نربط بشكل كبير بين المسؤولية والمحاسبة الأخلاقية وبين حرية الإرادة. وهنا لا بد لنا أن نصف الوضع كالتالي: يستحق الأبطال الثناء بجدارة كما ينالون التشريف على ما يقومون به من أعمال؛ إذ هل هنالك وجود لأبطال في كون الكثيب حيث يوجد من يرى ويعرف بالحتميات قبل وقوعها؟ أم أن كل ما هنالك هو ممثلون ووكلاء يقومون باتخاذ قرارات، بعضهم يقوم بذلك ويترتب على ما يقومونه نتائج عظيمة، والبعض الآخر؛ أي وسطاء الوحي، يعتمدون على معرفة كبيرة بتلك النتائج؟

إن قاعدة التتمة الصالحة تتمثل في كونها تعمل على تصعيد الموقف؛ ففي رواية أبناء الكثيب، نتعرف أكثر على علم الغيب لدى وسطاء الوحي من الأتريديس. وللإجابة عن السؤال القائل: هل بوسع وسيط الوحي أن يصبح بطلًا؟ يستخدم هيربرت الفعل في رواية أبناء الكثيب ليُدخل تجربة فكرية ذكية وفلسفية ضمن هذا السياق: ماذا لو كان هناك وسيطا وحي بدلًا من وسيط واحد؟ وماذا لو التقيا؟ وهل يزيد ذلك من إرادتهما الحرة أم ينقصها؟ وهل يعطي ذلك فرصة لبول وليتو ليصبحا بطلين؟ تمامًا كما يحدث في قاعة محكمة، علينا أن نقرر الوقائع أولًا، بعد ذلك نصدر الأحكام. أي علينا أن نقوم بالأمور التي تتصل بما وراء الطبيعة أولًا: من كان حرًا، وكيف ومتى؟ بعد ذلك ننتقل إلى الأخلاق: مَن البطل؟

غرض بول الرهيب

يبدو بول أتريديس بطلًا في زمانه، كلا، بل يبدو بول أتريديس بطلًا في كل الأزمان.

وبما أنه ابن دوق ووريث لمؤسسة الأتريديس، تقوم والدته جيسيكا التي تنتمي لمنظمة البيني جيسيرت بتدريبه على أساليب الأخوية للسيطرة الاستقلابية التي تعرف باسم برانا-بيندو، وكذلك على رفع الوعي والصوت. كما يدرب المسنتات المحارب العظيم ثوفير هاوات

بول على أن يصبح مثله أي حاسوبًا بشريًا خارقًا. ويدربه غورني هاليك وآخر سيد للسيوف لدى جيناز؛ أي دانكان إيداهو، على الأسلحة وعلى تكتيكات المعارك. وهو بطبيعته أحد المتنبئين الذين لا ينطقون إلا بالحق. وأخيرًا، فإن بول نتاج برنامج التربية السري الذي طرحته البيني جيسيرت حتى ينتج كويستاز هاديراتش أي: «ذكر تابع للبيني جيسيرت يمكن لقواه العقلية العضوية أن تبني جسرًا بين الفضاء والزمن» (من رواية الكثيب).

إن كل تلك الأمور لا بد وأن تصنع بطلًا مزودًا بعتاد جيد (ولعلهم قد بالغوا في تزويده بهذا العتاد والتجهيز قليلًا) لينطلق للقيام بأي قصة تتمحور حول مغامرة ما. وحتى بعد خيانة أهله وهزيمة جيش والده، يمثل بول خصمًا كبيرًا تحاك المؤامرات والخطط ضده على يد مؤسسة الهاركونين وكذلك على يد حاميهم أي الإمبراطور الملك. في حين يتمتع بول بالأدوات والموهبة التي تساعده على الوقوف ضدهم!

إلا أن الاستثناء ... عندما كان صبيًا، كانت أحلامُ تشتمل على علم الغيب بأحداث المستقبل التي تحدث فعلًا فيما بعدُ، تراود بول. فعلى كوكب أراكيس، وبوجود حِمية متزايدة من خليط التوابل، التي لوحظ أنها تعزز القوى النفسية، يُظهر بول موهبة شديدة في مجال علم الغيب. «بدون حتى صمام الأمان المتمثل برؤية الأحلام، ركز وعيه القائم على علم الغيب، بما أنه اعتبره حسابًا لأكثر الاحتمالات التي يرجح أن تحدث مستقبلًا، ولكن بوجود شيء آخر، ألا وهو شيء من الغموض، وكأن عقله انغمس في طور سرمدي وحصل على عينات من الرياح التي ستهب مستقبلًا» (من رواية الكثيب). وهكذا يبدأ بالمشاهدة بدرجة وضوح متزايدة في الرؤيا وعدد متزايد من الاحتمالات الكثيرة التي يُرجح أن تحدث مستقبلًا والتي تقوده نحو الأمام ابتداءً من الحاضر الذي يمرُّ سريعًا. كما يرى أيضًا عددًا من الاحتمالات المستقبلية وهي تتقلص حيث تغير الأفعال التي تتخذ في الوقت الحاضر أهمية تلك الاحتمالات.

يبدو أن علم الغيب الذي يتمتع به بول أشبه بموهبة تتوج كل مواهبه الأخرى، فلماذا يعتبره إذن بمثابة لعنة ومصيدة؟ إذ بوسعه أن يرى كل الأحداث الممكن حدوثها في المستقبل ومنها منظر الجهاد الدموي الذي تمارسه المئات من الكواكب. حيث سيرتكب كل ذلك باسمه؛ وذلك لأن قواه والأسطورة التي تحيط به سترفع من قدره ليتبوأ منزلة مسيح. تتمثل مأساة بول في ملحمة الكثيب في أنه يكافح تلك الرؤيا بشكل متقطع ودون أي أمل، فهو لا يرغب في الجهاد تحت اسم المهدي، أو تحت اسم مسيح الفريمين، أو حتى تحت اسمه. كما أنه يحارب بالسر أي شخص من حوله يسعى دون أن يدري لقيام تلك الحرب المقدسة.

عندما كان بول صبيًا، أحس أن لديه «غرضًا رهيبًا»، ثم أدرك بول أن ما شعر به لم يكن سوى إحساس سابق للإدراك حول الوعي المكبوت على مستوى أنواع المخلوقات وأجناسها. «لقد شعر جنس البشر بشُباته، وأحسَّ أنه أصبح باليًا ولم يعد يعرف سوى الحاجة لاختبار الاضطراب الذي يمكن من خلاله للمورثات أن تختلط، فتبقى بذلك الخلائط القوية الجديدة. كان جميع البشر أحياء» وذلك بالنسبة لإحساس بول تجاه ذلك «كخلية وحيدة غير واعية في هذه اللحظة وهي تعيش نوعًا من الحرارة الجنسية التي يمكن أن تتجاوز أي حاجز» (من رواية الكثيب). أي إن ذلك الكائن لا يمكنه أن يتحمل، بمعنى أنه لا يمكن تغييره، وهذا يعني أن وقوف بول ضده ضرب من العبث.

الحقيقة لن تحررك

في رواية مسيح الكثيب، تصبح مصيدة علم الغيب حقيقة. إذ في محاولة اغتياله، يفقأ شخص يقوم بحرق الحجارة عيني بول، وهكذا، يستطيع بول أن يستقبل الرؤيا التي تتنبأ بالغيب بشكل مخيف وتلقائي، وتتزامن تلك الرؤيا مع الزمن الفعلي أي إنها رؤيا «واقعية، لحظة بلحظة». وهذه المقدرة تخيف ستيلغار بوصفه أحد الطيبين من شعب الفريمين، فيقول له بول: «لقد أعموا جسدي ولم يعموا بصيرتي، آه يا ستيل، إنني أعيش حلمًا مخيفًا؛ إذ تتلاءم خطواتي معه بدقة لدرجة أصبح معها أخشى ما أخشاه هو أن ينتابني الملل وأنا أعيش الأمر ذاته بكل تفاصيله».

(من رواية مسيح الكثيب).

وهنا نحس بالرعب نحن أيضًا؛ وذلك لأن بول يعرف بالضبط إلى أين سيقوده خيط الرؤيا تلك؛ أي إنه يعرف نهاية الرؤيا، والتي تتمثل بحالة عمى للرؤية والبصيرة.

كان بول أول وسيط وحي من بين وسيطين يظهران في عائلة أتريديس؛ إذ يتعرض ولداه التوءمان ليتو الثاني وغنيمة لمحنة التوابل في رحم أمهما، فيولدان قبل ميعادهما. وكما حدث للأمهات الموقرات خلال محنة التوابل، يستعيد ليتو وغنيمة كل ذكريات أسلافهما، باستثناء ذكريات الأجنة التي لم تولد. أي إن التوأمين ولدا وهما يدركان تمامًا كل حالات الوعي البشرية الموجودة لدى البالغين التي أُسبغت على جسدَي هذين الطفلين.

يتشارك بول وغنيمة في ذكريات والدهما، ولذلك تتحول ذاكرة بول إلى رؤى تعتمد على علم الغيب. إلا أن غورني هاليك يجبر ليتو على تناول جرعة زائدة من التوابل لمعرفة ما إذا كان أحد أسلافه يتملّكه. وكما نعرف نحن القراء، فإن ليتو ليس برجس، ومع ذلك تُجبر الجرعة الزائدة ليتو على إظهار قوته في وساطة الوحي.

وعندما يحدث ذلك، نطلع بشكل أكبر على طريقة عمل علم الغيب؛ إذ لم يكن بول على استعداد للتنبؤ، إلا أن ليتو كان مستعدًا؛ إذ لديه ذاكرة شخصية لوالده داخل وعيه وهذه الذاكرة تقوم بإرشاده وتوجيهه. وعندما تتملك الرؤيا ليتو، يصبح الزمن بالنسبة له بمثابة رؤية ثلاثية الأبعاد للماضي والحاضر والمستقبل. ويلاحظ ليتو أن: «الزمن مقياس للفضاء، تمامًا كما يعتبر محدد المدى مقياسًا للفضاء، إلا أن القياس يحبسنا في المكان الذي نقيسه».

(من رواية أبناء الكثيب).

وعندما يتطلع إلى تضخم المستقبل الممكن، يرى أمرين: نهاية الكون في صراع ضد إعصار كرازيليك، حيث سيعكس ذلك الدمار فظائع جهاد بول ويضخمها إلى أبعد الحدود. كما يرى درب الأمان، وهو سيتشير نبيو، والذي يسميه بلغة الفريمين: الطريق الذهبي. ولكن لا مفر من إعصار كرازيليك، ولكن إن قاد ليتو البشرية عبر الطريق الذهبي، فإنها يمكن أن تنجو من ذلك الإعصار.

وللطريق الذهبي أهداف ثلاثة، أولها أن ليتو يريد للبشرية أن تنجو من حتمية النضال ضد الإعصار، وثانيها هي أنه يقوم بتعليم الوعي العرقي وصولًا إلى المورثات. وثالثها هي أنه يريد للبشرية أن تتفرق دون أن تصل إلى رؤيا واحدة من رؤى علم الغيب التي يدركها العقل.

الطاغية

إن الهدف الأول من الطريق الذهبي سهل على الفهم، ولكن ما هو الدرس الذي يريد ليتو أن يعلمه للبشرية؟ إنه يريد أن يولِّد استعدادًا وراثيًا للحرية. ولتحقيق الطريق الذهبي، يخطط ليتو للوصول إلى عرش الأسد وتأسيس حكومة استبدادية قمعية إلى أبعد الحدود لكنها محبة للبشر وخيِّرة في السر ويمكنها أن تدوم وتبقى لآلاف السنين. ولذلك يختلط مع خنفساء أي يرقة دودة الرمل ليجعل من نفسه كائنًا هجينًا يجمع بين الإنسان ودودة الرمل، وهذا المخلوق لا يمكن لأحد تدميره بصورة عملية كما أنه يُعمّر طويلًا. وبما أن ليتو قد عمّر بما يكفي ليرى خطته تنجح؛ لذا فإنه يضحي بإنسانيته لصالح الضرورة الأخلاقية الكبرى، وهذا ما خشي منه والده بول، الذي شهد الإعصار كرازيليك والطريق الذهبي الذي يقود نحو السلامة.

وبعد حكمه المستبد الذي استمر لآلاف السنين ووُصف أنه سلام ليتو، وبعد عصور المجاعة التي أعقبت انهيار إمبراطوريته، آتى الطريق الذهبي أُكله مع التشتت؛ أي حالة شتات جامعة نقلت الناس إلى أكوانٍ أخرى. وعندما تم تفعيل قوته في مجال نقل الوحي للمرة الأولى، قال ليتو: «إن علم الغيب الشامل أسطورة؛ وذلك لأن أقوى التيارات المحلية للزمن هي التي يمكن التنبؤ بها فقط، ولكن في كونٍ لا متناهٍ، يمكن للمحلي أن يصبح عملاقًا

لدرجة أن عقلك سوف يتقلص بسببه» (من رواية أبناء الكثيب). وفي الشتات، تتوسع البشرية فتصل إلى أماكن بعيدة لدرجة أن الأحداث المحلية التي يراها عقل يتمتع بعلم الغيب لا يمكن أن تشمل كل البشرية.

لماذا كان هدف ليتو على تلك الشاكلة؟ لا يمرن وسطاء الوحي قوتهم على الدوام، وعندما يفعلون ذلك، فإنه يقومون بهذا ابتداء من لحظة حالية محددة، وانطلاقًا من الشخصية المحددة التي يمثلونها. ويدرك ليتو ذلك بوصفه وسيطًا للوحي، وذلك عبر النظر والإمعان في الأحداث التي يمكن أن تحدث مستقبلًا وتمييزها عن الظروف الحالية، والمقصود بذلك اللحظة الزمنية التي يختارها وسطاء الوحي لينظروا إليها، والشخص الذي يقوم بعملية النظر، وهذا ما يثبت الاحتمالات المستقبلية التي صادف أن رأوها بوصفها المجموعة الوحيدة للأحداث التي يمكن أن تقع مستقبلًا.

وعند رؤية وسطاء الوحي للرؤى القائمة على علم الغيب، فإنهم يقومون بطي الزمن كما تطوي طائفة بحارة الفضاء الفضاء. إذ عندما تطوي شيئًا في الفضاء، كأن تطوي زاوية صفحة تفضلها في رواية الكثيب (يا لك من مذنب!)، فإنك تجعل قمة الزاوية تلامس سطح الورقة، وعندما تقوم طائفة البحارة بطي الفضاء، فإنهم يجمعون بين نقطتين بعيدتين في الفضاء، فيخلقون بذلك فضاءً فوريًا يمكن السفر فيه. وحينما يطوي وسطاء الوحي نقطتين زمنيتين، فإن رؤاهم تجعل المستقبل يلامس الحاضر، فيرتبطان عبر حالة التنبؤ لديهم. إن حالة الحاضر واللحظة المناسبة التي رأى فيها بول أو ليتو رؤاهما القائمة على وساطة الوحي، تؤثران على المستقبل من حيث احتمالاته. وبطريقة غريبة، تسبب بول وليتو في تثبيت مجموعة من الاحتمالات المستقبلية بوصفها مجموعة دقيقة من الاحتمالات فقط؛ وذلك لأن تلك الاحتمالات تم التنبؤ بها من الحاضر. ففي كون الكثيب تقوم رؤى وساطة الوحي برسم إطار ماهية الاحتمالات وفك قيودها وتحديد شكلها، كما أنها تحد من عدد الاحتمالات. إذ قبل أن ينظر بول أو ليتو، يمكن للمستقبل أن يشتمل على عددٍ لا متناهٍ من الاحتمالات، ولكن بعد أن ينظرا، يتناقص عدد الاحتمالات شيئًا فشيئًا.

إننا نصف الطغاة أنهم يسيطرون على الفضاء وعلى المناطق والشعوب الموجودة ضمن تلك الفضاءات التي تقع تحت حكمهم. وتتجسد القدرة الرهيبة لوسطاء الوحي في كون الكثيب في أنهم طغاة يتحكمون في الزمن، وفي الأحداث التي يرونها وفي الأشخاص الذين تشملهم تلك الأزمنة والأحداث. وبما أن ليتو ابن كريم لأب كريم، فإنه يعتقد أن القوة الرهيبة تحمل معها مسؤولية مرعبة. إذ يشعر ليتو بالمسؤولية التي تدفعه للتأكد من أن البشرية تتطور بحيث يظهر فيها بشر لا يمكن رؤيتهم من خلال علم الغيب. أي إن أي شخص يتمتع بقوة وسيط وحي، ومن بينهم ليتو نفسه، لديه نقطة ضعف، أو نقطة عمياء فعليًا أمام

وساطة الوحي. إن الهدف الثالث للطريق الذهبي لدى ليتو هو خلق قتلة داخل البشرية لا يمكنه رؤيتهم بما أنه تمنى ذلك كثيرًا. هذا ويلتقي ليتو بنجاح مع سيونا أتريديس؛ إذ لا يمكنه أن يتنبأ بما لدى سيونا من خطط في أي مستقبل ممكن الحدوث يشرق ضمن رؤاه، بل يلاقي النجاح بدلًا من ذلك في نهاية المطاف، بما أن سيونا تقوم باغتياله.

معركة الرؤيا في الصحراء

من الواضح أن فرانك هيربرت ضليع في القضايا الفلسفية التي تتصل بحالة عدم التوافق المحتملة بين الإرادة الحرة والمعرفة المسبقة. وقد نسج ذلك في ملحمة الكثيب بطريقة يقوم من خلالها الخطر الذي يمثله وسيط الوحي بسرد القصة، ليس كأجواء القدر القاتلة، بل عبر الاعتماد على أكثر النقاط إثارة في الدراما الرفيعة.

والآن بالنسبة لأعلى نقطة في الدراما (هل أتجرأ على ذكرها؟) هنالك ذلك اللقاء المصيري في رواية أبناء الكثيب بين وسيطي وحي لدى شعب الأتريديس، وهما الأب والابن، بول وليتو. إذ إن ذلك يمثل المرة الوحيدة في ملحمة الكثيب التي يلتقي فيها وسيطا وحي قويان وبارعان في علم الغيب. وأعتقد أن هذا اللقاء يُظهر أن بول وليتو يتمتعان بإرادة حرة ربما، ويبتعدان عن تناقضات المعرفة المسبقة قدر استطاعتهما؛ أي إنهما يصبحان حرَّين بمجرد عدم تمكنهما من التنبؤ بالمستقبل!

قبل ذلك بسنوات، خضع بول أتريديس لقانون الفريمين بالنسبة للعميان وتوجه إلى الصحراء، وقد نجا بطريقةٍ ما، فأصبح يلقب اليوم بالواعظ، كما تعرض للأسر على يد المنبوذين الخونة من شعب الفريمين في شولوتش، حيث أخذوا يعطون بول جرعاتٍ كبيرة من التوابل على أمل أن يستغلوا قدرته في مشاهدة رؤى المستقبل. لعل بول قد استعاد قدرته في مجال وساطة الوحي، كما لعله لم يبلغ ذلك؛ ولهذا أرى أن علينا أن نفترض أنه لم يستعد تلك القدرات، إلا أن بول بالرغم من ذلك بقي يحتفظ بذكريات كاملة وحيَّة حول رؤياه الأصلية. وفي أعماق صحراء تانزيروفت، قطع ليتو طريق بول، ففوجئ بول بذلك بلا ريب، بل كانت مفاجأته مضاعفة لظهور صبي في الطريق الذي صعدت إليه دودة الرمل لديه، فما كان منه إلا أن اعترض سبيل تلك الدودة، كما دهش لأن هذا الصبي ابنه. أجل أيها الأتريديسي، بوسع الحياة أن تفاجئك. بالتأكيد فوجئ بول بما يحدث؛ إذ ليس بوسع وسيط الوحي أن يرى وسيط وحي آخر؛ ولهذا فإن هذا اللقاء المحتمل لم يكن شيئًا قد رآه بول بفضل تمتعه بعلم الغيب. كما أن لدى ليتو القدرة على الوصول إلى ذكريات أبيه حول هذه الرؤيا؛ ولهذا فهو على يقين من أن هذا اللقاء لم يكن شيئًا تنبأ به بول بفضل علم الغيب لديه.

لقد اعترض ليتو سبيله لأنه وجد في ذلك فرصته لفتح المستقبل من جديد على احتمال

الطريق الذهبي، ذلك الاحتمال الذي يقول إن والده قد ابتعد عنه والذي أصبح منتهيًا تقريبًا. وبالرغم من أن حديثهما لم يكن مؤذيًا، فإن كليهما يعرفان حقيقته، ألا وهي معركة الرؤيا. إذ ثمة مخاطر تزداد مع ظهور مخاطر أخرى، ويتمثل ذلك ببقاء البشرية وصمودها في صراعها مع الإعصار أو فنائها. إذن، هل بوسع ليتو إقامة تسلسلات زمنية مستقبلية تشتمل على الطريق الذهبي لتتحول إلى احتمالات أقوى، أم أن رؤيا بول الأدنى هي التي ستسيطر؟ لنتذكر هنا ما نقلته الأميرة إيرولان حول ما قاله بول موديب عن طبيعة وسيط الوحي:

إنه يخبرنا عن قرارٍ غامض وحيد للنبوءة؛ إذ لعل اختيار كلمةٍ دون أخرى يمكن أن يغير أحد جوانب المستقبل بأكمله. إنه يخبرنا أن: «رؤيا الزمان واسعة، ولكن عندما تمر بها، يصبح الزمان بابًا ضيقًا»، ولقد حارب دومًا ذلك الإغراء المتمثل في اختيار مسار واضح وآمن، ولذلك يحذرنا بالقول: «إن ذلك الطريق ينحدر دومًا نحو الركود» (من رواية الكثيب).

إن هذا يمثل نصف الحقيقة من قبل بول، فهو أيضًا شاهد الطريق الذهبي وضرورته الكبيرة، والثمن هو ارتداء «جلد ليس بجلده»، والتخلي عن إنسانيته، وأن يحمل على كتفَيه عبء السيطرة على كون معلوم. لقد جبن بول أمام ذلك، وتوقف لصالح شيء يقترب من حياة عادية. في حين أن ليتو لم يكن هيَّابًا، إنما بول كان خائفًا من خيار مسؤول مؤلم ووحيد ومرعب، وكذلك خاف من التضحية بإنسانيته لصالح الوحشية والبشاعة. لم يكن الطريق البعيد عن الجمود واضحًا وآمنًا على الدوام بالنسبة لموديب، لم يكن كذلك دائمًا ...

كلمة واحدة عن شفا الكارثة التي ستظهر مستقبلًا

يصف بول النبوءة أنها قرار، ولكن ما الذي يعنيه بذلك؟ بالنسبة لوسطاء الوحي، بمجرد أن يمتلكوا السيطرة على زمان ممارستهم لقوتهم في التنبؤ والطريقة التي يمكنهم من خلالها القيام بذلك، يصبح توقيت وطريقة ممارستهم للتنبؤ بمثابة قرار يتخذونه. وبما أنهم يرون كل الاحتمالات المستقبلية بفضل علم الغيب؛ وذلك لأنهم يعيشون حالة انسجام خاصة مع عملية الاتصال بأي مستقبل قابل للحدوث وباللحظة الحالية المتغيرة؛ لذا فإن وسطاء الوحي يحتلون موقعًا يخوِّلهم التأثير أيضًا على الاحتمالات التي ستصبح ممكنة أو مستحيلة بدرجة ما. إذ لا يمكن لوسطاء الوحي لدى الأتريديس اختيار مجموعة من الاحتمالات المستقبلية بمجرد أن يتنبؤوا بها؛ وذلك لأن مجموعة الاحتمالات تلك تبقى بحاجة لمن يراها (أو يتنبأ بها). غير أن هؤلاء بوسعهم المساهمة في اختيار أكثر التسلسلات الزمنية التي يرجح حدوثها أو يضعف احتمال حدوثها من بين تلك المجموعة. وعبر تواتر ملاحظة الاحتمالات الخاصة بالمستقبل في الوقت الذي يعيش فيه هؤلاء ويتصرفون في الزمن الحاضر، يتلاعب وسطاء الوحي بماهية الاحتمالات المستقبلية، فيصبح إعصار كرازيليك أمرًا حتميًا؛ وذلك لأن كل

تسلسل زمني يؤدي إليه بصورة ثابتة. إلا أن تحديد التسلسل الزمني الذي يؤدي إلى حدوث ذلك الإعصار فعلًا من بين كل حالات المستقبل الممكنة التي تم التنبؤ بها لهو أمر يمكن الفرار منه وتجنبه كليًا، ويعتمد ذلك على ما إذا كان علينا تقرير المستقبل الفعلي المحدد الذي يشتمل على الطريق الذهبي؛ إذ يتحدد ذلك عبر الأفعال التي تُمارس في اللحظة الحالية.

قد ينتهي دور بول كوسيط للوحي عندما يلتقي بنجله في تانزيروفت، إلا أنه كان وسيطًا للوحي ومينتاتًا، كما أنه لم ينسَ رؤاه الأصلية، ولم ينس الإحساس بأدق التحركات، وبأصغر كلمة لم تكن في محلها، ما يعني أن الرؤيا المختلفة لابنه في هذه اللحظة ستتفوق على رؤياه. إن معركة الرؤى مشحونة للغاية، ودقيقة للغاية، ومعقدة ومركزة للغاية، لدرجة أنه لا أحد سيرغب أن يقوم بأي حركة أو أن ينطق بأي كلمة بلا داعٍ. «أحس ليتو بالتنافر بينهما ... إذ سيجبر هو أو والده على التصرف بعد قليل، واتخاذ قرار بفعل ذلك التصرف؛ أي اختيار رؤيا» (من رواية أبناء الكثيب).

بل إنه حتى مرشد الواعظ، وهو شاب منبوذ من شولوتش، يحس بمعركة الرؤى، «كانت مسرحية خفية تحيط بهما، وتمثل إسقاطًا لأشكال لا واعية» (من رواية أبناء الكثيب). كان لدى الفتى أوامره: تدمير الأتريديس إن أصبحوا كويستاز هاديراتش، ولذلك يطلق الفتى درعًا مستعارة في مكان قريب من الصحراء، وهذه الدرع سوف تجذب إليه دودة مجنونة ستقتل ثلاثتهم. يحس ليتو أن الدرع المستعارة قد تم تفعيلها، فينتظر إشارة. إلا أن بول يهمس بعدما فقد الأمل: «لا تفعل». وعندما تطلق الإشارة، يقفز ليتو ويقتل الصبي ويرمي بالدرع المستعارة بعيدًا، فينقذ نفسه وبول من الدودة.

تمثل عبارة: «لا تفعل» قرارًا متعجلًا اتخذه بول بناء على عملية اختيار للرؤيا: أي لرؤيا ليتو، والمقصود هنا الطريق الذهبي من أجل سلامة البشرية. ولماذا أتى ذلك؟ وهل يمثل ذلك هفوة في التركيز في معركة الرؤى التي يخوضونها؟ من غير المرجح أن يكون الأمر كذلك؛ إذ حتى بعد أن أمضى بول وقتًا طويلًا في الصحراء، لا يزال يمثل خصمًا قويًا، حتى بالنسبة لابنه.

هل تمثل تلك العبارة المفردة قبوله بثبات ابنه وحزمه بالنسبة للطريق؛ أي الطريق الذي اختاره، إذن لماذا يقاومه؟ فليدعه حتى يكوِّن رؤياه! أم أن ذلك يعبر عن مثال أخير حول حيرة بول بكل ما فيها من بشرية وإنسانية أمام المسؤوليات الجسام، تلك الحيرة التي تمثل خطأً فطريًا ضمن هشاشته المبالغة في بشريتها؟ في نهاية المطاف، نجد أن بول يشترك في الكثير من صفات شخصيته مع والده، الدوق ليتو الأول. إذ بالتأكيد كان هنالك رجل لم يستطع منع نفسه من التوق للمباهج البسيطة ومحاولة التمسك بها وذلك في الأوقات

الخطيرة التي تشتمل على مسؤوليات قد تؤدي إلى التهلكة. ولكن هل تمثل عبارة بول: «لا تفعل» فشلًا أخلاقيًا؟ ما هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يُحكَم عليه أنه توق أحد الجبناء في التحليل الأخير؟

قد أكون متسرعًا في وصف معركة الرؤى في الصحراء أنها ذروة الدراما؛ إذ لعل التلميح الأدبي الصحيح هنا يشير إلى مأساة. إذ يذكرنا هيربرت أن وسطاء الوحي لدى الأتريديس لم يكونوا مثل وسطاء الوحي في الأساطير؛ أي إنهم لا يمثلون أصواتًا خارجية تظهر في لحظات النشوة المجنونة. ثم إن تمتع المرء بقوة مشاهدة رؤى المستقبل لن تحوله إلى عدسة صافية وشفافة. ولذلك يمثل بول أتريديس إنسانًا في زمن معين يتمتع بشخصية مميزة، وأنه مثل أي شخص آخر، قد يتعرض لضغوط حتى يرتقي بشكل كامل. وبالنسبة لبول، تمثل معركة الرؤى ذروة حالة مأساوية، بطلها بول: وهو بطل تراجيدي مأساوي بالمعنى اليوناني للكلمة؛ أي إنه بطل يقوم برسم معالم الحدث لكنه في الوقت ذاته لا يستطيع أن يهرب من قدر مكتوب عليه، وذلك بسبب عيب تتميز به شخصيته، وهذا العيب هو الذي يتسبب في تحقق ذلك القدر المكتوب. وبالنسبة لحالة بول، فإن العيب الموجود في شخصيته هو إنسانيته؛ لأنه لا يريد أن يصبح وحشًا فقط لينقذ المستقبل.

يعتبر بول موديب بطلًا، وهو بطل متضارب وغامض بشكل مذهل؛ إذ منذ دخوله، وبسبب نقطة ضعفه، فإنه يطلق العنان للوقت بين يدي ابنه. وبدون لحظة الضعف لدى بول، لم يتمكن ليتو من أن يصبح بطلًا وذلك عبر إمساكه بعنان الزمن وبدء التاريخ عبر الطريق الذهبي. ولكن علينا أن نتذكر هنا أن ليتو لا يمكنه أن يرى ما يمكن لأي وسيط وحي آخر أن يفعله أو ما قد رآه؛ وذلك لأن رؤاه ليست كاملة كما هي حال رؤى أبيه. ولذلك عندما يلتقي كلٌّ منهما بالآخر في قلب الصحراء، يتمتع كلاهما بالحرية التي يمكن لأي وسيط وحي التمتع بها، إلا أن العمى يصيبهما تجاه الطريقة التي ستنتهي بها معركة الرؤى التي يخوضانها، بيد أنهما يشاهدان أن عليهما خوض تلك المعركة.

في جناح تابر بعد وقوع الكارثة

«ستقرأ أمّ موقرة كلماتي!» كلما قرأتُ هذا السطر في رواية زنادقة الكثيب، وهي خامس رواية من سلسلة روايات الكثيب، يقشعر جسمي ويقف شعر بدني. فهذه الكلمات محفورة في عمق الجدران الصخرية داخل غرفة سرية تحت جناح تابر بواسطة مسدس ليزري. والرجل الذي كتب تلك الكلمات ليس إلا ليتو أتريديس الثاني، الإمبراطور الرباني، والذي توفي قبل ألف وخمسمائة سنة، لكنه كان يعرف أن إحدى الأمهات الموقرات ستقرأ كلماته، وهذا ما فعلته الأم الموقرة داروي أودرادي، وهي الأم المتخصصة في أمن البيني جيسيرت،

عندما اكتشفت تلك الغرفة السرية.

احترتُ كثيرًا عندما قرأتُ للمرة الأولى أن ليتو لم يُسمِّ الأسماء عندما كتب: «ستقرأ أمُ موقرة كلماتي!»؛ إذ بوسع ليتو رؤية المستقبل، فلماذا لم يُسمِّ الأخت؟ («داروي أودرادي ... هذه حياتي!»). الجواب هو أن داروي أودرادي، التي تنتمي هي الأخرى للأتريديس، تحمل علامة سيونا؛ أي المورث الذي يجعل صاحبه لا يُرى في علم الغيب.

إن لم يتنبأ ليتو بواسطة علم الغيب باكتشاف غرفته السرية على يد أم موقرة، عندها تصبح رسالته التي حفرها على جدران الغرفة السرية والتي وجهها للأخوية على وجه الخصوص والتي تُحتِّم على الأخوات مواصلة السير في الطريق الذهبي بما أنه قد توفي، عبارة عن تخمين مبني على معلومات كثيرة في أحسن الأحوال. فمَن غيرُ إحدى عضوات البيني جيسيرت بوسعه أن يمتطي دودة رمل وأن يتعرف على جناح تابر، وأن يتتبع مفاتيحه المكتوبة بلغة الصيد القديمة تشاكوبسا ليصل إلى الغرفة السرية؟ إن عدم رؤيته وتنبؤه بذلك لا يعني أنه لم يكن يعرف ذلك بطريقة ما. ولكن في أسوأ الأحوال، يمثل ذلك مغامرة خطيرة وغير مضمونة من قبل ليتو.

حتى لو تنبأ ليتو باكتشاف غرفته السرية على يد إحدى الأمهات الموقرات، هل كان بوسعه أن يتأكد مما ستفعله الأخوية عند قراءة رسالته الموجهة لها؟ إن جميع المنتميات لتلك الأخوية يحملن شارة سيونا؛ ولهذا أعمى وسيط الوحي نفسه بشكل فعال عن قرار الأخوية. ولنصوغ ذلك بطريقة أخرى، يمكن القول إنه بالنسبة لليتو، كان ثمن الحرية يقظة أبدية.

في أرض الرجل الأعمى، صاحب العين الواحدة ...

ما يحاول هيربرت قوله هنا هو أن الحرية تستند ليس إلى المعرفة، بل إلى مزيج من العلم والجهل؛ إذ إن رؤى بول وليتو حول المستقبل تشتمل على مزالق، فبالرغم من أنهما يعرفان موضع عودة التسلسلات الزمنية إلى المشهد، لا يعرف أي منهما ماهية الأحداث التي سوف تقع ضمن العمى الموجود في تلك المزالق. وفي تلك الأوقات، يجب عليهما أن يتصرفا كما يتصرف أي شخص آخر؛ أي بناء على الأدلة التي تقدمها لهما حواسهما وخبرتهما وغير ذلك من أشكال المعرفة الدنيوية. ثم إن سر ليتو؛ أي انتصاره الشخصي، يتمثل في نجاحه في توليد شخص يحمل مورثًا يجعله لا يُرى في علم الغيب؛ أي إنه يقلل بصورة جوهرية المقدار الذي بوسعه التنبؤ بمستقبله، ما يعني أن يقلل مدى تهديد معرفته المسبقة القائمة على علم الغيب لإرادته الحرة، وبذلك يحرر ليتو نفسه، وعلى طريقته، عبر إصابة نفسه بالعمى.

تمثل معركة الرؤى أحد المزالق الشخصية لدى الأب والابن لأن ما يحُدُّ كلًّا منهما هو وجود وسيط وحي آخر، إذًا ما الذي يفعله بطلا الأتريديس؟ إنهما يقومان بالضبط بما يقوم به كل الأبطال الطيبين؛ أي إنهما يُحرمان من الهدوء الذهني الرصين ومن الرزانة، بما أنهما يتنبآن باحتمالات المستقبل، ويشاهدان أيها يصبح أكثر أو أقل ترجيحًا للحدوث وذلك عندما يتصرفان، ويحاولان توجيه مسار التاريخ بالاتجاه الذي يريدانه. وبوصفهما وسيطي وحي؛ لذا فإنهما يتمتعان بقدر ضئيل من الحرية، وهي بدورها تساعدهما في زيادة فرص وقوع الاحتمالات التي يفضلان وقوعها؛ أي إنهما يتمتعان بنوع مذهل من الحرية التي تؤثر على فرص تغيير الأمور التي يمكن أن تحدث بطريقة أخرى في المستقبل البعيد. وتقرر معركة الرؤى في الصحراء احتمال الطريق الذهبي وما بعده. ولكن هل ستقرأ أم موقرة كلماتهما؟ كلا؛ لأن كل مُواطنٍ في الإمبراطورية سوف يقرأ كلمات بول وليتو، وسيطلع على أعمالهما وكل اختيار قاما به تجاه أي حدث مستقبلي أعقب ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة لنا نحن القراء مع كل صفحة تأتي في ملحمة الكثيب.

وبالرغم من كل ذلك، لا تختلف حرية بول وليتو كثيرًا عن الحرية التي يتمتع بها الأشخاص العاديون في كل يوم والذين تتسم أفعالهم الإرادية بالإبداع والتصميم كما هي أفعال بول وليتو. إذ قد لا يتمتع أحدٌ منا بمعرفة مسبقة قائمة على علم الغيب، ولكن لا يزال لدينا الكثير الذي نعرفه، والذي بوسعنا أن نعرفه مسبقًا حول الفرص التي تتجه إليها حياتنا. فعلى مستوى أقل شمولية من مستوى بول وليتو، نحاول أن نفعل الشيء ذاته، ألا وهو توجيه مسار تاريخنا نحو الوجهة التي نريدها، وهنا نكتشف أن الله ليس الصِّنو المناسب لوسطاء الوحي في الكثيب، بل أنتم وأنا.

تم الاكتشاف على يد: سام غيتس-سكوفيل

الملاحق

المراجع

فرانك هيربرت

الكثيب.

مسيح الكثيب.

أبناء الكثيب.

إمبراطور الكثيب الرباني.

زنادقة الكثيب.

البيت المقسم: الكثيب.

«سفر تكوين الكثيب»، أومني، تموز 1980 (تاريخ الوصول: كانون الثاني 2009 عبر الرابط: http://www.dunenovels.com/news/genesis.html، ولم يعد بالإمكان الوصول إليه عبر ذلك الرابط).

مع ماكس بارنارد: بدوني أنت لا شيء: الدليل الأساسي للحواسيب المنزلية (بوكيت: 1983).

برايان هيربرت وكيفين ج. أندرسون، 2008، بول في الكثيب، كتاب تور.

مراجع أخرى

ج.ي.م. أنيسكوم: نية، مطبوعات جامعة هارفارد.

كوامي أنطوني أبياه، 2005، أخلاق الهوية، مطبوعات جامعة برينستون.

توما الإكويني، 1997، كتابات أساسية عن القديس توما الإكويني: الله ونظام الخليقة. حرره أنطون تشارلز بيغيز. هاكيت.

حنا أرندت، 1963: إيخمان في القدس: تقرير عن ابتذال الشر، بينغوين

روبرت ب. أسبري، 1975، حرب في الظلال: حرب العصابات في التاريخ، المجلد الأول، دوبلداي

مارغريت آتوود، 1998، عين القط، آنكور.

جوليان باغيني، 2005، عمَّ يدور كل هذا؟ فلسفة الحياة ومعناها، مطبوعات جامعة أوكسفورد

مارفين بيلزير، 2005، فهم الذات والهوية الشخصية: مراجعة بارفيت ولويس مع مراقبة سيطرة استجابة الوحدة، الفلسفة والسياسة الاجتماعية.

بوثيوس، 1902، عزاء الفلسفة، ترجمة: دينت و. ف. كوبر. www.exclassics.com/consol/cons8.htm

كارل فون كلاوزيفيتش، 2009، على الحرب، مطبوعات وايلدسايد

جون كوتينغهام، 2003، حول معنى الحياة، روتليدج.

دانييل دينيت، 1992، شرح الوعي، كتب باك باي.

ج. ديوي، 1996، الديمقراطية الإبداعية: المهمة المحددة أمامنا، في ل.أ. هيكمان. محرر، الأعمال الكاملة لجون ديوي: النسخة الإلكترونية. الأعمال اللاحقة 14. إنتيليكس.

لورينزو ديتوماسو، 2007، التعبير عن الانحطاط الإمبراطوري والتراجع في الخيال العلمي الملحمي، استقراء 48:2 (تموز).

رالف والدو إيميرسون، 2008، (1841)، الاعتماد على الذات في ك.ساكس، محرر، كتابات سياسية، مطبوعات جامعة كامبريدج.

بيتر غانت، 2003، تواريخ أساسية: الحروب الأهلية الإنكليزية 1642-1651، أوسبراي.

إدوارد غيبون، 1776-1789، تاريخ تراجع وسقوط الإمبراطورية الرومانية، ستراهان وكاديل.

إرنستو غيفارا، 1985، حرب العصابات، مطبوعات جامعة نبراسكا.

جورجين هابرماس، 1984، نظرية الفعل التواصلي، المجلد 1، مطبوعات بيكون.

جورجين هابرماس، 1987، نظرية الفعل التواصلي، المجلد 2، مطبوعات بيكون.

جون هايك، 2007، الشر وإله الحب، ماكميلان.

لاري هينمان، 2005، أرسطو وأخلاق الفضيلة، تحديثات الأخلاق، http://ethics.sandiego.edu/theories/aristotle/index.asp/ 10/12/2005.

توماس هوبز، 1996، لوياثان، مطبوعات جامعة كامبريدج.

روزاليند هورستهاوس، 1999، عن أخلاق الفضيلة، مطبوعات جامعة أوكسفورد.

إيمانويل كانط، 1996، ميتافيزيقيا الأخلاق، ترجمة: ماري ج. غريغور، مطبوعات جامعة كامبريدج.

إيمانويل كانط، 2002، أساس ميتافيزيقيا الأخلاق، ترجمة: توماس ي. هيل وآرنولف زويغ، مطبوعات جامعة أوكسفورد.

جان كازيز، 2007، ثقل الأشياء: الفلسفة والحياة الجيدة، بلاكويل.

جويل كوبرمان، 2006، ست أساطير عن الحياة الطيبة: التفكير بالشيء الذي يحمل قيمة، هاكيت

بيير سيمون لابلاس، 1951، مقالة فلسفية حول الاحتمالات، ترجمة: فريدريك ويلسون تروسكوت وفريدريك لينكولن إيموري، دوفر.

جوليا ليست، 2009، «قل عني إني بروتستانتي»: المسيحية الليبرالية، والفردانية والمسيح في رواية: غريب في أرض غريبة، والكثيب، وسيد النور، دراسات في الخيال العلمي #107 (آذار).

جون لوك، 1998، مقالة حول الفهم البشري، تحرير: روجر وولهاوس، كلاسيكيات بينغوين.

آلاسدير ماك إنتيري، 1984، بعد الفضيلة: دراسة في النظرية الأخلاقية، مطبوعات جامعة نوتردام.

آلاسدير ماك إنتيري، 1999، حيوانات عاقلة عالة، أوبن كورت.

ج.ل. ماكي، 1955، الشر والقدرة الكلية، العقل 64:254 (نيسان).

جون ستيورات ميل، 1993، مذهب النفعية، عن الحرية، اعتبارات عن الحكومة التمثيلية، ملاحظات حول فلسفة بينتهام، تحرير غيراينت ويليامز، إيفريمان.

مونغادجيت، 2009، الكثيب، http://moongadget.com/origins/dune.html

فريدريك نيتشه، 1975، تأملات في غير حينها، ترجمة: دانييل بريزيلي، مطبوعات جامعة كامبريدج.

فريدريك نيتشه، 1982أ، المسيح الدجال. في كتاب: نيتشه المتنقل، تحرير وترجمة:

وولتر كوفمان (بينغوين).

فريدريك نيتشه، 1982ب، هكذا تكلم زرادشت، في كتاب نيتشه المتنقل، تحرير وترجمة: وولتر كوفمان (بينغوين).

فريدريك نيتشه، 1992أ، ما وراء الخير والشر، في كتاب: كتابات نيتشه الأساسية، تحرير وترجمة: وولتر كوفمان (المكتبة العصرية).

فريدريك نيتشه، 1992ب، هو ذا الرجل، في كتاب: كتابات نيتشه الأساسية، تحرير وترجمة: وولتر كوفمان (المكتبة العصرية).

مارثا نوسبوم، 1999، حدود العدالة: الإعاقة والجنسية وعضوية النوع، مطبوعات جامعة هارفارد

ديريك بارفيت 1984، أسباب وأشخاص، مطبوعات جامعة أوكسفورد (الفصل 10 و11).

دونالد بلومبو، 2002، نظرية العماه، الأسس والروبوتات لأسيموف، والكثيب لهيربرت: جمالية كسور الخيال العلمي الملحمي، مساهمات في دراسة الخيال العلمي والخيال، مطبوعات غريندوود.

أفلاطون، 1996، الجمهورية، ترجمة وتحرير: ريتشارد و. ستيرلينغ وويليام س. سكوت، نورتون.

أفلاطون، 1987، المسرح، ترجمة: روبن ه. ووترفيلد، كلاسيكيات بينغوين.

ماريا شيتشمان، 1996، دستور الأنفس، الفصل 4، مطبوعات جامعة كورنيل.

ماريا شيتشمان، 2005، الهوية الشخصية والماضي، الفلسفة والطب العقلي والنفسي 12:1.

بيتر سينغار، 2009، الحياة التي بوسعك إنقاذها: العمل الآن على إنهاء الفقر في العالم، دار راندوم.

توم ستوبارد، 1994، أركاديا، فابير وفابير

كريستين سوانتون، 2003، أخلاق الفضيلة: نظرة تعددية، مطبوعات جامعة أوكسفورد.

ريتشارد تايلور، 1974، الميتافيزيقيا، برينتيس-هول.

ريتشارد تايلور، 1984، الخير والشر: اتجاه جديد، بروميثيوس.

ليزا تيسمان، 2005، فضائل مرهقة، أخلاق الفضيلة من أجل النضالات التحريرية، مطبوعات جامعة أوكسفورد.

وزارة الدفاع الأميركية، آب 2009، قاموس المصطلحات العسكرية وما يتصل بها.

ديفيد ج. فيليمان، 2006أ، الذات كالراوي، في ذات إلى ذات: مقالات مختارة (مطبوعات جامعة كامبريدج).

ديفيد ج. فيليمان، 2006ب، ذات إلى ذات، في ذات إلى ذات: مقالات مختارة (مطبوعات جامعة كامبريدج).

بيرنارد ويليامز، 1985، الأخلاق وحدود الفلسفة، مطبوعات جامعة هارفارد.

وثيقة الماناك إن-أشرف

ماثيو أ. باتكوس

ماثيو مصور صحفي شغوف؛ ولهذا ساهم في تأسيس شركة تصوير ضوئي، وعمل في مجال التصوير لصالح جهات كثيرة ومتنوعة، بدءًا من شركات الباليه والمسرح وصولًا إلى مجلة بلاي بوي غولف، فضلًا عن عمله في تصميم المواقع الإلكترونية لصالح شركات عديدة. وحاليًا، يمارس ماثيو التصوير في مستنقعات لويزيانا، وبالرغم من أنه يبذل أقصى ما لديه، فإن التماسيح لم تأكله بعدُ. وبما أنه حصل على الحزام الأسود في التايكواندو، فإنه يُذكِّر طلابه باستمرار أن عليهم أن يحذروا من مهارات النينجا لديه.

ماثيو أستاذ جامعي مساعد في الفلسفة بجامعة ولاية ماكنيس، حيث يُدرِّس مناهج تقديمية في الفلسفة والأخلاق التطبيقية في مجال الطب وغيره من فروع العلم. كما أنه محاضر لدى جامعة تشاذام، حيث يُدرِّس مناهج في طرائق البحث، والممارسة القائمة على أدلة، وقضايا معاصرة في الرعاية الصحية. وعندما لا يقوم بتدريس أي شيء، يعمل مع فريق بحثي في مجال طب الرعاية الحرجة بجامعة بيتسبيرغ.

كريستوفر سيوتشيتي

بما أنه طباخ نهم، فهو يعرف الكثير عن التوابل بالرغم من أن عينيه البنيتين تجهلان بأمور الديدان كثيرًا. وقبل انتقاله إلى لويزيانا في صيف عام 2000، كان كوكب أراكيس نموذجًا لبيئة حارة وقاسية بالنسبة له، ولكنه الآن أصبح يُذكِّر أهالي أراكيس أن ما يزعج ليس الحرارة، بل الرطوبة.

كريس أستاذ جامعي مساعد في الفلسفة لدى كلية سينتيناري بلويزيانا، حيث يُدرِّس مناهج حول الأخلاق والفلسفة الاجتماعية والسياسية، وتاريخ الفلسفة، لكنه لم يُدرِّس منهجًا واحدًا حول أخلاق البيني جيسيرت، أو تقنية طي الفضاء، أو ظهور الكويستاز هاديراتش. حصل على دكتوراه من جامعة كنتاكي حيث كتب أطروحة حول مبررات الملكية الخاصة، كما ألف العديد من المقالات حول فلسفة العقاب.

إيفا إيرمان

بعد سنوات من المضايقات بسبب الكثيب من قبل شريكها نيكلاس الذي دفع إيفا لمشاهدة فيلم الكثيب والمسلسل الذي يدور حوله، دون أن يُخلِّف ذلك لديها أي انطباع دائم من أي نوع، استسلمت إيفا أخيرًا لحجة نيكلاس أن: «الكتب أفضل بكثير»، فقامت بقراءتها ... ومنذ

ذلك الحين تعلقت بتلك الملحمة المؤثرة.

إيفا مُحاضرة رفيعة المستوى في مجال النظرية السياسية لدى جامعة ستوكهولم بالسويد، وهي مؤلفة كتاب: حقوق الإنسان والديمقراطية (2005)، ولديها مقالات منشورة حول الصراع الأخلاقي، وأخلاقيات الخطاب، كما لديها الكثير مما كتبته لدى المجلات البحثية الفلسفية مثل النظرية السياسية، والفلسفة والنقد الاجتماعي، وتطرقت أيضًا للكتابة عن العجز الديمقراطي للحوكمة العالمية في مجلات بحثية مثل مجلة الدراسات الدولية ومجلة الأخلاق والشؤون الدولية، كما أنها تشغل منصب رئاسة التحرير لدى مجلة الأخلاق والسياسة العالمية.

آدم فيرنر

بين الفينة والأخرى، وهو يتجول بدراجته في أرجاء لندن، يترنم آدم بموضوع الحرب الموجود في الكثيب ويتظاهر أنه يمتطي دودة رمل، فهذا ممتع إلى أن يبدأ بقية راكبي الدراجات عند إشارة المرور بالتحديق فيه مستغربين ما يفعله. وبما أن اسمه ليس بمعروف للأسف؛ لذا يصبح أمامه أن يصرَّ بأسنانه بشكل عصبي إلى أن يتغير لون الإشارة الضوئية. كما أنه جرب ماء الحياة مرة، لكن هذا الماء لم يعطه سوى الريح.

وحاليًا، يقوم آدم ببحث خاص من أجل أطروحة الدكتوراه في الفلسفة لدى كلية بيركبيك، حيث يركز اهتماماته البحثية على الهوية الشخصية وفلسفة الذات والعدمية، كما يعمل لدى مجلتي الفلسفة وفكر، ويقوم بتعليم تاريخ الفن لدى جامعة لندن، وفي وقت فراغه يتدرج ليصبح فنانًا راقصًا بواسطة السرج على المستوى العالمي.

سام غيتس-سكوفيل

سام فيلسوف وفي بعض الأحيان كاتب محترف ومصمم قمصان وشاعر يكتب قصائد يابانية بأسلوب القرن الثامن عشر، والتي تعرف باسم الهايكو، ويقيم في ملبورن بأستراليا.

في عيد ميلاده العاشر، تعلق بخليط التوابل عندما أهداه عمه اللطيف رواية الكثيب، فقرأها ثم قرأها مرة أخرى ... ثم قرأها كثيرًا، حيث فتنته رؤية ومنظور كل شخصية من شخصيات تلك الرواية تجاه الكون وتجاه نفسها، وأنها كانت منوطة بذلك ومختلفة إلى حد بعيد؛ إذ تمثل كل شخصية محاولة أخرى فقط لحل معضلة البشر، ألا وهي كيف نعيش.

أمضى سام ثلاثة عشر عامًا في تدريس الفلسفة لدى فروع عديدة بجامعة ملبورن، وبجامعة موناش، وفي مركز تعليم الكبار، كما طور مناهج تقوم بتطبيق الفلسفة الحديثة والقديمة على شؤون معاصرة وعلى الحياة اليومية، وقد شملت أفكار ومواضيع تلك المناهج

الرأسمالية، المصفوفة، قرصنة البرمجيات، تقنية الخلايا الجذعية، علم الخليقة، غوغل، التدوين، والصحة المهنية ومعنى الحياة.

ومن الفلاسفة المفضلين لدى سام ألبرت كامو الذي كتب: «توجد حقيقة تبدو أخلاقية بشكل كامل، وأقصد بذلك أن الإنسان فريسة لحقائقه على الدوام». إذ يعتقد سام أن فرانك هيربرت لا بد وأن يتفق مع ذلك وكذلك بول أتريديس: «لقد أخبرني والدي في إحدى المرات أن احترام الحقيقة يكاد يكون أساس كل الأخلاق»؛ إذ هذا ما يخبرنا به بول، ويتابع: «لا يمكن لشيء أن يخرج من لا شيء»، وهذا التفكير العميق يأتي إن فهمنا إلى أي مدى «يمكن للحقيقة» أن تكون غير ثابتة. إذ حتى المينتات والبيني جيسيرت، الذين يعرفون حدود حقائقهم وأنها اعتباطية، هم نتاج لتعليمهم وتربيتهم المدرسية؛ ولهذا بوسعهم القيام بشيء أكبر من مجرد العيش مع تلك الحقائق.

من الهدايا اللطيفة التي أهداه إياها عمه فرشاة شعر رجالية (لا يزال يستخدمها)، وكعكة بودينغ بالشوكولا (لم تعد صالحة للاستخدام).

روي جاكسون

بدأ روي بقراءة كتب الكثيب لأول مرة عندما قضى أسبوعًا في جزيرة مهجورة عمليًا قبالة الساحل الغربي لأستراليا، لم يكن فيها ديدان ضخمة، بل الكثير من السحالي ذات العيون الجاحظة المرعبة والكبيرة.

روي محاضر رفيع المستوى في مجال الدين والفلسفة والأخلاق لدى جامعة غلوسيستيرشاير في المملكة المتحدة، حيث قدم محاضرات في الفلسفة والدين طوال فترة امتدت لأكثر من عشرين عام. وتشمل كتبه المنشورة نيتشه والإسلام، مودودي والإسلام السياسي، علم نفسك نيتشه، وإله الفلسفة. أما اهتماماته البحثية فتنصبُّ على نيتشه وأخلاق الإسلام، لا سيما فكرة الجهاد، وفلسفة الدين.

كما قال نيتشه في أحد المرات: «بالرغم من أن أعتى قضاة الساحرات بل الساحرات أنفسهن كانوا على قناعة كاملة بذنب السحر، فإن هذا الذنب لم يكن موجودًا، ولذلك وبوجود كل هذا الذنب، قد لا يتفق حاملو ذنب البيني جيسيرت أبدًا مع تلك الفكرة. وروي نفسه انغمس في أحد الأساليب البسيطة التي تمارسها البيني جيسيرت؛ إذ كلما تعين عليه زيارة طبيب الأسنان، كان يقرأ على نفسه صلاة الخوف فيقول: «يجب عليَّ ألا أخاف، فالخوف يقتل الفكر»، إلا أن ذلك لا يجدي معه نفعًا.

غريغ ليتمان

«لقد خاب أملي كثيرًا»، إنها عبارة صادقة تدل على خيبة الأمل التي شاعت في إمبراطورية إمبيريوم (قيلت عن موديب الذي شاهد مرة فرخ صقر في الصحراء وهو يفقس من البيضة ليدوس عليه بالخطأ أحد أبناء شعب فيديكين، فهمس: «غريغ ليتمان!»).

يؤكد مؤرخو البيني جيسيرت على أن هذه العبارة تشير بالأصل إلى اسم أستاذ جامعي مختص بالفلسفة لدى جامعة إلنوي الجنوبية، بإدواردزفيل. ويعتقدون أنه حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كارولينا الشمالية بتشابيل هيل، بالرغم من أنهم يعترفون أنها قد تكون شهادة في النزال بالسكين. لقد وضع كالاداني مصطلح: «فلاسفة الأرض القديمة» والتي تقول: «آه، لقد عشق غريغ ليتمان كل أنواع الفلسفة خاصة الميتافيزيقيا وفلسفة المنطق، وفلسفة العقل والأخلاق! اعزف الباليسيت لأجل ذلك! لقد قام بتدريس الميتافيزيقيا وفلسفة العقل وأخلاق الإعلام والتفكير النقدي! لنحتسِ الخمر جميعًا الآن!».

إن طائفة التباعد تعرف في سرها أن غريغ ليتمان نشر مؤلفات في مجال فلسفة المنطق وكتب فصولًا في الفلسفة والثقافة الشعبية في أعمال: رواية الطبيب من فلسفيًا، رواية الكثيب فلسفيًا، رواية البصلة فلسفيًا، ورواية الخيال الأخير فلسفيًا، ورواية المدمر فلسفيًا. إلا أن تلك الطائفة لم تجد أن هنالك أي حاجة لإبلاغ الإمبراطور بذلك.

كريستيان لوند

لم يتأكد كريستيان بعدُ من صفته، وهذه من الأمور الكثيرة التي يلقي باللوم على شهادته في الفلسفة بالنسبة لها؛ إذ إنه يتّهم فرانك هيربرت أنه هو من دفعه للحصول على إجازة في الفلسفة.

وبما أنه حلم أن يصبح مينتاتًا منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره، فإنه لا يزال يغضب كلما هزمه حاسوبه الآلي عند قائمة ابدأ بعد مرور ستة عشر عامًا على ذلك، وهو يرى أن ثقافته العمومية أغنى من غيرها؛ ولهذا يحاول أن يقوم بذلك الشيء البشري وهو الخروج بأفكار جديدة، والمساعدة في استخدام تقنية الحاسوب في مجال توجيه جيل الشباب الضعيف وتقديم المشورة له.

وبدلًا من شن حرب إبادة، يرغب هذا الرجل في معرفة المزيد عن أصدقائنا السيلكونيين الجدد. ونتيجة لذلك، كتب أطروحته حول «تملُّك المعرفة» وذلك ليبحث في كل «المسائل» الإلكترونية الجديدة التي يعتقد الناس أن بوسعهم امتلاكها والتحكم فيها وتحويلها إلى سلعة. وبتعلمه أمور التقانة والحاسوب، تبنى أول قانون للمينتات وهو: «لا يمكن فهم عملية عبر إيقافها؛ وذلك لأن عملية الفهم يجب أن تتحرك مع تدفق العملية، كما ينبغي أن تنضم إليها وأن تسري معها». لكنه يشكك في أن تكون الإجابة هي أننا نفكر مع الآلات بدلًا من أن

وثيقة الهلاك أو الشرف - صفحة 220 /224

نسمح لها بالتفكير من أجلنا.

ثمة رضٌ آخر تسببت فيه الفلسفة له، وهو أنه لا يزال يعشق الحقيقة بلا أمل، ولذلك يناشدنا إن رأيناها أن نطلب منها إعادة نداءاته إليه.

لويس ميلانسون

أمضى لويس بعض الوقت في الصحاري، لكنه لم يرَ خالقًا، فهو ضابط في الجيش الأميركي يتمتع بخبرة كبيرة في مجال الأسلحة القتالية والخبرات الاستخباراتية على المستوى التكتيكي والعملياتي والاستراتيجي، وقد حصل على ميدالية النجمة البرونزية كما حصل على شهادة الماجستير من كلية الاستخبارات العسكرية المشتركة وكلية كينغز بلندن، وساهم في كل من نجم المعركة غالاكتيكا والفلسفة: تم إنجاز المهمة أم أن المهمة أصبحت ملعونة؟ والرسوم المتحركة والفلسفة: أعجوبة تدهش الناظر.

نيكلاس مولر

نيكلاس فيلسوف يعمل حاليًا طالب دراسات عليا لدى جامعة كامبريدج بالمملكة المتحدة، ويشتغل بمواضيع متعددة في مجال نظرية الأخلاق، وقد ركزت أطروحة الدكتوراه لديه على الجوانب المعيارية للخطر والسلامة.

ومن بين النصائح الكثيرة التي أسداها له ابن عمه الذي يكبره سنًا، نذكر أن كارل باركس هو الفنان الحقيقي الوحيد لدونالد داك، وكل من يظن غير ذلك مخطئ تمامًا. وكانت رواية الكثيب من بين الكتب التي أوصى بقراءتها إلى جانب كتب أخرى تخلق لدى المرء إحساسًا لا يمكن مقاومته. فمهما مرَّ من السنين، ما تزال رؤية هيربرت العظيمة تستحوذ على نيكلاس، وأحد أسباب ذلك باعتقاده يعود إلى الجانب السوداوي المظلم الشديد الموجود في ملحمة الكثيب، تلك الخصلة التي تثير حالة مقاومة وتجذبه إليها في الوقت ذاته، كونها تُذكّره كثيرًا بكافكا؛ إذ بوسعه أن يسمع صوت هيربرت تتردد أصداؤه في جواب كافكا على السؤال: هل لا يوجد أمل حقًا، وذلك عندما رد بالقول: «آه، أجل، هنالك أمل، والكثير من الأمل، ولا نهاية للأمل، ولكنه فقط ليس لنا».

نشر نيكلاس مقالات في مجلات عالمية مثل مجلة الفلسفة التطبيقية والمجلة الدولية لتقييم وإدارة المخاطر وكذلك في مختارات عالمية وسويدية.

جيفري نيكولاس

يمارس جيفري مهنة التدريس كأستاذ مساعد لدى معهد ماونت إنجل، حيث يُدرِّس العديد

من المناهج في مجال الفلسفة والفكر الاجتماعي الكاثوليكي.

كان يعرف أن رغبته في التحول إلى مينتات تعني دراسة الفلسفة والمنطق لساعات طويلة، بالإضافة إلى إمضاء ساعات في قراءة رواية الكثيب وتكرارها، وهذا حتمًا ما دفعه لأن يرغب في الكتابة؛ أي كتابة أمور أغرب من الحياة. أما منشوراته الاحترافية فتشمل: «القربان المقدس ومحاربة التنين» في فلسفة الإدارة، كما كتب روايتين أخفاهما داخل درج بعيدًا عن عيون المتطفلين، ويعكف حاليًا على كتابة رواية ثالثة حول لاهوت مصاصي الدماء.

شغل منصب أمين السر التنفيذي لدى الجمعية الدولية لبحث ماك إنتاير التي شارك في تأسيسها.

بروك و.ر. بيرسون

بروك فيلسوف متعدد الاختصاصات يعيش ويُدرِّس في فانكوفر، حيث يقوم بممارسة مهنة التدريس في قسم العلوم الإنسانية بجامعة سيمون فريزر.

وقد قدم مناهج ودورات تراوحت بين الأدب والتاريخ والدراسات الدينية وعلم الجمال وعلم النفس والفلسفة، بيد أن مناهجه ودوراته اليوم باتت غريبة بعض الشيء عمّا هو مألوف. ففي الدورة التي أقامها حول مدينة البندقية حاول أن يثبت عدم وجود مدينة البندقية في الحقيقة. أما الدروس التي أعطاها حول الأدب الروماني فقد تركز موضوعها الرئيسي على أن: «روما فضاء إلكتروني»، وفي دروسه عن الثقافة اليونانية الكلاسيكية، رأى أن الآلة البخارية قد تكون أفضل طريقة لفهم ما يجري هناك.

ينحي بروك باللائمة على فرانك هيربرت بالنسبة للآتي: كان ياما كان، وبناء على توصية من صديق، توجه بروك نحو مكتبة صغيرة في مشرحة تقع في قاعدة خرجت عن الخدمة تابعة لسلاح الجو الكندي الذي شارك في الحرب العالمية الثانية بساسكيتشوان، فوجد نسخة مهترئة من رواية الكثيب التي ألّفها فرانك هيربرت.

وكتابًا بعد كتاب، كشفت تلك السلسلة نفسها أمامه، كما هي حال الآثار ولكن بالعكس، حيث ظهرت الطبقات الأقدم أولًا، وتم التعرف على ما يشبه ماضي كون الكثيب في مستقبله المتخيل.

وبذلك دخلت ملحمة الكثيب معه شرنقة التعليم العالي وتطورت هناك إلى جانب شهاداته في علم اللاهوت والدراسات الإنجيلية، وأخيرًا الكلاسيكيات والفلسفة. وبعد دراسته للغات والأديان والفلسفة، أدرك بروك أن هيربرت قد دفعه ليرى تلك الصلات والتطورات التي

حدثت للتاريخ والفكر وأصبحت جزءًا من نمط ناشئ لا يمكن رؤية طبقاته بشكلها الكامل.

شين رالستون

شين أستاذ مساعد في الفلسفة لدى جامعة ولاية بنسلفانيا بهازلتون، وباحث في النظرية الديمقراطية والفلسفة الأميركية بالإضافة إلى كونه مينتاتًا ملهمًا. فاز في عام 2008 بجائزة ويليام جيمس التي تقدمها الجمعية الفلسفية الأميركية لأفضل بحث في الفلسفة الأميركية. كما نشر في: صفقات مجتمع تشارلز س. بيرس، مجلة أبحاث السياسة، والتعليم والثقافة.

سيمون ريتشز

سيمون ريتشز باحث مساعد لدى معهد الطب العقلي وكلية كينغ بلندن، ويقوم بتدريس الفلسفة لدى كلية هيثرو بجامعة لندن، ويحمل شهادة دكتوراه في الفلسفة من جامعة لندن، وقد عمل قبل ذلك في مجال التدريس بقسم الفلسفة في الجامعة ذاتها. كما درس الفلسفة بجامعة ساوثامبتون وعلم النفس بجامعة إيست لندن، وهو محرر كتاب فلسفة ديفيد كرونينبيرغ وكاتب مشارك في كتاب فلسفة ديفيد لينتش.

ستيفاني سيملار

ستيفاني فيلسوفة وعملت في السابق مؤلفة لقصص الخيال العلمي حصلت على منحة حكومية من بلو ريدج بجنوب غربي فيرجينيا، وقد التقى عشقها للخيال العلمي والفلسفة في عمل فرانك هيربرت الذي اكتشف من خلال موهبته اللامتناهية وحكمته التي لا تنضب طريقة لتقديم هذين العنصرين في آنٍ معًا. قامت ستيفاني بتدريس الفلسفة لدى جامعة رادفورد وفي المعهد العسكري بفرجينيا، وفي جامعة جنوبي فيرجينيا، وهي تعمل حاليًا بالتدريس لدى جامعة فيرجينيا التقانية. إن اهتمامات ستيفاني البحثية واسعة وتركز على تاريخ الفلسفة، وقد انصب اهتمامها بصورة أساسية على الهوية الشخصية وما يتصل بها من مشكلات، وعلى الأخص ما ورد في العمل الذي قدمه أرسطو وكانط. تحمل ستيفاني شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة كاليفورنيا بسانتا باربارة، وتعيش في سالم بفيرجينيا برفقة زوجها جيم بيكر.

---

(1) جزيل الشكر لهانو بولهوف لتقديم معلومات راجعة ولتوضيحات حول هوبز في هذه المخطوطة.

(2) كل الاقتباسات الموجودة في بداية الفصول والأقسام ما هي إلا من خيال المؤلف؛ إذ لو كان بوسع فرانك هيربرت ابتداع كتب فقط من أجل متعة الاقتباس منها، فبوسعي إذن أن أفعل ذلك.

(3) كل الشكر لآنا فيرغوسون، وجيل ريتشيز، وصوفي آرتشر، وجيفري نيكولاس لتعليقاتهم حول المسودات الأولى.

(4) وردت كذلك في النص الأصلي. (المترجم)